ضَلالات الأرواحيّةِ

الشيخ عبد الواحد يحيى



تنْوِيه

تعمل ترجمات 'تراث واحد *One Tradition*' على نقل آداب الحضارات العريقة فى الشرق والغرب إلى اللسان العربى، للذين تسمح ذائقتهم بالاستمتاع بأعمال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى وجلال الدين الرومى، وغيرهما من حكماء العالم العربى والإسلامى، ويجدون سعادتهم فى قراءتها، وقد حضَّنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على طلب العلم والحكمة فقال: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"، وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم: "الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا".

وتعتبر هذه الأعمال التى نقدمها مفتاحًا لفهم الحضارات الهندوسية والطاوية والبوذية واليونانية القديمة، من حيث جوهرها الذى تجلى به الله تعالى عليها جميعًا.

ولعل ما يُضفى هذه الأهمية الكبيرة على كتب هذه المدرسة أنها تتناول بشكل أساسى موضوعات خمسة، هى علم الحقيقة أو ما وراء الطبيعة، والعقل المُلهَم، والتصوف المعرفى، والأديان مِن حولنا، ومشكلات العالم الحديث.

وهذه الأفكار والموضوعات بمركزيتها تستحق أن تخرج إلى اللسان العربى فى ترجمات شتى، لما قد يحمله ذلك من إيضاح وتفسير لها، وعونًا للقارئ على فَهم ما صَعُبَ منها.

ونأمل بترجمتنا تلك أن نكون قد نقلناها إلى مهدها القديم، وحاضنتها الأولى وهى اللغة العربية التى ألهمت أجيالًا من الأولياء والعارفين على مدار قرون عدة.

أخيرًا، ورغم ما بذلناه من جهد وعناية فى مراجعة نصوص هذه الكتب، إلا أننا نلتمس مقدَّمًا من القارئ الكريم العذرَ فى النزر مِن الخطإ الذى قد يكون تفلَّت منَّا سهوًا، فصادفه هنا أو هناك بين صفحاتها.

المحتويات

مقدمة

عندما نتناول الأرواحية لابد من توضيح غرضنا بقدر الإمكان، فقد صدرت أعمال شتى عن هذه المسألة، وقد تكاثرت حاليًا عن ذى قبل، ولا نعتقد أن كل شىء قد قيل عنها، ولا أننا سوف نكرر فى هذا الكتاب ما قيل سلفًا فى الكتب الأخرى، ولا أننا سوف نعالجها بالكمال والتمام، فسوف يلزم حينئذاك تكرار ما يمكن تحصيله بسهولة من الكتب الأسبق، ويستحيل الكتاب إلى مرجع ضخم بلا طائل، لكننا نُفَضِّل الاقتصار على لفت الانتباه إلى الجوانب التى لم تُعالَج بما يكفى من التدقيق، ولذا سوف نبدأ بفض الفوضى التى أدت إلى تفشِّى سوء الفهم الذى اكتنف هذا النوع من الأفكار، ثم نعالج نقاط الخطل بتفصيل أوسع، والذى هو أساس المذهب الأرواحى بمدى ما يمكن تسميته مذهبا.

وسيكون من الصعب اعتبار هذه المسألة من المنظور التاريخى فضلًا عن عدم نفعه، وربما أمكن بالطبع دراسة تاريخ أية طائفة معروفة وانتمائها إلى منظمة متماسكة من داخلها بالحد الأدنى، ولكن ذلك ليس حال الأرواحية، فقد تفاصلت منذ بدايتها إلى جماعات فى مدارس مستقلة متنوعة أحيانًا ما تصبح متعادية، وحتى لو أمكن تعداد تلك المدارس وكافة فروعها فلن يكون فى هذا الملل نفع للقارئ، كما أن الذى يسمى نفسه أرواحيًا لا يلزمه الانتماء إلى أية منظمة قائمة، ويكفيه الاتفاق مع نظريات عادة ما تلتصق بممارسة الأرواحية عمومًا، كما أن كثيرًا من الناس يمارسونها سرًا أو فى جماعات قليلة العدد، وهذا عنصر يفلت من وعى المؤرخين، وفى هذا الشأن تختلف الأرواحية عن الثيوزوفية ومعظم المدارس الغيبية، ولكن ذلك سمة شاحبة الأهمية فيما تعلق بالأرواحيين، إلا أنها ناتجة عن اختلافات سوف نتناولها فيما بعد، ونعتقد أن ما قلنا حتى الآن يكفى لتفسير تناولنا المنظور التاريخى حينما نطرح اعتبارات لو دعت إليها الحاجة فحسب، ودون أن تجعل منه غاية تستحق اهتمامًا مخصوصًا.

والنقطة الثانية التى لا ننوى طرحها باستفاضة هى الظواهر التى يلجأ إليها

الأرواحيون فى البرهان على نظريتهم، والتى يُنكرها غيرهم رغم تسليمهم بواقعية الظواهر، فيفسرونها على نحوٍ مختلف تمامًا، وسوف نوضح ما نراه حيالها فى حينه، كما أن ممارسى الأرواحية قد وصفوها بتفصيل يُغنينا عن العودة إلى تناولها، أما الباقين فليسوا من الأمور التى نهتم بها، ونُفَضِّلُ بهذا الصدد أن نشير إلى إمكان تفسير بعض أمورٍ لا يتوقعها الأرواحيون ولا غيرهم، ولا تنفصل نظريات الأرواحيين عن تجاربهم، ولا ننوى أن نفعل غير ذلك من ناحيتنا، وما نؤكد عليه هو أن الظواهر المقصودة ليست إلا أساسًا وهميًا لنظرياتهم، ولكن هذا لن يمنعنا من إدراك أن الأرواحية ليست إلا نظرية فحسب فسوف تصبح أهون خطرًا مما هى على حقيقتها، ولو كانت كذلك فسوف يفقد الناس اهتمامهم بها، لكننا نؤكد بإصرار على خطورة الأرواحية، وهو أشد الدوافع لضرورة كتابة هذا الكتاب.

وقد داومنا على ذكر المخاطر التى تبعت انتشارالمذاهب الأرواحية منذ نهاية القرن التاسع عشر، والتى سميناها 'الأرواحية الجديدة'، وقد نبتت فى أيامنا هذه مخاطر جديدة استوجبت التصدى لها، لكن مذاهب الأرواحية تنطوى على سمات تجعلها أشد خطرًا أو بالحرىِّ تصبح خطرًا بطرق متنوعة قد تتزيا بالفلسفة أو العلم، لكن الأرواحية بذاتها 'دين زائف'، وهو ما وصفنا به الثيوزوفية من ذى قبل، لكنه ينطبق تمامًا على الأرواحية حتى لو كانت ظواهرها تدَّعى العلم بموجب طبيعتها التجريبية، والتى نتوهم أنها مصدر مذهبها، لكن الأرواحية أساسًا لا تعدو انحرافًا عن الروح الدينية واتساقًا مع العقلية 'العلمتية' *scientistic mentality*'، والتى يُشترك فيها كثير من معاصرينا، كما أن الأرواحية الجديدة أوسعها انتشارًا، وهذا سهل الفهم من واقع أنها أشدها 'تبسيطية *simplistic*'، حتى ليمكن القول إنها أغلظها وأكثفها، فهى فى متناول كافة درجات الذكاء مهما تَدَنَّت، وترتكز الظواهر التى تعتمد عليها على سهولة تعاطيها لأىٍ من كان، ولذا كان ضحايا الأرواحية هم أكثر ضحايا الأديان الزائفة عددا، وقد تزايدوا فى الآونة الأخيرة على نطاق لم يتوقعه أحد من جرَّاء تأثير الأحداث المضطربة على عقول الناس، وعندما نتحدث عن الضحايا فليس ذلك على سبيل بلاغة الاستعارة، فكل ما ينتمى إلى هذه الطبيعة وخصوصًا الأرواحية له نتائج وخيمة فى فقدان اتزان نفوس أفواج من التعساء الذين لا يعلمون شيئًا عن هذه الأمور، ومن ثم انحرفوا عن الحياة الطبيعية إلى

تلك التُّرَّهات، وهذا خطر لابد من اعتباره نظرًا لتفشيه فى الأحوال الراهنة، كما أن من الواجب الإصرار على إنكاره، وتجتمع كل هذه الاعتبارات لدعم الوعى العام لتأمين الحقيقة ضد هذه الصورة من الخطل.

ونضيف إلى ذلك إننا لا ننوى طرح مجرد نقد سلبى للأرواحية نجد له تفسيرًا فيما تقدم من أسباب، وهو ما يدفعنا إلى طرح حقائق بعينها لدحضها، وسوف نضطر فى كثير من المناسبات إلى الاكتفاء بملحوظات مختصرة، لكننا نعتقد بإمكان طرح بصيص من المسائل التى سوف نتناولها مما يُعتبَر مجالًا للبحث لدى من يُدرك معناها، كما أننا نُنبّه القارئ إلى أن منظورنا يختلف فى كثير من الجوانب عن وجهات نظر رهطٍ من الكُتَّاب الذين تناولوا الأرواحية سواءً أكان ذلك بالمدح والتأييد أم بالقدح والذم، فنحن نعتمد فحسب على الإلهام الميتافيزيقى الصرف كما فى المذاهب الشرقية، فنحن نرى أن هذا الطريق فحسب وليس الهبوط إلى مستواهم هو الذى يؤدى إلى دحض خطلها تمامًا، ونعلم تمامًا أن طرحها فى المنظورين الفلسفى والعلمى يمكن أن يستمر بلا نهاية دون التوصل إلى أية نتائج، ويعنى التسليم لهذه التناقضات أن المرء يلعب دور نقيضه دون أن يحظى بتحويل الجدل، ولذا زادت قناعتنا بضرورة التمسك بالمبادئ المذهبية التى لا تحريف لها، فهى وحدها التى تُمكِّن من تناول أمور بعينها على نحو آمن، ومن جانب آخر لا نرغب فى إغلاق الباب على أية إمكانية ونريد فحسب معارضة ما نعلم أنه زائف، وعندنا أن هذا الطريق المذهبى لا يمكن أن يكون غير الميتافيزيقا، وبالمفهوم الذى طرحناه سلفًا فى دراسة أخرى[1]، ومن نافلة القول إن كتابًا مثل هذا ليس ميتافيزيقيًا بأكمله، ولكننا لا نتردد فى توكيد كونه إلهامٌ ميتافيزيقىٌ حقيقى، ويحتوى على حقائق ميتافيزيقية أكثر مما عرفه الفلاسفة بهذه الصفة، ولا ينبغى لأحد أن ينزع من هذا التوكيد، فالميتافيزيقا الحقة التى نقصدها لا شأن لها بدقائق الفلسفة ولا الفوضى التى تنشرها، كما أن العمل الحالى يخلو من تعقيد الطرح المذهبى الصِرف، ونعنى بذلك أننا قد استرشدنا بالمبادئ القويمة لمن يفقه أنها مؤكدة مطلقًا، وبدونها سنضلُّ فى متاهة من 'العالم السفلى' المظلم، والذى ارتاده كثير من المغامرين ليصبحوا مثلًا مؤسفًا رغم

---

[1] راجع كتاب الشيخ 'مُدخل عام إلى فهم المذاهب التراثية'. ترجمات تراث واحد قيد النشر.

ادعائهم العلم أو الفلسفة.

ولا يعنى ذلك أننا نحتقر جهود الذين تبنوا منظورًا يخالف منظورنا، بل على العكس، فنحن نرى أنها مشروعة وصحيحة فى نطاق محدود، ولكنها لا تنطبق على الكثير مما يخرج عن نطاقها، لكن هناك تمايزات لابد من تحديدها وبِنًى لابد من مراعاتها، فلكى تستقيم وجهة نظرٍ لابد أن تلتزم بالنطاق الذى جُعِلَت له وبالوعى بما يخرج عنه حيث لا تصلُح لتقييمه، وهو أمر غالبًا ما يغيب عن 'الأخصائيين' فى العلوم التجريبية، ومن ناحية أخرى فالذين يتَّبعون منظورًا دينيًا لهم أفضلية لا تُقَدَّر فى الرشد المذهبى الذى ذكرناه سلفًا ويكفى لإجابة معظم الأسئلة وعدم الضلال فى متاهاتها، ولكنها لن تكفِ للرد على كل الأسئلة، وأيًا كان الأمر حيال الأحداث الراهنة فنحن راضون بأن المرء ليس بمقدوره عمل الكثير بالاعتراض على أنشطة ضارة بعينها، وأن كل ما يمكن إنجازه فى هذا الاتجاه سوف يكون مفيدًا شرط إحسان الوعى به، وربما كان أكثر تلاؤمًا من غيره فى التعامل مع هذه النقطة المحددة، وأخيرًا نقول مكررًا بتعبير سوف يفهمه البعض إنه لن يتوفَّر ما يكفى من النور لتفنيد كل فيوضات 'الكوكب السفلى المظلم'.

الجزء الأول

تمايزات وتدقيق ضروري

1 تعريف الأرواحية

حيث إننا التزمنا فى المقدمة بتمييز الأرواحية عن عدة أمور تختلط بها رغم اختلافها، فلابد من البدء بطرح تعريف دقيق لها، وللوهلة الأولى نستطيع قول "إن الأرواحية تقوم على التسليم بإمكان التواصل مع أرواح الموتى"، وهذا فحسب ما يُشكِّلها بصحيح القول، وهذا هو ما تقبل به كل المدارس الأرواحية أيًا كان اختلافها فى أمور أقل أهمية يعتبرونها ثانوية بعد سابقتها، لكن ذلك لا يكفى، فالمسلَّمات الأصولية للأرواحية تقضى بأن التواصل مع الموتى ليس ممكنًا فحسب بل هو أمر واقع *fact*، وليس أرواحيًا من لم يُسلِّم بذلك، ولو سلَّم المرء بذلك لكفَّ عن محاولة دحض مذهب الأرواحية، وهو أمر شديد الوقع بذاته، فسوف نبرهن فيما بعد على أن التواصلٍ مع الموتى كما يفهمه الأرواحيين استحالة محض، وهكذا فقط يمكن أن نقطع دابرهم تمامًا مع دعاواهم، وما وقع خارج ذلك الإطار لن يكون فى أفضل الأحوال إلا حلًا وسطًا غريب الشأن، وعندما يبدأ المرء فى التنازل والاحتمال فمن الصعب أن يعلم أين ينتهى، ولدينا براهين على ذلك بما جرى لبعضهم، ف الثيوزوفيون و الغيبيون خصوصًا هم الذين سيحتجون بحمِيّة لو أن للأرواحيين حضور، ولكن الفريقين قد سلَّما لأسباب مخصوصة بأن التواصل مع الموتى أمر محتمل فى ظروف استثنائية، والتسليم بهذا الأمر أصوليًا بمثابة التسليم بفرضيات الأرواحية، ولكن الأرواحيون من ناحيتهم ليسوا راضون بذلك، ويدفعون بأن هذا التواصل قائم فى كل جلساتها قاطبة، وليس مجرد واحد من كل مئة ولا من كل ألف، فعند الأرواحيون أنه يكفى المرء أن يكيِّف ذاته بحال بعينها حتى يقوم التواصل، "ولا ينظرون إليها كأمر فائق بل كأمرٍ طبيعى وعمومى"، وهذه تفصيلة أخرى فى التعريف اللازم للأرواحية.

لكن هناك أمرٌ آخر، فقد تحدثنا حتى الآن عن التواصل بالموتى على نحو ضبابى، ولابد أن نوضح أن "هذا التواصل عند الأرواحيين يتم بوسائل مادية"، وهو عنصر جوهرى تتميز به الأرواحية عن غيرها من المفاهيم التى تعتمد فحسب التواصل الذهنى أو

الحدسى أو الإلهامى، ولاشك أن الأرواحيون يؤمنون بذلك أيضا، ولكنهم لا يضفون عليه أهمية تُذكر، وسوف نطرح هذه المسألة التى لا ننكرها فيما بعد بتفصيل أوسع ولكن يمكننا قول إن لها مصدر آخر، ولكن هذا المفهوم أقل كثافة من المفهوم السائد بين الأرواحيين، والاعتراض عليه قائم من جوانب مختلفة بعض الشيء، ولكن ما نعتبره أرواحياً هو فكرة أن التواصل مع الأرواح يعمل بالمادة حتى إنه ينتج ظواهراً على منوال تحريك الأشياء والخبط وبعض أنواع من الضوضاء، ونلفت النظر هنا إلى أبسط الأمثلة وأوسعها شيوعًا، كما أنها من أخص السمات الأرواحية، وزد على ذلك أن العمل بالمادة يتم على نحو سرى بوساطة إنسان حىٍّ يحتكم على ملكة الوساطة ويسمى ’وسيطًا *medium*‘، وهو أمر يستعصى على تعريف تلك المَلَكَة، وقد اختلفت حولها الآراء، ويبدو أنهم عادة ما يشيرون إليها كأمر عضوى بطبيعته، وربما كان عضويًا نفسيًا، كما نلاحظ أن وجود هذا الوسيط لا يمنع المصاعب، ولا تبدو لأول وهلة أسهل لتعمل ’الروح‘ من فورها على منظومة عضوية أكثر مما تعمل على جماد من أى نوع كان، ولكن تتدخل عند هذه النقطة اعتبارات أشد تعقيدا.

و’الأرواح‘ بغض النظر عن اسمها لا تُعَدُّ عندهم كائنات لامادية محض، فيقولون إنها مغلفة بوشاح أرق مما تدركه الحواس، لكنها منظومات مادية، وقد أطلقوا عليه اسمًا همجيًا هو ’ بيريسبيريت *perispirit*‘، ولو كان الحال كذلك لتسائلنا لماذا لا تسمح تلك المنظومة للأرواح بالتعامل مع مادة من أى نوع كان مباشرة؟ ولماذا كان الوسيط ضروريًا؟ وهو ما ينبنو عن المنطق، فلو كان البيريسبيريت هذا عاجزًا عن القيام بذاته فى العمل على المادة المحسوسة فلابد أن الأمر كذلك أيضًا فى العناصر المناظرة له، والتى ينطوى عليها الوسيط الحىّ، وفى هذا الحال لن يصلح لإنتاج الظواهر المذكورة، ونلاحظ فحسب أن الأرواحيين عليهم تفسير المصاعب لو استطاعوا، وليس هناك نفع للاستطراد فى هذه المسألة حاليًا مما تبين فى منظور الأرواحيين عن بنية الكائن الإنسانى، ونقول ذلك حتى نتجنب الغموض فيما نرفض فى مفاهيمهم.

ويرى الغربيون المحدثون الإنسان بصورة شديدة التبسيط وفاضحة الاختزال تتكون من عنصرين فحسب أحدهما الجسد، أما الآخر فيسمونه النفس أو العقل بلا تمييز، وقد قلنا ’الغربيون المحدثون‘ من واقع أن المنظور الثنوى قد تجذر منذ ديكارت، ولن نتمكن

حتى من طرح تاريخه بإيجاز فى سياقنا الحالى، لكننا نقول إن ما قبل زمن ديكارت وأفكاره الشائعة لم تكن فكرة الجسد والنفس تنطوى على تضاد كامل مع الطبيعة بما يستعصى على التفسير، كما أن الغرب لديه مفاهيمًا أقل 'تبسيطا' وأقرب إلى مفاهيم الشرقيين، والذين ينظرون إلى الإنسان ككلية على نحو بالغ التعقيد، وفى ذلك الحين لم يحلم أحد بدرجة التبسيط التى تروج لها النظريات المادية الصرف، والتى اختزلت الإنسان إلى عنصر واحد هو الجسد، وقد كان من بين المفاهيم التى تناولناها فى سياق آخر كان يمكن للمرء أن يرى دون حاجة إلى التاريخ القديم من يؤمن بأن الإنسان ثلاثة عناصر بعد أن ميزوا النفس عن الروح، ويتسم العنصر الثالث بنوع من السيولة بين العنصرين الأخيرين، لكن النفس عادة ما تحتل الوسط، وتناظر جزئيًا ما يسميه المحدثون 'المبدأ الحيوى *vital principle*' فى حين كانت الروح هى الكائن الحق الدائم الخالد، وقد أراد معظم الغيبيين تجديد مفهوم هذا التقسيم الثلاثى بحشر مصطلحاتهم المخصوصة، ولكنهم لم يفقهوا المعنى الحقيقى فأفرغوه من أى معنى بطرقهم الخيالية التى مثلوا فيها عناصر الكيان الإنسانى، وهكذا جعلوا من العنصر الوسيط جسدا، وجعلوا من الروح جسدًا نجميًا *astral body* يشاكل سمات بيريسبيريت عند الأرواحيين، وكل هذه النظريات لا تعدو الاقتراب من فرقة المفاهيم الحيوية *vitalistic conceptions*، وربما كانت أصولها لديهم، فقد اختزلوا العنصر الوسيط إلى المبدأ الحيوى فحسب، والذى يسلمون بوجوده من أجل تبريرهم لكيفية تحريك الروح للجسد، وهى مشكلة تعجز الفرضيات الديكارتية عن حلها، فمذهب الحيوية يصوغ سؤالًا على منوال ركيك، ولا يربو إجمالًا عن النظرية الفسيولوجية، وبما يعنى خصوصية منظورهم الذى لن يحتمل أقل اعتراض، فإما سلمنا مع ديكارت أن طبيعتا الجسد والنفس ليس بينهما صلة من أى نوع، وعلى العكس مما فعل القدماء فى مفهوم التماهى الطبيعى بين النفس والجسد، وفى هذه الحالة يصبح العنصر الوسيط بلا نفع، ففكرة التماهى كافية لتفسير كيفية عمل أحدهما على الآخر، وينطبق هذا الاعتراض على النظرية الحيوية وكذلك على منظور 'الأرواحيون الجدد' والمفاهيم التى نشئوا عليها من تبنى مذهب الحيوية ثم عدَّلوها لتناسب منظورهم، لكن هذا الاعتراض بالطبع لا أثر له على مفاهيم ترى الأمور فى علاقات غريبة تمامًا وتخرج عن نطاق الثنوية الديكارتية، وبالتالى لا تستقيم معها، ولا ترى

الإنسان بل تطرح عليه حلولًا لمشاكل مصطنعة ككائن مركب، ولكى يخضع بانضباط تام لواقعهم، وترى نظريات متنوعة فى الكائن الإنسانى عددًا من التصنيفات الرئيسية والفرعية بحسب منظورها ودون أن تصبح تلك المفاهيم غير قابلة للتصالح، والأمر الجوهرى هو ألا يفصل المرء الكائن الإنسانى إلى نصفين لا علاقة بينهما، وألا يحاول توحيدهما بمصطلح ثالث لاتُدرَك طبيعته فى هذه الأحوال.

ويمكننا الآن العودة إلى مفهوم الأرواحية الذى يميز فى الإنسان ثلاثيًا من الروح والبيريسبيريت والجسد، ويجوز القول بمعنى ما إن هذا المفهوم يبدو أسمى من مفاهيم الفلاسفة المحدثين من حيث إقراره بعنصر إضافى، لكن هذا السمو ظاهرى فحسب نظرًا لأن الطريقة التى أدركوا بها ذلك العنصر الثالث لا تتفق مع الواقع، وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد، لكن هناك سمة أخرى نوَدُّ أن نلفت النظر إليها رغم أننا لن نطرحها باستفاضة حاليا، فلو كانت النظرية الأرواحية زائفة تمامًا فيما تعلق ببنية الكائن الإنسانى الحيّ فسوف تكون زائفة بالقدر نفسه فيما بعد موته، وهنا نمسُّ عقدة المسألة التى ننوى معالجتها فيما بعد، ولكن نقول هنا بعض كلمات عن الخطل الكامن فيها، وخاصة فى منظور الأرواحية الذى ينصُّ على أن الموت لا يغير شيئًا من الإنسان إلا اختفاء الجسد، أو بالحريّ انفصاله عن العنصرين الآخرين، واللذان يظلا متلازمان كما كانا إبَّان حياة الجسد، ومن المفهوم أن هذه الفكرة ضرورية حال التسليم بإمكان التواصل بين الأحياء والموتى، وكذلك كون البيريسبيريت عنصرًا ماديًا تصبح لازمة لحدوث ذلك التواصل بطرق مادية، وهناك سياق منطقى بين نقاط النظرية المختلفة، ولكن ليس من السهل فهم السبب الذى جعل حضور الوسيط شرطًا لازمًا لإنتاج الظواهر، ونكرر أننا لا نرى سببًا يجعل 'الروح' عاجزة عن الفعل بذاتها، وإلا كان الموت يعدِّل من طبيعة البيريسبيريت على نحو يمنع فيه إمكانات بعينها من الفعل، وفى هذه الحالة يصبح التواصل عُرضة للتآمر، وأيًا كان الأمر فإن الأرواحيين يُصرون على دور الوسيط ويعزون إليه أهمية بالغة، حتى ليمكن القول بلا مبالغة إن ذلك أحد النقاط الجوهرية فى مذهبهم.

ونحن لا نلاحى واقع ما يسمى 'مَلَكَة الوساطة' عندهم، وينصبُّ نقدنا فحسب على تفسير الأرواحيون لها، كما أن التجريبيين الذين لا ينتمون إلى الأرواحية لا يعانون

صعوبة فى استخدام مصطلح ‘الوسيطية *mediumism*’ لمجرد جعل كلامهم مفهومًا لسامعه والاتساق مع الممارسة المشهودة حتى لو فقد المصطلح سبب وجوده الأصلى، وهكذا نقوم بالأمر نفسه، فحينما نقول إننا لا نفهم الدور الذى يقوم به الوسيط فإن ذلك من منظور الأرواحيين باستثناء حالات خاصة، فلا شك فى أن ‘الروح’ لو شاءت عمل أمر أو آخر أو أرادت أن تتحدث مثلًا فلن تتمكن من ذلك إلا إذا تلبَّست بجسد إنسانٍ حىٍّ، ولكن ذلك ليس مثلما يُعير الوسيط للروح بعض القوى غامضة التعريف أطلقوا عليها أسماء النيورية *neuric* والأوديكية *odic* والإكتونية *ectenic*، وكثير غيرها، ولنتجاوز عن اعتراضاتنا السابقة لابد من التسليم بأن تلك القوى ليست شطرًا جوهريًا من بيريسبيريت، وتعيش فى الكائنات الحية فحسب، وأنها ذات طبيعة نفسانية، ونحن لا ننكر ذلك لكن بيريسبيريت لو كان له وجود لابد له من استخدام تلك القوى فى العمل على المادة المحسوسة، ونسأل مرة أخرى عن أى نفع لهذا البيريسبيريت ناهيك عن أن تلك الوساطة الجديدة لا تسهم فى تبسيط المسألة، وأخيرًا يبدو أن المرء يتعين عليه أن يميز بين بيريسبيريت وبين الطاقة النيورية، أو يُنكِر الأولى ويسلم بالثانية، أو لأن ينكر أى تفسير مفهوم، زد على ذلك أن الطاقة النيورية كافية لتفسير كل شىء، وهو ما يستقيم على نحو أفضل مع النظرية الوسائطية، ويبدو وجود بيريسبيريت فرضية اعتباطية تماما، ولكن لن يقبل أى أرواحيٍ بهذا الاستنتاج، وليس من جرَّاء الاحتياج إلى اعتبارات أخرى تحول كل شىء إلى تداخلات مبهمة عن الموتى فى الظاهرة التى يسهل تفسيرها عن خصائص الكائن الحىِّ، أما عن البقية كما يقول الأرواحيون فإن خصائصها طبيعية، وتوجد فى كل كيانٍ إنسانيٍ على صورة كامنة، وأما ما ندر فهو أن يحقق درجة كافية لإنتاج الظواهر المنظورة، والوسطاء بمعنى الكلمة يجدون أنفسهم فى هذا الموقف، وسواءً أكانت ملكاتهم قد تطورت تلقائيًا أم بتعليم خاص، ولكن هذه الندرة نسبية فحسب.

ولدينا نقطة أخيرة واحدة نود أن نؤكد عليها، فإن تعبير "التواصل مع الموتى" أشد غموضًا مما يعتقد معظم الناس بدءً من الأرواحيين أنفسهم، ولو كان المرء يتواصل مع شىء ما فماذا يترتب على ذلك؟ والإجابة بسيطة عند الأرواحيين، فسيقولون إن ما يتواصل معه المرء هو ما يسمى خطئًا ’أرواح *spirits*‘، ونقول ’خطئًا‘ لأن المفروض أن

هناك بيريسبيريت، وهذه ’الروح‘ مماثلة لشخص الإنسان الذى كان يعيش بها على الأرض سلفًا، إلا أنها قد انسلخت عن جسدها المنظور، لكنها تبقى كما كانت أثناء حياته الأرضية، وعلى ذلك فإن الشخص الواقعى هو الذى يتجلى فى ظواهر الأرواحية، وسوف ندهِش الأرواحيين وعددًا من مناهضيهم عندما نقول إننا لسنا راضون ببساطة هذه الإجابة، والذين فهموا ما طرحناه عن تركيب الكائن الإنسانى وتعقيده سيفهمون العلاقة بين الإجابتين، فدعوى التواصل مع الموتى بالمعنى المطروح أمر حديث للغاية، وهو أحد العناصر التى تضفى على الأرواحية سمتها الحداثية، ولو أن أحدًا من القدماء قال بالتواصل مع الموتى لكان ذلك مفهومًا بمعنى مختلف تماما، ونعلم جيدًا أن ذلك سيبدو غريبًا لمعظم معاصرينا، لكنه رغم ذلك واقعى، وسوف نطرح نفسيرنا فيما بعد، ولكن قبل أن نبدأ لابد من أن يبقى تعريف الأرواحية ضبابيًا ناقصًا حتى لو كان ذلك أمر لا يكاد يبين، وكذلك لأن الجهل بالمسألة يسمح للأرواحية بأن نتوشح بشىء آخر غير ما اخترعوا حديثًا من مذاهب.

2 أصول الأرواحية

ترجع الأرواحية إلى عام *1848* على وجه التحديد، ومن المهم تذكر هذا التاريخ نظراً لأن كثيراً من السمات فى نظرياتهم تعكس العقلية التى سادت فى تلك الآونة حيث نشأت وامتاحوا منها أصولهم، وقد كانت فترة قلقة رافقها خللٌ فى الاتزان العقلى، وكانت مُستنبتاً لأمور من هذا النوع، فالأحوال التى أحاطت بالأرواحية فى بدايتها أمر معلوم للكافة، وقد تكرر ذكره، ولذا تكتفى بإيجازها عموماً وتوكيد بعض النقاط المفيدة لغرضنا، والتى ربما كانت أقل شيوعاً.

ونعلم أن أصول حركة الأرواحية والحركات المشاكلة راجعة إلى الولايات المتحدة، وقد جرت أول ظواهرها فى ديسمبر عام *1847* فى هايدزفيل بولاية نيويورك ومقر عائلة فوكس *Fox*، وهى من أصول ألمانية باسم فوسّ *Voss*، ونذكر الأصل الألمانى حتى ينتبه من يبتغى اكتشاف الأسباب الحقيقية لقيام الحركة الأرواحية إلى أهمية الجانب الألمانى الذى نفسره باختصار فيما يلى، ويبدو أن عائلة فوكس قد قامت بدور قسرى، وأن كثيراً من أعضائها تحولوا إلى أدوات سلبية لقوة ما كما هو حال كل الوسطاء، وأياً كان الأمر فإن مسألة الظواهر تتضمن إصدار أنواع من الدق والضوضاء وتحريك الأشياء، والتى لم تكن حينها جديدة ولا غريبة، وقد وجدت منذ زمان سحيق فيما عُرِف بظاهرة ’ البيوت المسكونة *haunted houses*‘، لكن الجديد فيها كان استخدام هذه الظواهر، فبعد عدة شهور رأى بعضهم أن يسأل القارع الغامض أسئلة ، وقد كانت فى أول الأمر أسئلة حسابية أجاب عليها إجابة صحيحة بسلاسل من الدقات، وقد كان إسحاق بوست من طائفة الكويكر أول من سمى الحروف الهجائية ’للروح‘، ودعاها إلى تكوين كلمة ترغب فى قولها لهم بما أسماه ’تلغراف أرواحى‘، وهكذا أعلنت أن اسمها *Charles B. Rosna* الذى كان فى حياته تاجراً جوالًا وقُتِل فى منزل عائلة فوكس ودُفِن فى غرفة الخزين تحت مستوى الأرض، والواقع أنهم وجدوا فيها بقايا هيكل بشرى، وقد جرت تلك الجِلسة خصّيصًا فى حضور الشقيقتان فوكس اللتان كانتا موهوبتان بالقوى ذاتها

صوابًا أم خطئًا، وبدأت 'الأرواحية الحديثة *modern spiritualism*' منذ ذلك الحين، ولكنها اختُزِلت فى البلاد الأنجلوساكسونية إلى 'الأرواحية *spiritualism*' فحسب، أما عن كلمة *spiritism* فقد نُحِتت فى فرنسا فى وقت لاحق.

وقد توالى ظهور 'حلقات أرواحية' ظهر فيها وسطاءٌ جُددٍ بأعداد غفيرة، ولو صدَّقنا ما أشيع عن الرسائل المتبادَلة فإن الحركة الأرواحية كانت تبتغيا تأسيس تواصل منتظم بين سكان العالَمين، والتى أعدتها بعض الأرواح إبان حياتها الأرضية بوسائل فلسفية وعلمية، وقد اشتغلت بأبحاث فى الكهرباء وبعض السوائل غير المعلومة، وقيل إن بنيامين فرانكلين هو رئيس جماعة تلك الأرواح، وأنه كان يُصدر لهم تعليمات عن طرق التواصل وتحسينها بين الموتى والأحياء، والواقع أن العبقرية لعبت دورًا منذ البداية فى انكبابها على البحث بعون 'الأرواح' فى تحويل الدقات على المائدة إلى أرقام، ثم العقارب الهجائية التى تشير إلى الحروف، ثم قلم الرصاص المربوط فى سلة أو لوح متحرك وما يشاكلها من الأدوات، وقد كان استخدام اسم بنيامين فرانكلين طبيعيًا فى المناخ الأميريكى إلا أنه صار من السمات السائدة عمومًا للأرواحية، لكنه يقينًا لا علاقة له بهذه الحركة، لكن نُشطائها لم يكن بوسعهم أفضل من أن يضعوا أنفسهم فى رعاية هذه الشخصية الأخلاقية بسذاجة تنبو عن التصديق، ولنذكر فى هذا السياق أن الأرواحيين قد احتكموا على عناصر من القرن الثامن عشر، ومن حقبة سيطرت عليها تملُّكات *opsessions* فكرة 'سوائل' الأرواحيين وفرضيات 'الحقول الكهربية' المهجورة منذ زمن، إضافة إلى أفكار من هذا القبيل، وتشاكل مذهب المسميرية ***mesmerism*** الذى يمكن اعتباره سلفًا للأرواحية، والذى أسهم بقدر ما فى تبلورها.

وقد طردت الكنيسة الأسقفية الفقهية *the Methodist Episcopal Chursh* عائلة فوكس من رعاياها بموجب اعتقادهم أن غايتهم هى نشر الظواهر الأرواحية، ومن ثم انتقلوا إلى روشستر فى ولاية نيويورك حيث استمروا فى إنتاج ظواهرهم، وحيث كانوا يُعامَلون بعداوة الغالبية فى أول الأمر لدرجة قيام تظاهرات تدخَّل فى فضها جورج ويليتس *George Willets*، وهو أيضًا ينتمى إلى مذهب الكويكر *Quaker*، والذى قام بدور مرموق فى هذه القصة لمنع ذبحهم، وهذه هى المرة الثانية التى يلعب فيها أحد أعضاء هذه الطائفة دورًا فى القصة، وهو راجع على وجه اليقين إلى تماهيات بعينها مع

الأرواحية، ولا نشير إلى ميولهم الإنسانياتية *hunanitarian* فحسب بل كذلك بموجب 'الإلهام' الذى يتجلى فى لقاءاتهم التى تدعو بالتطبيب *quacking*، والذى جاء اسمهم منها، وهنا نجد أمرًا يُشبه ظاهرة الوساطة فى الأرواحية رغم اختلاف تفسيرهما، وعلى كل يمكن تصور أن وجود طائفة الكويكر أسهم فى قبول التجليات الأرواحية[1]، وربما كان القرن الثامن عشر ينطوى كذلك على علاقات مشاكلة مع الجانسينية *Janenist convultionaries* و المغناطيسية الحيوانية *animal magnetism*[2].

وقد رجعنا إلى كاتبة أميريكية فى موضوع أساسيات الإجراءات، والغريب أن هذه الكاتبة التى نصَّبت نفسها مؤرخة للأرواحية الحديثة[3] هى ذاتها بريتين *Emma Harding Britten* عضو محفل ' الأخوَّة الهرمسية بالأقصر *HB of L*'[4]، والتى تناولنا سيرتها سلفًا فى الحديث عن أصول الجمعية الثيوزوفية، ونقول إن هذه الواقعة 'غريبة' بموجب أن المحفل المذكور كان مناهضًا للأرواحية إلا أنه عمل مباشرة على تأسيسها، والواقع أن المعلومات عن هذا المحفل توحى بأن أول ظاهرة أرواحية لم تكن بفعل الأرواح لكن بنفوذ إيحاء أشخاص أحياء من عن بُعد، والتى يعرفها كثير من المعمَّدين، وقد كان هؤلاء المعمّدون هم أعضاء 'الدائرة الداخلية' فى الأخوّة الهرمسية، وللأسف أن تاريخ هذه المنظمة لن يمكن أن يسبق عام *1870*، أى السنة التى نشرت فيها بريتين كتابها المذكور، كما أن بعضهم صدَّق أنها ترجع إلى ماضٍ سحيق لم يتعد فى الواقع تاريخ النشر، وحتى لو كان ذلك حقًا لأشار إلى أن المحفلِ المذكور حديث العهد، وعلى كلٍ فقد زوَّدت كثيرًا من المنظمات بمادة وجِدت قطعًا منذ منتصف القرن التاسع عشر مثل أخوَّة إيوليس *Brotherhood of Eulis*، والتى كانت من أتباع راندولف *Paschal Beverly Randolf* ظاهريًا على الأقل، والذى كان شخصية ملغِزة، وقد توفى عام

[1] ومن المصادفات الغريبة فى القرن السابع عشر أن مؤسس طائفة الكويكر كان اسمه جورج فوكس *George Fox*، والذى كان يشيع عنه وعن نسله قدرة على الشفاء.

[2] لتفسير *convultionaries* راجع كارديك *Allan Kardec* الذى يذكر 'المغناطيسية' و' الأرواح المبتسرة *underdeveled spirits*'، فى الترجمة الانجليزية بعنوان *The Spiritist Book*، *NewYork, Arno Press, 1870*.

[3] *Modern American Spiritualism.*

[4] *See 'The Hermetic Brotherhood of Luxor. Initiatic and Historical Documents of Practical Occultism' by Joselyn Godwin & Chrisian Chanel & John P. Deveney, New York, 1995.*

1875، [5] ولكن لا أهمية للحديث عن صورة هذه المؤسسة التى عملت على حفز الأحداث المذكورة، ولابد لنا من قول إن محفل *HB of L* بذاته وبطبيعته معقول تماما، ونحاول فيما يلى طرح أسبابنا لذلك الرأى.

وما من غضاضة فى طرح بعض الاعتبارات عن ظاهرة 'البيوت المسكونة' أو عن 'مواقع النبؤات *prophetic places*'. وليست الظواهر من هذا النوع نادرة بحال، وقد كانت معروفة منذ القِدَم فى كتاب بلينى الإبن *Pliny the younger* كما عُرفت فى العصور الوسطى و العصر الحديث، والعجيب أن نتائج الظواهر كانت متماسكة ومتجانسة، وقد تكون أقل أو أكثر تعقيدًا عما نجده الآن ولكنها تشترك فى السمات التى وجدت فى كل أينٍ وحين، كما أن الأحداث التى جرت فى هايدزفيل لن يمكن اعتبارها من أشدها ظهورًا، فذلك يعتمد على المكان الذى مات فيه أحد ميتة عنيفة، أو على أن جثمان الضحية قد بقى مخفيًا فيها، وقد أشرنا إلى توافق هذان الشرطان لأن ظواهرهما تتعلق بأن الميت لم يُدفن بطقوس معتادة تنهى احتمال عودة الروح كما قال بلينى الإبن، وقد وجدنا فى قوله أمرًا لفت انتباهنا هو أن من المهم تحديد ماذا كانت الأسماء [6] وكذلك ماذا كان القدماء يفهمون من مصطلحات ليست مترادفة بحال؟ كما أن معاصرونا لا يعلمون معناها، وقد يعين البحث فى هذا النطاق على كشف نتائج لا نتوقعها، وسوف نعود إلى هذه المسألة لاحقا، والذى ليس فى الحالة الثانية مسألة طريقة الموت ولا هى الحفاظ على عدم التمايز فى المنظمة الجديدة بل هى أعمال الإنسان الحى، وهناك أمثلة نمطية منها فى الزمن الراهن، والتى سُجِّلت كل تفاصيلها بدقَّة بالغة فى محكمة القساوسة فى سيديفيل فى مقاطعة نورماندى بين عامى *1849* و *1851* بعد أحداث هايديزفيل بفترة وجيزة، أى فى الوقت الذى لم تكن فيه معروفة نسبيًا فى فرنسا[7]، ولا مناص من أن تكون تلك الظواهر مصطبغة بالسحر، والذى لا يأبه به

---

[5] *See Paschal Beverly Randolf, A Nighteenth Century Black American Spriticism & Sex Magitians by Patrick Deveney.*

[6] وروح الميت فى الدين الرومانى وأرباب العالم السفلى، أى أرواح الأسلاف.

[7] وواقع أن دى ميرفيل *Eudes de Mirville* قد سجل أحداث سيديفيل من عام *1853* كشاهد عيان فى كتابه *Des esperit et de leur manifestation fluidique* الذى يحتوى على تقارير عن الوقائع المناظرة، وقد أتبعه بخمسة مجلدات تعالج موضوعات من النوع ذاته.

الأرواحيون فيما عدا كونه برهانًا على صحة نظرية الوساطة بمعناها الأوسع، فالساحر الذى يريد الانتقام من منزل لابد أن يتناوله بحيث يصبح له بمثابة لاوعيٍ لاإرادى، و'سند لعمل' يُمكن ممارسته عن بُعد خاصة لو كان السلبى المقصود حاضرًا، وليست هذه وساطة بالمعنى الذى يقصده الأرواحيون حيث إن 'الأعمال' التى لا يكون فيها المقصود أداة ليست من الأصل ذاته ولكنها مشاكلة له بعض الشىء، ويمكن على الأقل افتراض أن القوى من النوع ذاته تشارك فى العمل فى الحالتين، وهذا ما يدَّعيه الغيبيون المعاصرون الذين درسوا الوقائع من منظور الأرواحية، والواقع أنه منذ بداية الأرواحية كلما استجدت حالة بيت مسكون يبحثون عن وسيط، وعادة ما يجد بشىء من حسن النية روحًا واحدة أو أكثر، ولا نقول إن أحدًا قد أخطأ فى ذلك، لكن هناك أمثلة من الخرائب المهجورة مثل المنازل حيث تحدث ظواهر الأرواح فى غياب الأحياء، ولن يجوز ادعاء أن شهود العيان الذين رأوها مصادفة عن بُعد قد قاموا بدور الوسطاء، فمن غير المحتمل أن القوانين التى تحكم قوى بعينها قد تغيرت، ونؤكد مرة أخرى على عكس الأرواحيون أن وجود الوسيط ليس شرطًا جوهريًا على الدوام، وينبغى أن يكون المرء أشد حذرًا من التحيزات التى تُزيِّف المشاهدات، وسوف نضيف أن سُكنى الأرواح بلا وسيط تنطبق على الحالة الأولى، ذلك أن الساحر لن يكون لديه دافع للذهاب إلى أماكن غير مأهولة، كما قد يكون العمل بحاجة إلى ظواهر تلقائية أخرى، ففى الحالة الأولى ستكون سُكنى الأرواح حقيقية وسيرتبط إنتاج الظواهر بمكان الجريمة أو الحدث حيث تشتد قوى بعينها على نحو دائم، ومن المحتمل أن تزداد تركيزًا فى وجود أشخاص بصفات معيَّنة، وربما كان ذلك ما جرى فى هايدزفيل بفرض أن الوقائع مسجلة بدقة، ولكن ليس لدينا سبب للشك فى ذلك.

وفى هذه الحالة التى تبدو قابلة للتفسير 'شيئا' لم نُعرِّفه ويأتى من جثمان الميت، لكنه بالتأكيد ليس روحه لو كنا نعنى بالروح الشطر الأسمى من الكائن، فهل يستبعد التفسير إمكان أى تدخل بشرى؟ ولا نعتقد أن هذه هى الحال، ولا نرى لماذا لا يمكن للذين يعلمون قوانينها استخدام هذه القوى الموجودة سلفًا، وهو أسهل نسبيًا عما يقوم به السحرة، وبالطبع يجوز افتراض أن 'الرهبان' أو المعمَّدين فى المراتب الأعلى لديهم وسائل للعمل أسمى مما لدى السحرة كما أن غاياتهم مختلفة، أما عن هذه الملحوظة

الأخيرة فنرى أن هناك أنواع مختلفة من المعمَّدين رغم أننا نعالج هذه الأمور على نحو عمومى، ففى حديث بعينه قبل انعقاد مؤتمر الأرواحيين اقتبست آنى بيسانت بعض عباراتنا عن تاريخ الثيوزوفية[8] وادَّعت أن 'الرهبان' الذين أثاروا الحركة الأرواحية كان فى خدمتهم 'أروح الموتى'، وقد اقترحت محاولة استعادة صداقة الأرواحيين، واستخدمت تعبير 'أرواح الموتى' بالمعنى الأرواحى بإخلاص ظاهر.

أما نحن فلم يكن لدينا تحفظات سياسية على الإطلاق، ويمكن أن نفهم على منوال مختلف فى معنى 'الشىء' الذى ذكرناه توا، وقد بدا لنا أن ذلك متفق مع أطروحة الأخوَّة الهرمسية بالأقصر أكثر من أى شىء آخر، وليس ذلك بالطبع أهم شىء لدينا لكن هذه الملحوظة تجعلنا نفكر فى أن أعضاء هذه المنظمة أو قادتها على الأقل يعرفون بؤرة المسألة أكثر من مسز بيسانت التى لم تحظ أطروحتها برضى الأرواحيون ، ونعتقد فى ضوء ذلك أن هناك مبالغة فى استخدام لفظ 'الرهبان' بالمعنى الصحيح، لكننا نكرر اعتقادنا بأن المعمدين أيًا ما كانوا هم الذين أثاروا الظواهر فى هايدزفيل باستغلال ظروف مواتية، أو أنهم على الأقل قد صرَّحوا باتجاه بعينه للظواهر بعد أن بدأت، ونحن لا نؤكد على هذا الأمر، ونقول فحسب بعدم استحالة ما نقول برغم ما يظن البعض، ولكن لنضِف إلى ذلك فرضية أخرى تبدو أكثر بساطة، ولكنها ليست بالضرورة أكثر حقيقية، وهى أن عملاء المنظمة المقصودة سواءٌ أكانت الأخوة الهرمسية أم غيرها تسعد باستغلال ما جرى حتى تقوم الحركة 'الأرواحية'، وقد عملوا بنوع من الإيحاءات على سُكَّان هايدزفيل وزوارهم، وهذه الفرضية تمثل الحد الأدنى من التدخل، ولابد من قبول هذا الحد الأدنى، فبدونه لن يكون هناك سبب معقول لكى تكون أحداث هايدزفيل مختلفة عما يشاكلها من حيث النتائج التى أدت إلى مولد الأرواحية، ولو كانت تلك الأحداث بذاتها سببًا كافيًا لمولد الأرواحية فإنها موجودة منذ زمن مبكر، أما عن البقية فإن أملنا قليل فى الحركات التلقائية سواءٌ أتوشحت بالسياسة أم بالدين أم فى أمر غامض التعريف مثل ما نتناوله حاليًا، ودائمًا ما تلزم اندفاعة كالتى قام بها الذين أصبحوا رؤسائها، والذين غالبًا ما لا يربون عن جهلاء بمعنى

---

[8] حديث فى مقر التحالف الأرواحى فى لندن *see* , *7* إبريل *1898*. راجع كتّابنا 'الثيوزوفية، تاريخ دين زائف'، باب *12*.ترجمات تراث واحد قيد النشر.

الحركة الحقيقى من حيث الرتب والمقامات، لكن من الصعب قول ما جرى بالفعل فى حالة كهذه، ومن الواضح أن ذلك الجانب من الأحداث ليس له ذكر فى أية وثيقة مكتوبة، ولذا استنكف المؤرخون عن تناول هذه الأحداث لاعتمادهم التام على الوثائق المكتوبة، ويفضلون إنكارها ببساطة رغم أنها الأكثر جوهرية، وعندنا أن هذه الملحوظات الأخيرة لها أهمية عامة، ولكن سنترك الأمور على ما هى عليه وإلا توغلنا بعيدًا، ونعود الآن إلى ما يهمنا من أصول الأرواحية.

لقد ذكرنا أن هناك حالات مشاكلة سابقة لأحداث هايدزفيل، وقد حدث أقربها شبهًا فى ديبلزدورف فى ساكسونى عام *1762*، حيث أجابت 'الأشباح القارعة' إجابات متطابقة على الأسئلة الموجهة إليها[9]، وإن لم يلزم أمر أخر فإن الأرواحية كان يمكن أن تولد فى هذه الظروف، وخاصة أن هذا الحدث قد ترك انطباعًا جسيمًا جذب انتباه السُلطات والدارسين، كما حدث قبل ظهور الأرواحية بعدة سنوات أن نشر د. كيرنر *Dr Kerner* كتابًا عن مدام هاوف *Mme Hauffe* 'عرّافة بريفوست *Seer of Prevost*' التى تظهر فى حضورها عدة ظواهر من النوع ذاته، ويُلاحَظ أن هذه الحالة قد ظهرت كسابقتها فى ألمانيا رغم ظهور حالات مثيلة لها فى فرنسا وغيرها، وقد ذكرنا لهذا السبب الأصل الألمانى لعائلة فوكس، وبهذا الصدد يحسن إجراء مقارنة أخرى، ففى النصف الثانى من القرن الثامن عشر اهتمّت بعض 'المحافل الماسونية للمراتب العليا' بتحضير الأرواح، وقد كان تاريخ شكرويفر *Schroepfer* أشهر من عُرِف منهم وقد انتحر عام *1774*، ولم تكن هذه الحالة أرواحية بل كانت سحرية، وهما على طرفى نقيض كما سوف نفسر لاحقا، ولكن من الصحيح أيضًا لو قدر لها التعميم لأنشأت حركة كالأرواحية نتيجة الأفكار المغلوطة التى اعتورتها، ومن المؤكد أن بداية القرن التاسع عشر شهدت كثيرًا من الجمعيات السرية فى ألمانيا التى تقاربت مع الماسونيين الذين اهتموا بالسحر وتحضير الأرواح، وكذلك بالمغاطيسية *magnetism*، وقد كان محفل الأخوة الهرمسية بالأقصر وريثًا لها، وقد ورد عنها كتاب بعنوان 'أرض الأشباح *Ghost Land*'[10] لكاتب

---

[9] وقد نُشِر عن هذا الحدث مقال من وثائق معاصرة فى مجلة *Revue Spirite* عام *1858*.

[10] وقد تُرجِم هذا الكتاب ترجمة ركيكة إلى الفرنسية بعنوان '*Au Pays des Esperits*'، والعنوان ذاته متعدد الدلالة، ولا يلتزم بالمعنى الانجليزى.

مجهول، والذى نشر برعاية المحفل المذكور، ويعتقد البعض أن من عمل بريتين *Emma Harding Britten*، وليس ذلك رأينا رغم احتمال أنها قامت بتحرير الكتاب[11]، ونعتقد أن هناك مبررًا كافيًا للبحث فى هذه الجمعيات والنتائج التى توصلت إليها مما يسهم فى فض معميات بعينها، إلا أن الحركة الأرواحية قد بدأت فى أميريكا لا فى ألمانيا، وربما كان ذلك من جراء البحث عن مناخ مناسب فى هذا البلد أكثر من أى مكان آخر، وكما ثبت من التوالد السريع لمدارس 'الأرواحية الجديدة' منذ ذلك الحين ولازال مستمرًا.

ويبقى سؤال أخير، وهو "ما الذى استهدفه الذين ألهموا الأرواحية الحديثة؟" ويبدو أن اسم الحركة واضح بما يكفى، فقد كانت مسألة تتغيا مكافحة المادية التى بلغت أوُجها ذلك الحين، ولذا تعين موازنتها بثِقل مضاد، ولفت النظر إلى الظواهر التى عجزت المادية أو على الأقل المادية المعتادة عن تفسيرها على نحو مُرضى، فلا مجال لمعارضتها على أرضها، وقد يكون لذلك علاقة بالعالم الحديث فحسب، فأصول المادية ترجع إلى أصل قريب، وهى حال عقلية تضفى أهمية مقصورة على الظواهر ومراقبتها، ولو كانت الغاية كما ذكرنا سلفًا بناءً على توكيدات المحفل المذكور، وقد حان الأوان للعودة إلى ماذكرناه اختصارًا عن أن هناك أنواع متباينة من المعمَّدين *intiates*، وغالبًا ما تثور الاعتراضات بينهم، فمن بين الجمعيات السرية الألمانية بعض من ادَّعى ما أشرنا إليه من نظريات مادية محّةّ رغم أنها أعرض نطاقًا من العلوم الرسمية، وبالطبع حينما نتكلم عن المعمَّدين على هذا المنوال فإننا لا نأخذ الكلام بمعناه الأعرض، فنحن نخاطب من يحتكمون على معرفة كافية وليس عموم الناس، ولذلك تجشمنا عناء الإشارة إلى أن من الخطأ افتراض أن أولئك المعمَّدين من واجبهم الاهتمام على الأقل بعملية تخليق الحركة الأرواحية، ويفسر ذلك التناقضات والاعتراضات بين مدارسها المختلفة، ونتحدث بالطبع عن المدارس التى تحتكم على معرفة حقيقية جادة حتى لو كانت من مرتبة أدنى نسبيًا، ولكنها لا تشبه عدة صور من 'الأرواحية الجديدة' التى أطلقت الأرواحية لنقض

---

[11] وقد اعتقد غيرهم أن مؤلف *Ghost Land* و *Art Magic* كان هو ذاته كاتب نور مصر *The Light of Egypt* و آليات سماوية *Celestial Dynamics* و لغة النجوم *The Language of the Stars*، لكن ذلك خطأ، فكاتب الكتب الثلاثة الأخيرة هو بيرجوين *T,H, Burgoyne*، والذى كان سكرتيرًا لمحفل الأخوة الهرمسية بالأقصر، والكتابان الأولان من فترة أسبق.

المادية، وهو ما يعنى علاج خطأٍ بخطئٍ آخر، فلماذا كان العمل على هذا المنوال؟ وربما كان يهدف إلى تمديدها وشيوعها بين العوام، وهنا انحرفت الحركة حتى أفلتت من سيطرة الذين ألهموها، ومن ثم تلبست بسمات لا تستقيم مع نواياهم، فحين يعكف المرء على تعميمها لابد أن يتوقع الحوادث المحتومة، فهناك أشياء لا ينبغى أن تُعطى لكل من هبَّ ودبّ، والتعميم يُخاطر بنتائج يستحيل توقعها، والحالة التى تهمنا هنا حتى لو كان دُعاتها قد تنبئوا بها، فقد يكونوا قد اعتقدوا صوابًا أم خطئًا أن ذلك أهون شرًا مما أمَّلوا فى صدّه، وفى رأينا أن الأرواحية ليست أهون شرًا من المادية، لكن غيرنا قد يرى غير ذلك، فيتوهمون أن وجود خطئين متناطحين يحد أحدهما من توسع الآخر قد يكون أفضل من توسع أحدهما وضمور الآخر، وقد يكون الأمر أن تيارات الأفكار الراهنة تتفرق على نحو شديد التباين، وربما كانت أصولها مشاكلة لأصول اختلاق لعبة التوازنات التى تسم نوعًا مخصوصًا من السياسات، وفى تلك الأحوال لا ينبغى أن نحبس أنفسنا فى المظاهر الخارجية، وأخيرًا فلو قامت حركة شعبية جسيمة بالعمل على الإجحاف بالحق فهناك من يستطيع خداعهم حيث "إنهم يريدون أن يُخدَعوا *Vulgus vult decipi*"، ويُضاف إليها "*ergo decipiatur* بمعنى فلنخدعهم"، وهذا هو العامل المشترك بين السياسات التى أشرنا إليها توًا عما يُمكن تصديقه من أول وهلة، وعليه فإنه يحسن بالمرء الاحتفاظ بالحق لنفسه وفى الآن ذاته ينشر الخطل الذى يواتى الزمن، كما أن هناك سلوكًا آخر فى قول الحق لمن يفقهونه، ويجوز تبرير هذان المسلكان النقيضان بحسب الأحوال، ولكن الأول فحسب يسمح بمبادرات أوسع، ولكن ليس ذلك مما يهمُّ كل الناس، أما الثانى فيناظر الاهتمام الفكرى الحق، وأيًا كان الأمر فإننا نطرح فقط إمكانات الاستنتاج الصحيح التى نتَّبُعها باستنباطات بعينها، ولن نتمكن من طرحها هنا بكاملها وإلا ذهبنا بعيدًا عن مهمتنا فى اعتبار الأرواحية أمرًا ثانويًا، أما الباقى فلا ندَّعى القدرة على الرد على جميع الأسئلة التى طرحناها، لكننا نستطيع توكيد ما ذكرناه فى هذا الباب أكثر من أى شخص آخر.

3 بدايات الأرواحية فى فرنسا

لقد انتشرت الأرواحية الحديثة منذ عام *1850* فى الولايات المتحدة بفضل الدعاية فى الدوريات الاشتراكية، وقد عقد الأرواحيون أول مؤتمر لهم فى كليفلاند عام *1852*، كما ظهر المعتقد الجديد فى العام ذاته فى أوروبا استيرادًا من انجلترا على يد وسطاء أميريكيين، ومنها انتقلت إلى ألمانيا فى العام التالى ثم إلى فرنسا، إلا أن هذه البلاد لم تحظ بالهياج الذى سببته الأرواحية فى أميريكا، والتى جلبت الظواهر والنظريات الأرواحية فيها أعنف الجدل.

وقد ورد مصطلح الأرواحية *spiritism* لأول مرة فى فرنسا، وكان هذا اللفظ المسكوك الجديد يعنى أمرًا قائمًا على الظواهر ذاتها، لكنه واقعيًا كان يختلف عن 'الأرواحية الحديثة' فى أميريكا و انجلترا فى ذلك الحين، والواقع أننا راقبناالمذاهب المطروحة فى 'اتصالات' ما يسمى 'الأرواح' والتى تعلقت بآراء سائدة فى الدوائر المعاصرة التى تتعاطاها بحيث يسهُل قبولها، وقد أتاحت لنا هذه الملحوظة جزئيًا على الأقل باستنتاج أصولها الواقعية، ولذا اختلفت الأرواحية الفرنسية عنها فى البلاد الأنجلوساكسونية فى عدد من النقاط، ورغم أنها ليست من عناصر التعريف العام للأرواحية إلا أنها لا تقل أهمية عنه، وقد كان أعظم اختلاف طرح فكرة التناسخ التى جعل منها الأرواحيون الفرنسيون عقيدة فى حين أنكرها الغالبية، كما كان فى فرنسا احتياج لجمع 'اتصالات' الأرواح على منوال يجعل منها مذهبًا، وهو ما أضفى على المدرسة الأرواحية نوعًا من التوحد الظاهرى على الأقل، لكن الدفع بهذا التوحد قد كان أمرًا عصيًا، وهو ما أدى إلى انشقاقات متنوعة نتج عنها عدة مدارس جديدة.

وقد كان مؤسس المدرسة الأرواحية الفرنسية هو الشخص الذى اعتبره تابعوه كذلك يسمى ريفيل *Hippolyte Rivail*، وهو مدرس سابق من ليون، وتلميذ المُنَظِّر السويسرى بيستالوتسى *Pestalozzi*، وقد هجر التعليم وذهب إلى باريس حيث أدار مسرح *Fogies Marigny* حينًا من الزمن، ثم اتخذ اسم كارديك *Allan Kadic* الكلتىّ

بناءً على نصيحة بعض الأرواحيين، والذى قيل إنه اسمه فى وجود أسبق، وقد نشر بهذا الاسم عدة كتب، والتى عملت كأساس مذهبي للأرواحيين الفرنسيين، كما استمرت على ذلك عند غالبيهم[12]، وقد قلنا إن ريفيل قد نشر هذه الأعمال وإن لم يكتبها بنفسه، فإن أسلوب إنشائها وما تبعه من قيام الأرواحية الفرنسية كان عمل جماعة تحدث بلسانها، فأعمال كارديك نوع من 'الأعمال المجموعة *collective work*' وليست من 'اتصالات' الأرواح التى زعم بها، والذى قال إنه وبعضُ غيره يتلقونها ويتباحثون فيها، وقد راجعتها وصححتها أرواحٍ سامية *superior spirits*، والواقع أن الأرواحيين يسلمون بأن الإنسان لا يتغير كثيرًا بالموت فإننا لا نعتمد على الأرواح التى تتضمن من يخدعوننا إما بدافع الحقد وأما بسبب الجهل ببساطة، وهذا ما يفسره الأرواحيون بالتواصلات المتناقضة، ولكن يجوز التساؤل عن كيف لهذه 'الأرواح السامية' أن تتميز عن غيرها، وأيًا كان الأمر فهناك آراء خاطئة متفشية بين الأروحيين أنفسهم، والذين استلهم منهم آلان كارديك أعماله، والواقع أنه لم يكن وسيطًا أرواحيًا بقدر ما كان مِسميريًا *mesmerizer*، وأنه تلقى 'اتصالات' بفضل موضوعاته، أما عن 'الأرواحِ السامية' التى تتواصل معه وتقوم بمراجعة وتصحيح كتاباته وتنسيقها فلم يكونوا انتساخًا على أى نحو كان، وقد اشترك كارديك بنفسه فى هذه الكتب إلا أنه لم يقم بالشطر الأكبر منها، ونعتقد أن ترتيب 'وثائق من وراء القبر' كما سماها لابد أن تنتمى إلى عدة أشخاص من الدائرة التى تحلقت حوله، ويُحتمل أن معظم أعضائها كانوا يفضلون ألا يعرف العامة شيئًا عن اشتراكهم فى العمل، ناهيك لو عرفوا أنهم كُتَّابٌ محترفون فى الحلقة، وهو مما يثير الشكوك فى صدق أصالتها رغم أن أسلوبها لم يكن متميزًا بحال.

ونعتقد أن من الأفضل أن نورِد هنا ذكر الوسيط الانجليزى الشهير هووم *Donglas Home* الذى كتب كارديك عن مذهبه وحاول ترسيخه، فقد أظهر هووم أن كارديك أكثر معقولية من كثير من الأرواحيين فيما يلى،

"إننى أعتقد أن مذهب آلان كارديك من بين أوهام هذه الدنيا، وعندى أسباب

---

[12] وقد كانت أعمال كارديك الرئيسية *Le Livre des Esperit, Le Livre de Mediums, La Genẻse, Les Miracles, Les prediction selon le Spitisme, Le Spiritism à sa plus simple expression, Caractẻre de la revelation spirite. Etc..*

كافية.. ولا نبتغى التشكيك فى صدق إيمانه.. فإخلاصه ينعكس فى صورة سحابة مغناطيسية فى العقول الحساسة لمن عُرِفوا بمن سماهم وسطائه، والذين كتبوا بأيديهم ما فُرِض عليهم، وقد ادعى كارديك أنه تلقى مذهبه من عالم الأرواح، ولو كانت التعاليم قد صدرت حقًا من مستويات رفيعة من الذكاء كما يقول كارديك فهل كانت صورتهم كما رآها حقا؟ فأين تعلم إمبيليكوس الفرنسية المعاصرة بهذه الطلاقة؟ وكيف نسى فيثاغورس اللغة اليونانية تمامًا وهى لغته الأم؟.. فلم يسبق لى مصادفة حالة واحدة من العِرافة بالتنويم على نحو مباشر أو غير مباشر تعكس أفكار المنوِّم، ويبرهن كارديك على ذلك بشكل مدهش، فقد كان وسطائه آلات كاتبة لأفكاره تحت قهر إرادته العارم، ولو حدث أن نُشِرت مذاهبه بما لا يتفق مع رغباته الشخصية لقام بتغييرها كما شاء، ومن المعلوم أن كارديك لم يكن وسيطا، ولكنه لم يفعل سوى التأثير على من كانوا قابلين للتأثُّر مغناطيسيًا أو نفسيًا بدرجة أكبر منه"[13].

وهذا صحيح تمامًا فيما عدا تصحيح 'تعاليم المذهب' التى لا يجوز عزوها إلى كارديك وحده، بل كانت مُتاحة لأعضاء حلقته جميعا، كما قد تكون فحوى 'الاتصالات' قد تأثرت بأشخاص من رواد الجلسة، وكما سنبين فيما يلى.

أما عن المتعاونين مع كارديك فلم يكونوا 'رعايا' بسطاء فحسب بل كان منهم وسطاء موهوبون بملكات متنوعة، وكان من بينهم من كان موهوبًا فى الرسم التخيططى *sketching*، وقد وجدنا مقالًا ظهر عام *1859* بعد عامين من نشر *Livre des Esprits* فقرة جديرة بالاقتباس عن الشخصية المذكورة،

"اجتمع منذ شهور مضت حوالى خمس عشر شخصية ينتمون إلى مجتمع متعلم مهذب فى صالون بضاحية سان جيرمان حتى ينظروا إلى الرسوم التى رسمها الوسيط الذى كان حاضرًا فى الاجتماع لكنه كان مُلهَمًا بإملاء من برنارد باليسى، والواقع أن مسيو *.S*. وفى يده قلم وأمامه ورقة بيضاء وبلا أى موضوع فنى فى ذهنه، لكنه رسم لوحة الخزاف الشهيرة، والذى جاء ليرشد أصابعه بحركات

---

[13] *Les Lumiềr et les Ombres du Spireitisme, pp112=114.*

أنتجت رسمًا على الورقة البيضاء بذوق رفيع وثراء غامر بالزخارف لمنزل يسكن فيه موتسارت على كوكب المشترى! وحتى نكفُّ أية دهشة نضيف أن باليسى *Palissy* كان جار موتسارت فى ذلك الموقع النائى، كما أشار إلى الوسيط على نحو إيجابى، وكان المنزل لائقًا بموسيقيٍ عظيم، فقد انتثرت فيه زخارف من المفاتيح والنغمات الموسيقية،.. وكانت الرسوم الأخرى تصور المبانى على كواكب مختلفة، وكان أحدها لجد مسيو *.S* والذى تحدث عن جمع الصور فى ألبوم واحد، والذى سيكون حرفيًا من العالم الآخر"[14].

و مسيو *.S* هذا الذى قام بدور إنتاج الظواهر الفنية الفريدة كان واحدًا من أشد المخلصين لكارديك، ولم يكن إلا كاتب المسرح الشهير ساردو *Victorien Sardou*، كما انتمى إلى الحلقة ذاتها كاتب مسرحى آخر أقل شهرة حاليًا هو نو *Eugene Nus*، ولكنه انعزل شيئًا ما عن الأرواحية[15]، وكان من أوائل الملتحقين بالجمعية الثيوزوفية، ونذكر كذلك فلاماريون *Camille Flamarion* آخر الأحياء من أول ما يسمى ’جمعية الدراسات الأرواحية الباريسية‘، لكنه نكص عنها فيما بعد، ولكن ارواحيون عَدُّوه من بين أعضائهم، ففى عام *1869* ألقى تأبينًا لآلان كارديك، إلا أن فلاماريون قد احتج عدة مرات بأنه ليس أرواحيًا رغم أنه كان يحتج باستحياء، كما أن أعماله لم تبين ميوله وتعاطفاته بشكل واضح، ونتحدث هنا عن أعماله عمومًا وليس فقط التى تناولت ما يسمى الظواهر ’النفسية *psychic*‘، والتى كانت مجموعة مشاهدات تضمنت بعض الوقائع التى لم يجرِ التحقق منها بما يكفى رغم ادعاءاته ’العلمية‘، ونضيف أنه سواءٌ أكانت أرواحية فلاماريون مخلصة أم غير ذلك ولم تمنع من تنصيبه عضوًا شرفيًا فى الجمعية الثيوزوفية عندما بدأت فى فرنسا[16].

ولو كان هناك عنصرًا ’فكريًا‘ فى الدوائر الأرواحية حتى على منوال متواضع فنسأل كيف تأتى للكتب الأرواحية بدءً من أعمال آلان كارديك أن تكون هابطة إلى هذا

---

14 *'La Doctrine spirit' by Dr Dechambre, Gazette hebdomadaire de medicine et chirurgie, 1859.*

15 *See the works of Eugene Nus entitled 'Choses de l'autre monde, Le Grandes Mystére, and A la recherché des destinèes.*

16 *Le Lotus Blue, April 1859. p125.*

الحد، وفى هذا الصدد ينبغى تذكر أن كل كتب ’المجموعات‘ تعكس عقلية تكونت من أحط العناصر فى الجماعات التى أنتجتها، ورغم ما يبدو فى هذا من غرابة إلا أنها ملحوظة مألوفة عند كل من تحدث عن ’ نفسية الجماهير *crowd psychology*‘، ولا شك أن ذلك كان من أسباب سقوط ما يسمى ’إلهامات من وراء القبر‘ التى لا تحتوى إلا على شبكة من التفاهات، فالواقع أنها أُنتِجت جماعيًا، وأصبحت أساسًا يُحتَذى لما جاء بعدها، وهذه سمة لصيقة بكل منتجات الأرواحية، كما أن ’المفكرين *intellectuals*‘ فى الأرواحية كانوا غالبًا من الأميين، ونذكر مثلًا فيكتور هوجو *Victor Hugo* الذى صبأ إلى الأرواحية على يد مدام جيرا *Gira* أثناء إقامته فى جيرسى[17]، أما المتعلمون فتغلب عواطفهم ذكاءهم فى معظم الأحيان، والأرواحية أمر موسوم بالعاطفية، وسوف نعود لاحقا إلى مسألة الدارسين بلا مفاهيم سابقة لمسألة الظواهر الأرواحية ، والذين اتسمت آراءهم بالدورانية والسرية حتى يشاركوا آراء الأرواحيين، ونستطيع هنا قول إن كفاءة هؤلاء الدارسين مقصورة على تخصصهم الضيق، والذى لا تربو قيمته عن أى شخص آخر، كما أن ’المفكرين‘ الحقيقيين على علاقة واهية بالسمات المطلوبة للنجاح فى العلوم التجريبية كما يفقهها العالم الحديث.

ولكن لنعد إلى أصول الأرواحية الفرنسية، ويمكننا توكيد ما طرحنا سلفًا من أن ’الاتصالات‘ تتسق مع آراء الحلقة التى تجرى فيها، والواقع أن أوائل الصابئين إليها كانوا من الاشتراكيين عام *1848*، ونعلم أنهم كانوا أول أمرهم من الأسراريين *mystics* بأسوأ معنى للكلمة، ولو أحببت فهم ’أسراريون زائفون‘، وكان اجتذابهم إلى الأرواحية أمرًا طبيعيًا حتى من قبل أن يتبلور المذهب، وبينما أثروا على هذا التطور فقد وجدوا أن أفكارهم كانت انعكاسًا على ’المرايا النفسية‘ للوسطاء، وقد استطاع الماسونى ريفيل *Rivail* أن يكون من قادة الحركة الاشتراكية الذين يعرفهم شخصيا، وربما كان ذلك مصدرًا لمعظم أفكاره وأفكار الآخرين من جماعته عن التناسخ كما نوهنا عاليه، والتى لاحظنا فيها التأثير الحاسم لكلٍ من فورييه و وبيير ليرو[18]، كما لاحظ تلك العلاقة بعض من معاصرينا على منوال منوال د. ديشامبر فى مقال مقتبس فيما تقدم، وتتعلق بالطرقة

---

[17] *See the account given by Augute Vacquerie in his book Miettes de l'Histoire.*

[18] *Theosophy, chp 11.*

التى ينظر بها الأرواحيون إلى تراتب الكائنات الأسمى، وبعد أن تذكر فكرة الأفلوطينية الجديدة أضاف ما يلى،

"ولم ليكن المعلمون الخفيون لآلان كارديك بحاجة إلى ذلك الحوار الطويل مع روح بورفيرى ليعلموا بذلك، فقد كانوا بحاجة إلى الحديث مع بيير ليرو أو فورييه[19]، وكان مؤلف فالانستير سيسعد لو عرف منهم أن أرواحنا ستزداد أثيرية وهى تعبر الثمانمئة وجود المقدرة عليها".

ثم يتحدث عن المفهوم 'التقدمى *Progressive*' التى يحسن أن نسميه اليوم 'تطورى *evolutionist*'، والذى يرتبط بها على نحو وثيق، ويقول الكاتب ذاته،

"إن هذه العقيدة مشاكلة لعقيدة بيير ليرو، الذى يرى أن تجليات الحياة الكلية التى اختزلها إلى حياة فردية فى كل وجود جديد لايعدو تقدم خطوة واحدة"[20].

وقد كان لذلك المفهوم أهمية عظمى عند كارديك، والذى صاغه على نحو مبدأ "أن يولد المرء وأن يموت ليولد ثانية ذلك هو القانون"، ومن اليسير أن نجد تشابهات مشاكلة أخرى عن نقاط ثانوية، ولكن لنقتصر الآن على ما قلنا لتونا ويكفى لبيان أن الحركة الأرواحية الأميريكية قد بدأت من رجال أحياء، ونحن ندين للأروح غير المنسوخة فى مذهب الأرواحى الفرنسى وشركائه كإسهام ملموس، إضافة إلى التأثير 'الفلسفى' الذى حمله، لكن الذين تدخلوا هذه المرة ليسوا 'معمَّدين' بحال حتى لو كانوا من أعضاء منظومة أدنى، ولا نيَّة لدينا للاستمرار فى ملاحقة تطورات الأرواحية لأسباب طرحناها سلفًا، لكن الاعتبارات التاريخية والتفاسير التى لاغنى عنها لفهم ما يلى.

---

19 *See especially Fourier's Theorie des quatre mouvemebts.*

20 *La Doctrine spirite, by Dr Dechambre.*

4 السمات الحديثة للأرواحية

ولم تكن الظواهر هى ما استجد على الأرواحية، فتلك الظاهر كانت معروفة على الدوام، وقد أسلفنا ملاحظة علاقتها بظاهرة 'البيوت المسكونة'، وعلى كلٍ فسوف يبدو مدهشًا ألا تكون هذه الظواهرباقتراض حقيقتها قد ظهرت قبل زمننا، أو على الأقل أن أحدًا لم يدرك وجودها حتى الآن، أما الجديد فى الأرواحية الحديثة تحديدًا فهو التفسير الذى أسبغه الأرواحيون على هذه الأمور، أى النظرية التى تُشكِّل الأرواحية التى طرحناها فى موضع آخر، والذى قد يكون مختلفًا بالكامل، ولابد من التمسك بهذه النقطة نظرًا لأن الذين لا يعلمون الكثير عن هذه الأمور لن يستطيعوا تمييزها بما يكفى، وقل مثل ذلك عن الفوضى العارمة فى مفهوم الأرواحيين ذاته عن العالم، وهو مسلك لامنطقى للذين يجعلون من 'التقدم *progress*' غاية للإيمان، ولا يذهب الأرواحيون بعيدًا كما ذهب الثيوزوفيون، والذين اعترضنا عليهم فى الأمر ذاته[21]، ولكنهم رأوا فى القدماء على الأقل مصدرًا للقوة التى ينتحلونها لعقائدهم، وكل هؤلاء الناس يعيشون بتناقض ذاهلون عنه، ولو كانوا لم يلاحظونه فلأن الذكاء يقوم بدور شاحب فى معتقداتهم، ولذا كانت نظرياتهم عاطفية لا تستحق تسميتها 'مذهبًا'، ولو هم أضفوا عليها أولوية فذلك لأنها 'عزاء' لهم، كما أنها مناسبة للوفاء بأمنيات تديُّنٍ غامض.

أما الإيمان بالتقدم فيلعب دورًا باهرًا فى الأرواحية حيث يبرهن على مدى حداثتها، ففكرة التقدم ذاتها حديثة للغاية وترجع فحسب إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وقد تركت مفاهيم هذه الحقبة أثارها على مصطلحات الأرواحية، كما أنها ألهمت الحركة الاشتراكية والنظريات الإنسانياتية التى تشكل العناصر المذهبية فى الأرواحية، ومن بينها فكرة التناسخ خصوصا، فالمعنى الأرواحى لهذه الفكرة حديث بدوره

---

[21] *Theosophy. Chp 10.*

برغم التوكيدات المتكررة بعكس ذلك، فهى بدورها قد ارتكزت على فهم مغلوط، وقد بدأت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حين منحها ليسّنج صوتًا لأول مرة فى حدود علمنا، وتجذبنا هذه الواقعة إلى الماسونية الألمانية التى انتمى إليها ليسّنج، وربما كان أيضًا عضوًا فى جمعيات سرية أخرى من النوع الذى ذكرناه سلفًا، وفى مواجة ذلك نعجب ما إذا كان الاعتراض عالى الصوت للأرواحيين الأميريكيين هو الذى بدأ مسيرة حركتهم، ومن المناسب التساؤل عما إذا كان هذا المفهوم الذى يعبر عنه ليسّنج قد انتقل بعد برهة إلى بعض الاشتراكيين الفرنسيين، ولكننا لسنا على يقين من ذلك، فلم يثبُت أن فورييه و بيير ليرو كانا على علمٍ بها، ويمكن أنهما فى بحثهما عن إجابة للسؤال الذى شغلهما فقد اتخذ كلٌ منها طريقًا مستقلًا يصل إلى الفكرة ذاتها، أى عدم تساوى الأحوال الاجتماعية، وأيًا كان الحال فقد كانا هما ذاتهما من روَّج نظرية التناسخ، ومنهما انتحلها الأرواحيون وأشاعوها لكى يعتنقها الآخرون بدورهم، وسوف نعود فى الجزء الثانى من هذا الكتاب إلى هذا المفهوم لكى نمحصه بتدقيق، فرغم جلافتها قد اكتسبت أهمية حقيقية فى أيامنا من واقع نجاحها على أيدى الأرواحية الفرنسية، ولم يكن ذلك من جرَّاء تبنى معظم المدارس الأرواحية الجديدة لها فحسب والتى تكاثرت منذ تخللت الثيووفية وغيرها وصارت بوتقة لها فى البلاد الأنجلوفونية، ويقبل الناس عمومًا هذه الفكرة اليوم دون أن يخضعوا للتيارات الفكرية المتنوعة التى لا يكادون يعلمون عنها شيئًا.

ومع الاحتفاظ بحقنا فى العودة إلى تفسيرها نقول فقط إن التناسخ لا شأن له بنظرية التقمُّص *metempsychosis* ولا فكرة هجرة الأرواح *transmigration* اللتان يحاول الأرواحيون هضمها، ومما قلنا فى محاولتنا تعريف الأرواحية فنحن واعون لإمكان تفسير اختلافاتها الرئيسية على الأقل والتى أساء الأرواحيون فهمها، وهى ما تعلق ببنية الإنسان، وكذلك بمسألة التواصل مع الموتى، واللتان نقصر جهدنا عليهما.

ولو كان من شأن الأرواحية أن تتصل بالخطأ الشائع عن تبجيل الموتى الذى انتشر فى كل الأديان والمذاهب التراثية اللادينية بصورة أو أخرى فإن هذه الثقافة لا تعنى تواصلًا واقعيًا مع الموتى، وغاية أمرها أن تجعل التواصل مثاليًا، لكن ذلك لا يتقابس مع الفرضيات المادية للأرواحية، وخاصة ما يسمى فى الصين 'عبادة الأسلاف' فى

الشعائر الكونفوشية التى لا علاقة لها بتحضير الأرواح، إلا أنها أحد أمثلة الذين يعتقدون بقِدَم الأرواحية وكليتها، والأرواحيون يدَّعون أن طرق التحضير الصينية تشاكل طرقهم، لكن السبب فى هذا التخليط أن فى الصين من يلجئون إلى وسيلة يسميها الأرواحيون 'قلب الموائد *turning tables*'، لكن المقصود بها فى الصين شعائر العرافة فى السحر، والتى تختلف تمامًا عن الشعائر الكونفوشية، كما أنَ من جعل من السحر مهنة لا يحظى فى الصين والهند إلا باحتقار شديد، ولا يعنينا هنا الاهتمام بهما، لكن التشابه بينهما ظاهرى تمامًا، وليست الظواهر هى الأمر الجوهرى بل الغاية منها والطريقة التى تُمارس بها، وهكذا كان التمييز ضروريًا بين السحر و'عبادة الأسلاف'، كما أن هناك أمورًا غير التمييز، فالواقع أن بينهما انفصال مطلق حيث إن السحر ليس الأرواحية نظريًا ولا عمليًا، ونلاحظ أولًا أن الساحر على عكس الوسيط من حيث قيامه بدور إيجابى فى إنتاج الظواهر أقرب إلى دور المنوِّم المغناطيسى *hypnotist*، لكن الوسيط أداة سلبية تشاكل دور المنوَّم، لكن ذلك ينذُر فى الواقع حيث إن نطاق عمل الساحر شاسع ومعقد عن مجال التنويم، وثانيًا أن أن السحر لا يعنى استخدام قوى مثل التى يلجأ إليها الأرواحيون حتى لو وجِدَت بما يخالف تفسير السحر، مثل أن أى امرئٍ يمكن أن يزاول العرافة دون أن يفترض 'اتصالًا بأرواح الموتى' قد يؤثر سلبيًا على نتائج العِرافة، كما أن ما قلنا توًا ينطبق عمومًا على الإجراءت التى يهيِّئ الأروحيون أنفسهم عليها لاكتشافهم آثارًا إغريقية رومانية فى الصين منذ قديم الأزل، وهكذا يتكلم ترتوليان عن العرافة التى تجرى بالأرواح على الموائد، كما ينحو كتاب آخرون على منوال ثيوكريتوس ولوسيان إلى استخدام الأوعية والمناخل التى تدور، لكن ذلك لا يعدو العِرافة، أما الباقى حتى لو كانت 'أرواح الموتى' تختلط به فى حالات استثنائية، أو بتعبير آخر لو أن ما يسمى الأرواح 'شىء' آخر قد أشرنا إليه عاليه حتى نفسر ظواهر بعينها، لكننا لم نفسر طبيعتها بعد، وسوف نعود فيما يلى إلى هذه المسألة لنبين أن الأرواحية ليس لها حقٌ فى اللجوء إلى السحر حتى لو كان من نوع مخصوص بتحضير الأرواح مالم يكن من قبيل التشابه مع عموم الحالات، وعلى كلٍ فالأمر الجوهرى هو إنتاج الظواهر كغاية نهائية، فضلًا عن الطريقة التى أُنجزت بها، وعليه فإن التمايز الأول بين السحر و'عبادة الأسلاف' هو على الحقيقة أكثر من مجرد تمايز فهو انفصال مطلق واقعيا، كما أن هناك

المزيد، فليس السحر أرواحية، ويختلف بالتمام عنها نظريًا وكذلك تجريبيا، فلابد أن نلاحظ أن الساحر نقيض تام للوسيط، ويقوم بدور فعّال فى إنتاج الظواهر، فى حين أن الوسيط 'أداة' سلبية فحسب تشاكل دور المنوَّم، وينبغى أن نشير إلى أن الساحر لا يعمل 'بأدوات' أخرى بالضرورة، فهو أمر شديد الندرة إن وجِد، وسوف نعود إلى هذه النقطة لاحقا، ولكن لنعد إلى الصينين و الهندوس الذين وقعوا فى أخطاء مشاكلة لابد من معالجتها بتفصيل.

وقد وجدنا فى هذا الصدد أمورًا مدهشة تبدو جادة فى كتاب جدير بالذكر للدكتور جيبييه *Dr Paul Gibier*[22]، والذى ليس أرواحيا، ويدعى أنه 'علمىٌ' بلا تحيزات، كما يبدو الشطر التجريبى من الكتاب جيد التوثيق، ولكن نتساءل لماذا كان الذين ينشغلون بهذه الأمور يدَّعون 'العلمية' ومن ثم ينكصون عن استنتاج أمور فى صالح الأرواحية، لكنهم يتظاهرون بآراء مناقضة للكاثوليكية لاعلاقة لها بموضوعهم، وهو أمر غريب، ويشتمل كتاب د. جيبييه على كثير من هذه المداخلات على منوال قد يغار منه فلاماريون، والذى كان يحب تلك التشدقات حتى عندما يدعو إلى التنجيم، وليس ذلك ما نريد الخوض فيه بل موضوعًا أهم ربما لم ينتبه إليه غالبيتهم، فالكتاب المذكور ينطوى على أخطاء مشينة تتعلق بالهند، ويقع الكاتب فى أخطاء خطيرة حينما يصدق أراجيف جاكوليو[23] *Louis Jacolliot*، والوثائق الخيالية عن جمعية آتموية *Atmic Society* قامت فى باريس عام *1886*، والتى اشتملت على قليل غير مؤسسها المهندس تريميتشينى *Tremeschini*، ولن نتناول هنا كل أخطائها بالتفصيل، مثل أن يتخذ الكاتب عنوان 'رسالة فى التنجيم' اسم عَلَمٍ شخصى[24]، والتى لا نفع منها إلا البرهنة على فسولة معلوماته، وقد تحدثنا من قبل عن 'النابحون *hawlers*' الذين يصفون الأشياء كما يلى،

"إن مذهب الأرواحية الحديثة ... يكاد يتفق تمامًا مع دين البراهمانية الجوانى، والذى يتعلمه المعمَّدون من الدرجات الأدنى فى معابد هيمالايا التبتية منذ أكثر

---

[22] *Le Spiritisme ou Fakirisme Occidental.*

[23] *Le Spiritism dans le Monde, La Bible dans l'Inde, Les Fils de Dieu, Christna et le Christ, Histoire des Vierges, La Genèse de l'Humanité, etc.*

[24] ويدَّعون أن سوريا سيدّهانتا فلكى وهمى عاش منذ ثمانٍ وخمسين ألف عام مضت!

> من مئة ألف عام مضت ! وهذا التشابه عجيب على الأقل حتى إن المرء ليقول بلا تناقض أن الأرواحية ليست إلا الجوانية البراهمانية"[25].

وأول أمر هو أنه لا وجود لجوانية براهمانية، وحيث إننا فسرنا ذلك فى موضع آخر[26] فلن نعود إليه هنا، فحتى لو كان هناك أمر من هذا النوع فلن يكون له علاقة بالأرواحية نظراً لأنها تناقض مبادئ البراهمانية ذاتها، وكذلك لأن الأرواحية من أشد المذاهب فجاجة من حيث برانيتها، ونكرر أنها لم يجرِ تعليمها فى الهند حتى بين البوذيين[27]، وأنها تنتمى تماماً إلى الغرب الحديث، والذين يدَّعون غير ذلك لا يعرفون ما يتحدثون عنه[28]، لكن أخطاء مؤلفينا أنكى خطراً، فنقرأ ما يلى،

> "وممارسة تحضير أرواح الموتى أساس أصولى لكهانة المعبد وأصل المذهب الدينى"[29].

وهذا التوكيد على طرف نقيض من الحقيقة، ونقطع بأن كافة البراهمة بلا استثناء من أبعد ما يكون عن اعتبار التحضير عنصراً أصولياً فى مذهبهم وشعائرهم، بل يرفضون ذلك مطلقاً بكافة الصور، ويبدو أن مقولات الرحالة الأوروبيين وربما أيضاً مقولات جاكوليو هى المصادر التى اعتمد عليه د. جيبييه من أن 'تحضير أرواح الأسلاف يمكن أن يمارسه براهمة من مراتب عدة'[30]، وعندما لم يمكن كبت الممارسات من هذا النوع تماماً فإنها كانت تُترك لأسفل الطبقات بما فيهم الشاندالا أى من كانوا بلا طبقة، والذين يسميهم الأوروبيون *pariahs*، إلا أن محاولات ثنيهم عنها لا تتوقف بقدر الإمكان، ولم يكن جاكوليو أميناً عندما أساء ترجمة *Isha Krishna* إلى *Jezeus*

---

[25] *Le Spiritism, p 76.*

[26] مُدخل عام إلى فهم المذاهب التراثية، باب 9، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

[27] وقد كتب الشيخ هذه الكلمات عندما كان يعتقد أن البوذية كانت مذهباً غير رشيد *heterodox*، لكنه غير موقفه بفضل أناندا كوماراسوامى و ماركو باليس فى أواخر حياته. المحقق.

[28] ويذهب د. جيبييه إلى أبعد من ذلك عندما ترجم مصطلح أفاتارات إلى تناسخات *reincarnations* كما اعتقد أن هذا المصطلح الأخير يعنى الروح الإنسانية.

[29] *Le Spiritism, p 117.*

[30] *Ibid., p 118.*

Christna حتى يجد تبريرًا لأطروحة مناهضة للمسيحية، وقد طفق على لفّها بالغموض مع أمثاله الذين ضلوا على منواله عندما صادفوا ظاهرة حقيقية أثناء سياحتهم فى الهند، وبالطبع لم يفُسرها لهم أحد على حقيقتها، ونشير فى ذلك إلى ظواهر 'الفقراء *fakirs*'، ولكن لابد قبل أن نتناولها من قول إن ما يسميه الأرواحيون 'وساطة *mediumship*' يُمارس تلقائيًا فى الهند، والتى تُعتبر من مصيبة حقيقية للوسيط ومن حوله، ولا يتردد العامة فى عزو تلك الظواهر إلى الشيطان، وأما الظواهر التى تنتمى بدرجة ما إلى أرواح الموتى فيعزونها تدخلات العناصر الرديئة بريتا التى لازالت عالقة فى الجثمان، وهى عناصر تتماهى تمامًا مع الكلمة اللاتينية القديمة *manes*، والتى لاعلاقة لها بالروح، أما الوسطاء الطبيعيين فقد كانوا يُسَمون 'مسكونين *possessed* أو *opsessed*' بحسب الحال، وقد كانت الغاية العامة تخليصهم منها وشفائهم، ولم يهرع لإعلاء شأن هذه العاهة إلا الأرواحيون فى محاولتهم الحفاظ عليها و تنميتها ومحاكاتها ولو بشكل مُصطنع، ولم يُقدِم سواهم على تبجيلها على نحو لا يُصدَّق بدلًا من الشفقة عليهم أو حتى النفور منهم، ويكفى أن يكون المرء لامنحازًا ليرى مخاطر هذا المنحى هذا الانقلاب الغريب فى معنى الأمور، فالوسيط أيًا كانت طبيعة النفوذ الذى يسيطر عليه بإرادته لابد من اعتباره مريضًا بالشذوذ وفقدان الاتزان التى تسعى الأرواحية إلى حفزها، ولابد من إدانتها وإنكارها كخطر على الصحة العامة، ولكن هذا ليس خطرها الوحيد.

ونعود إلى الهند مرة أخرى، فهناك سؤال أخير لابد من معالجته حتى نصرف الخلط الدلالى فى عنوان كتاب د. جيبييه فى تسميته الأرواحية *wesern fakirism*، والذى يكفى ويزيد برهانًا على أنه لا يعلم شيئًا عن الأرواحية ولا الفقيرية، فالكلمة العربية 'فقير' تعنى متسول، وتعنى فى الهند صنفًا دنيئًا من الناس فيما عدا الأوروبيين، والذين ينظُرون إليهم كحواة يرفهون عن الجمهور بأمور قديمة، ولا نقول ذلك لملاحاة حقيقة قواهم الخاصة، فالقدرة عليها تتطلب مجاهدات مرهِقة من مراتب أدنى، وعليه فليست مرغوبة أصلًا، ويعنى السعى إليها العجز عن طلب مرتبة أعلى، ونجد لذلك مثلًا فى الظن بأن الشرق مرتبط بعالم السحر، والواقع أن ظواهر فقراء الهند تُحاكَى حرفيًا، لكن تلك المحاكاة تفترض القدرة على الإيحاء إلى جمهور المشاهدين، وهو أمر لايقل إدهاشًا فى الوهلة الأولى عن إنتاج الظواهر، وليس لذلك شأن بالشعبذة التى تُستبعد

بواقع الأحوال التى تقهر الفقير، كما أنها تختلف تمامًا عن التنويم كما يُمارس فى الغرب، أما عن الظواهر الحقيقية التى تقلدها الظواهر الأخرى فهى من منتجات السحر، فالفقير المقصود دائمًا ما يكون واعيًا أثناء إنتاج الظواهر، وإن لم يكن كذلك لصار منوّمًا مغناطيسيًا *hypnotist*، ولا يشاكل الوسيط على أى نحو كان، ولو كان يحتكم على أى أمر من أمور الوساطة لعجز عن إنتاج أية ظواهر مما ينتجها الفقراء، فالمنهاجان جوهريًا على طرفى نقيض، ويصدُقُ ذلك على الظواهر التى تشاكلها ظاهريًا حتى بأقل تشابُه، ولم يسبق أن ادَّعى فقير أن الأرواح هى 'ارواح الموتى'، والتى تُعَدُّ من أقل عوامل إنتاج الظواهر، ولو أن أحدهم روى أمورًا كالتى تحدث عنها جاكوليو فلن تُصَدَّق على أى نحو كان، فإن استجابة معظم الشرقيين لهذه المواقف تعكس آراءً مسبقة عند من يخاطبونه، وذلك لأنهم لا يرغبون فى الحديث إلى الغربيين عن طبيعة قواهم الحقة، كما أن عقلية النظَّارة بصرف النظر عن أسبابهم يشعرون أن أية محاولة للتفسير الحقيقى ستكون بلا جدوى، ولا شك أن بعض الفقراء الأمِّيين لازال لديهم مفاهيم تبدو 'متعالية *trancendent*' عند الغربيين حتى لو عجزوا عن تفسيرها، فليس عندهم المفاهيم الزائفة التى يتعاطاها الأرواحيون ، فما من سبب لديهم لاصطناع فرضيات تناقض المفاهيم الهندوسية التراثية، وليس سحر الفقراء تحضيريًا *evocatory* لا يجرؤ أحد على ممارسته علنًا، فليس للموتى به أية علاقة كانت، كما أن الفهم الصحيح للسحر التحضيرى ستعمل على تحطيم تلك المقولات أكثر مما تعمل برهانًا على صحة الفرضيات الأرواحية، وقد رأينا أنه يَحْسُن بنا طرح هذه التفاصيل عن الفرضيات الأرواحية بالمخاطرة ببعض الملل لأن القاعدة فى أوروبا هى الجهل بالفقيرية وما تعلق بها من مسائل، فالغيبيون لا يعرفون عنها أكثر مما يعرف الأرواحيين والنفسانيون *psychics*[31]، ومن جانب آخر نجد أن كتَّابًا كاثوليكيين بعينهم قد كتبوا عن الموضوع ذاته، واقتصروا على ما وجدوه عند غيرهم[32]، أما الدارسون 'الرسميون' فهم يسعدون بإنكار كل ما عجزوا عن تفسيره، عدا

---

[31] *For an occulist interpretation by Sėdir see Le Fakirism hindou.*

[32] راجع *Le Fakirism by Charles Godard* الذى اقتبس من جاكوليو باعتباره سُلطة، والذى يعتقد بوجود 'رهبان' على شاكلة كووت هوومى، ويذهب إلى خلط الفقيرية باليوجا وأمور أخرى من سمات متنوعة الاختلاف، وقد كان هذا الكاتب غيبيًا لكنه أنكر ذلك بما يبرر شكوكًا حياله، وحيث إنه مات فلن تضر الإشارة إلى أنه كان يتعاون مع جريدة *Initiation* باسم مستعار هو ساتورنينوس فى *L'echo du Marveilleus* باسم *Timothée*.

الذين يصمتون حياله.

ولو كانت الحضارات القديمة لاتزال قائمة فى الصين والهند فإن تلك الأمور كما ذكرنا، ولذا تعين علينا الدفع بأن الحضارات التى دَرَست تقوم على المبادئ التراثية ذاتها، ولا تكاد فكرة المصريين القدماء عن تكوين الإنسان تختلف عن المفاهيم الصينية والهندية، ويبدو أنها كانت كذلك عند الكلدانيين، ولابد أن نستنتج الأمر ذاته فيما تعلق بأحوال ما بعد الموت وتفسير تحضير الأرواح على الخصوص، ولا حاجة لنا هنا إلى تفصيل مسهب، ولا يعوقنا أى انحرافات ظاهرة لا تعتبر تناقضا، بل لا تعدو اختلافات طفيفة فى المنظور، فمن ديدن الصور أن تتنوع بين المذاهب التراثية بموجب أن الحقيقة واحدة، ويصدق ذلك حتى على الحضارتين اليونانية والرومانية بعد أن فقدتا سبب وجودهما إلا أن ما بقى من تعاليمهما يقطع باتفاقها مع منظور الحضارات التراثية الحية، لكن المحدثون قد كفُّوا عن الفهم، ولكن ربما لازالت الأسرار الجوانية عندهم تنطوى على تعاليم متداولة فى الشرق على نحو منفتح للخاصة، فطبيعتها لا تقبل التعميم، كما أن لدينا أسبابًا للظن بأن الأسرار ذاتها شرقية الأصول، ويمكن القول فى سياق الحديث عن السحر وتحضير الأرواح إن القدماء قد فهموها بالطريقة ذاتها، فقد وجدنا الأفكار ذاتها فى كل أين رغم أنها تتزيا بتعبيرات مختلفة، ذلك أن القدماء شأنهم شأن الشرقيين اليوم الذين لازالوا يعرفون كيف يفهمون الأمور[33]، ولم نجد فى كل ما وصل إلينا أمرًا يشاكل الأرواحية، أما البقية فلنقل إن الأرواحيين لا يملكون إحياء ما فُقِد تماما، ولو قيل شيء من هذا القبيل فذلك من جرَّاء التشاكل الذى يبعث على الظن بأنهم لن يجدوا مبررًا لادعاتهم.

وحتى نستكمل ما قلنا سلفًا فسوف نتناول بتفصيل أوسع الفوارق بين السحر والأرواحية، حتى نتجنب سوء فهم بعينه، ولنقل أولًا إن السحر علم تجريبى ليس له علاقة بمفاهيم الدين الحق ولا الدين الزائف، ولكن ليس الأمر كذلك فى الأرواحية حيث تسيطر تلك المفاهيم وحتى لو ادّعت 'العلمية'، ولو كان تناول السحر دائمًا أمرً

---

[33] وقد كُتبت هذه الفقرة تقريبًا عام *1923* فى الإصدار الأول لهذا الكتاب، ولم تعد هذه الأمور قابلة للتوكيد. المحقق.

ينتمى إلى ’العلوم الغيبية‘ ومقصور على الخاصة فذلك بسبب المخاطر التى ينطوى عليها، إلا أن له صلة بالفوارق بين الذين يتخذون الاحتياطات اللازمة لإنتاج الظواهر على نحو واعى بقوانينها وبين الجاهلون بها، والذين يضعون أنفسهم تحت رحمة قوىً لا يعلمون عنها شيئًا وينتظرون بسلبية ما تمخض عنه، وهكذا نرى تفوق السحرة على الأرواحيين سواءً أكانوا وسطاءً أم مشاهدين، وحتى لو أمكن استيفاء الشروط الأخرى، وحينما نتحدث عن ’الاحتياطات اللازمة‘ فإننا نفكر فى القواعد الصارمة التى تجرى بها العمليات السحرية ولكلٍ منها سبب، فى حين أن الأرواحيين يهملون أبسط تلك القواعد، أو بالحرىّ ليس لديهم فكرة عنها، ويتصرفون كأطفال ذاهلون عن مخاطر لعبة أوخم خطرًا من أعتى الماكينات بدون أى أمر يحميهم مالم تكن قد سحقتهم فعلًا، ومن نافلة القول إن هذا ليس على سبيل التوصية بالسحر بل على العكس لبيان مخاطره، والأرواحية أخطر من ذلك، وتتفاقم تلك الخطورة بموجب انتشارها فى نطاق العامة فى حين يقتصر السحر على الخواص، وفى الحالة الأولى باعتبار خطورتها ثم بغياب المعرفة التى تفترض تعقيد عملياتها، كما أن الذين يعرفونها بالكامل يستنكفون عن ممارسة السحر باستثناء حالات نادرة تعمل على منوال يختلف عن طرق السحرة العاديين الذين عادة ما يكونوا من ’التجريبيين *emperisits*‘ إلى حدٍ ما على الأقل وليس بموجب جهلهم بالأسباب الحقيقية لما يفعلون، وعلى كلٍ فرغم أن ألئك السحرة مُعَرَّضون لمخاطر بعينها فإن خطورتها محدودة بموجب أن عددهم محدود، وحتى الذين لا يبعثون على الامتعاض نسبيًا فإن تشريعات الشعوب جميعًا تُجرِّم مزاولتها، أما الأرواحية فمُتاحة للكافة بلا استثناء، ويكفى ذلك عن السحر عمومًا ونلتفت إلى سحر تحضير الأرواح خصوصًا، وهو فرع ضيق لا يدَّعى العلم به إلا الأرواحيون فحسب، والواقع أن كثيرًا من الظواهر فى الجلسات الأرواحية لا تعتمد على هذا الشطر المخصوص، وفى هذه الحالة لا يكون هناك تحضير إلا فى أذهان الحضور وليس فى نتائج الجلسات، ولكننا نحفظ بابًا كاملًا لهذه المناسبة، فكل ما يقع تحت هذا الصنف بما فيها تشابه الحادثات برهان على اختلاف تفسير السحر عن تفسير الأرواحية، وسوف نرى أن تحضير الأرواح لا يكاد يقل عن ذلك رغم بعض الظواهر المضلِّلة.

وقد كان تحضير الأرواح من بين كافة فروع السحر عُرضة للتجريم غير المشروط

عند القدماء، كما كان من المعلوم عمومًا أن المسألة ليست ’الأرواح‘ بالمعنى الحديث، وأن النتائج الناجمة عنها شاحبة الأهمية، فكيف نحكم على الأرواحية بفرضيات الأرواحيون التى تناظر إمكانًا بعينه؟ فقد كان من المعلوم أن ما ’حضر‘ ليس الشخص الحقيقى الذى ينأى عن مطالهم بموجب انتقاله إلى مستوىً آخر من الوجود، لكنه لا يعدو عناصر سفلية تركها الميت فى النطاق الأرضى بعد تحلل تركيبه الذى نسمّيه ’الموت‘، وقد سمَّاه قدماء اللاتينيين *manes*، وسمَّاه العبريون *ob*، وقد وردت الكلمة فى متون الكتاب المقدس فى سياق ما تعلق بتحضير الأرواح، والذى اعتبره البعض كيانًا شيطانيًا على سبيل الخطأ، والواقع أن الفكرة اليهودية عن تركيب الإنسان تتفق تمامًا مع المذاهب الأخرى، ولو عبرّنا بالمصطلح الأرسطى حتى يُفهم كلامنا فنقول إن *ob* ليست الروح ولا ’النفس العاقلة *neshamah*‘ ولا ’النفس الحساسة *ruah*‘ ولا حتى ’النفس النباتية *nephesh*‘، ولا شك أن التراث اليهودى يشير إلى أحد أسباب تحريم تحضير *ob*[34]، وهو أن لها صلة بمبادئ أسمى، وهذه نقطة تستدعى تفسيرًا مسهبًا تحسبًا للطرق الغريبة التى يرى بها هذا التراث أحوال الإنسان فيما بعد الموت، ولكن الـ *ob* لا يظل موصولًا بالروح بل يبقى فى الجسد، ولذا تسميها اللغة الرابينية ’نَفَسُ العظام *breath of the bones*‘[35]، وهو ما يعيننا على تفسيرها كما أشرنا عاليه، ولا تشاكل ’بريسبيريت‘ عند الأرواحيين ولا ’الجسد النجمى *astral body*‘ عند الغيبيين على أى نحو كان، ويُفتَرَض أن كلاهما رداءٌ للروح وحتى للميِّت، ولو أحببت فهى صورة لطيفة وهمية يتوشح بها الجسد حينما تجلى فى أحوال بعينها، والتى سماها المصريون القدماء ’القرين *the double*‘، وليست إلا مظهرًا منفصلًا عن الروح، ولن يجوز لهذا العنصر أن يدخل فى نطاق الوعى بالمعنى المنضبط، إلا أنها تشبه الوعى *consciousness* كصورة افتراضية للكائن الحى، ويستطيع الساحر إحياءها بإعارتها مؤقتًا بما تفتقده، أى انعكاس وعى متجانس يناظر السؤال عنها، وحينما تكون العرافة هى غاية التحضير، وهو ما يسمى ’العرافة بالاتصال بالموتى *necromancy*‘، ونأمل أن يعذرنا القارئ لو بدت له هذا التفسيرات على شئ من الغموض، وسوف نستكملها فيما بعد فيما سنطرحه عن قوى من مرتبة مختلفة،

---

34 سفر التثنية *18:11*.

35 وليست *‘body of resurrectin’* كما ترجمها الغيبى الألمانى لينينجين *Carl von Leningen*.

فهذه الأمور عصيِّة على اللغة المعتادة، فنضطر إلى استخدام مقاربات ʼعلى سبيل القولʻ، ويكمن معظم الخطأ فى الفلسفة الحديثة التى تتجاهل هذه المسائل تماما، والتى تعجز عن استخدام المصطلحات الصحيحة لفحصها، ومن المهم فى هذه النقطة تجنب ازدواج الدلالة فيما تعلق بالنظريات السطحية عن العنصر المذكور فى حال ما بعد الموت، يمكن أن تضاهى ما أسمته الثيوزوفية ʼأصداف *shells*ʻ ويستخدمونها فى تفسير معظم الظواهر الأرواحية، ولكنها ليست كذلك حتى لو كانت النظرية الأخيرة مجرد اشتقاق من الأولى بقصد تشويهها، وتبرهن على سوء فهم كُتَّابها، والواقع أن الثيوزوفيين يعتقدون أن ʼالأصدافʻ هى ʼالجثمان النجمى *astral cadaver*ʻ أى بقايا الجسد المتحللة التى هجرتها الروح، وفيما عدا واقع أنها لاترتبط بالضرورة بالجسد الطبيعى فإن الروح لا تهجر الجسد تمامًا إلا بعد برهة طويلة نسبيًا من الموت، ويبدو لنا تعبير ʼأجساد لامنظورهʻ خطأ فادح، وهو أحد الأفكار التى تؤدى إلى تصور ʼالأرواحية الجديدةʻ بمعنى ʼالمادية المنقولةʻ، ولا شك أن نظرية باراكليسوس عن ʼالنور النجمى *astral light*ʻ تنطوى على شىء من الحقيقة على الأقل، كما أن لها أهمية أكثر فيما نطرحه الآن لكن الغيبيون لا يكادون يفهمونه، ورغم أنها تتعلق حرفيًا بمفهومهم عن ʼالأجسام النجميةʻ أو ʼالنطاقʻ الذى يسبغون عليه الاسم ذاته، وكل ذلك لا يعدو أفكارًا حديثة رغم ادِّعاءات الغيبيين، ولا تتفق مع أىٍ من الأديان التراثية الأصيلة.

كما نطرح تأملات قليلة لا تتعلق بموضوعنا مباشرة، إلا أنها لازمة بواقع اجتياح ʼالوضعيةʻ للعقلية الغربية الحديثة أيًا كانت عقائدهم الدينية أو قناعاتهم الفلسفية، ويبدو أنهم عاجزون عن تركها حتى لو وقعوا فى تزيدات الأرواحية الجديدة، وربما نتج ذلك عن أنهم لا يعرفون شيئًا غيرها، ويصدق ذلك على المخلصين فى إيمانهم بأديانهم حينما يتأثرون بالأفكار الشائعة، ولابد لهم من حيث المبدأ أن يقبلوا بنتائجها، وينتهون إلى إنكار فكرة ʼالحياة المعتادة *ordinary life*ʻ، ولاجدال فى أن الملحوظات التى نقدمها تبدو لهم أمورًا غريبة كما تبدو لأعشى ʼالعلماءʻ بصرًا، ولكن ذلك لا يهمنا كثيرًا لو كانوا يعتقدون أنهم أكثر كفاءة من أى شخص آخر فى أمور الدين، ويُنصِّبون أنفسهم محكِّمين فى الأمور التى تتجاوز أفهامهم، وهم غافلون عن النتائج التى تتمَّخُض عنها.

ونذكِّر القارئ مرة أخرى أننا لا ننوى قصر أنفسنا على المنظور الدينى، فالأمور التى

نطرحها تنتمى إلى نطاق يختلف تمامًا عن نطاق الدين، ولو كنا نعبر عن بعض الأفكار فذلك لأننا نعرف حقيقتها المستقلة عن الانشغال بأمر خلاف الفكر المحض.

ونضيف أن تلك الأفكار تمكننا من فهم نقاط بعينها تتعلق بالدين، وعلى سبيل المثال تبرير الكاثوليكية لزيارة قبور القديسين الذى يفترض وجود أمر لامادى يرتبط بجثمانهم بعد الموت، إلا أننا لن نخفى حقيقة وصل المسألتين على هذا المنوال فى تبسيط مُخِلّ لا يتماهى مع ما نطرحه حاليًا رغم العلاقة بينهما، فهى من مقام أسمى حيث يتدخل أمر ما كما لو كان إضافة علوية، ولا علاقة له بالسحر بل بالمفهوم الأفلوطينى الحديث عن 'الطلسمية *theorgy*'، وهى مثل آخر عن التمايز الذى لا ينبغى نسيانه، ونتخذ مثلًا آخر من النوع ذاته لدينٍ تحتل فيه فكرة أن بعض الأماكن تتمتع بامتيازات لا تُفهَم ما لم نُسَلِّم بأنها مراكز للقوى، وأن هناك بعض الأشياء تقوم بوظيفة 'مكثفات *condensers*'، ولنُشِر إلى التوراة لنرى 'تابوت العهد' ومعبد أورشليم، وهنا نتماس مع مسألة النفوذ الروحى للمواضع، ولكننا نستطرد فى هذا الموضوع، فإن معالجته تنطوى على كثير من المصاعب الميتافيزيقية من أعلى المراتب، لكننا نذكر حالة أخيرة من الجوانية الإسلامية التى تسلم بأن شيوخها المؤسسين لازالوا على قيد الحياة رغم وفاتهم منذ عدة قرون مضت بالبركة الروحية، لكن ذلك لا يتعلق بأشخاص الشيوخ الذين أصبحوا فيما وراء هذا العالم فحسب بل كذلك فيما وراء كافة 'الفراديس'، أى ما وراء الأحوال المتعالية التى لاتزال عابرة فحسب، وسيرى المرء هنا كيف ابتعدنا عن الأرواحية والسحر، ولو تحدثنا عن هذه الأمور فلأننا لا نود ترك نقص فى تعريفنا للتمايزات اللازمة، والحق إن الاختلافات التى تفصل هذا المقام الأخير عن كل ما عداه هى أعمق الأمور كافة.

ونعتقد أننا قلنا ما يكفى لبيان أن العصر الحديث لا ينطوى على أى أمر يشبه الأرواحية القائمة، أما عن الغرب فقد حرصنا على وصف سماته القديمة قبل أى شيء آخر، لكن كل ما قلنا عن السحر يصدق على القرون الوسطى، إلا أننا لو حاولنا أن نجد أمرًا يُقارَن بالأرواحية حتى بصورة محدودة وباعتبار ممارساتها فحسب فإننا نجِد سحرًا قراحًا ببساطة، والواقع أن السحر علم تجريبى رغم أن أجهل الجهلاء به يمكن أن يعرف أكثر من الأرواحيين فى جوانب عدة، فهم يعرفون فقط أسفل ما فى فروع السحر،

وأخيرًا فإن حالات من يعانى من التملكات *obsessions* أو من سكنى الأرواح *possessetions*، تتعلق بممارسة السحر فحسب، وهى تجليات أصلية للوساطة التى ظهرت قبل الأرواحية، فهل تغيرت الأمور إلى حد استحالة انطباق معنى الكلمات ذاتها؟ ولا نعتقد ذلك من ناحيتنا، فلو كان الأرواحيون لا يصدقون إلا أنفسهم فى تلك القرابة فننصحهم بالزهد فيها وإنكارها كى يكون لهم دور فى الحداثة التى لن يكون فيها حرج للتقدم؟

5 الأرواحية والغيبية

وكذلك كانت الغيبية حديثة تماما، وربما تبعت الأرواحية ببرهة قصيرة، ويبدو أن أول استخدام للمصطلح قد جاء عن كونستانس *Alphonse-Louis Constance* المعروف باسمه المستعار إليفاس ليفى كما يبدو أنه من سكِّه، ولو كانت الكلمة جديدة فلأنها تعنى أمرًا جديدا، وقد سبقتها ' العلوم الغيبية *occult siencecs*' التى كانت علومها غيبية بدرجات متفاوته، وقُلَّ مثل ذلك عن أهميتها، وقد كان السحر أحد هذه العلوم كما زعم بعض المحدثين[1]، كما كان منها الخيمياء *alchemy* و عِرَافة النجوم *astrology* وكثير غيرها، ولكن لم يُبْذَلَ أى جهد لتوحيدها فى مذهب واحد تسوده الغيبية بالضرورة، والواقع أن ما يسمى 'جسد المذهب' ينطوى على عناصر بائسة، وقد حاول ليفى توحيدها مع القِبالة اليهودية والهرمسية والسحر، لكن من جاء بعده فضلوا أن يضفوا الأولوية على الغيبية، ولم يكن عمق عمل ليفى كما ادعوا إلا أن نفوذه ألهم معظم المدارس الرئيسية على تنوعها، وقد اعتادت مدام بلافاتسكى مؤسسة الجمعية الثيوزوفية عندما نشرت كتابها *Isis Unveiled* وكذلك الكاتب الماسونى الأميريكى بايك *Albert Pike* وأعضاء الصليب الوردى والصليب الوردى الانجليزى الجديد والثيوزوفية أن يستخدموا اصطلاح غيبية لتسمية مذاهبهم، وتُعَدُّ جميعًا تنويعات غيبية، فلم يكن هناك ما يعوق استخدام الكلمة كاسم نوع *generic name* لعدة مدارس لكل منها مفاهيم تخصَّها رغم أنها ليست بمعناها العام المألوف، وقد مات ليفى عام *1875* وهو العام الذى تأسست فيه الجمعية الثيوزوفية، وقد انصرمت عدة سنوات قبل أن يتخلل اصطلاح 'الغيبية' فرنسا، ولكن إنكاوس *Dr Gerhard Enccausse* الذى كان يكتب باسم بابوس *Papus* قد التقط الاصطلاح مرة أخرى فى محاولة جمع من كانوا يميلون ميله بدءً من عام *1890* حينما انفصل عن الجمعية الثيوزوفية عندما ادَّعت احتكار المصطلح دفاعا عن مدرسته، وهكذا تكونت الغيبية الفرنسية، ويُقال أحيانا إن أن الغيبية فى نهايتها ستصبح 'بابوسية

[1] *Papus, Traité methodique de Science occult. P 324.*

'Papusism'، وقد كان ذلك صحيحا من أكثر من جانب، فقد كان هناك عددٌ وافر من نظريات وليدة خيال فردى، ولم تكن غايتها إلا معارضة 'التراث الهندوسى الزائف' للثيوزوفيين التى لا تقل وهما عن 'التراث الغربى'، ولا حاجة هنا للاعتماد على تاريخ الغيبية ولا لتفسير مذهبها بكامله، ولكن قبل أن نتحدث عما يميز الأرواحية عن غيرها من المذاهب فلا مناص من تلخيصها حتى لا يندهش أحد حينما نصنِّف الغيبية من بين أفكار 'الأرواحية الحديثة'.

وقد كان الثيوزوفيون يحتقرون الأرواحيين عموما، وذلك مفهوم إلى حد ما، ذلك أن الثيوزوفيين والغيبيين لهم مظهرٌ فكرىٌ يفتقده الأرواحيون، ويخاطبون الأرواحيين من مرتبة أعلى، وهكذا نرى بابوس يلوِّح إلى أن آلان كارديك كان مدرسا، وقد أشار إلى أن الأرواحية "فلسفة المدرسة الابتدائية"[2]، وفيما يلى تقييمه لدوائر الرواحية،

"لقد استطاعت أن تجتذب قليلًا من الدوائر العلمية، وقد تهافتت قيمتها بمدى قلة أتباعها حتى من الطبقة المتوسطة والدهماء، وتتشكل حلقات الدراسة فيها من الموظفين السابقين شديدو الأمانة والإخلاص ومرؤسيهم، وأصحاب الأعمال الصغيرة ومستخدميهم، ولا تترك التعاليم العلمية والفلسفية مجالًا للرغبة فيها، ويمثل المدرسون 'وجهاء' هذه الجماعات"[3].

وقد كانت تلك الوسطية فى الأرواحية تثير العجب دائما، ولكن بابوس كان يعفيها من اللوم رغم انتقاده الحاد لسوء اختيار أتباعها بالنسبة إلى مدرسته، وسوف نقول ما يكفى عن هذه المسألة عندما نتحدث عن دوره كداعية لتعميمها، وقد كان هذا السلوك على خلاف إليفاس ليفى بادعائه الجوانية، ولن نعكف على تفسير تناقض هذا الادعاء حيث من المؤكد أنه ليس فيه أثر من الجوانية الحقة بأكثر مما عند الثيوزوفية، ولن يكون لدى المرء فكرة عن هذه الأمور لو سمح لنفسه بالوقوع فى إغراء السراب الكاذب فى 'علم التعميد' المزعوم الذى لا يربو عن تعاليم من الدرجة الثانية أو الثالثة، ولكن لا وجود لهذا التناقض فى الأرواحية التى تنكر أية جوانية كانت، فطبيعتها الديمقراطية تتسق

---

[2] *Ibid., pp 324 & 909.*

[3] *Ibid., p 331.*

تمامًا مع الاحتياج إلى الدعاية، وهو مسلك أكثر منطقية من مسالك الغيبية التى سنتناولها بالنقد لاحقًا فى حينها.

ولن نعود إلى ذكر نقد قادة الثيوزوفيين الجارح للأرواحية، والتى تخلل بعضها إلى المدارس كما ثبت من اقتباساتنا عن خبرائها[4]، وقد كان نقد الغيبيين الفرنسيين عمومًا أكثر اعتدالًا رغم أنه كان عنيفًا بين الجانبين فى أول أمره، وقد كان الأرواحيون يمتعضون ممن يصفهم 'بالدنيوية' بمن فيهم 'إخوانهم' السابقون، لكن المرء يلاحظ نغمة تصالح من جانب الغيبيين الذين أدَّت 'انتقائيتهم *eclecticism*' إلى افتراض تنازلات مؤسفة، وقد طفت أول نتائجها عام *1899* فى مؤتمر باريس العالمى للأرواحية الذى ضم كل المدارس، وبالطبع لم يؤدِ ذلك إلى اختفاء التشاحن، لكن الغيبيون سمحوا شيئًا فشيئًا بما ادعى الأرواحيون من 'توحيد الأديان *synchretism*' المزعوم، فلم تتنازل الأرواحية عن اعتبار الغيبيين مؤمنين على الحقيقة رغم بعض الاستثناءات، وبينما كانت هذه الحركة تتبوَّأ مكانتها توجهت الغيبية إلى العمومية، وأصبحت جماعاتها أكثر انفتاحًا عن بداياتها، ومن ثم رحَّبوا بمن صبئوا عن الأرواحية وانضموا إليهم الذين شكلوا صفوة الأرواحية النسبية، وهكذا هبط مستوى الأرواحية باطراد، وربما جاء يوم يوصف فيه هذا الانقلاب 'بالتطور'، أما عن الثيوزوفية فقد تحدثنا سلفًا عن الذين انتموا فى الآن ذاته إلى مدارس متناقضة المنظور، ولكن ذلك لم يسبب لهم إزعاجًا من واقع أنهم كانوا عاطفيون قبل أى شىء آخر، ونضيف أن المرأة فى كل هذه الجماعات كانت عنصرًا مهيمنًا، كما كانت دراسة 'فنون العرافة' معيار عدل لقدراتهم الفكرية.

وقبل أن نستطرد ينبغى تفسير أمر أشرنا إليه فى بداية هذا الباب، فمن بين الأرواحيين أفراد وجماعات صغيرة معزولة، أما الغيبيون فدائمًا ما يكونوا فى مؤسسات تسمى أعضاءها 'مُعَمَّدين' بشىء أو آخر، أو تنشر بينهم وهمًا بأنهم كذلك، وأما الأرواحيون فلا نفع عندهم لمثل ذلك ولا لأى أمر يضاهيه حتى عن بعد، فإن أحد سمات حركتهم الانفتاح على الجميع دون استثناء لا شرط لوجود أى نوع من البنى، ويُخطئ بعض مناوئيهم فى الحديث عن 'تعميد أرواحى' لا وجود له، فى حين أن

---

[4] *Theosophy, chaps p 11 & 12.*

الغيبيين يدَّعون مخطئين الانتماء إلى تراث لا يفصحون مطلقًا عن ماهيته، ولذا كانوا بحاجة إلى منظمة تتولى تداوله على نحو منتظم، ولو صبأ غيبي عن منظمته فغالبًا ما يُنشئ أخرى ليصبح بدوره 'رئيس مدرسة *chef d'ecole*'، والواقع أن الغيبيين يخدعون أنفسهم يالاعتقاد بأن تداول المعرفة التراثية لابد أن يكون عن طريق 'جمعية' بالمعنى الحديث، وليست مدارسهم إلا تقليدًا للمدارس التعميدية، ولكى نصور نقص جدية ما يسميه الغيبيون 'تعميدًا غيبياً'، فيكفى عندهم مايسمونه 'التعميد بالتراسل' شرط ألا يكون من الصعوبة أن يصبح المرءُ 'متعمدًا'، فهو مجرد رسميات لا قيمة لها ولا معنى، ورغم محاولتهم الظهور على صور بعينها بحيث لا يُخطئ أحد فى فهم تعميدهم، ولابد من إضافة أننا نلوم الأرواحيين على ادعاء أمر ليسوا عليه، وموقفنا منهم يختلف عن مواقف كافة معارضيهم وعلى منوال يُعاكسهم، فأساتذة الجامعات على سبيل المثال يتهمون الغيبيين بأنهم يريدون تخطى الحدود التى تُحُدُّهم أنفسهم فى الجامعات ذاتها، لكن خطل الأرواحيين الذين يحاولون سبقهم لا يذهب فعلياً إلى ما وراءها تلك الحدود عدا فى نقاط مخصوصة ينتحلون فيها أفكارًا أقدم بدون فهمها، أما الطرف الآخر فيقول إن الغيبيين يرغبون فى الذهاب إلى أبعد مما يستطيعون ورغم أننا نعتقد أنهم لم يذهبوا بعيدًا بما يكفى، كما أنها تخدع أعضاءها بوعى أن بدونه بتعاليمها التى يتعاطونها، وقد يذهب غيرنا إلى هذا الجانب إلا أننا نظل فيما وراءه، فيما تمخض عن اعتقاد الغيبيين بأن أساتذة الجامعات والدارسين ليسوا إلا 'دنيويون *profane*' كما الأرواحيون ولن نُعارضهم، لكن منظورنا للغيبيين أنهم 'دنيويين' بدورهم، ولن يفكر أى من الذين يعرفون المذاهب التراثية غير بغير ذلك.

وبعد قولنا هذا يمكننا العودة إلى العلاقة بين الغيبية والأرواحية، وينبغى القول فيما يلى أنها مسألة مقصورة على غيبية بابوس، والتى رأينا مدى اختلافها عن إليفاس ليفى، والواقع أن ليفى كان مناهضًا عتيدًا للأرواحية، كما أنه لم يعتقد بالتناسخ مطلقا، لكنه أحيانًا ما ادَّعى أنه تناسخ من رابليه *Rabelais* الذى عرفه شخصياً ، ولكن ذلك لم يعدُ مزاحا، ولا يُعتبر على أى نحو منحازًا إليها، وقد كانت نظرية التناسخ مستعارة من أفكار الغيبية والثيوزوفية، وكلى المدرستان واقعٌ تحت نفوذ الأرواحية، والتى سبقتهما بزمن رغم احتقارهم لها، أما عن التناسخ فقد اتضح فى عمل آخر لنا عن مدام

بلافاتسكى التى انتحلت هذه الفكرة من الأرواحيين الفرنسيين وترجَمَتها للدوائر الأنجلوساكسونية، وقد كانت بداية بابوس وتلامذته الأوائل فى الثيوزوفية، فى حين أن كل الآخرون بدؤا من الأرواحية مباشرة، ولا حاجة بنا للبحث أبعد من ذلك، وهناك نقطة أقل أصولية فى نفوذ الأرواحية الذى تعزوه الغيبية إلى دور الوسطاء فى إنتاج ظواهر بعينها، كما نجده فى فكرة 'الجسد النجمى' التى تتميز ببعض خصائص 'بيريسبيريت' فيما عدا أن الروح تهجر 'الجسد النجمى' بعد حين من الموت على منوال تركها للجسد الطبيعى، فى حين كان المفترض أن 'بيريسبيريت' يظل حياً على الدوام، لكى يصاحب الروح فى كل تناسخاتها، كما أن هناط مثل آخر فيما يسميه الأرواحيون 'حال القلق *troubled state*' بمعنى أن حال اللاوعى الذى تجد فيه الروح نفسها بعد الموت مباشرة، ويقول بابوس،

"وتظل الروح مضطربة لعدة شهور بعد الموت لا تصدق أنها ماتت، ولا تعى حالتها الجديدة إلا بعد شهور من الموت"[5].

ويكتب بابوس فى موضع آخر "إن حال القلق تمتد من بداية احتضار الموت حتى تحرر الروح واختفاء الأصداف"[6]، أى أدنى العناصر فى 'الجسد النجمى'، ويتحدث الأرواحيون على الدوام عن حالات رجال ظلوا لاواعين بأنهم موتى طوال عدة سنوات بعد الموت، ويتمسكون بكل مشاغلهم الأرضية التى لابد من القيام بها بالعمل المعتاد، ويتولى بعضهم مهمة 'إرشاد الأرواح'، وقد روى نو *Eugène Nus*[7] وغيره من الكُتّاب قصصًا من هذا النوع قبل بابوس بزمن طويل، ولم تعد مصدر فكرة 'حال القلق' لاشك فيها، ويجدر ذكر أن النتائج التى ترتبت على الأعمال التى نجت عن الانتقال من حال إلى آخر، وهى ما سمَّته الثيوزوفية 'كارما'، أما عن استحالة روايات الغيبيين والأرواحيين لهذه الأمور فى تنافسهما فسنعود إليها فى سياق الحديث عن التناسخ، وفى ذلك أيضًا كان السبق للأرواحيين، وقد وجدنا فى بحثنا تشابهات أكثر من ذلك لا تفسير لها إلا الاستعارة من الأرواحية، حيث تدين الغيبية للأرواحية بأكثر مما تعترف به، والواقع

---

[5] *Traité Metaphisique de Science occulte, p 327.*

[6] *L'etat devtrouble et l'evolution posthume de l'etre humain, p 17.*

[7] *A la recherché de destinées.*

أن مجمل ما تدين به ليس حسناً تمامًا، لكن الأهم هو رؤية كيف يقيس الغيبيون المسلمات الأرواحية الأصولية، أى التواصل مع الموتى.

وقد كان أحد الاهتمامات الواضحة للغيبية تلبيس نظرياتها بصبغة ’علمية‘ بالمعنى الحديث، وعندما لا يعترفون بكفاءة الدارسين حيال مسائل بعينها فسيكون من المنطقى ألا يُقلّدِو مناهجهم أو يفضحوا استلهام طرق تفكيرهم، إلا أننا نقرر وقائع فحسب، فنلاحظ أن الأطباء الذين جاء من بينهم العدد الأوفر من ’علماء الطبيعة‘ قد أسهموا أيضًا فى مشاركة الغيبية التى استقوا منها كذلك عاداتهم الذهنية فى تعليمهم وممارسة مهنتهم.

وهذا ما يفسر شطرًا جسيمًا مما يمكن تسميته نظريات ’نفسية عضوية *psycho-phisiological*‘ وخاصة فى أدبيات بابوس، ولذا استفحل التوجه إلى التجريب حتى يقوم بدور الواجهة العلمية أو ما يسمى بذلك، وكان على الغيبيين الالتفات أساسًا إلى الظواهر، والتى عالجتها المدارس التعميدية الحقة باعتبارها أمرًا جديرًا بالإهمال التام، ولنضف إلى ذلك أن الغيبية لم تكتف بتعاطف العلماء الرسميين، زد على ذلك أن جاذبية الظواهر للاهتمات ’العلمية‘ لأسباب تختلف تمامًا باعتبارها مشاهدات تجريبية، فهذا الجانب من الغيبية إضافة إلى ’فنون العِرافة‘ تكاد تكون الاهتمام الوحيد لمعظم أعضائها فضلًا عن كل من كان أرواحيًا بدرجة أو أخرى، والذين كانوا مجالًا لتوسع ’الحمية العلمتية *scientistic riogor*‘ فى أول أمرها ومن ثم تراخت باطراد، لكن بصرف النظر عن ذلك الانحراف فإن الصبغة التجريبية و’الظواهرية *phenomenalyst*‘ للغيبية فرضت عليها علاقات بالأرواحية، والتى ربما لم تكن تناسبهم إلا أنها كانت حلًا وسطًا *compromizing*، وليس ما يستحق التكرار أن الغيبية سلمت بواقعية الظواهر، وهو أمر لا نلاحيه، ولا حتى الدراسة الخاصة بها، بل الأهمية العظمى التى يضفونها على ادعائهم بزعم أنها ضرورية لقبول تفسير الأرواحية جزئيا، ويحاولون اختزال عدد الحالات التى تنطبق عليها، ويقول بابوس عن الغيبية،

"إنها تسلم بظواهر الأرواحية مطلقًا، إلا أنها تَحُدُّ دور الأرواح فى إنتاج هذه

الظواهر، وتعزوها إلى طائفة من القوى التى تعمل فى العالم الخفى"[8].

ومن نافلة القول أن الرواحيين قد احتجوا بحمية مماثلة عن هذا التحديد كما قالوا،

"إن الإنسان يتشقق إلى كيانات عِدَّة بعد مماته، وما يتواصل منها مع الأحياء ليس الكائن بكاملة بل البقايا التى تركها بمثابة أصداف نجمية".

ويضيف بابوس فى موضع آخر "إن علم الغيبية عويص الفهم وبالغ التعقيد للقارئ العادى لكتب الأرواحية"[9]، والذى لا يتحدث عنه بخير، ومن ناحيتنا فمجرد التسليم 'بنفوذ الأرواح' فى هذه الظواهر بدرجة ما فإننا لا نرى سبباً لتحديدها سواءً أكان من حيث عدد الحالات التى تتجسد أم من حيث نصنيف الأرواح التى يمكن تحضيرها، ويقول بابوس فى هذا الصدد،

"إن مالا يمكن دحضه هو أن أرواح المحبوبين يمكن تحضيرها فى ظروف خاصة، ولو انطلقنا من هذه 'الحقيقة' فإن التجريبيين من ذوى الخيال الخصب لم يتوانو عن الدفع بأن كافة الأرواح قديمها وجديدها خاضعة للتحضير الذهنى"[10].

وهناك أمر فائق الغرابة فى استثناء 'أرواح المحبوبين' كما لو كانت الاعتبارات العاطفية قادرة على مخالفة قوانين الطبيعية ! فلو كان 'تحضير أرواح الموتى' ممكناً بالمعنى الأرواحى فمن العسف تحديده بوضع حدود على تلك الإمكانية، وربما كان التعرف على الأرواحية أيسر بإلقاء عملة للبخت، وفى خضم تلك الأحوال فإن تأنيب الأرواحية على عاطفيتها فى غير موضعه، فهى تدين لها بالشطر الأكبر من نجاحها، وليس من حق المرء أن يقول أمرًا مثل ما يلى،

"ولابد أن يكون العلم واقعًا فعليًا وليس انفعالًا عاطفيًا، ولكن هل سيلتفت إلى الدفوع التى تقول إن الاتصال بالموتى لا ينبغى مساسه بموجب أن فيه عزاءً"[11].

---

[8] *Traité Metaphisique de Science occulte, p347.*

[9] *Ibid., p 344.*

[10] *Ibid., p 331.*

[11] *Ibid., 324.*

وهذا أمر سوى فى ذاته، لكن من يقول به لابد أن يكون خلوًا من العاطفية تماما، فهناك فارق فى الدرجة بين الأرواحية والغيبية، فلم تتبين فى الغيبية نزعات عاطفية وأسرارية زائفة إلا بعد أن أدى إليها الهبوط السريع الذى ذكرناه سلفا، ولكن منذ زمان قديم، وبدون أن نترك مسألة 'التواصل مع الموتى' فإن تلك الميول قد وجدت فى عبارات مثل ما يلى،

"عندما ترى أمٌ دامعة العينين ابنتها تتجسد أمامها وعندما تجد فتاة يتيمة أباها يعدها بالمساعدة فإن ثمانين حالة من كل مئة أن الظواهر من إنتاج 'أنا *moi*' الميت"[12].

ويبدو أن السبب فى هذه الحالات المتميزة هو،

"أن الروح لكى تأتى ونتواصل تحتاج إلى علاقة سيالة بين المُحَضِّر والمحَضَّر".

ولا مناص إذن من تصديق أن العاطفة لابد أن تكون شيئًا 'سيَّالًا *fluidic*'، ألا يجوز لنا تحدث عن 'مادية منقولة'؟ ونستنتج إلى جانب ذلك أن مصدر تلك 'السيولة' هو المنوِّمين *hypnotizers* والأرواح، وهنا أيضًا تعمل الغيبية فى مصطلحاتها على التأثير على تلك المدارس 'الأولية'.

وقد لجأ ممثلو الغيبية فى بعض المناسبات إلى إسقاط احتقارهم للأرواحية مثلما أعلنت مسز بيسانت فى خطابها الافتتاحى لمؤتمر 'التحالف الأرواحى' فى لندن عام *1808* أن الأرواحية والثيوزوفية من أصلٍ واحد، وقد ذهب الغيبيون إلى أبعد من ذلك عندما أعلنوا أن نظرياتهم ليست مقاربة للأرواحية فحسب بل إن الحركتين متماهيان معها أصوليا، وقال بابوس فى ختام أطروحته أمام مؤتمر *Spiritist and Spiritualist Congress* عام *1889* ما يلى،

"من السهل رؤية أن نظريات الأرواحية هى ذاتها نظريات الغيبية رغم أنها أقل تفصيلا، وأفق التعاليم الأرواحية أعظم اتساعًا حتى يسهل لعدد أكبر من الناس

---

[12] *Ibid., p 847.*

فهمها، وحتى التعاليم النظرية للغيبية فى تعقيدها مقصورة على عقول مدربة على المفاهيم التجريدية، ولكنها أصوليًا مذهب يتماهى بين المدرستين الأعظم"[13].

وهنا شىء من المبالغة ربما أمكن وصفه بالسياسة دون أن نعزو إلى الغيبيين نوايا تضاهى نوايا مسز بيسانت، وقد ظل الأرواحيون على توجسهم ولم يستجيبوا إلا قليلًا لهذه المقاربات تحسبًا من ربطهم بجماعات أخرى، وقد كانت 'انتقائية *electicism*' الغيبيين الفرنسيين واسعة المدى ولا تتقابس مع زعمهم بامتلاك مذهب جدى عن تراث محترم، كما سنقول إننا نقول إن أية علاقة بالمدارس الأرواحية تُفقِد الحق فى الزعم بأنها جوانية.

وسوف يكون خلط الغيبية بالأرواحية خطئًا فاحشًا، ولو جرى هذا التخليط بين من لا يعلمون فإن الخطل راجع لا إلى جهلهم فحسب بل كذلك إلى قلة حياء الغيبيين أنفسهم، لكن هناك عمومًا بعض العداوة بين الحركتين، والتى عبر عنها الأرواحيون على نحو أعنف، وعبر عنها الغيبيون على نحو أخفى، كما لفتوا النظر إلى بعض تزيدات الأرواحيين، وذلك ما مكنهم من تمزيق القَناعات والحساسيات الأرواحية، ولذا قلنا سلفًا إنه يكفى التسليم فى حالات بعينها بإمكان التواصل مع الموتى لكى يكون المرء أرواحيًا، كما أن الأرواحيين لا يرغبون فى سماع شىء عن الظواهر مالم يكن بعضهم أقل تعصبًا وضيق أفق من عمومهم، والذين يُسَلمون بوجود رد فعل لاواعى عند الوسطاء والحضور، وأخيرًا فإن الغيبية تنطوى على كثرة منالمذاهب التى لا تُضاهى أى أمر عند الأرواحيين أيًا كانت قيمتها الحقيقة، ولكنهم على الأقل يشهدون بأمور محدودة، وإجمالًا فإن بعض الغيبيين لا يهدؤن بوضع المدرستين على مستوى واحد، والواقع أنهم حاولوا التفوق على الأرواحية، فهى مذهب لا يلزمه أفق فكرى رحب.

---

[13] *Ibid., pp 359-360.*

6 الأرواحية والنفسانية

لقد ذكرنا سلفًا أننا ننكر نظريات الأرواحية مطلقًا إلا أننا لا ننكر الظواهر التى يسردها الأرواحيون برهانًا على واقعية منظورهم، ولابد من تفسير هذه المسألة ببعض التفصيل، وما نرغب فى قوله بدهيًا هو أننا لا نلاحى واقع أن أية ظاهرة تبدو كما لو كانت إمكانية محتملة، ولابد من التسليم بأن كل ما لم يكن عبثًا لا يعنى تناقضًا، أى التسليم من حيث المبدأ بكل ما يناظر فكرة الاحتمال من منظور ميتافيزيقى ومنطقى ورياضى فى الآن ذاته، ولو كان تحقق أى احتمال فى حالة محددة بعينها يستلزم أمورًا أخرى لابد أن توضع فى الاعتبار، فقول إننا نسلم من حيث المبدأ بإمكان الاحتمالات المذكورة لا يعنى التسليم بها دون تمحيص لكل أمثلتها الموثَّقة بضمانات جديَّة كافية، وليس علينا أن نطرحها جميعًا للنقد الذى نتركه للمحترفين، فمن منظورنا أن هذا أمر قليل الأهمية، فلو إن صنفًا من الوقائع كان ممكنًا فلا أهمية لمعرفة أن واقعًا بعينه من بينها كان صادقًا أم كاذبًا، والأمر الوحيد الذى يشغلنا هو كيفية تفسير هذا الصنف من الوقائع، ولو كان لدينا تفسير مُرْضى فلا لزوم للجدل، ونحن على علم تام بسلوك العالِم الذى يراكم وقائعًا شتى حتى يقتنع، ويعتمد على نتائج مشاهداته حتى يقيم عليها نظرية ما، لكن منظورنا بعيد عن ذلك، كما أننا لا نعتقد بأن الوقائع وحدها كافية لإرساء نظرية من أى نوع، فالوقائع يمكن تفسيرها دائمًا بنظريات أخرى، ونعلم أن الوقائع المذكورة ممكنة لإمكان ربطها بمبادئ نعرفها، وحيث إن هذا التفسير لا شأن له بالنظريات الأرواحية فإن من حقنا قول إن دراسات الظواهر مستقل تمامًا عن الأرواحية فضلًا عن أننا نعلم بواقع وجودها، كما أن لدينا شهود عيان لا يمكن التأثير عليهم بطرائق الأرواحية، فالحالة الأولى ترجع إلى تاريخ قديم، والأخرى من دوائر لا يمكن للأرواحية تخللها، ومن بلاد لا تعرف مذهبها ولا اسمها، فالظواهر كما أسلفنا ليست جديدة ولا هى مقصورة على الأرواحية، بل لدينا على العكس كل الأسباب لاعتبارها واقعية، ولكن من المفهوم أنها دائمًا موجودة بشكل عام باعتبار الغاية المقصودة، ولا نفع فى كافة الاعتبارات الأخرى.

ونعتقد أن هذه المحاذير والتحفظات لازمة لأننا نتعامل مع روايات اخترعها محتالون وأفاقون ومهرجون برهانًا على قضيتهم، وقد وردت حالات لا تُحصى من التزييف حتى إن الأرواحيين قد أُجبروا على إقرارها[1]، ولكن ذلك أبعد مما يعتقدون أنه احتيال فحسب، ولا نفهم لماذا يُصِرّ الممتنعون عن الكلام على تصديق الزيف المؤكد ويعتقدون أنه مقولة حاسمة فى صالحهم، ونفهم أن كل افتراء لابد أن يكون تقليدًا للواقع إلا أنه مشوَّهٌ على نحو أو آخر[2] ولكنه لا يربو عن محاكاة شيء موجود، وسيكون من قبيل الاحتيال تشريف الزيف بوهم أنه قادر على إنتاج أمر جديد تماما، وليس ذلك إلا شيء من خيال إنسانى يستحيل تحقيقه، أضف إلى ذلك أن جلسات تحضير الأرواح احتيال مركب من أكثر من صنف، وأبسطها أن الوسيط المحترف الذى يعجز عن إنتاج ظواهر واقعية يضطر إلى محاكاتها للحفاظ على ماء وجهه، ولذا كان أى وسيط يتقاضى أجرًا متَّهم سلفًا ولابد من مراقبته عن قرب بلا أى تحيُّز، والغرور فحسب هو ما يدفع الوسيط إلى الغش، وقد انكشف الخطأ الفاحش لمعظم مشاهير الوسطاء، لكن ذلك ليس برهانًا على أنهم لا يحتكمون على ملكات حقيقية، ولكنه يثبت فحسب أن تلك الملكات ليست على الدوام خاضعة لإرادتهم، وفى هذه الأحوال يتأرجح الأرواحيون المتشددون من طرف إلى أقصاه، ومن ثم يعتبرون أى وسيط يقع فى هذه المغامرة زائفًا حتى ولو مرة واحدة، ويُفضل بعض الأرواحيون المتعصبون أن يعتقدوا أن وسطائهم قديسين، ويحيطونهم بهالة التراث الحق لكنهم مرضى فحسب، وهو أمر آخر تمامًا رغم النظريات الهزلية لبعض النفسانيين المعاصرين، ولابد من التحسب لهذه الحالة الشاذة التى تُفصِح عن نوع آخر من الاحتيال، فشأن الوسيط كشأن المهووس *hysteric* بحاجة ماسة إلى الكذب حتى بدون سبب أيًا كان، كما أن المنوِّمين يؤكدون ذلك على مرضاهم، وفى هذه الحالة تُختزَل المسئولية إلى أقصى حد حتى إنها لا تستحق اللوم، زد على ذلك أن الوسيط ميَّال إلى الإيحاء الذاتى *auto-suggestion* بل كذلك للإيحاءات الصادرة من الحضور حوله، وبالتالى سيعمل دون أن يدرى كُنه ما يفعل،

---

[1] وقد أخذ الوسيط دونجلاس هووم على عاتقه وعلى نحو معادى لزملائه أن ينكر كثيرًا من الحيَل ويفسرها على صفحات *Les Lumièr at les Ombre du Spiritualism, pp 186-235.*

[2] *Theosophy, chap. 4.*

ويكفى أن يكون إنتاج ظواهر بعينها أمرًا متوقَّعًا منه حتى إنه يتم على نحو آلى[3]، وهكذا كان هناك محتالون نصف واعون وكان غيرهم غائب الوعى تمامًا عندما يعكف الوسيط على انتحال قدرة لا يملكها فى حاله المعتاد، ويمتاح كل ذلك من نفسية منحرفة، وهى أمر لم يتعرض لدراسة كما ينبغى أن تكون، ويعتقد كثير من الناس أن هذا حقل يستحق البحث بما فيه مجال المحاكاة *simulations*، وسوف ننتقل الآن إلى جانب آخر من مسألة الدجل، ولكن نعبر أولًا عن أسفنا لأن المفاهيم المعتادة للنفسانيين ووسائلهم فى البحث بالغة الضيق حتى إن ما نتناوله هنا يفلت منهم تمامًا عندما يريدون دراسة أمور لا يفقهون عنها فتيلا.

ولسنا الوحيدون الذين يعتقدون أن دراسة الظواهر يمكن إجراءها بعيدًا عن نظريات الأرواحيين، وهذه أيضًا نصيحة من يسموا 'علماء الطبيعة *physisits*' وهم تجريبيين لا منحازين، والذين عادة ما يستنكفون عن صوغ أية نظرية، وقد احتفظنا بمصطلحى 'نفسانى *psychic*' و'ظواهر نفسانية *psychic phenomena*' بموجب شيوعهما، وليس عندنا ما يفضلهما، لكنهما ليستا محصَّنتان من النقد، ونقول بانضباط تام إن كلمتا *psychic* و *psychological* مترادفتان تمامًا رغم مخالفه ذلك لمعناهما الشائع فى علم النفس الكلاسيكى حتى لو افترضنا احتمال وجود صلة واهية بهذا العلم، ثم إن التجريبيين يخدعون أنفسهم من منظورنا حينما يعتقدون بقدرتهم على جمع كل تلك الوقائع بلا تمييز فيما يسمى 'نفسانى عضوى *psycho-physiological*'، والواقع أن فى هذا المجال وقائع من نوعيات مختلفة، ولا يمكن أن تُختزل فى تفسير واحد، إلا أن معظم الباحثين لا يخلون من أفكار سابقة كما يتوهمون، أما 'الأخصائيون' فعندهم ميل لا إرادى فى حشر كل شيء فى نطاق دراستهم، أى إن 'علماء الطبيعة' عندما يعلنون استنتاجاتهم لابد من الحذر والتحفظ فى قبولها، فحتى مشاهداتهم محملة بالضغائن، والتجريبيون عمومًا مغلقون فى أفكار بعينها عما يمكن وما لا يمكن، وينكبون بأقصى إيمان ممكن على حشر الوقائع التى تتفق مع إيمانهم بلا مبرر، ومن ناحية أخرى فإن أشد

---

[3] كما أن هناك حالة الوسطاء الزائفين بوعى أو بدونه وربما كان جزئيًا على الأقل واقعون تحت نفوذ إيحاءات تبدو لهم أداة لفعل غامض، راجع ما كتبناه عن تجلى الظواهر فيما يسمى 'جون كينج' فى كتابنا عن الثيوزوفية 'تاريخ دين زائف'. ترجمات تراث واحد قيد النشر.

المناوئين للأفكار الأرواحية يمكن أن يتأثروا بها رغمًا عنهم، وسواءً أرغبوا فى ذلك أم لم يرغبوا، وأيًا كان الحال فمن المؤكد أن الظواهر المقصودة يجوز أن تكون موضوعًا للعلوم التجريبية كغيرها على اختلافها ولكنها من المرتبة ذاتها ولا تهم كثيرًا ولا قليلًا، ولا نرى فى ذلك إلا مسرة للذين يصفون تلك المظاهر 'بالتعالى' *transcendent*، وهو عبث خالص، وتستدعى الملحوظة الأخيرة مصطلح 'النفسانية' *psychism* رغم خطئها، وهى على كلٍ مقبولة أكثر من 'الميتافيزيقا' التى اخترعها د.ريتشيه *Dr Charles Richet* وتبناها د. جيلى *Dr Gustav Geley* وآخرون دون تبريرها بأى تشاكل[4]، وأيًا كان رأيهم عن طبيعة الظواهر وأسبابها فليست إلا 'نفسانية' ولا تذهب إلى ما ورائها، والواقع أن بعضها يسقط إلى ما دون ذلك، زد على ذلك أن دراسة أى صنف من الظواهر شِطرٌ من علوم الطبيعة بمعناها العام، والذى فهمه القدماء بمعنى 'معرفة الطبيعة'، ولا علاقة له بالميتافيزيقا التى تعنى 'ما وراء الطبيعة'، ولذا كانت نائية عن مطال أى تجريب كان، وليس هناك ما يُضاهى الميتافيزيقا ولا ما يوازيها[5]، والذين يعرفون كنهها يعلمون أنها لا تقبل الجدل مهما كان تشدد المحاكاة، وفى أيامنا هذه يعجز أصحاب العلوم والفلسفات عن تحصيل أدنى فكرة عن ماهيتها.

وقد ذكرنا سلفًا أن هناك كثيرًا من الظواهر النفسانية، ونضيف إلى ذلك أن النطاق النفسانى يبدو قابلًا للتمدد إلى كثرة من النطاقات الأخرى غير الأرواحية، فهى متطفلة تستغل كثيرًا من الوقائع لصالح أفكارها، وهى مظاهر لا تنتج عن ممارستها حيث إن 'التخاطب مع أرواح الموتى' لن نتدخل فيها، وسوف نتجاوز عن ذكر 'الظواهر الأسرارية' *mystical* بمعناها اللاهوتى الصحيح، فهذه الظواهر تروغ من كفاءة الدارس المعتاد تمامًا، ونذكر هنا تلك الوقائع التى تدخل فى نطاق التخاطر *telepathy* الذى يتجلى

---

[4] وقد طلعت علينا ما تسمى 'جمعية دراسات التصوير الفوتوغرافى المتعالى *Societé d'etudes de photography transcentale*' التى أسسها فوشية *Emmanuel Vouchez* وأدارها د. دى كورميل *Dr Foveau de Courmelles* بغرض تشجيع ومكافأة الصور التى تصور كائنات الفضاء وإشعاعاته، وما يثير العجب كيف يحرف معنى الكلمات عن دلالتها المعتادة.

[5] وقد قال د. ريتشيه مؤخرًا فى مقدمة بحثه 'رسالة فى الميتافيزيقا *Traité de Metaphysique*' فى أكاديمية العلوم حرفيًا ما نصه "وكما طرح أرسطو الميتافيزيقا فيما وراء الفيزيقا فإننى أطرح بعد النفسانى 'ما وراء النفسانى'" ويستعصى على المرء أن يكون أشد من ذلك تواضعا!

واقعياً فى الكائنات الحية[6]، ومزاعم الأرواحية التى تنبو عن التصديق تعقيباً على أمور متنوعة تسهم فى تفاقم الفوضى الضاربة بين العوام، وقد واتتنا مناسبات شتى لتوكيد أن هناك من يخلط بين الأرواحية بالمغاطيسية وحتى بالتنويم المغاطيسى، وربما لا ينتشر الخلط لو كفَّ الأرواحيون عن العبث بالوقائع التى تنأى عن مجالهم، فمن بين الظواهر التى تطرأ فى جلسات الأرواحية تلك التى تشير إلى المغناطيسية أو التنويم، والتى لا يربو دور الوسيط فيها عن دور من يمشى أثناء نومه، ثم هناك الظواهر الأرواحية التى يسمونها 'تناسخًا *incarnation*' كما تسمى 'حالات ثانية' كما تسمى تسمى خطئًا 'شخوص متعددة *multiple personalities*'، والذى يصادف تجليه حالات المرضى والمنوَّمين، لكن تفسيره الأرواحى مختلف تمامًا بالطبع، وتلعب الإيحاءات دورًا قائدًا فى كل ذلك، فالإيحاءات أو تداول الأفكار مرتبط بالتنويم أو المغنطيسية، ومجرد حدوث هذا الارتباط يُفقِد الأرواحية حق انتحالها، لكننا لا نرى سبباً لألا تُضاف هذه الظواهر إلى مجموعة 'النفسانية'، والتى لم يجر تعريف حدودها على وجه الدقة، وربما كانت وجهة نظر التجريبيين المحدثين لا تتقابس مع معالجة علم واحد فحسب، وهو ما يشكل غايات علوم متعددة عند الذين الذين يدرسون هذه الأمور بطريقة مختلفة، ويعرفون ما تتعلق به على نحو أفضل.

ويؤدى بنا ذلك إلى الحديث عن النفسانية، ولو كان الباحثون فى هذا المجال لا يصلون إلى نتائج مُرْضِية فليس ذلك من جرَّاء أنهم يعالجون قوى لا يعلمون عنها شيئًا بل على الأخص لأن تلك القوى لا تعمل على وتيرة واحدة على منوال الذين يتلاعبون بها، ذلك أنها لا تخضع لمناهج المشاهدة التى يتَّبعونها، فالعلماء لا يملكون الزهو بالعلم بطبيعة الكهرباء على سبيل المثال، لكن ذلك لا يردعهم عن تناولها بمنهاجهم 'الظواهرى *phenomenist*' ولا عن استخدامها عمليا، ولابد أن يكون هناك أمر أو آخر فى الحالة الراهنة غير جهل التجريبيين الذى يستكينون إليه، ولابد لنا من الوعى بأن كفاءة 'الأخصائى' شديدة الضيق والمحدودية فيما خرج عن حقل تخصصه وسلطته

---

[6] وقد جمع جيرنى *Gurney* و مايرز *Myers* و بودمور *Bodmore* أعضاء جمعية البحوث النفسانية فى لندن كثيرًا من هذه الوقائع فى كتاب بعنوان 'توهمات الأحياء *Phantasms of the Living*'، والذى انحرف تماما عن نوايا كُتَّابه وفضح ضيق منظور العلوم الرسمية من واقع اهتمامهم بظواهر واقعية.

العلمية التى يزعم بتفوقها على ما سبقها أيًا كانت تلك الكفاءة، ولا يتميز فيها إلا دقة المشاهدة بدرجة ما، وهى ميزة لا نفع منها إلا التعويض عن تشوهات احترافية بعينها، ولذا كانت التجارب النفسانية التى أجراها كروكس *Crooks* لا تتميز فى منظورنا بأى أهمية استثنائية، ونحن تسلِّم بكفاءته فى الكيمياء والطبيعيات، ولكننا لا نرى مبررًا لتمديدها على نطاق مختلف، ولن تمنع أعلى الألقاب العلمية التجريبيين عن الضلال بالوسطاء *mediums*، وربما كان ذلك ما حدث فى حالة كروكس، ولكنه ما جرى قطعًا للدكتور ريتشيه، وقل مثل ذلك على الأحداث الشهيرة التى جرت فى فيلَّا كارمن بالجزائر والتى لن تُصلح من حصافته، لكن هناك ظروف مخفِّفة فى أن تلك الأمور عادة ما تعمل على تضليل علماء الطبيعة ووظائف الأعضاء وحتى النفسانيين كنتيجة بائسة للتخصص، وليس هناك أكثر سذاجة من الدارسين الذين يتخطون نطاق خبرتهم، ولم نر مثلًا أفضل من المجموعة الخيالية من التوقيعات التى قدمها المزور الشهير لوكاس *Vrain Lucas* للرياضى تشارلز *Michel Charles* باعتبارها أصلية، ولم يسبق لعالِم فى الطبيعيات أن يبلغ درجة مماثلة من التصديق[7].

ولا يقتصر الأمر على أن التجريبيين يجدون أنفسهم عُزَّلًا بنقص معرفتهم بطبيعة الوسطاء النفسانية وموضوعات أخرى، ومن ثم يتعرضون لمخاطر جسيمة، وأولها منهاج إجراء تجارب فى نطاق يختلف عما تعودوا عليه، وأحيانًا ما يجدون أنفسهم فى حرج لا يريدون الاعتراف به حتى لأنفسهم، ولا يفهمون أن هناك وقائعًا لا يملكون التعبير عنها كيفما اتفق، ولكنهم ينكبّون على فرض شروط تعسفية أو مستحيلة مثل التفسير باهر الوضوح لظواهر لا غنى لها عن الخفاء، وربما ضحكوا على من لا يفقه شيئًا فى الطبيعة أو الكيمياء عندما يبين جهله بقوانينهما إلا أنهم يحاولون مشاهدة ظواهر حقيقية بأى ثمن، لكن العلماء ذاتهم ينكرون نظريًا الاعتراف بمحدودية التجريب، ويطلبون ما يعجزون عن تقديمه، ذلك أنهم قد التزموا بالقصر على طريقتهم فى تناول الأمور، ويتوهمون أنها الطريقة الوحيدة لكل المعارف قاطبة، فالأخصائى أقل استعدادًا من أى شخص على تبيُّن الحدود التى تخرج عن نطاق معرفته، وأخيرًا أخطر الأمور جميعًا هو أن من الخَرَق

---

[7] ويُعتبر بوانكاريه *Henri Poincaré* أكثر كياسة ووعيًا من كثير غيره بنقص استعداده حتى إنه رفض محاولة التجريب على إيوسوبيا بالادينو، وكتب أنه كان واثقًا من محاولة استغفاله.

إثارة قوىً لا يعلم عنها فتيلًا، وفى ذلك فإن ’علماء الطبيعة‘ لا يزيدون إلا قليلًا عن الأرواحيين العاديين، فهناك أمور لا يجوز المساس بها بحصانة فى غياب مذهب رشيد يحفظ من الضلال، ولا نملك تكرار هذا التحذير بما يكفى خاصة فى سياق الضلال الراهن والنتائج الكارثية للتجريب فى تلك القوى، فتعداد الذين فقدوا عقولهم جسيمٌ حقًا، والعلوم الرسمية عاجزة عن طرح أقل إرشاد كان، فلا نفتأ نرى من علماء الطبيعة من تفوق فى الضلال، ونضم إليهم كل من انكب على نوايا ’علمية‘ فَحَّة فى حين يصبأ إلى الأرواحية، ومن سوء الطالع أن الذين يعرفون كيف يفكرون يسلمون باحتمال صحة الفرضيات الأرواحية، إلا أن الباحثين الذين لا يرون لماذا تعيَّن على المرء إنكارها ’بدهيًا *a priori*‘ خشية نقص عدم الانحياز الذى التزموا به، ورغم أنهم بالطبع لا يصدقون فرضيات الأرواحيين إلا أنهم لا ينكرونها تمامًا، ومن ثم يتمسكون بالشك ببساطة، وهو ما ينأى عن الرفض السافر والقبول الصريح كليهما، وللأسف أن الذين يبدئون دراساتهم النفسية من هذا المنطلق أشد الناس عُرضة للانزلاق إلى الأرواحية وهم ذاهلون وليس العكس، فإطارهم الذهنى يشارك الأرواحية فى نقطة واحدة على الأقل، والذين يعتبرونها ’ظواهريًا *phenominalogically*‘، ونحن لا نستخدم هذه الكلمة بمعناها الشائع فى النظريات الفلسفية، بل نقصد بها تسمية لخرافة الظواهر التى تعتبرها الروح العلمتية *scientistic spirit* مسألة أصولية، أضف إلى ذلك نفوذ المناخ الأرواحى الذى لا مناص للنفسانيين فيه من الاتصال به على نحو غير مباشر على الأقل، حتى لو اقتصر الوساطة والوسطاء الذين يعملون معهم، وهذا المناخ مصدر مخيف للإيحاء الجماعى المتبادَل، فلا مناص من تأثير المجرِّب على الوسيط، ولو كان عند ذلك الوسيط أية أفكار مسبقة مهما كانت غامضة فإن نتائجها زائفة قطعًا، ودون أن يشعر المجرِّب بتأثير إيحاءات الوسيط غير الصحية لولا واقع أنها تؤثر على الوسيط ذاته، وأقل ما يُقال عنها إنها كمٌّ مُهمَل، وفى هذه الحالة يقع عالِم الطبيعة تحت رحمة كل ما يحدث، وما يحدث غالبًا لا يربو عن أمر عاطفى، فقد أظهرت الوسيطة إيوسوبيا بالادينو شبح أم لامبروزو، وتلقى سير أوليفر لودج اتصالًا من ابنه الذى قُتِل فى الحرب، ولا حاجة بنا إلى براهين أخرى على هذه ’الصبوات‘، وربما كانت هذه الحالات أكثر شيوعًا مما نظن، فهناك مفكرون لا يجرؤون على التسليم بالتطور خشية افتضاح أمر من ماضيهم، فيعلنون صراحة

أنهم أرواحيين، أو على الأقل يظهرون تعاطفًا مع الأرواحية، كما أن هناك من لا يرغبون فى إعلان انشغالهم فى الدراسات النفسانية كما لو كانت ثَلّمًا أخلاقيًا عند زملائهم فضلًا عن العامة، وهكذا أخفت مدام كورى ومسيو دارسونفال حقيقة انشغالهما لفترة طويلة بهذا الصنف من التجريب، ومن المفيد فى هذا الصدد أن نقتبس سطورًا من مقال قديم فى مجلة *Revue Scientifique* عن كتّاب د. جيبيه المذكور عاليه،

"وقد دعى د. جبييه إلى تشكيل جمعية لدراسة هذا الفرع الجديد للفسيولوجيا النفسانية *psychological physiology* الذى اعتقد أنه الوحيد من بين الباحثين الأكفاء إن لم يكن أولهم فى الانشغال بهذه المسألة، وليطمئن د. جيبيه ويرضى بأن هناك كثيرًا من الباحثين الأكفاء الذين بدأو منذ أول أمرهم فى تحقيق بعض النظام فيما يفوق الطبيعة، كذا، وانشغلوا بهذه المسألة ولا زالوا يعملون عليها دون إثارة للعامة"[8].

ويبعث هذا المسلك على الدهشة عند المغرمين بالدعاية، والذين يزعمون عادة أن كل ما تعلق بهم لابد أن يُذاع على أوسع نطاق ممكن، ولنضِف إلى ذلك أن مدير تحرير *Revue Scientifique* فى ذلك الحين كان د. ريتشيه، والذى كان على الأقل من الذين لم يلتزموا بهذا التحفظ الحميد.

ولكن لازال هناك ما يُقال دون اعتماد على الأرواحية عن أن علماء طبيعة بعينهم على صلة وثيقة بالأرواحية الجديدة عمومًا أو أنهم قد اجتذبوا إليها عددًا من مدارسهم، وقد كانت الثيوزوفية على وجه الخصوص تفخر بأنها ضمت إلى صفها كثيرًا من مراتبها، وقد قرأنا منذ حين عندما نشرت مطبوعاتها توكيد للقراء كما يلى،

"ليس كل العارفين المشهورين الذين انشغلوا بدراسة الأرواحية قد اتخذوا منظورًا مقاربًا لمنظور الثيوزوفيين، وأن أعرضهم شهرة أعضاء فى الجمعية الثيوزوفية"[9].

ومن المؤكد أن الأرواحيين يزعمون ببساطة أن كل الذين تناولوا دراستها ليسوا مناهضون

---

8 *Revue Scientifique, Nov., 1886 pp 631-632.*

9 *Le Lotus, Oct., 1887.*

لها، لكن الثيوزوفيين كانوا أقل استعدادًا لادعاء أن بعض أعضائهم قد انشغلوا بهذا النوع من التجريب، ويحسن بهم تذكر مَثَل مايرز وغيره من أعضاء جمعية الدراسات النفسانية فى لندن، وكذلك د. ريتشيه الذى كان الوحيد الذى التحق بجمعيتهم ثم هجرها، ولم يكن آخر من أنكر ترَّهات مدام بلافاتسكى فى فرنسا التى فضحتها جمعية البحوث النفسانية[10]، وأيًا كان الحال فإن العبارة التى اقتبسناها لتونا تنطوى على إشارة إلى فلاماريون، والذى كان دومًا أقرب إلى فكر الأرواحية منه إلى الأفكار الأخرى، كما أنها انطوت على مرجع من وليم كروكس الذى انضم إلى الثيوزوفية عام *1883*، كما كان عضوًا فى مجلس محفل لندن، أمّا عن د. ريتشيه فقد كان دوره مسالمًا للحركة الأرواحية الجديدة بموجب ميولها الإنسانياتية، وللذين يألفون هذه الحركات فإن خصائص تلك المصادفات أشد وضوحًا مما افترضنا، وقد طرحنا فى سياق الأفكار ذاتها الميول المناهضة للكاثوليكية عند بعض علماء الطبيعة على شاكلة د. جيبيه، والذى كان يتحدث عن التيارات المناهضة للدين عمومًا طالما ظل ’دين العوام‘ بلا مساس، وكان فوفيتى *Charles Fauvety* أول من سك مصطلح ’دين العوام‘ وكان رسولًا للأرواحية فى فرنسا، وتكفى السطور القليلة التالية لتصوير تلك الخطابة،

> "إننا مؤمنون بالعلم، ونعتقد أنه سوف يُخلِّص البشرية إلى الأبد من كل أنواع البراهمة (ويعنى الكاتب الكهنة)، وذلك الدين أو بالحريِّ الأخلاقية سوف تغدو علمية، وسيمثلها فى المستقبل قسم من أكاديميات العلوم"[11].

ولا نفع فى تأمل تلك التُّرَّهات التى تثير الاشمئزاز، ولكن نجد فيها مُدخلًا لدراسة عن الذين يداومون على ذكر ’العلم‘ ثم يجرُّونه إلى أمور تخرج عن نطاقه بشوط شاسع، وهى أحد صور الخلل الفكرى عند معاصرينا، ألا نرى فى ذلك ’أسرارية علمية‘ وحتى

---

[10] من خطاب اقتبسناه فى الباب السادس من كتاب ’تاريخ دين زائف‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر ، وقال د. ريتشييه إنه تعرف على مدام بلافاتسكى عن طريق السيدة كارولين دى بارو، وهى الشخص الذى قام بدور مهم فى حلقة د. جيبييه، كما يبدو فى مديح العارف العظيم النزيه بورنوف "ونذكر على الأخص العمل العظيم للكاتب ليبلوا *Louis Leblois* من شتراسبورج الذى ندين له بمعرفتنا لسيدة عظيمة الشأن هى كارولين دى بارو، وكتاب ليبلوا *Les Bibles et les Initiateur religieux de l'humanité* الذى ظهر بعد كتاب كتابٍ جاكولييه الذى عدَّل فكر د. جيبييه عن الأفكار الزائفة فى الهند ومذاهبها"، وهو ما أشرنا إليه سلفًا.

[11] *Le Spiritisme, p 383.*

’أسرارية مادية‘ وبرهانًا على على انحراف العاطفة الدينية والأرواحية الجديدة؟[12]

وكل ما قلنا عن الباحثين المذكورين يجرى كذلك على الفلاسفة الذين اشتغلوا بالنفسانية *psychism*، وهم أقل عددًا لكنهم موجودون، وقد أتيحت لنا الفرصة[13] لطرح حالة وليم جيمس الذى اعتنق الأرواحية فى أواخر حياته، ونؤكد على ذلك نظرًا لأن هناك من يتهمنا بالخشونة فى تصوير الفلاسفة كأرواحيين و’شيطانيين لاواعين‘، وننبه معارضينا من أى معسكر كان أننا نحتكم على براهين أكثر من ذلك خشونة، وخشونتها لا تمنع مطلقًا من واقعيتها، ولو علموا ما نعتقد عن معظم الفلاسفة المحدثين المعجبين ’بعظماء الرجال‘ لكان أمرًا صادمًا لهم، أما عن ’الشيطانية اللاواعية‘ فسوف نتناولها لاحقًا، وأما عن أرواحية وليم جيمس فقد كانت تتعلق فحسب بحصيلة أواخر حياته بما يعنى أن آراؤه قد اختلف ببون شاسع، فمن المعلوم أنه عكف على محاولة التواصل بكل ما أمكنه من جهد مع أصدقائه الموتى و’التجريبيين‘ فيما بعد الموت الذين عملوا فى الاتجاه ذاته، وقد كان العهد الذى قطعه ’لصالح العلم‘ يقطع كذلك بتسليمه بالفرضيات الأرواحية[14]، وهى مثلمة جسيمة لفيلسوف، ولدينا ما يبرر الاعتقاد بأنه ذهب إلى أبعد من ذلك فى الاتجاه نفسه، ومن نافلة القول إن عددًا غفيرًا من الوسطاء الأميريكيين قد سجلوا ’رسائل‘ موقعة باسمه، وتذكرنا هذه الرواية بالمخترع الأميريكة إديسون الذى ادعى مؤخرًا أنه اكتشف طريقة للتواصل مع الموتى[15]، ولا نعلم شيئًا عن النتائج التى تمخَّضت عنها، وقد التفت المسألة بستار من الصمت، ولكننا دائمًا ما لا نأبه لتلك النتائج، ولكن القصة تصوير لمآل كثير من العلميين الذين كنا نعتقد أنهم ’وضعيين *positivist*‘، ولكنهم لم يكونوا محصَّنون من عدوى الأرواحية، ولكن لنعد إلى الفلاسفة، وقد ذكرنا منهم

---

[12] وقد اخترع أوجست كومت ’دين الإنسانية‘ كأحد الأمثلة التى تصور ما نتحدث عنه، لكن الانحراف ذاته موجود بلا حاجة لهذا الإسراف.

[13] *Theosophy, chaps 3 and 12.*

[14] وقد كان هذا مسلك الفيلسوف الفرنسى إيميل بوارا فى مذكرة بعنوان *L'Ētude scientifique du spiritism* فى مؤتمر ’النفسانية التجريبية *Experimental Psycology*‘ عام *1911* حيث أعلن أن فرضيات الأرواحية تمثل أحد التفاسير الممكنة للوقائع النفسية ولا يجوز رفضها ’بدهيا‘ باعتبارها نقيضة للعلم، ولكنها يقينًا نقيضة للميتافيزيقا، وهى أعظم أهمية وأظهر دلالة.

[15] وقد بنى اثنان من الألمان هما زالبرج فان زيلت و ماتلا ’ديناميستوجراف‘ أى آلة للتواصل مع العالم الآخر بلا وسطاء.

سلفا هنرى بيرجسون و وليم جيمس، ونكتفى عن جيمس باقتباس طرحناه عاليه "سيكون حدثًا جُللا أن نستطيع حساب احتمال بقاء الإنسان بمقدار *X* من السنين"[16]، وتدعو هذه العبارة إلى القلق على أقل تقدير، وتبرهن على أن كاتبها قد تدنَّى إلى مستوى قريب من أفكار الأرواحية الجديدة، وهو ما يثير الأسى على الذين وضعوا فيه ثقتهم، ومن ثم خاطروا بالسير فى طريق وعر، ولا تستحق الفلسفة أكثر من العلم فى الحرص من العبث بموجب عجزها عن تفسيره بأى درجة من الوضوح عن أن الفرضيات الأرواحية استحالة مطلقة.

وحتى لو تركنا الذين لهم وطر فى الأرواحية فيمكن ضرب أمثلة أخرى تبرهن على أن نفرًا وافرًا من النفسانيين يتعاطفون مع الأرواحية الجديدة، ففى فرنسا كانت الغيبية خصوصًا بالمعنى المفهوم فى الباب الأخير الذى كان له أثرًا غامرًا على معظم الفيزيائيين، وقد كانت نظريات د.جراسّيه *Dr Grasset* تناهز أعمال هؤلاء الغيبيين، وقل أكثر من ذلك عن د. دوران *Dr Duran* ود. ديبوى *Dr Dupouy* ود. بارادو *Dr Baraduc* وكولونيل دى روشا *de Roshas*، وقد ذكرنا قليلًا من هذه الأسماء جُزافًا ولن يستعصى ذكر النصوص التى تثبتها لولًا حرصنًا على ألّا نخرج عن إطار موضوعنا، لكننًا نتساءل عمًا إذًا كان يكفى تفسيرًا لها واقع أن نطاق النفسانية لم يعُرَّف على نحو واضح، أو بافتراض تواتر حالات مناظرة شتى كانت نتائج غير مؤكدة لبحوث مندفعة فى مجال أخطر أثرًا مما عداه، ورجال ذاهلون عن أبسط الاحتياطات اللازمة لتناوله بأمان، وختامًا نضيف أن النفسانية مستقلة تمامًا عن الأرواحية وكذلك عن كافة مزاعم الأرواحية الجديدة، ولو رغبت فى أن تكون علمًا تجريبيًا صرفًا لأصبحت مستقلة عن النظريات جميعا، والواقع أن النفسانية قائمة على الاعتقاد بالأرواحية الجديدة، وهذه الحال أشد استحقاقًا للأسف من واقع طبيعة الأمور التى تضفى ضوءًا مسيئًا لذكاء الإنسان الجاد، وهى ثلمٌ يؤدى إلى ترك المجال منفتحًا للمهرجين والمختلّين.

---

[16] *L'Energie Spirituelle.*

7 تفسير الظواهر الأرواحية

لم نكن ننوى طرح دراسة عميقة للظواهر الأرواحية، ولكن لابد على الأقل من طرحها بإيجاز كمقدمة لمقولة حاسمة تناقضها وبيان أن فرضياتها مجرد نفايات، ولن نتَّبع طرحًا منطقيًا صرفًا، وينبغى ملاحظة أنه باستثناء اعتبار الظواهر ذاتها، فإن هناك ما يكفى تمامًا لإنكار الفرضيات المذكورة بموجب استحالة النظرية، كما ينبغى البحث عن تفسير مُرضى للظواهر، ولكن حيث إن عقلية زماننا ملتوية تمامًا نحو التجريبية فلابد من الاستعداد للتسليم باستحالة نظرية دون تمحيص لبراهينها ودون تحيُّز بما يؤيد صحتها حتى لو تبين مقدمًا أنها عديمة النفع، وأن هناك نظريات بديلة يجوز أن تكون برهانًا لصالحها، ومن ناحية أخرى يهمنا أولًا قول إن كثيرًا من الوقائع وليس كلها لا تنتمى إلى العلم المعتاد، ولا يمكن حشرها فى تصنيفات حديثة ضيقة، فالوقائع المقصودة كامنة خارج الفسيولوجيا وعلم النفس الكلاسيكى على عكس ما يتوهم بعض النفسانيين الذين انخدعوا فى هذا الصدد، كما لا نشعر باحترام لأحقاد العلم الحديث، ولا نعتقد أننا بحاجة إلى اعتذار عن ذلك، فإن غرابته واضحة لبعض الاعتبارات التى يجئ ذكرها فيما بعد، ولكن يحسُن توقع العثور على الأسباب التى تمخضت عن العادات الفكرية الراهنة التى تؤدى ببعض القراء إلى اعتبار غرابتها، وليس ذلك لقول إننا لا نسبغ على الظاهرة النفسانية أية سمة 'متعالية'، كما أنه ليس هناك ظاهرة من أى نوع كان لها صبغة غريزية، لكن ذلك لن يمنع احتمال وجود ظواهر من هذا النوع تستعصى على مناهج الغرب الحديث، والتى ليست 'متقدمة' كما يزعم المختالون بها، أو على الأقل يجوز أن تكون متقدمة فى نقاط بعينها، فحتى السحر يخلو من أى تعالٍ رغم أنه علم تجريبى، فما يمكن اعتباره 'كهانة *theurgy*' يُشاكل السحر من حيث إجراءاته إلا أن غاياتهما على طرفى نقيض، وما ينتمى إلى المقام المتعالى ليست إلا الغاية وليس الظاهرة، وحتى نكون مفهومين على نحو أيسر نقتبس من تشاكل ورد فى المذهب الكاثوليكى، فهناك ظواهر فى حياة القديسين تبدو كما لو كانت فى حياة السحرة كذلك، وفى الحالة الأولى فحسب تسمى 'كرامات أو معجزات'، أما فى حالة السحرة فهى خارقة للعادة

preternatural، ولو حدث أن كانت الظاهرتين متماثلتين فإن التضاد قائم فى الغايات فحسب وليس فى طبيعتهما، بل فحسب فى صيغتهما وظروفهما التى تضفى على الظواهر مظهراً يفوق طبيعتها، وحينما تكون النفسانية عُرْضة للتساؤل فمن نافلة القول ذكر خلوها من أية تعال، وسواءً أكانت من ظواهر الأرواحية المعتادة أم من المغاطيسية والتنويم، أو من أى مصدر آخر يتعلق بهذه الممارسات، فهناك على سبيل المثال ما يسمى 'الظواهر الأسرارية *mystical phenomena*' والتى تبقى خارج نطاق هذه التفاسير تماماً، كما أننا لسنا بحاجة إلى فحص كافة النظريات النفسانية بلا تمييز، بل نقتصر على ما له علاقة بالأرواحية، كما أننا نترك ظواهر التناسخ التى عالجناها سلفًا، كما نترك فن الشفاء 'بالوسطاء المعالجين'، والتى يمكن اختزالها إلى الإيحاء أو المغناطبسية، فمن الواضح أنها قابلة للتفسير بعيدًا عن فرضيات الأرواحية، ولا نقصد القول بسهولة تفسير الوقائع من هذا النوع، لكن الأرواحيين لا يملكون ادعاء إلحاق مجالا التنويم والمغاطيسية بالكامل بمذهبهم، وإلى جانب ذلك يمكن استيضاح المعلومات المتاحة عنهما إلى حد ما.

وبعد هذه الملاحظات العامة اللازمة لإرساء معاملات المسألة نذكر مبادئ نظرياتهم فى تفسير الظواهر الشتى للأرواحية، والتى اعتقد د. جيبييه بإمكان اختزالها إلى أربعة أنماط فحسب[1]، وليس تصنيفه بلا شوائب لكنه صالح كنقطة انطلاق، وقد أطلق على منهجه اسم 'نظرية الوجود الجمعى *Theory of the collective being*'، والذى عرَّفها كما يلى،

> "إن هناك سائل خاص ينطلق من الوسيط ليندمج مع سوائل الحضور لتشكيل شخص جديد مستقل بعض الشىء لإنتاج الظواهر المعروفة".

ثم تأتى نظريته 'الشيطانية *demoniac*' التى تقضى بأن "كل شىء ناتج عن عمل الشيطان أو من يؤيده"، وهو بمثابة اختزال الأرواحية إلى السحر، وثالثًا تأتى نظريته ذات الاسم الناشز 'النظرية الغولية *gnomic theory*'، والتى تقضى بما يلى،

> "إن هناك صنف من الموجودات تقوم على تشكيل العالم اللامادى اللطيف،

---

[1] *Le Spiritisme. Pp 310-311.*

وتعيش معنا جنبًا إلى جنب، ويتجلى حضورها بشروط مخصوصة، وقد عُرِفَت طوال الزمن بأسماء مثل الجن *genies* والجنيات *faries* والجنيات الهيفاء *sylphs* وجنيات الماء *sylvans* والغيلان *gnomes* وغيرها".

ولا نعلم لماذا اختار اسم الغيلان وليس أى اسم آخر برهانًا على صدق نظريته، والتى يصلها بنظرية الثيوزوفيين التى أطلقت على الظواهر اسم 'العناصرية *elementals*'، وأخيرًا نأتى إلى النظرية الأرواحية التى تقضى بما يلى،

"وترجع كل هذه التجليات إلى أرواح *spirits* الموتى أو إلى نفوسهم *souls*، والتى تتواصل مع الأحياء بتقمص فضائلهم أو مثالبهم كما لو أنهم لازالوا أحياءً".

وباستثناء نظرية الأرواحيين فكل هذه النظريات تنطوى على شظية من الحقيقة تفسر بعض الظواهر وليس معظمها، ويكمن خطأ دعاتها فى قصر كل شيء واختزاله إلى نظريتهم، أما نحن فلا نعتقد بحقيقة هذه الظواهر التى فسرتها نظرية أو أخرى من نظرياتهم، فكلها زاخرة بالحذف والتخليط، ولسنا من الذين يصدقون أن تبسيط التفسير ضمان لصحة المقولة، وقد يرغب المرء فى أن يكون ذلك ديدن الأمور مالم تكن ملتزمة برغباتنا، وما من سبب يدعو إلى ترتيبها على هذا المنوال فى التيسير على أفهامنا، وليست هذه المركزية الإنسانياتية *anthropocentrism* فى نظر كثير من العلماء والفلاسفة إلا أوهامًا ساذجة.

وتثير النظرية الشيطانية *demoniac* حنق الأرواحيين والعلماء معًا، فكلاهما يدَّعى إنكار وجود الشياطين، فعند الأرواحيين أنه لا وجود لشيء فى 'العالم الخفى' إلا الكائنات الإنسانية فحسب، وهذا أعظم تحديد اعتباطى يمكن تخيله، وحيث إننا سوف نفسر فيما بعد موقفنا من الشيطانية فلن نُسهب فيها حاليًا، ونلاحظ فحسب تناقض هذه النظرية التى لا يقل حضورها بين الغيبيين عنه بين الأرواحيين تصبح أقل قابلية للفهم عندهم، حيث إنهم ينكرون تدخل كائنات أخرى، وكان ذلك برهانًا على محدودية نظريتهم، ومن هذا المنظور تبدو النظرية 'الشيطانية' على علاقة بنظرية الدكتور جيبييه 'الغيلانية'، فأيًا كانت أسماء تلك الكائنات فهناك اتفاق عام على طريقة عملها، ولا نظن أنهم اعتبروها 'لامادية' بالمعنى الصحيح، زد على ذلك أن هذا الجانب من المسألة ليس

ذاته ما كان عند عامة القدماء والمحدثين على السواء، فمعنى فكرة ’المادة‘ و’الروح‘ عندهم قد شطح بونًا شاسعًا عن أصله، ومن ناحية أخرى فالطريقة التى ينظرون بها إلى هذه الكائنات التى ’تتشخص‘ لها مفهوم عام يُخفى الحقيقة بأكثر مما يفسرها، ويناظر المظاهر الأكثر تجليًا لحقائق عميقة، وهناك أمر إنسانياتى *anthropomorphic* أخر من أصل برانيٍ صرف يجوز وصله بنظرية ’العناصرية‘ التى استقت منها، وبالتالى أصبحت صورتها ’المُحَدَّثة‘، والواقع أن ’العناصرية‘ بمعنى الكلمة الاشتقاقى ليست إلا ’أرواح العناصر *spirits of the elements*‘، والتى صنَّفها علم السحر على أربعة أقسام، فالسحالى *salamanders* أرواح النار، والجنيات الهيفاء *sylphs* أرواح الهواء، والأوندونات *undenes* أرواح الماء، والغيلان *gnomes* أرواح الأرض، ومن المفهوم أن كلمة ’أرواح‘ لم ترد هنا بالمعنى الأرواحى ولا الروحى، بل هى تسمية لكائنات العالم اللطيف *subtle realm*، التى لها وجود مؤقت عابر، وبالتالى لا تحتكم على أى أمر ’روحى‘ فى المفاهيم المقبولة للفلسفة الحديثة، كما أن كافة التعبيرات البرانية للنظرية بمعناها الصحيح الذى سنعود إليه لاحقا، وقد أضفى الثيوزوفيون أهمية عظمى على فكرة ’العناصرية‘، وربما انتحلت مدام بلافاتسكى هذه الفكرة من فيلت *G.H, Felt* عضو محفل ’الأخوَّة الهرمسية بالأقصر‘، والذى زعم أنها تنتمى إلى مصر القديمة، وقد قامت عليهاالمذاهب وتعدلت وتمددت فى أعمال الثيوزوفيين والغيبيين الفرنسيين الذين استعاروها منهم رغم ادعائهم بأنهم لا يدينون لهم بشىء، كما أنها أحد النظريات التى لم يتضح موقف المدارس المختلفة منها، ولن نرغب فى حمل مهمة تصالح كل هذه الأمور التى قيلت عن ’العناصرية‘، لكن معظم الثيوزوفيون والغيبيون يتمسكون بآراء إنسانياتية غليظة، كما أن بينهم من سعى إلى إضفاء وهم ’العلمية‘ عليها بحيث تتخلص من تعاليمها التراثية ومعناها الجوانى، ومن ثم عكفوا على تطويعها للأفكار الحديثة أو اتبعوا شطحات خيالهم، كما رغب البعض فى ادعاء تماهيها مع مونادات لايبنيتز[2]، واختزلها البعض إلى ’قوى لاواعية‘ على طريقة بابوس الذى وصفها ’بكُراتِ دماء الكون‘[3]، كما سماها فى الآن

---

[2] محاضرة ألقاها *C.H.A Bjerregaard* فى الجمعية الثيوزوفية الآرية فى نيويورك فى *14* ديسمبر *1886*، *Le Lotus* سبتمبر *1888*.

[3] *Traité metaphtsique de Science occult, p 373.*

ذاته ’قدرات الوجود‘[4]، وقد اعتقد البعض أنهم يروا فيها ’أجِنَّة النفوس البشرية والحيوانية‘[5]، كما اتخذ البعض طريقًا نقيضًا ليدفعوا بالاضطراب إلى أقصاه بادعاء تماهيها مع ’البنى الروحية‘ فى القبالة اليهودية، ودفعوا بأنها تسمية للملائكة والشياطين الذين ’فقدوا الطابع الخيالى‘[6]، وكان الخيالى حقًا هو ركام المفاهيم البائسة التى اعتاد عليها الغيبيون، ولو وُجِدَ فيها أمر حقيقى فإنه لا ينتمى إلى الغيبيين بل كان أفكارًا قديمة أُسِئ تفسيرها، ويبدو أن الغيبيين قد أخذوا على عاتقهم خلط كل الأفكار وليس تفسيرها توخيًا لنظام أيًا كان.

وقد ضربنا مثلًا للتفسيرات الزائفة فى نظرية ’الأصداف النجميه‘ عند د. جيبييه الذى نسى تمامًا معنى لقبه العلمى، فلم تكن إلا انتحالًا من الغيبية التى انتحلتها بدورها من الثيوزوفية، وقد ذكرنا عاليه المعنى الحقيقى لفكرة ’الأصداف النجميه‘ الشوهاء بما يعفينا عن تكرارها، فيما عدا الطريقة التى تستلزم بها الظواهر تدخلا من ’أرواح الموتى‘ أو ما يبدو كذلك، فالوجود الحقيقى للموتى لن يأبه لها ولن يتأثر بها على أى نحو كان، أما ما يسمى نظرية ’العناصرية‘ التى اختلف عليها الغيبيون والثيوزوفيون بعض الشيء على منوال الحالات الأسبق فتبدو فى النهاية مفككة تماما، وأحيانًا ما تختلط بنظرية ’الأصداف‘، وأحيانًا أخرى ما تختلط بفكرة تماهيها مع الفرضيات الأرواحية ذاتها، ولا يتوقعون إلا محدودية هينة، فهم يصفون ’الأنا‘ بالعناصرية أو ’الأصداف النجمية‘[7]، ولا نعتقد أنه كان مخلصًا حينما تحدث عن تماثل لا تقبله الأرواحية، ولنستمر فى الاقتباس منه فيما يلى،

"إن المبادئ الوضيعة لو تعرَّضت لنور الذكاء فى النفس الإنسانية لكانت ما يسمية الأرواحيون "عناصرًا تحوم فى العالم الخفى"، فى حين أن المبادئ السامية تتطور على مستوى آخر.. وفى معظم الحالات فإن الروح التى تحضر جلسة التحضير ليست إلا بقايا عناصرية للشخص المقصود، أى أنه كائن لا يحتكم إلا على غرائزه

---

4 *Marius Decrespe, Les Microbes de l'Astral.*

5 *Ibid., p 39.*

6 *Jule Lermina, Magie Pratique, pp 218-220.*

7 *Traité méthodique de Science occult, p 347.*

وذكرياته عن الأشياء الدنيوية"[8].

وهذا صريح بما فيه الكفاية، ولو كان هناك اختلافًا بين ’الأصداف‘ وبين ما يسمى ’العناصريات‘ لكان أن الأول ’جثمان نجمى‘ حرفيا، فى حين كان الثانى كما يزعمون ’اتصالًا فى وسط سائل *fluidic link*‘، ولو كانت ’المبادئ السامية‘ تعنى أحيانًا أن عناصر الكائن الإنسانى موجودة فى موضع ما من الفضاء فإن الغيبيون ’بمستوياتهم‘ يتخذون صورة كثيفة للوقائع، ومن ناحية أخرى فإن تصريحاتهم التى ذكرناها لا تمنع الكاتب فى مواضع أخرى من الكتّاب ذاته من زعم أن ’العناصرية ‘ تشير إلى ’كائنات واعية‘ كما لو كانت ’الخلايا العصبية للكون *universe*‘، كما لا تمنعه من قول ’إنها هى التى تظهر للضحايا البؤساء للسحرة كهلاوس بصرية "على صورة الشيطان الذى يتحالفون معه"، كذا[9]، ويُعزى الغيبيون هذا الدور الأخير إلى ’العناصر‘ "التى تشكلها الأرواح الخالدة فى سجِلّهَا الأسمى من الجسد النجمى، وفى سجلها الأوسط من البدنى، وفى سجلها الأدنى من الأصداف"[10]، وبحسب هذه النسخة أن الإنسان الحق الكامل قد تشكل أثناء إقامته فى ’المستوى النجمى‘، وهو الرأى السائد بين الغيبيين والثيوزوفيين، ويسلم كلاهما بأن هذا الكائن يُمكن أن يُستَدعى وهو فى هذا الحال، أى فى الفترة ما بين ’الموت الجسدى‘ و’الموت النجمى‘ فحسب، كما يضيفون أن ’اللامتناسخون *disincarnete*‘ فحسب هم الذين يظهرون فى جلسات الأرواحيين بسهولة، وعادة ما يكونون من طبيعة دانية على منوال السكيرين والسحرة والمجرمين، وكذلك الذين ماتوا ميتة عنيفة وخاصة المنتحرين، ويقال إن التواصل مع هؤلاء بالغ الخطر، حتى إن الثيوزوفيين يسمونهم ’عناصر *elementaries*‘، أما الأرواحيون فهم يناقضون كلٍ هذه النظريات التى سردناها، ويبدو أنهم لم يوفقوا على هذه التنازلات، إلا أنها جدٌّ خطيرة حيث إنها تربو إلى "أن الأرواح ذاتها تعترف بأنها أرواح فاسدة" تتدخل فى الجلسات، ولكن حتى لو كان الأمر كذلك فحسب فعلى المرء اجتناب الأرواحية برمتها، والواقع أن هذا ما يوصى به زعماء الثيوزوفيين والغيبيون دون أن تكسب جماعات من أتباعها، وهم الذين

---

8 *Ibid., p 351.*

9 *Ibid., pp 373 and 909-910.*

10 *L'état de trouble et l'évolution posthume de l'etre humaine, pp 12-13.*

يبدو لهم أى شيء من قبيل الظواهر له جاذبية لا تُقاوَم.

ونأتى الآن إلى النظريات التى تسعى إلى تفسير تلك الظواهر بأعمال الإنسان الحىّ، والتى خلطها د. جيبييه فى مجموعة واحدة تحت عنوان 'نظرية الوجود الجمعى *theory of the collective being*'، والنظرية التى تستحق هذا الاسم مطعومة *grafted* فى نظرية أخرى لا تتفق معها بالضرورة، والتى سُمِيَت أحيانًا 'النظرية الحيوية *animist* أو *vitalist*' عند د. جيبييه، والتى يمكن أن تسمى 'نظرية السيولة *fluidic*' من منطلق أن هناك أمر فى الإنسان قابل للظهور البرانى، أى تخطى حدود الجسد، وقد أكدت بعض البحوث على أن ذلك هو الحال، ولا علينا إلا تذكر تجارب كولونيل دى روشا وغيره من النفسانيين الذين سموها 'استظهار الحواس *sensibility* أو الدوافع *motivity*'، ولا يعنى التسليم بذلك الالتحاق بأى من المدارس، لكن بعض الغيبيون شعروا بالحاجة إلى تصوير ذلك 'بشىء' مثل 'سائل عصبى أو حيوى'، وكانوا فى ذلك على ديدنهم فى 'تسييل' كل شىء كان، والواقع أن التسييل عندهم يضاهى ما كان عند المغناطيسيين، فهو *od* عند رايخباخ *Reuchenbach* والذى أراد البعض وصله 'بالإشعاع اللامنظور' فى علم الطبيعة الحديث[11]، والذى ينفصل عن جسد الإنسان على صورة سائلة، والذى يعتقد البعض بإمكان تصوره فوتوغرافيا، لكن ذلك مسألة أخرى خارج موضوعنا، أما الأرواحيون فقد اقتبسوا فكرة 'السوائل' عن مذهب المسميرية *mesmerism* واستخدموه كذلك فى تفسير ظاهرة الوساطة، وقد ظهر الاختلاف بموجب احتياج الأرواحيون إلى 'روح' لاستظهار 'سيولة' الوسيط، بينما افترض الغيبيون والنفسانيون فى حالات شتى أن السيولة ذاتها سبب الظاهرة، والواقع أنه لو كان فى الإنسان شيء يُستظهر فليس بحاجة إلى عوامل برانية لتفسيره كظاهرة على شاكلة الدقّ وتحريك الأشياء عن بعد بدون اتصال عضوى، حيث إن الكائن موجود فى الموضع الذى يعمل منه، وهنا يأتى دور الوسيط الذى يعكسها بأمر لاواعٍ من نفسه، ويجوز للذين يعتقدون أن الإنسان محدود بجسده أن يُنكروا إمكان هذا الأمر، ويبرهنوا بذلك على قصور وعيهم بما لا يربو عن شظية بسيطة من الإمكانات الإنسانية، ونحن نعلم أن هذا الافتراض معتاد لدى

---

[11] راجع مقال بابوس بعنوان *Lumière ivinvisible, Médiumnité et Magie*، ولا يتبغى خلطها بمصطلح *od* العبرانى.

الغربيين المحدثين، ولا يبرره إلا الجهل المشترك الشائع بينهم، فهو ما يريو إلى قول إن الجسد معيار النفس، وهو ما يُعتبر فى الهند هرطقة كما فى مذهب الجاينيين *Jains*، وهذا أمر يسهل إضافته إلى باب العبث، ومن المفهوم أن النفس قادرة على الاتفاق مع التضاريس الظاهرة للجسد مثل الساق المقطوعة التى تُشكل ضمورًا نسبيًا على النفس، كما أن من الصعب فهم كيف أن الفلسفة الحديثة تعتبر ذلك مسألة بلا معنى على منوال "أن الجسد موئل النفس" كما لو كان هناك ما يتموضع فى المسألة، ولا يفلت الغيبيون من اللوم على ميلهم إلى موضعة عناصر الكائن الإنسانى حتى فيما بعد الموت، أما الأرواحيون فيرددون على الدوام أن 'الأرواح' فى 'فضاء' أو فيما يسمونه خطئًا 'إعوجاج *erracity*'، ونحن نعارض هذه العادة لتحويل كل شىء إلى مادة على منوال نظرية 'السوائل'، والتى تتحدث عن 'قوى' كما يفعل علماء الطبيعة، أو التى تشيع بين الذين كانت إصابتهم طفيفة بالعدوى مثل 'الأرواحيون الجدد'، ولا شك فى أن كلمة 'قوى' غامضة لكننا لا نجد أفضل منها حاليًا لهذا الموقف، كما لا نرى سببًا لأن يجد العلم المعتاد دِقَّة أبعد من ذلك.

ولكن لنعد إلى الظواهر التى نفسر بها القوى البرانية، فالحالات التى ذكرناها من أكثرها أولية، ولكن هل تكون هى ذاتها عندما يجد المرء علامات بعينها مثل المائدة التى تتحرك استجابة للسؤال المطروح؟ ولا نتردد فى الرد بالإيجاب لمثل هذه الحالات، فمن النادر أن تربو الاستجابة عن المستوى الفكرى للوسيط وحضور المجلس، والأرواحى الموهوب بالوساطة يفصل ذاته عن استشارة المائدة ولا يشك فى أنه يستشير نفسه بطريق ملتوى، إلا أن ذلك هو ما يجرى غالبًا، ففى المجالس الجماعية لتحضير الأرواح يزيد تعقيدها بعض الشىء، فالوسيط لا يقتصر على أفكاره فحسب بل يستطيع الانفتاح لكل الإيحاءات ويسهُل التعبير عن أفكار الحضور، كما أن المسألة فى هذه الحالة وسابقتها ليست بالضرورة فكرة واعية لا تكاد تبين فى تلك اللحظة إلا لو انتوى الوسيط التأثير على الاستجابات.

وما يظهر يستقى عادة من منطقة معقدة يسميها النفسانيون 'ما تحت الوعى *subconcious*'، والذى عادة ما يسيئون استخدامه بموجب صلاحيته للتعبير عما كان كان غامضًا وبلا تعريف حتى لو كان 'ما تحت الوعى' يناظر أمرًا حقيقيا، ففيه شىء

من كل شيء، لكن النفسانيون يحددونه بالمعانى التى يعالجونها به، ويستعصى عليهم وضعه فى أية منظومة كانت، فهناك ما يسمى 'الذاكرة الكامنة *latent memory*' التى لا يُنسى فيها شيء بكامله كما ثبت فى حالات نادرة من 'إحياء الذاكرة *reviviscence*' الذى يُشهد أحيانا، ويكفى إذن إمكان تذكر أمر كان منسيًا تمامًا، ولا حاجة بنا إلى البحث فى موضع آخر عن الذكريات المنسية التى يعبر عنها الأرواحيون بمصطلح 'الاتصال *comunication*'، كما وردت كل الطرق 'للرؤى المسبقة *previsions*' والتوقعات المعتادة عند بعض الناس فى أحوال الوعى الطبيعية، كما تصدق أحيانًا عند الأرواحيين عندما تتعلق بهذه التوقعات، ودون أن ننسى أن غالبية هذه التوقعات لا تمثل إلا أفكارًا هائمة على منوال ما يجرى فى أحلام اليقظة[12]، لكنَّا سنذهب إلى ما وراء ذلك، فإن 'الاتصالات' التى تعلن عن أمر مجهول لكافة الحضور قد يكون مصدره تحت وعى أحدهم، ففى هذا الصدد أيضًا عادة ما يكون المرء نائيًا عن معرفة إمكانات الكائن الإنسانى على حقيقتها، فكل منَّا يتسق مع كائنات وأشياء لا يعلم عنها شيئًا بالمعنى الصحيح، ناهيك عن تفرعاتها المحتملة التى يستحيل تحديدها بأى حدود كانت، فنحن بعيدون تمامًا حتى عن مفاهيم علم النفس الكلاسيكى، وهو ما يبدو غريبًا حيث إن 'التواصلات' قد تتأثر بأفكار شخص غائب، إلا أننا لا نتردد فى توكيد استحالة أى أمر كان فى هذا الصدد، وسوف نعود لاستكمال تفسير مسألة ما تحت الوعى عندما تسنح الفرصة، أما الآن فلنلتفت إلى بيان ما تحت الوعى نظرًا لأن خَرَق الأرواحيين يدفعهم إلى رواية هذا النوع من الوقائع كبراهين على صحة نظرياتهم.

وتتيح لنا الاعتبارات الأخيرة فهم نظرية 'الوجود الجمعى' من ناحية العناصر الصادقة التى تنطوى عليها، فتوافق الأرواحيين المستقلين الذين لا يعتقدون بضرورة تقديم الأرواح أولا فى كل الحالات بلا استثناء مثل إيوجين نوس *Eugène Nus* وفلاماريون أول من استخدم اصطلاح 'الوجود الجمعى'[13]، وتقضى هذه النظرية بأن الوجود الجمعى مركب من منظور 'البيرسبيريتيين' أو 'السوائليين' والوسيط والحضور،

---

[12] وهناك أيضًا تنبؤات لم تحقق نتيجة التزامهم بطريقة الإيحاء، وسنعود إلى هذه النقطة عندما نتاول مخاطر الأرواحية.

[13] *Les Grandes Mystères.*

وتزداد قوة بشرط وجود الحاضرون ذاتهم، وقد تمسك الغيبيون بهذا المفهوم نظرًا لاعتقادهم بأنه يوازى فكرة إليفاس ليفى عن *eggrégores*[14] أو ’الكيانات الجمعية‘، وحتى لا ندفع هذا التمثيل إلى أقصاه لابد من ملاحظة أنه كان عند ليفى مسألة ما يمكن تسميته ’نفس *soul*‘ لجماعة ما على شاكلة أُمَّة *nation*، وقد تجلى خطل الأرواحيين الفادح فى الحالات التى اتخذوها حرفيًا بدلًا من كونها ’أسلوب فى الكلام *a manner of speaking*‘، واعتقدوا أنه مسألة تُضاهى كائن حى وضعوه فى مستوى نجمى، ونعود إلى ’الوجود الجمعى‘ فى جلسات تحضير الأرواحيين بصرف النظر عن ’السوائليين‘ حيث نراقب أفعال وردود أفعال ما ’تحت الوعى‘ والآثار الدائمة للعلاقة بينهما، والتى تتضخم بمدى تلاحم الحضور، كما أن هناك حالات يكفى فيها ’ما تحت الوعى‘ سواءً أكان فرديًا أم جماعيًا لتفسير كل شيء دون إفصاح الوسيط أو الشهود عن كنه القوى، ونكرر أن هذا هو حال ’الوسطاء المنتسخون *incarnating mediums*‘ الذى يضاهى تمامًا حالات ’السائرون نيامًا *somnambulist states*‘، ونضيف بهذا الصدد أن من طبيعة المنوَّمَ أن يسير نائمًا، فهناك تلازم بين الأحوال النفسانية العضوية *psycho-phisiological conditions* فى الحالتين، ونرجع إلى مقولة بابوس عن العلاقة بين التنويم والأرواحية،

"وقد أدت مشاهدات منضبطة إلى استنتاج أن الأرواحية والتنويم كلاهما ينتميا إلى حقل دراسة واحد للظواهر، ولكنها تبين علاقتها بالتنويم من عدة وجهات نظر مختلفة عن ’المُنوَّم‘، ولم تكن فيما أعلم كافية الوضوح حينها وحتى الآن، لكن الأرواحية تؤدى إلى نتائج تجريبية على نحو أكمل من التنويم، والوسيطُ ’مُنوَّمٌ على وجه اليقين، لكنه يدفع بالظواهر فيما وراء الحدود المعروفة للتنويم"[15].

ونتفق مع الغيبيين فى هذه النقطة على الأقل رغم أننا نتحفظ حيال بعض الأمور، فمن

---

[14] وقد كانت هذه هى الكيفية التى أخذ بها إليفاس ليفى من سفر إخنوخ، والتى استنتج منها كلمته بتأصيل لاتينى عبثى، ومجاؤها المنضبط *egregores*، ومعناها المعتاد فى اللغة اليونانية هو ’المراقبون *watchers*‘، ولكن من الصعب معرفة ما تشير إليه فى المتن الأصلى، وبالتالى أصبحت عرْضة للتفسير الخيالى.

[15] راجع *Traité Métaphysique de Science occult, p 874.*، حيث تجد مقارنة بين الوسيط وبين المُنوَّم، والتى لن نتناولها حيث إننا لا ننوى الدخول فى تفاصيل الظواهر.

المؤكد أن التنويم يمكن أن يذهب إلى ما وراء دراسات باحثين بعينهم حتى الآن، ولكننا لا نرى نفعًا فى تمديد هذه التسمية بإضافة الظواهر النفسانية قاطبة، ومن ناحية أخرى نكرر ما قُلنا سلفًا من إن كل ظاهرة تتعلق بالتنويم تفلت من وعى الأرواحيين، وكما تثبت النتائج التجريبية المتحصلة من مشاهد الأعمال الأرواحية التى لم تُعَرَّف إلا بنظرية فحسب وليس من وقائع، ولذا قُلنا إن الأرواحية لا تربو عن وهم وضلال.

ولازال هناك أصنافًا من الظواهر لم نتعرض لطرحها، لكنها تفترض ظهورًا برانيًا، وتُعَرَف بأنها 'إحلالات *tanspositions*' أو 'تجسدات *materializations*'، وتعنى الإحلالات باختصار تحريك الأشياء، والمخاطرة بتعقيدها حينما تأتى من أماكن نائية، وغالبًا ما تستلزم اجتياز عوائق مادية، ولو استطاع الوسيط بشكل أو آخر أن يتمدد بنفسه حتى يتعامل مع الأشياء فإن الأبعاد مهما تناءت لا تُشكل صعوبة، ولا تعنى إلا مَلَكات مُدَرَّبة، ولو كان تدخل الأرواح أو الكيانات فوق الأرضية ليس أمرًا لازمًا على الدوام فإن ذلك لا يعنى أن الكيانات المقصودة لا شأن لها، وتكمن المعضلة فى اختراق المادة لتفسير هذا الأمر، فيفترض البعض أن هناك 'إخفاء المادة *dematerialization*' متبوعًا 'بتجسدها *materialization*' هو غاية الشىء الناتج فى الظاهرة، وطفق بعض آخر على إنشاء نظريات أقل تعقيدًا ظهر فيها 'البعد الرابع' للفضاء الذى لعب دورًا زعيمًا، ولن نتناول هنا الفرضيات المتنوعة، ونحترز فحسب بالوعى بأن توهمات 'الهندسة الفائقة *hypergeometry*' قد ألهمت مدارس الأرواحية الجديدة المتنوعة، فيَحسُن فى حالات نقل الأشياء من مواضعها اعتبارها 'تغيرًا فى الحال'، ولن نزيد تفصيلًا عن ذلك، ونضيف فحسب أن عدم قابلية المادة للتخلل ليس إلا أمرًا نسبيًا رغم ما تراه عقائد علماء الطبيعة المحدثين، فيكفى فى حالات شتى ملاحظة أنها عملٌ مُفتَرَضٌ 'للأرواح' ولا نفع له فى شىء بمجرد الاعتراف بالوسيط، ويصبح من المنطقى تفسير واقع الكائن الحى، زد على ذلك أن الموت عند الأرواحيين يتمخض عن فقدان خصائص بعينها وليس اكتساب خصائص جديدة، وأخيرًا وبغض النظر عن أية نظرية كانت فإن الإنسان الحى مؤهل للتعامل مع المادة الطبيعية عن الكائن الذى لا يشتمل على عناصرها.

وأما عن 'التجسدات *materializations*' فربما كانت من أندر الظواهر حدوثا،

لكن الأرواحيين يعتقدون أنها من أكثرها شيوعًا واكتمالًا، فكيف يكون حضور ’روحٍ‘ أمرًا يحتمل الشك عندما تتجلى على نحو تجريبي أو حينما تحتويها صورة تراها العين حتى ليمكن تصويرها فوتوغرافيا؟ إلا أن الأرواحيين أنفسهم يسلمون بأن الوسيط له دور فى ذلك عن طريق جوهر قابل *substance* لا شكل له فى أول الأمر حيث يبدو سديمًا ينفصل تدريجيًا عن جسد الوسيط ومن ثم يتكثَّف فى هيئة منظورة، ويُسلم الجميع بذلك عدا الذين يُلاحون واقعية الظواهر ذاتها، أما الأرواحيون فيزعمون أن ’الروح‘ هى التى تأتى لتشكل المادة وتحركها لجسد واقعى، ومن سوء الطالع أن تلك التجسدات لأشخاص وهميين كما أن ’الاتصالات‘ تحمل توقيعات أبطال رومانيين، ويدفع إليفاس ليفى بأن دوجلاس هووم قد استحضر أشباحًا لأقارب لا وجود لهم[16]، وحالات لوحظت عن الصور المتجسدة التى لا تربو عن صور منسوخة أو رسمًا خياليًا للوسيط، ويحكى بابوس ما يلى،

"وقد عرض علينا دونالد ماكاب فى مؤتمر الأرواحيين عام *1889* صورة سلبية لفتاة قال إنه وستة من أصدقائه قد لمسوها لمسا، وأنه استطاع تصويرها فوتوغرافيا، وقد ظهر الوسيط فى جانب من الشبح المتجسد، وقد كانت الصورة منسوخة عن رسم يعود إلى عدة قرون سلفت، وقد أثر على الوسيط تأثيرًا جسيمًا فى حال يقظته"[17]

ومن ناحية أخرى فلو كان أحد الشهود قد تعرَّف على شخصية ’الروح‘ الحاضرة فذلك برهان على أن الشاهد قد تذكر هذه الصورة ولاحظ تشابها بينهما، وعلى النقيض من ذلك لو لم يلحظ أحد من الشهود أن الشخص ’اللامنسوخ *disincarnated*‘ هو المتجسد الحاضر، والذى لا يمكن التحقق من هويته فإن المقولة تنهار مرة أخرى، وقد تعين على فلاماريون التسليم بأن هوية الأرواح لم يمكن البرهنة عليها، وأن معظم الحالات الشهيرة تترك مجالًا للشك، فكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك حتى لو تعلق بنظرية وإن لم يكن واقعيًا، ولا مناص من التمسك ’بنظرية الفكر التشكيلى *ideoplastic theory*‘ التى

---

[16] *La Clef des Grand Mystère.*

[17] *Traité Métaphysique de Science occult, p 881.*

تقضى بأن ’التحقق المادى‘ يمتاح من شخص الوسيط، فإن صورته راجعة إلى الفكرة، أو بالحريّ بالصورة الذهنية سواء أكانت لدى الوسيط أو عند أحد الحضور، وتُفَسَّر كل الحالات من هذا النوع بهذه النظرية دون غيرها، ويتبع ذلك عدم ضرورة أن تكون الظواهر الناتجة من ’التجسد المادى *materialization*‘ زائفة فى تجسيدها البارز كرسم لمثالها، ولا يعنى ذلك بالطبع عدم وجود أغلبية من الحالات الزائفة، ولكنها تعنى ضرورة تمحيصها بلا أحكام مسبقة، زد على ذلك علمنا بأن هناك حالات ’تجسُّد‘ كامل، وأحيانًا ما ترد صورًا يمكن لمسها، كما أن هناك هيئات ناقصة، وغالبًا ما تكون هذه صورًا لأيدى، وتستحق هذه الظوهر دراسة منفصلة واهتمامًا خاصًا، وقد جرت محاولات لتفسيرها على منوال ما يلى،

"حيث إن الأشياء عادة ما تمسك بالأيدى فإن الرغبة فى إمساك شيء توقظ الفكرة الذهنية عن الأيدى"[18].

لكن قبول هذا التفسير ليس كافيًا تمامًا، فقد ظهرت فى عالم السحر تجليات من هذا النوع، وقد ذكرنا منها أحداث مدينة هايدزفيل، و’نظرية الفكر التشكيلى *ideoplastic theory*‘ لا تمنع كل تدخل خارجى عند الذين يميلون إلى المنظومية *systematization*، التى تحُدُّ من عددها الحالات فحسب، والملحوظ أنها لا تستبعد أعمال الإنسان الحى الذى ليس من حضور الجلسة ولا القوى المتنوعة التى سنتاولها فيما بعد.

ويقول البعض إن ما يستظهره ’قرين‘ الوسيط، وهو تعبير خاطئ من حيث إن القرين المزعوم يمكن أن يتلبس بمظهر مختلف عن صورة الوسيط ذاته، لكن الغيبيون يعتقدون أنه يتماهى مع ’الجسد النجمى *astral body*‘، وهناك كذلك من يقصدون بوعى أن يحققوا ذلك ’الازدواج‘ أو ’الانعكاس النجمى‘ إيجابيًا بما يحققه الوسيط سلبيًا حتى لو كانوا يسلمون بخطورته البالغة، وحينما لا تكون النتائج تخيلية صرفًا بإيحاء ذاتى بسيط فإنها تُفسَّر على نحو خاطئ، وقد ذكرنا فيما تقدم أن ذلك ’الجسد النجمى‘ لا يقل زعمًا عن ’ السوائل‘، والتى لا تربو عن تمثيل غليظ للحالات التى لا تكاد تختلف عن المادة

[18] *'Étude experimentale de qulques phenoménes de force physique' by Donald MacNap in Le Lotus, March 1889.*

المعتادة إلا من حيث افتراض إنها أقل كثافة، وحينما نتحدث عن 'الأحوال اللطيفة *subtle states*' فإننا نعنى أمر آخر تماما، فليست جسدًا من مادة نادرة ولا هى 'هوائية *aerosome*' كما افترض بعض الغيبيون، فإن 'الأحوال اللطيفة' أمر لاجسدى *incorporeal* على الحقيقة، ولا نعلم ما إذا كان ينبغى قول إنها 'مادية' أم 'لامادية'، وهو أمر طفيف الأهمية، فهاتان الكلمتان لهما قيمة نسبية عند من أفلت من إطار الفلسفة الحديثة، زد على ذلك أن تلك الأمور غريبة تمامًا على المذاهب الشرقية، والتى ترى إمكان دراسة المادة المقصودة على نحو صحيح، ونوضح أن ما نشير إليه حاليًا هو 'أحوال الكائن الحى' جوهريا، ويتغير ساعة الموت إلى شىء مختلف تمامًا عن مجرد فقدان جسده على العكس مما افترض الأرواحيون وحتى الغيبيون، كما أن ما يمكن أن ما يتجلى منه بعد الموت يجوز اعتباره نوعًا من أهداب 'الحال اللطيف' للكائن الحى التى لم تعُد الحال المقصود بأكثر مما يصبح الجثمان جسدًا حيًا، فالجسد أثناء الحياة تعبير عن حال بعينه من أحوال الوجود، إلا أن هذا الكائن يحتكم كذلك على وجود لاجسدانى فى الآن ذاته بما فيه ما نحن بصدده، وقد يترائى هذا الحال اللطيف لمراقبٍ كقوة ضمن قوى أخرى وليس كجسد، أما المظهر الجسدانى 'للتجليات' فهو استثناء من خصائصه المعتادة، وقد عكف الأرواحيون على تخليط كل هذا بقولهم إن 'المستوى النجمى' هو 'عالم القوى'، لكن ذلك لا يمنع من وجود الأجسام، وينبغى القول مرة أخرى إن 'القوى اللطيفة' تختلف فيما بينها من حيث طبيعتها ومن حيث نطاق عملها عن القوى التى ندرسها فى علم الطبيعة المعتاد.

ومن الغريب أن من نتائج الاعتبارات الأخيرة ملاحظة أن الذين يدَّعون إمكان استحضار الموتى ينبغى لهم الاعتقاد بإمكان استحضار الأحياء كذلك، فمنظورهم يقضى بأن الموتى لم يكتسبوا عناصر جديدة بموتهم عما كانوا عليه وهم أحياء فى أى حال كان، ويُضاهى هذا الحال مضاهاة الأحياء بعضهم ببعض، وينبنى على ذلك إمكانات 'التواصل' التى لو وُجِدَت فلن تقدر إلا على النقص وليس الزيادة، ومما يُدهِش أن الأرواحيين يحتجون بعنف على إمكان استحضار الأحياء التى تُعَدُّ فى منظورهم أمرًا إدًا، لكننا ننكر أساس نظريتهم الذى يقضى بإمكان استحضار الأحياء، وسنحاول البرهان على اسبابنا بصورة أقرب وضوحا، فالجدث لا ينطوى على أية

خصائص غير التى كانت تحرِّك الجسد الحى، والتى لا تحتفظ منها إلا بخصائص بعينها، وقل مثل ذلك عن ’ أوب *ob*‘ العبرانية وعن ’بريتا‘ الهندوسية، والتى لا تربو عن ’بقايا *vestige*‘، ولو كان لهذا العنصر أن يُستحضَر فإن الأحياء أيضًا فى حالِ مناظر، فإن ’أوب *ob*‘ ليس ’’جدثًا نجميًا‘، ولا يخلط إلا الغيبيون بين التشاكل والماهيةً، والتى سكّوا منها ’أصدافًا‘ ذكرناها عاليه، ونكرر أن الغيبيين لم يجمعوا إلا شظايا من المعرفة لا يفقهون غورها، ولنلاحظ أن كل الأديان تسلم بواقع الاستحضار السحرى ’للأوب‘ وأيًا كان اسمه، وعلى الأخص التوراة العبرانية التى أفصحت عن حالة استحضار النبى صموئيل[19]، ولو لم تكن هذه واقعًا فإن تحريم السحر يمسى بلا معنى، ولكن لنعُد إلى سياقنا، فلو أمكن مقارنة استحضار الشخص الحىُّ باستحضار الميِّت فهناك فارق حيث إن تكوين الكائن الحى لم يتحلل بعد، وسوف يؤدى الاستحضار إلى عواقب وخيمة، لكنها من مقامِ مختلف، ومن ناحية أخرى لابد أن تجرى عملية الاستحضار أثناء النوم العميق للمستحضَر حينما يكون فى حال يناظر حال الاستحضار حيث لا يصل إليه شىء من المؤثرات الخارجية، وتناظر هذه الحال ما يسمى ’حال الحلم‘ الواقع بين ’ حال اليقظة‘ و’حال النوم العميق‘، وهو النطاق الذى نسعى فيه إلى تفسير ظاهرة الأحلام على نحو يستحيل على تناول النفسانيين *phsychologists* و الفسيولوجيين *physiologists* كليهما، ولا ضروره لقول إننا لا ننصح أحدًا بمحاولة تجريب تحضير روح إنسان حى، فالخطر شديد حتى فى الإفصاح عن أية دعاية، ولكن أشدها خطرًا أن يصادف امرءٍ نتائج لم يسع إلى تحقيقها أصلا، وهو أحد الأضرار الجسيمة لتعميم ممارساتها الأرواحية، ولا نبتغى المبالغة فى أهمية هذا التحذير فالمخاطر قائمة بالفعل بمجرد وجود الفكرة أيًا كانت نُدرته، وفيما يلى ما قال النفسانى المناوء للأرواحية المهندس دونالد ماكاب،

> "قد يحدث فى سياق جلسة تحضير الأرواح أن تتآلف هوية فيزيائية لشخص بعيد مع الوسيط، ولو تصرف المرء بحمق فقد يقتل هذا الشخص، وترجع حالات شتى من الموت الفجائى إلى هذا السبب"[20].

---

[19] سفر صموئيل *1-28*.

[20] والعبارة الأخيرة من المقال المُقتبس تحتها خط فى مجلة *Le Lotus, March. 1889*.

وفى موضع آخر يبحث الكاتب ذاته إمكانات من النوع نفسه فيما وراء الاستحضار بمعناه الصحيح،

"وقد يستطيع شخص على بعد من الجلسة الأرواحية أن يحضر بها ببرهان يقينى فى ظهور شبحه أو أية صورة أخرى فى 'لاوعيه' بما فيها صور الموتى الذين عرفهم، وعادة ما يكون هذا الشخص غير واعٍ بذلك التجلى، لكنه يعانى من نوع من الغيبوبة أو التجريد، وهو أمر أقل نُدرة مما يُعتَقَد"[21].

ولو استبدلنا 'اللاوعى' المذكور 'بما تحت الوعى' لوصلنا تمامًا إلى المعنى المقصود عاليه عن التفرُّعات الغامضه للكائن الإنسانى، وهو تفسير لكثير من 'الاتصالات' الأرواحية، وقبل أن نسترسل نقول إن 'الوسيط المتجسد' دائمًا ما يخوض فى نوم يسميه الأنجلوساكون غيبوبة *trance*، ذلك أن حيويته ووعيه مرتكزتان على 'النطاق اللطيف'، والواقع أن هذه الغيبوبة أشبه بالموت منها بالنوم المعتاد، ذلك أن هناك انفصال يزيد أو يقل بين أحوال النفس 'اللطيفة' والنفس الجسدانية 'الكثيفة'، وذلك هو السبب أن كل التجسدات التى يُظهِرُها الوسيط محفوفة بخطر موته بدرجة لا تقل عن محاولات الغيبي 'للازدواج'، ولاجتناب الخطر لابد من وجود وسائل خاصة ليست فى متناول الوسطاء الأرواحيين ولا الغيبيين رغم ادعاءاتهم، أما الغيبيين العمليين فهم أشبه بالأراوحيين من حيث السذاجة والتجريب، والذين لا يدركون ما يفعلون.

فتتعلق 'الأحوال اللطيفة' التى ذكرناها 'بالتجسدات عمومًا *materializations*' وكذلك بتجليات أخرى تفترض ' الظهور *exteriorization*' بدرجة ما، والتى يعبر عنها التراث الهندوسى بمصطلح تايجاسا، ذلك أن المذهب الهندوسى يرى تناظرها مع العنصر النارى تيجاس الذى يشتمل على الحرارة والنور، ويمكن فهمه بسهولة بفكرة تكوين الإنسان فى المذهب الهندوسى، ولكن لن نتمكن من طرحه هنا حيث يستلزم دراسة خاصة ننتوى القيام بها فى مناسبة أخرى[22]، ونقتصر حاليًا على موجز لبعض إمكانات 'الحال اللطيف *the subtle state*'، والتى تذهب بعيدًا ببون شاسع عن كافة 'ظواهر'

---

[21] المرجع السابق ص *742*.

[22] راجع كتاب الشيخ 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا'. ترجمات تراث واحد قيد النشر.

الأرواحية التى لا تصلح لمضاهاتها، فاعتبر مثلًا أن إمكان التحول إلى هذا الحال من الوعى الفردى وليس ’ما تحت الوعى‘ كما يجرى فى حالات النوم المعتادة وأحوال الوساطة والتنويم، فإن إمكان ’تموضع *localizing*‘ الحال فى أى مكان وتكثيفه تُظهر تجسدًا مشاكلًا لما يقوم به الأرواحيون فيما عدا تدخل أى وسيط كان، وإمكان توشيح مظهر الجسد بصورة ذهنية، وأخيرًا إمكان ’إحلالها‘ فى ذلك الحال، فالعناصر الجسدية التى تشكلها ستبدو أشد غرابة عن كل ما عداها، وسوف نلاحظ أن شيئًا من ذلك يعين على تفسير ظاهرة ’الوجود فى مكانين فى آن واحد *bilocation*‘، وهى من بين الأمور التى نوهنا عنها سلفًا فيما ذكرنا عن أن كل الظواهر التى تطفو تبدو متشابهة عند القديسين و السحرة على السواء، كما يمكن تفسير تلك الروايات التى انتشرت بدرجة يُستبعد أن يكون لها أصل عن سحرة يتقمصون صور حيوانات، كما أن ضربها يترك أثر جرح على جسد الساحر، وكما يُرى شبح الساحر بصورته الطبيعية فقد كانت حالة مدينة هايدزفيل مدهشة ومُعَلِّمة بصدد النقطة الأخيرة، ومن ناحية أخرى كان السبب هو التحقق الأوَّلى الناقص للإمكانية التى تسمى ’الارتفاع عن الأرض *levitation*‘ التى يجب أن نتصل بها، والتى لم نتحدث عنها من قبل، ويصدق ذلك على تغيرات الحال، أو على الأقل تغير صيغته التى تنتج عن ’الإحلالات *transpositons*‘، وهناك حتى حالات تعتبر ’ازدواج *bilocaion*‘ مواضع الظهور، ومنها ظاهرة التخاطر عن بعد *telepathy* وظهور أشباح آدميين ناتجة إما أثناء حياتهم وأما لحظة موتهم، ولها درجات شديدة التنوع فى تجانسها، وترتبط الإمكانات المقصودة بما وراء الظواهر النفسانية المعتادة، وتسمح من حيث المبدأ بتفسير كثير من المشاهدات فى الدراسات النفسانية *psychism*، ولكن تلك الظواهر تمثل حالات مخففة مختزلة إلى تناسباتها الهابطة كما سنرى لاحقا، ونتحدث فحسب عن الإمكانات التى نتفق على عدم الإصرار عليها، وعلى الأخص تلك التى تعكس العقلية الحديثة، وعلى سبيل المثال هل يمكن أن نعتقد أن الكائن الإنسانى فى أحوال خاصة يستطيع أن يهجر وجوده الأرضى دون أن يترك جثمانًا؟ إلا أننا نرجع إلى التوراة التى تشهد على أنه "وسار إخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه"[23]، وقد دُفِن موسى فى أرض موآب.. لكن لا يعرف أحدٌ له موضعًا حتى

---

[23] سفر التكوين 5 24.

يومنا هذا[24]، وقد صعد النبي إلياس إلى السماء على متن ’عربة من نار‘[25]، وهو ما يذكرنا بعربة النار فى التراث الهندوسى، ولو كانت هذه الأمثلة تعنى تدخل سبب متعالٍ إلا أن ذلك التدخلٍ يستلزم قدرات الكائن الإنسانى، وأيًا كان الحال فإننا نشير إلى هذه الأمور فحسب كمناسبة لتأمل القادرين عليه، وحفز إدراكهم لطرف من إمكانات الإنسان وقدراته التى لايدركها السواد الأعظم من معاصرينا، ونضيف إلى ذلك أن كل ما تعلق ’بالحال اللطيف‘ يمس طبيعة الحياة ذاتها، والتى يتفق عليها قدماء الفلاسفة على شاكلة أرسطو مع الشرقيين فى أنها تتمثل فى الحرارة الكامنة فى عنصر النار تيجاس[26]، والتى تُستقطب بين النور والحرارة، ويتولَّد منها ’الحال اللطيف‘ المتصل بالحال الجسدانى بطريقتين متكاملتين هما الجهاز العصبي والدماء، ونجد فى هذا أساسًا لمجمل ’النفسانية العضوية *psycho-phisiology*‘، والتى لاعلاقة لها بالغربيين المحدثين الذين لا يعلمون عنها فتيلا، وهنا لابد أن نتذكر دور الدماء فى إنتاج ظواهر بعينها، واستخدامها فى الشعائر الدينية وتحريم أكلها فى النواميس الدينية مثل اليهودية والإسلام، لكن كل ذلك سيذهب بنا بعيدًا عن موضوعنا، كما أنها مسائل لا ينبغى تعاطيها بلا تحفظات، وأخيرًا فإن ’الحال اللطيف‘ لا ينبغى أن يُدرَك فى الأحياء فحسب كأى حال آخر، فهو مناظر للنظام الكونى، والذى تشير إليه أسرار ’ بيضة العالم *World Egg*‘، وهى رمز قديم فى البراهمية و الدرويدية.

ويبدو أننا قد ابتعدنا عن ظواهر الأرواحية، لكن ملحوظاتنا الأخيرة تعيدنا إليها، ونستطيع الآن استكمالها، فهناك أمر لازال غائبا، فإن الإنسان الحى فى كافة أحواله يتلامس مع مناخ الوسط الكونى المناظر له، وهذا أمر واضح فى الأحوال الجسدانية، كما أن التشاكل ذاته لابد أن ينطبق على الأحوال الأخرى، ولو انطبق التشاكل بمعناه الصحيح فلا يمكن أن يكون مسئولًا عن كل حالات سوء الاستخدام للتشاكلات الزائفة عند الغيبيين، والتى شوهت طبيعة المناخ الكونى التى ناظرت ’الحال اللطيف‘،

---

24 سفر التثنية *34 6*.

25 سفر الملوك الثانى *2 2*.

26 وليست مسألة ’مبدأ حيوى‘ بالمعنى المقصود فى نظريات المحدثين، والتى لا تقل تشوهًا عن نظرية ’الجسد النجمى‘، ولا نعلم المدى الذى يمكن تطبيق هذا النقد على نظرية كودورث *Cudworth* عن ’الوسيط التشكيلى *plastic mediator*‘.

وهى حال لاجسدانية لن يجد فيها عالِم الطبيعة إلا صورة 'حقل للقوى *field of forces*' والتحفظ بأنها قوى تنتمى إلى نطاق يخرج عن مجال القوى التى تعود على معالجتها، ونجد فى ذلك تفسيراً للأعمال الغريبة التى تُعزى إلى الكائنات الحية، وتلصقها بظاهرة إنتاج الظواهر، وما نخشاه من صوغ نظريات اعتباطية هو اختزال إمكانات الإنسان التى لاحدود لها، فالقوى التى تشارك بدور فى تلك الإمكانات شاسعة التنوع والعدد، وطالما تحدثنا عن القوى فى إطار العموميات فلن نبالى ما إذا كانت صادرة من كائنات بعينها أم كانت من التى يفهمها عالِم الطبيعة، فكلاهما صحيح بحسب الحال، وتشتمل هذه القوى التى تقارب العالم الجسدانى على القوى الطبيعية التى يسهل تجليها عندما تماس مع نطاق الحواس فى الكائن الحى، وهى أدنى مراتب القوة، ويبلغ تأثيرها حدُّ الألم الشديد، ولذا لابد من اجتنابها بحرص بالغ، فهى تناظر فى النظام الكونى أحط مرتبة مما 'تحت الوعى' فى الإنسان، ونضيف إليها التى يسميها التراث الشرقى 'قوى هائمة *wandering forces*'، وقد كان التحكم فيها أهم ما يبغيه السحر، وينبثق عن تجليها التلقائى أحياناً كل أنواع الظواهر، ومن أكثرها شيوعاً حالة 'المنازل المسكونة'، وإجمالاً فإن تلك القوى طاقات غير مخصصة تتفرق على أنواع عدة، فيجوز أن يكون بعضها إبليسيا صرفاً *demoniacal or satanic*، وهى التى يشيع تسخيرها فى السحر، زد على ذلك أن ممارسات الأرواحية غالباً ما تجتذبها دون إرادة الوسيط الذى أضفت عليه تماهياً مع كل ما لا يوصى به فى هذا العالم والعوالم الأدنى، كما لابد من ذكر 'القوى الهائمة' التى تنتج عن أجداث الموتى، فهى مسألة عناصر لم تعد فردية، ومن بينها أوب العبرانى وكل العناصر التى نتجت عن 'تحلل اللاوعى *disintegration of unconcience*'[27]، ولنضف إلى ذلك حالة الذين ماتوا ميتة عنيفة حيث يحفظ 'الأوب' لفترة ما درجة خاصة من التلاصق مع القوى 'شبه الحيوية *quasi-vitality*'، وهو ما يفسر حالات شتى من الظواهر، ونذكر أمثلة محدودة فحسب فلا حاجة بنا إلى التطرق إلى مصادرها أياً كان نطاق نفوذها، والتى يمكن الإمساك بها بالاتفاق مع قوانين بعينها، لكن الباحثون العاديون الذين لا يفقهون شيئاً عن تلك القوانين لا ينبغى لهم الاندهاش ولا خيبة الأمل عندما يفشلون فى إنتاج 'قوة نفسانية' طيعة لهم، والواقع أن هذه القوى التى تبدو

---

[27] *Article of Donald MacNab alresdy cited, Le Otus, March 1889, p 742.*

أحيانًا راضية ببعثرة الترتيبات العبقرية للطرق التجريبية، وليس ذلك بموجب أنها تشطح أكثر من غيرها بل لأن على المرء أن يعرف كيف يوجهها، فلها مثالب أكثر مما تقترفه مع الباحثين العاديين، ويستطيع الساحر العليم بتلك القوانين تثبيتها بطقوس عدة، مثل الاعتماد على جواهر قابلة *subsances* بعينها أو بأشياء بعينها 'لتكثيف' تلك القوى، ولا حاجة لقول أن هذه الطقوس قد تتشابه ظاهريًا وعمليًا فى 'النفوذ الروحى' الذى عالجناه سلفًا، إلا أن الساحر يمكن أن يُذيب ما تبلور من القوى اللطيفة، وسواءُ أتكونت بقصد منه أو من غيره أو حتى تلقائيا، وبهذا الصدد فإن قوة التشقيب معروفة من قديم الأزل، وتتشاكل القوتان العكسيتان اللامنتناهيتان فى خيماء 'الذوبان والتبلور'، فالقوى التى سُخِّرت بعمليات الخيمياء والسحر ليستا من المرتبة ذاتها، فهى تنطوى على ' تمائم *summons*' و تراتيل 'صارفة' فى السحر الاحتفالى فى الغرب، والتى تبدأ فى بدايتها وتنتهى فى نهايتها، لكنها رمزية على وجه غالب، حيث تكمن أوعر الأخطاء فى محاولة تشخُّصِها *personification* نتيجة فهمها الحَرْفى، لكن الغيبيون يفعلون ذلك، والحقيقة التى تقوم عليها الرمزية أن القوى لابد من تصنيفها على مراتب مختلفة، وسوف يعتمد ذلك الترتيب على وجهة نظر السحر الغربى فى ترتيب القوى على أربعة أصناف تسمى ' ممالك ابتدائية *elementary kingdoms*' بحسب ماهيتها، وليس فى نظرية 'العناصرية *elemental*' الحديثة أصل ولا معنى[28]، كما أن الفسحة بين المراحل المتقلبة للعمليتين النقيضتين لن تسمح للساحر بحفز القوى والتحكم فيها بدرجة كافية من الوعى مع انعكساته وامتداداته الشخصية، وهو ما يضمها إلى أحوال 'الفردية المؤقتة' ، ويوحى هذا التشخيص المصطنع للتجريبيين بأن الكائن الحى يطبق قواعد لا يفهمونها، فالساحر يعلم ما يعمل، ولو تساءل عن تلك الفرديات الزائفة التى أقامها على حساب حيويته فسيرى أن ذلك التطور المصطنع كان منطويًا فيما تحت وعيه فى حال كامن، وتنطبق النظرية ذاتها مع التعديلات اللازمة على كافة أنواع العرافة أيًا كانت، ولابد هنا من السعى إلى تفسير 'اتصالات' الأرواحيين حينما لا تكفى الظهورات البسيطة للأحياء، مع فارق أن 'القوى الهائمة' ليست موجهة بأية إرادة، وتعبر عن نفسها على

[28] ويستخدم السحر تصنيفات تقوم على التنجيم *astrology*، ولكن لا حاجة بنا إلى ذلك فى سياقنا الحالى.

منوال مضطرب، كما أن هناك فارق آخر فى العمليات المتبعة، فقد كان السحرة من أسفل المراتب يستخدمون الإنسان مكثِّفًا للقوى من قبل الأرواحيين، والفارق الثالث أن الأرواحيين أشد جهلًا من أدنى مراتب السحرة، والذين لم يندفعوا فى الجهل إلى حد فهم 'القوى الهائمة' على أنها 'أرواح الموتى'، ونضيف قبل أن نترك هذا الموضوع أن هناك طريقة أخرى للعمل خلاف التى نوهنا عنها والمعروفة للسحرة العاديين فى الغرب على الأقل، وتنطوى مبادئها على تكثيف القوى فى نفس المرء بطريقة تسمح باستخدامها حسب الحاجة بحيث يتمكن على الدوام من إنتاج ظواهر بعينها، ولابد من أن تكون ظواهر فقراء الهند من هذا النوع، ولكن لا ننسى جهلهم النسبى، وأن الذين يعرفون قوانينها هم أقل الناس إقبالًا على ممارستها.

ولا ندَّعى أن ما تقدم باختصار بالغ يشكل تفسيرًا كاملًا للأرواحية، إلا أنه يحتوى على تفسير ضروريات ظواهرها فحسب، والتى حاولنا شرح إمكاناتها قبل أن ننتقل إلى البرهان على ركاكتها، كما كان علينا تقطير الاعتبارات التى يلزمها عدة مجلدات للوفاء بتفسيرها، ونؤكد مرة أخرى على أننا لم نكن لنطرحها أصلًا لولا ضرورة الظرف الحالى لدحض وقائع الفيضان الجامح لانحرافات الأرواحيين الجدد *neo-spiritualists*، والواقع أنها أمور لم نكن نرغب فى تناولها بعيدًا عن ' العالم الوسيط' الذى نعالجه ومقاومة جاذبيتة العارمة على محُبِى 'الظواهر'، ولم نحاول الذهاب إلى ما وراء اعتباراتها العامة وتركيبها بلا أضرار، ونعتقد أن هذه الاعتبارات على حالها من الإيجاز لم ترد سلفًا على أى نحو كان فى أى مكان، ولكن لابد من التصريح بأنها لا تكفى بذاتها للإيعاز بأية ممارسة ولا لتشجيع الميل إليها، ولا يجوز الاحتجاج عليها.

الجزء الثانى

تفنيد النظريات الأرواحية

1 تنوع المدارس الأرواحية

قبل أن نتناول النظريات الأرواحية لابد من ملاحظة أنها تتنوع على نطاق عريض بين المدارس التى تورطت فى الاعتقاد بفرضياتها المشتركة عن التواصل مع الموتى وتجلياتهم بوسائل محسوسة، وبغض النظر عن هذا فقد وجد الخلاف واقعياً حتى فى النقاط المهمة على منوال 'التناسخ' الذى أيدته بعض المدارس وأنكرته بعضها، والواقع أن ذلك مما يضفى على مذهب الأرواحية سماته الخاصة التى تقوم بكاملها على تعاليم 'الأرواحيين'، وهى تزييف 'الوحى *revelation*' بمفهومه الدينى، والتى يجدر بنا التأكيد عليها نظراً لأن الأرواحيون يزعمون بلا تردد بأنها بمقام التجليات التى ترافق بداية تأسيس الأديان، ووصفوا مؤسسيها بأنهم رجال ذوو قدرات عظيمة على الوساطة والتنبؤ وتحقيق الأعاجيب، ويختزلون المعجزات إلى ظواهر يمكن إجراؤها فى جلساتهم ونبؤاتهم وفى 'الرسائل' التى يتلقونها[1]، والعلاج بالأناجيل التى يستغلها وسطاء الشفاء أو النطاسيون *'healing mediums'*[2]، ويبدو أنهم يحاولون 'تطبيع ما يسمو على الطبيعة'، ولدينا عن ذلك مثال فى الأنطوانية التى نشأت فى بلجيكا على يد 'نطاسى *healer*' كان يرأس جماعة أرواحية، وقد جمعها أتباعه بإخلاص، ولا تربو فى نهاية المطاف عن أخلاقية بروتستنتية بلغة غوغائية لا سبيل إلى فهمها، وهو ما يمكن قوله بالنص عن طوائف أميريكية بعينها على منوال جماعة 'العلم المسيحى *Christian Science*'، والتى إن لم تكن أرواحية فهى على الأقل 'أرواحية جديدة'، وحيث إن المناسبة تدعو لملاحظة أن الأرواحيين مغرمون بتفسير الأناجيل على هواهم تيمناً بالبروتستنتية التى كان لها نفوذاً لا يُنكَر فى صالح 'التناسخ'، ولو كان بعض الأرواحيين يسمون أنفسهم مسيحيين فلن يزيدوا فتيلاً عن البروتستنتينية الليبرالية،

---

[1] وقد ذهب بيلامار *Alezandre Bellamare* فى كتابه 'الأرواحى والمسيحى *Spiriste et Chrétien*' إلى قول "إننا فد اختزلنا أنبياء ناموس الأقدمين إلى مستوى الوسطاء حتى نحط بما كان عالياً بلا مبرر، ومن ثم نصحح معنى خرج عن طبيعته، كما كان علينا الاختيار بوضوح لأفضلية الكتابة عن الوسطاء الحاليين على وسطاء 'العهد القديم'".

[2] *See Léon Denis, Christianisme et Spiritisme., p 89-91. and Dans l'Invisible pp. 423-439.*

فهذه اللافتة لا تعنى أنهم يصدقون ربوبية المسيح، والذى يعتبرونه 'روحًا سامية' فحسب، وهو مسلك الأرواحية الفرنسية ذاتها ومدرسة آلان كارديك وكذلك أتباع 'المسيحية الجديدة' التى توهمها الكاتب اليهودى فالابريج *Albin Valabrégue*، ونعلم عن بعض الغيبيين الذين يسمون أنفسهم كأى مسيحيين أُخَر، ويفضِّلون أن يُعرَفوا بصفة 'متمسحون *Christic*' التى ينتمون بموجبها إلى أية كنيسة كانت، كما أنهم يركنون إلى الكلمات متعددة الدلالة، فهم على وجه اليقين ناؤون عن المسيحية ببون شاسع أكثر من الغيبيين الذين أشرنا إليهم توًا.

ولكن لنعد إلى التعاليم 'الأرواحية' وتناقضاتها التى لا تُحصى، وحتى لو أخذنا الأرواحيين بكلمتهم فإن ما يهم ما يقولون عن ملاحاتهم لبعضهم بعضًا رغم تغير أحوالهم، فلا يعلمون أكثر مما يعلم الأحياء، ونعلم ما يكفى عن كونهم 'أرواحٌ سفلية' و'أرواح علوية'، وكون الأخيرة فحسب أولى بالتصديق، وأما غيرها فبعيدة عن 'تنوير' الأحياء وغالبًا ما تحتاج إلى تنوير من الأحياء، وليس ذلك لكى لا نتحدث عن ' الأرواح المخاتلة *rogue spirits*' التى تطرح رهطًا من المبالغات التافهة و'التواصلات القبيحة' التى ينبغى مطاردتها، ولكن كيف تأتى لهؤلاء الناس 'تطبيع ما يفوق الطبيعة' حتى نقع فى دين زائف آخر؟ وكيف يتأتى لنا التمييز بين الأصناف المتنوعة للأرواحية؟ فهل يعتقد الأرواحيون أنهم يتواصلون برسائل ذات سمة رفيعة بعض الشىء مع الأرواح السامية فحسب؟ أم لأن لها سمة تشبه الوعظ؟ أم لأنها تحتوى على شطحات فلسفية غامضة؟ ومن سوء طالعهم أن اللامنحازين عمومًا لا يرون فيها إلا نسيجًا من الأغاليط التى تبرهن على أن صاحب 'التواصل' يتماهى مع شخصية عظيمة لم 'تتقدم' منذ موتها، مما يلقى بالشك على التطور الأرواحى، ومن ناحية أخرى فإن رسائلهم التى تشكل 'التعاليم الأرواحية' كما تُسمى فيها كثير من التناقضات بين بعضها وبعض، ولا يمكن لذلك أن يكون نابعًا من 'روح سامية'، ولا يكفى الصوت الوقور لأن يكون ضمانًا لصحتها، ولكن ماذا تمثل تلك المعايير النقدية عندنا؟ فكل جماعة مُعجبة برسائلها وتناطح بها غيرها من الجماعات المتناحرة، والواقع أن كلًا من هذه الجماعات له وسطائه الغيورون فى مؤتمراتهم ودعواهم باحتكار 'أرواح' بعينها، وتمارى بأصالة 'رسائلها' أكثر من غيرها، ومن ثم تتبع الجماعة برمتها

هذا المسلك، وكافة دوائر وعظ 'الأخوّات الكلية *universal brotherhoods*' واقعون فى الحمأة ذاتها، فعند قيام التضارب فى التعاليم تصبح القصة رواية أخرى، وكل ما جمعته جماعة تحت عنوان 'الأرواح السامية' تراها الجماعات الأخرى من عمل 'الأرواح السفلية' بالتبادل، وكما تنشأ المشاحنات بين 'التناسخيين' وبين 'اللاتناسخيين'، فكل فريق يشهد بما أوجبه 'مرشدوه' و'حكّامه'[3]، والتى تقول بأن الأرواح موضع الثقة التى يؤكدون للجماعة 'تفوقها' و'تدنى' من يعارضها، وحتى لو كان الأرواحيون بعيدون كل البعد عن احتمال التفاهم المتبادل عن 'أرواحهم' فى هذه الأحوال فكيف لنا أن نصدق سلامة حاستهم على التمييز؟ وحتى بغض النظر عن التساؤل عن ماهية تعاليمهم، فهل لتلك التعاليم قيمة أكثر من آراء عموم الأحياء حتى لو كانت خطئًا حيث إنها تبقى بعد الموت كما يبدو، ألا تظل هذه الأمور قائمة لا تُلقَى جانبًا ولا تصحح إلا بمنتهى البلادة؟ وعلى سبيل المثال ففى حين يعتقد الغالبية خاصة فى فرنسا بأن 'الاتصالات' تعكس 'التأليه *deism*' الذى ظهر فى أواخر القرن الثامن عشر، كما أن هناك ملحدون صراحة وحتى ماديون، وهى أمور لا تبدو شديدة التناقض نظرًا لأن المادية تطفو على المفاهيم الأرواحية لحياة المستقبل، أما 'الاتصالات' من النوع ذاته فقد تفرقت على أتباع مذاهب أخرى، ألم يقبل ليرمينا *Jules Lermina* التشخيص بصفته 'أرواحىٍ مادى'؟ وكان من قبيل الحذر فى خضم هذا الركام أن يسلم الأرواحيون بأن مذهبهم ليس مستقرًا تمامًا وأنه قابل 'للتطور' على شاكلة 'الأرواح *spirits*' ذاتها وربما على نهج عقليتهم الخاصة، وقد يرون فى ذلك دليلًا على تفوقهم، والواقع أنهم يعلنون أنهم 'يعتمدون على 'العقل' و'التقدم فى العلم' ويخصون أنفسهم بالحق فى تعديل معتقداتهم بمدى حاجة التقدم والتجريب"[4]، ويقينًا ليس بوسع أحد أن يكون أشد 'تقدما' من ذلك، وربما كان الأرواحيون يعتقدون على منوال بابوس "بأن فكرة التطور المطَّرد تبشر بنهاية كل المفاهيم اللاهوتية عن الجنة والنار"[5]، ولا يشك هؤلاء المساكين أن حماسهم المتوهج لهذه الفكرة أنهم

[3] وهو أول شرط للأرواحية الفرنسية والشرط الثانى فى البلاد الأنجلوساكسونية.

[4] *Dr Gibier, Le Spiritisme, p 141. Cf. Léon Denis, Christianisme et Spiritualism, p 360.*

[5] *Traité methodique de Science occult, p 360.*

ضحايا لوهم من أوخم الأوهام وأشدها سذاجة.

وفى خضم هذه الأحوال يسهل رؤية الأرواحية كظاهرة فوضوية *anarchic* لا تملك أن تشكل منظومة محددة، إلا أن جمعيات ضخمة قد تشكلت فى كثير من البلاد كمظلة توحد جماعات الأرواحيين دون التخلى عن استقلالها الذاتى على سبيل الاتفاق العام أكثر منها كإدارة واقعية على نهج 'الفيدراليات' البلجيكية وبلاد أميريكا الجنوبية، أما فى فرنسا فقد اتخذت شكل 'اتحاد أرواحى *Spiritist Union*' تأسس عام *1918* بادعاءات أوسع، فقد كان على رأسها 'إدارة لجنة الأرواحية' ولكننا لا نعلم مدى الانصياع لهذه الإدارة، وعلى كل فقد وُجد المنشقون على الدوام فى كافة النظم[6]، ولم يوجد اتفاق تام حتى فى أحضان مدرسة آلان كارديك، فيقول البعض على منوال ليون دينيس "إننا ملتزمون بالكارديكية القحة"، ويقول بعض آخر على منوال ديلانيه *Gabriel Delanne* "ينبغى علينا أن نضفى على الأرواحية مظهرًا أكثر 'علمية'"، ويعلن بعض الأرواحيين عن "وجوب احتلال علم الأرواحية محل دين الأرواحية"[7]، لكن الأرواحية أصوليًا فى أى صورة كانت قد تتزيا بادعاء العلم، ولا يمكن إلا أن تكون دينًا زائفًا، وخاصة ممثلوها فى مؤتمر الأرواحية العالمى عام *1913* فى جنيف، وتساؤلهم،

"ما هو الدور الذى ينبغى على الأرواحية أن تلعبه فى التطور الدينى للإنسانية؟ وهل الأرواحية دين علمى كلى؟ وما هى العلاقة بين الأرواحية والأديان الأخرى؟ وهل يمكن اعتبار الأرواحية تراثًا؟".

ولم تخرج هذه القائمة من الأسئلة من مدرسة كارديك بل كانت منتَحَلة من مجلة باسم 'الأخوَّة *Fraternism*' التى زعمت بنظرية عجيبة وجمعت أفواجًا من الأتباع وخاصة من الطبقات العاملة فى شمال فرنسا، وسوف نتناولها فى سياق آخر مع

---

[6] وقد تشكل مشروع أشد طموحًا فى المؤتمر الأرواحى فى بروكسل فى يناير *1910*، وهو 'فيدرالية الأرواحيين الكلية *Universal Spiritist Federation*'، ويبدو أنها لم تتمخض عن شيء تحت إدارة 'المكتب الدولى للأرواحية *International Bureau of Spiritism*' الذى رأس أدارته الفارس *Le Clement de Saint-Marcq*.

[7] *Le Fraterniste, Dec. 19, 1913.*

الطوائف الأخرى من النوع ذاته، والتى ليست من أقلها خطرا.

وقد قامت صلات بين عدد وافر من الجماعات الأميريكية عن طريق ما سموه 'لقاءات المعسكر *camp meetings*' الواسعة فى الهواء الطلق على فترات منتظمة لعدة أيام من المطارحات بين قادة الحركات والوسطاء 'الملهمين'، ويناقض ذلك ما يجرى فى المؤتمرات الأوروبية، وقد كان من الطبيعى أن يخرج من الأرواحية فى بلد نشأتها كثير من التجمعات ذات السمات المتنوعة، ولم يحدث فى أى بلد آخر أن تطرح الأرواحية نفسها كدين فى هذه التجمعات، والواقع أن هناك أرواحيين لن يترددوا فى إنشاء كنائس على منوال الكنائس البروتستنتية التى لا تُحصى، مثل 'كنيسة الأرواحية الحقة' التى تأسست بإلهام 'الأرواح' للقس المبجل واطسون *Rev. Samuel Watson* راعى الكنيسة البروتسنتية المنهجية *Methodist*، والذى صبأ إلى الأرواحية الحديثة، كما كان هناك من فضّل صورة الجمعيات شبه السرية التى احتلت مكانة عالية فى الولايات المتحدة، والتى تقمصت بتسمية فاخرة تغرى 'الدنيوين'، فالأميريكى يمكن أن يحظى باحترام الذين لا يعلمون حقيقة عضويته فى 'محفل مِلْكى صادق القديم'، والذى عُرِف كذلك باسم 'الأخوَّة العيسوية *Fraternity of Jesus*'[8]، أو كعضو فى 'محفل السحرة *Order of Magi*'، وبعض هذه المنظمات ليست أرواحية صرفة، ولكن من أعضائها من هم كذلك، ومن بين الصور العديدة للأرواحية الجديدة نجد فى بعضها نوعا من الأرواحية المهذبة، ويجوز التساؤل عما إذا كان مظهر الغيبية والانتحالات الجوانية فى جماعة أو أخرى أقنعة مقصورة على الأرواحيين الانتقائيين الذين يبتغون الانفصال نسبياً عن الدهماء، ولو كان الأرواحيون يشجبون الجوانية عموما، فإن حضور الدوائر الغيبية برهان على أن هناك كثيراً من المواقف والتحولات المرحلية، فسلوك هذه الأقوام لا يناظر مبادئهم دائمًا لو كان لهم مبدأ، وتنتمى الأمور التى ذكرناها تواً إلى منظمات أرواحية انجليزية وأميريكية، وقد تحدثنا فى مواضع أخرى عما يسمى جماعة الصليب الوردى

---

[8] وقد كان هذا المحفل راعياً لجماعة 'لقاءات المخيم *camp meetings*' على تلال سيون *Sion Hills*، ويعمل تحت إدارة 'المعبد الأعظم' التى تجتمع سنوياً فى الموقع ذاته، وكان يحضره مندوبون 'مختارون من مملكة النور'.

Rosincrucian فى انجلترا وأميريكا تسمى ’محفل الندى والنور Order of the Dew and the Light‘، والذى اتُهِم بالتنافس مع منظمات السحر الأسود[9]، والأمر المؤكد هو أنها لا صلة لها بمذهب الصليب الوردى القديم التى تدَّعى الانتساب إليه، وكان معظم أعضائها من ممارسى الأرواحية أكثر من أى شيء آخر، وقد قرأنا ما يلى فى خطاب منشور فى مجلة ثيوزوفية،

"إن مرشديها ’عناصراً elementals‘ باسم فرانشيسكو الراهب ومستر شيلدون و عبد الله بن يوسف، والأخير راهب عربى، وأنهم يضحُّون بالماعز، وقد سعوا إلى تكوين حلقة لارتياد المعرفة المحرمة"، كما أن منهم منجمين وأتباع حيرام بتلر Hiram Butler[10].

وقد أنشأ بتلر ’الأخوة الجوانية‘ التى انكبت على ’دراسة تطور المعنى الباطن للوحى الإلهى وترجمة كافة المتون الدينية‘، ولم تنطوِ الكتب العديدة التى نشرها بتلر على أى أمرٍ جاد، ولا يجوز قول إن هناك مسألة مدرسة أرواحية فى ذلك، ولكن يجوز افتراض تسلل عناصر أرواحية من قِبَل المنظمة الحالية، أو أنها كانت تمويهًا مقصودًا بخدعة اسم مُنتَحل، وعلى كلٍ لو كانت الأرواحية وحدها فقد كانت تجرى على منوال لم تكن عليه حقًا، وقد اقتبسنا الفقرة السابقة حتى نبين الصور التى يمكن أن تتلبس بها تلك الحركة، ونتذكر بهذا الصدد نفوذ الأرواحية على الغيبية والثيوزوفية، ناهيك عن العداوة السافرة بينهما وبين الأرواحية، وقد كان مؤسسوا وقادة الغيبية والثيوزوفية أرواحيون أصلا، والذين دائمًا ما احتفظوا بشيء أفكارهم السابقة.

---

[9] *Theosophy, chap. 3.*

[10] *Lucifer, June 15, 1889.*

2 تأثير الوسط والمناخ

رغم أن النظرية الأرواحية قد تكون مشتقة من 'الاتصالات' المزعومة 'للأرواح' فإنها كانت دائمًا موصولة بالأفكار السائدة فى الوسط التى صيغت فيه، ويؤيد ذلك الأطروحة التى عرضناها عن أن المصادر الحقيقية 'للاتصالات' كامنة فيما تحت وعى الوسيط والحضور جميعا، ولنتذكر أن توليف 'ما تحت وعى' الحضور مقصود للإيهام بوجود 'كيان جمعى *collective entity*'، ونقول 'إيهامًا' نظرًا لهواجس الغيبيين فى رؤية كائنات حية فى كل شىء، ويستسلمون لخداع المظاهر لدرجة الاعتقاد بأنها كائنات موجودة بالفعل، وأيًا كان الحال فإن تشكيل هذا 'الكيان الجمعى' يفسر واقعًا لاحظه كل الأرواحيون هو أن 'الاتصالات تزداد وضوحًا بمدى انتظام انعقاد 'الجلسات *séances*' وثبات الحضور ذاتهم، والذين يصرون على ذلك من ناحيتهم رغم جهلهم بأسبابها، وغالبًا ما يترددون فى قبول عضو جديد من جماعة قديمة ويفضلون المستجدين من جماعات جديدة، وقد يكون تأثيرهم أبعد بكثير حتى إنه يتجلى على نحو مغاير 'للاتصالات' لو صدقنا الأرواحى الروسى آكساكوف، والذى يزعم بأن جوانب ذلك 'التجسد' تتعدل كلما انضم إلى الجلسة عضو جديد، حيث إن تلك 'التجسدات' تستمر فى الظهور بالهوية ذاتها، ويرى أن تلك الوقائع استعارات من 'أرواح متجسدة' فى 'بيريسبيريت' الأحياء، أما نحن فنرى أن ذلك التحقق من قبيل 'صورة مركبة' يسهم كلٌ من الحضور بنصيب فى استظهار خصيصة بعينها، ويجرى الانصهار بين العقول فيما تحت الوعى لعدة أفراد.

ولا نستثنى بالطبع إمكان العمل تحت مؤثرات برانية، لكن هذه المؤثرات عمومًا لابد أن تتوافق مع مجمل ميول الجماعة التى تتجلى بينها، والواقع أنها لا بد أن تُجتَذب إلى صفات بعينها، فالأرواحيون الذين يجهلون قوانين عمل القوى المؤثرة مضطرون إلى قبول كل ما يُقدَّم لهم بإرادتهم، زد على ذلك أن الملاحظة التى أبديناها عن 'القوى الهائمة' لا ينبغى اعتبارها واعية بذاتها بل بمعونة 'ما تحت الوعى الإنسانى'، حيث تشكل وعيًا مؤقتًا بمنظور 'التجليات الذكية'، وتتمخض عن النتيجة ذاتها كما لو كان لا وجود لقوى

برانية غير الحضور، ويتعلق الاستثناء الوحيد الملحوظ بمجمل الوعى المنعكس الذى يبقى كامنًا فى الإنسان كعناصر نفسانية فى طريقها إلى التحلل، لكن الاستجابات لهذا النوع من المصادر عادة ما يكون جزئيًا وغامضًا حتى إن الأرواحيين ذاتهم لا يأبهون به إلا نذرًا، فهذا لحسب ما يأتى من الموتى فى حين أن 'الروح' الواقعية لا وجود لها فى الجلسة على الإطلاق.

ولابد من التحسب لأمر آخر هو العناصر المستعارة لا من الحضور لحسب بل كذلك من المناخ العام، وتيارات الوعى الذهنى التى تحفز الأحوال السائدة لبرهة فى بلاد بعينها حتى يسهُل فهم ما نقول، وتعمل تلك التيارات على الناس كافة، لكن نفوذها يقوى على ما يسمى 'الحساسون *sensitives*' والوسطاء الذين تصل عندهم إلى أقصاها، ومن ناحية أخرى فإن هذا الأثر عند الأفراد الطبيعيين محدود فيما تحت الوعى، ويتأكد على نحو أوضح عندما تطفو إلى الوعى الظاهر، وهو ما يحدث فى جلسة تحضير الأرواح، ومن ثم تعرِضُ على صورة تافهة فى 'تواصلات' يستقبلها حضور الجلسة، وفى هذه الأحوال قد تطرأ مادة تثير اهتمامًا أعمق، فيقال عمومًا إن هناك 'أفكار فى الهواء'، وقد ثبتت فى بعض الاكتشافات العلمية التى بدأت معًا بعدة باحثين مستقلين لا علاقة لأحدهم بالآخر، ولو كانت هذه النتائج لم تسنح للوسطاء فذلك لأنهم حتى لو تلقوا فكرة على هذا المنوال فإنهم عاجزون عن استنتاج أى أمر منها، وكل ما يفعلونه هو التعبير عنها بدرجات متفاوتة من الحماقة والفهاهة، ولكنها تثير إعجاب الجهلاء الذين يشكلون السواد الأعظم من جمهور الأرواحية، وهو ما يفسر التواصلات ذات الصبغة العلمية أو الفلسفية، والتى يدفع بها الأرواحيون كبراهين على صحة مذهبهم، وعندما يكون الوسيط أميًا جاهلًا فلن يتمكن من اختراعها بعلم ولا فلسفة، ونضيف أن التواصلات ليست إلا انعكاسًا لقراءة عَرَضية غير مفهومة وليست من تدبيج الوسيط، فالأفكار أو الميول التى نتحدث عنها تعمل على منوال 'القوى الهائمة'، وهو اصطلاح فضفاض يتسع أفقه ليحتوى على الأرواحية كنوع مخصوص، ولا نتوحد بالضرورة مع ما تحت الوعى الفردى، لكنها قد تظل تيارات سائلة تتجلى فى جلسة أرواحية، والواقع أنها لا تؤثر على الوسيط لحسب بل كذلك على الحضور جميعًا فى حالهم السلبى القابل، وهو ما يجتذب إليهم 'القوى الهائمة'، فلا سبيل لهم إلى اجتذابها بفعل إيجابى كما يفعل

الساحر، وهذه السلبية بكل نتائجها من أوعر مخاطر الأرواحية، ويلزم إضافة أن خلل الاتزان والتفاصل الجزئى بين العناصر التى تشكل من ليس وسيطًا أمر لا ينبغى إهماله، فالإرهاق الذى يشعر به الحضور بعد الجلسة برهان على ذلك، وقد تكون الآثار البعيدة المدى هى الموت.

وأمامنا نقطة أخرى بحاجة إلى اهتمام خاص، وهى أن هناك منظمات لا تشبه جماعات الأرواحية من حيث سعيها إلى إثارة تيارات ذهنية إرادية واعية ودائمة، ويسهل رؤية ما يمكن أن يتمخض عنها، فسوف تثير أحدهما تيارات تستقبلها الأخرى، فهناك استقطاب بين الإيجاب والسلب على شكل 'برقيات نفسانية *psychic telegraphy*'، وخاصة لو كانت المنظمات المذكورة قادرة على إنتاج تيار وتوجيهه، وينطبق تفسيرها على حالة التخاطر عن بُعد *telepathy*، لكن اتصالاتها تجرى بين فردين لا بين جماعتين، كما أنها غالبًا ما تكون عشوائية ولحظية، ولا شأن لها برغبة أى من الطرفين، ويتعلق ذلك بما ذكرنا آنفًا عن أصول الأرواحية الحقيقية والدور الذى يلعبه الأحياء دون أن يبدو لهم فيها أى دور كان، فهذه الحركة مناسبة تمامًا لإشاعة أفكار بعينها، والتى يبقى نطاق فاعليتها مجهولًا حتى للذين شاركوا فيها، والمخاطر الناتجة عن أداة كهذه غالبًا ما تصدر عن نوع آخر من القوى قد يعاكس ما يصبو إليه من بدأ العمل، ولا رغبة لدينا فى الإسهاب عن هذا الأمر ولا طرح النظرية الكاملة لمراكز 'الإرسال الذهنى' التى أشرنا إليها حتى لو كانت عويصة الفهم، وقد يتيسر لنا ذلك فى موضع آخر، ونضيف فحسب كى نتجنب خطأ تفسير 'التخاطر' المقصود، ويعمَد علماء الطبيعة إلى أمر يشبه 'موجات هيرتز *Herzian waves*'، وهو تشاكل قد يعين على تمثيل هذه الأمور إلى حد ما، ولكن لو ذهبنا إلى ما وراء الحدود التى يصح فيها التشاكل فلن يبق شىء سوى صورة أشد كثافة من 'السوائل'، ناهيك عن المظاهر المغرقة فى 'العلمية'، والواقع أن القوى المذكورة تختلف بالضرورة عن النطاق الطبيعى.

ولنعد الآن إلى تأثير الوسط بمعناه العام، فقد يكون هذا التأثير قد عمل على الأرواحيين ذاتهم أو تجسد فى مجالسهم، وهو ما يفسر معظم التنويعات التى تتناولها النظريات الأرواحية، فالأروح متعددة الزواج *polygamists* بين المورمون والدوائر الأميريكية مثل ' المالتيزيون الجدد *neo-Mathusians*'، ومن المؤكد إمكان تفسير سلوك

الجماعات المتفرعة عن 'التناسخية' على المنوال ذاته، والواقع أننا رأينا فى فرنسا أن فكرة 'التناسخ' قد وجدت مناخًا صالحًا لاستقبالها وتطويرها، بينما أنكرها الأرواحيون الأنجلوساكسون، ويقول البعض إن ذلك من جراء مفاهيمهم الدينية، وليس ذلك كافيًا كتفسير سببى، فالأرواحيون الفرنسيون يستشهدون بالأناجيل على صحة صحة التناسخ وخاصة فى الدوائر البروتستنتية حيث تتفاقم التفاسير الخيالية، ولو دفعت 'الأرواح' الانجليزية والأميريكية بأن منظور التناسخ لا يتوافق مع التوراة فذلك لأن منظورهم ناتج عمن يسألونهم، ولو احتجب هذا الموقف فسوف يعبرون عن رأى مختلف، ولن يتحرجوا من الاقتباس من المتون، والواقع أن التناسخيين يفعلون ذلك، كما أن هناك أمر أفضل، فيبدو أن الأميريكيين ينكرون التناسخ لاحتمال مولد زنجى مما يصيب البيض بالرعب ![1]، ولو أن 'الأرواح' الأميريكية قد دفعت بهذا الأمر فإن ذلك يعنى أنها لم تتخلص من أحقادها الأرضية، لكن 'الأرواح' الفرنسية راضية بذلك بموجب أنها تعكس العقلية التى تتلقى 'الرسائل'، أى عقلية الأميريكيين الشعبية، وأهمية تلك الاعتبارات تبين مدى حمق العاطفية التى يتسم بها كافة الأرواحيون، ولو كان هناك اليوم أرواحيون من الأنجلوساكسون يقبلون التناسخ فذلك من جرَّاء نفوذ الأفكار الثيوزوفية، فالأرواحية لا تفعل شيئًا عدا اتِّباع الموضة الذهنية السائدة، ولا خلاق لها على إنتاجها نظرًا لدورها السلبى الذى أشرنا إليه، زد على ذلك أن معظم النظريات العامة للأرواحية هى الحداثة بما هى على منوال 'التقدم' و'التطور'، ويرجع ما بقى إلى تيارات تعمل فى دوائر أقل اتساعًا حيث إنها تعتبر 'متوسطة' الذكاء والتعليم، وسنلاحظ من هذا المنظور الدور الذى تلعبه الأفكار التى انتشرت فى الأعمال التى تتغيا ترويج العلم، فكثير من الأرواحيين ينتمون إلى هذه الطبقة التى تدير تلك الأعمال، ولو كان هناك غيرها من مرتبة عقلية أسفل فإن الأفكار المقصودة تصلها من غيرها أو تُستنتَج من المناخ الذهنى، أما الأفكار التى تنتمى إلى أفق أوسع فليست عُرضة للانتشار ذاته، ولا تنعكس بالتالى على 'تواصلات' الأرواحيين، لكن ذلك يبعث على الرضى بموجب أن 'المرآة النفسانية' للوسطاء قمينة بتشويهها، وليس فى ذلك صالح لأحد حيث إن الأرواحيين عاجزون تمامًا عن تقييم أمر يخرج عن مفاهيمهم الراهنة.

---

[1] *Dr Gibier, Le Spiritisim, pp 138-139.*

ولو تصادف لمدرسة أرواحية أن تجمع شتات نظرياتها فيما يشبه المذهب فإنها تُثبِّت الخطوط العريضة لعقيدتها حتى لا يبقى هناك احتمال لوجود أى معنى يخرج عن النقاط الثانوية، ومن ثم تستمر فى اتباع القوانين ذاتها، وقد يحدث أن 'التواصلات' لو استمرت فى التعبير عن العقلية التى تعكس أحوال الزمن الذى قامت فيه المدرسة لأنها لم تعد تناظر المناخ تمامًا، وهذا ما جرى للكارديكية التى احتفظت بسمات المناخ الاشتراكى لعام *1848* الذى واكب نشأتها، كما لابد من ملاحظة أن الروح التى حركتها لم تختفِ تمامًا حتى فى خارج الدوائر الأرواحية، فقد عاشت بصور متنوعة من 'الإنسانياتية *humanitarrianism*' التى تطورت بدورها، إلا أن 'الكارديكية' ظلت أقرب إلى نطاق الصور القديمة حتى بعد 'تبلور' صور أخرى فى حركة 'الأرواحية الجديدة' فى الفترة المتأخرة، كما أن الميول الديمقراطية كامنة فى عموم الأرواحية بدرجة تزيد أو تقل فى كل الأرواحيات الجديدة، وذلك بموجب أن الأرواحية تعكس العقلية الحديثة على أكمل وجه فى ذلك وفى أمور عديدة أخرى، ولابد أن تعكس بدورها العقلية الديمقراطية، وكما ذكرنا عاليه "فإن الديمقراطية دين زائف"[2]، أما عن مدارس الأرواحية الجديدة فهى تجشؤات حديثة تحت نفوذ مباشر أو غير مباشر للأرواحية ذاتها، لكن الذين يسلمون بالتعميد الزائف مهما شطح خيالهم واقعون فى أمر أقل منطقية عن الأرواحية، ففيها أمر يناقض الروح الديمقراطية سواءً ءأحببنا أم كرهنا، وبهذا الصدد ينبغى ملاحظة تناقض بعينه فى ميول الماسونية المعاصرة، والتى دأبت على الدفع بالديمقراطية من ناحية، ومن الناحية الأخرى احتفظت ببنيتها القديمة بدون إحساس بعدم التقابس، وينبغى لهذا التناقض أن يضاف إلى الخصائص المعاصرة للعقلية الحديثة، لكن عدم الوعى قد تجلى بكماله بين الأرواحيين والذين تماهوا معهم.

والملحوظات التى ألقيناها عما يجرى فى الدوائر الأرواحية فى جوانب بعينها بهذا الصدد توفر مؤشرات واضحة على الميول التى تسود فى برهة بعينها على غرار المضمار السياسى، فقد تمسك غالبية الأرواحيون الفرنسيون لبرهة طويلة بالأفكار الاشتراكية المصطبغة بشىء من 'العالمية *internationalism*'، ولكن حدث تحول أصولى فى اتجاهها

---

[2] *Les Lettres. Dec., 1921, pp 913-914.*

العام قبل الحرب الأولى ببضع سنوات، والذى اتخذ نغمة الميول الوطنية، ولم يثبت على حاله إلا التيارات المناهضة للكهانة *anticlericalism*، وقد ظهرت ’العالمية‘فى إهاب صور متنوعة وفى دوائر كالتى نتحدث عنها، حيث بزغت فكرة ’ عصبة الأمم *the League of Nations*‘ بحماس لا نظير له، كما أن الطبقة العاملة من الأرواحيين قد التحقوا بالاشتراكية، لكن الاشتراكية بصيغتها الحديثة قد اختلفت عن عام *1848* التى كانت اشتراكية البرجوازية الصغيرة *petty bourgeosie*، وأخيراً فإننا نعلم أن رهطًا عظيمًا من الأرواحيين قد انضم إلى الدوائر الشيوعية[3]، ونحن على قناعة بأن الأرواحية كانت تشجب البلشفية ولابد، فإن لم تفعل فسوف تفقد كل مصداقية.

وفى سياق تأملنا فى ’اتصالات‘ الأرواحيين لم نستبق منها إلا ما ابتعد عن الإحتيال، فليس فى غيرها نفع، ولاشك أن معظم الأرواحيين مخلصون عدا الوسطاء الذين يحيط بهم الشك بدهيًا حتى لو برهنوا على سلامة طويتهم، كما لابد أن نميز بين الميول العامة وبين التى تميزت بها جماعة أو أخرى، وتبين الميول المذكورة توًا أن اختيار اسمها راجع إلى ’الأرواح المرشدة‘ للجماعة، وعادة ما تكون بأسماء شخصيات جليلة توحى بالظن أنها تتجلى برضاها أكثر من غيرها، وأنها كلية الوجود، وأن قدراتها الفكرية أثناء حياتها قد تضاءلت على نحو فادح بعد موتهم، وأسمائهم فى أحد الجماعات بوسّو *Bussuet* و بيوس الرابع *Pius IV*[4]، وغيرها من الجماعات التى تفخر بالأدب، فكان من أكثر مرشديها شيوعًا فيكتور هوجو، ولا شك أن ذلك بفضل أنه كان أرواحيا، وفى ذلك أمر غريب، فقد كان هوجو على أى حال هو الوحيد الذى يعبر بفصاحة تامة، وهو ما يتفق مع تفسيرنا، ونقول ’على أى حال‘ بموجب أنه كان ينقل أحيانًا ’تواصلات‘ من كائنات خيالية على منوال ’ظل المقبرة‘[5]، ولكن هوجو يبدو عند الأواحيين وكأنه قد

---

[3] قالت مُدَرّسة باريسية فى حوار لها "إن لينين ذاته قد صرَّح بأنه كان أرواحيا"، ويصعب إدراك ما إذا كان هذا الإيمان صادقا، أم أنه لم يكن إلا من قبيل التأدب حيال الحمية الأرواحية، وعلى كلٍ فإن الأرواحية قد تفشت فى روسيا لبرهة طويلة فى كافة الطبقات الاجتماعية.

[4] *Jacque Bénigne Bossuet 1627-1704* معلم دٍوافان *Dauphin* أسقف مييو *Meaux* أحد عظماء الخطابة والٍوعظ فى كل الأزمان، وكان له دور زعيم فى إدانة مدام جويون *Madam Guyon*، كما كان معارضا شديد المراس لفينلون *Fénlon*. المحقق.

[5] كما لاحظنا اسم ’روح الحقيقة *Spirit of Truth*‘ بين الموقعين على المانيفستو الذى كان مقدمة لكتاب الأرواح *Livre des Spirits*، وكذلك فيكتور هينيكان *Victor Hennquin* أحد الأرواحيين الفرنسيين الذى مات مجنونا، وكان يستلهم ’ روح الأرض *soul of the earth*‘ التى أقنعته بأنه قد ترقى إلى مقام

نسى أبسط قواعد النثر حينما يكون السائل جاهلا، لكن هناك بين الأرواحيين حالات أقل تعاسة، ومنها الضابط السابق الذى اكتسب شهرة بتجاربه على ' تصوير الفكر *photographing thought*'، وقد كانت نتائجه تبعث على الشك على أقل تقدير، وكان يؤمن بأن فيكتور هوجو هو مُلهم ابنته، والواقع أنها تمتعت بقدرة نادرة على الحديث بالشعر، كما اكتسبت سُمعة بعينها، لكن ذلك لا يبرهن على شىء ما لم يعتقد المرء على منوال الأرواحيين أن مواهب الإنسان ناتجة عن نفوذ الأرواح، وأن كل الذين يتمتعون بمواهب منذ حداثتهم وسطاء بدون علمهم، فى حين يرى بعض الأرواحيون أن هذه الظاهرة ذاتها فى صالح التناسخ، ولكن لنعد إلى الموقعين على هذه 'الاتصالات'، ونقتبس من آراء د. موتان *Dr L.Moutin* عالم الطبيعة المحايد ما يلى،

"ولن يرض رجل العلم بقبول تلك الرسائل الحمقاء من الإسكندر الأكبر و قيصر و المسيح و العذراء المقدسة و القديس فانسان دى بول و نابليون الأول و فيكتور هوجو إلى آخرهم..وهو ما يزعم به عصبة من الوسطاء الزائفين، فسوء استخدامٍ هذه الأسماء الجليلة أمر كريه ينطوى على الشك *scepticism*، وقد أثبتنا لهم مرارًا أنهم مخدوعين بوجود ما يسمى 'أرواح'، وكان ينبغى لهم أن يعرفوا أن الوسطاء جهلاء، ففى حالة نابوليون الأول لم يعد يذكر وترلو، ولا يعرف القديس فانسان دى بول كلمة من اللاتينية، ودانتى لم يكن مفهومًا للإيطاليين، و لامارتان و ألفريد دى موسى عاجزان عن قول بيت من الشِعر، فهل أدى اصطياد هذه الأرواح متلبسة بالجهل إشارة إلى تهافت إيمان هؤلاء الوسطاء؟ أبدًا، فإن مرشدى الأرواحية يدفعون بأننا عديمى الإيمان ونسعى إلى تعطيل رسالتهم العظمى التى وقعت فى أيدى الوسطاء، وقد تعرفنا على كثير من هؤلاء المبشرين العظماء الذين أنهوا رسالتهم فى مصحات عقلية !"[6].

أما بابوس فيقول لنا،

"حينما يأتى ذكر اتصالات القديس يوحنا أو مريم العذراء أو المسيح فإنهم يحثون

....

'تحت الرب' للكوكب، فكيف يتأتى للأرواحيين تفسير كل شىء بشطحات تناسخية؟

[6] *Le Magnétisme humain, l'Hypnotisme et le Spiriualisme moderne, pp 370-371.*

عن مؤمن كاثوليكى بين الحضور، ففى عقله فحسب وليس فى أى موضع آخر تتأصَّل الفكرة المرشدة، وهو ذاته ما يعنى كما رأيت أن دارتانيان يُقدم نفسه تابعًا حميمًا لألكساندر دوما".

ولدينا تصحيحين فحسب أولهما استبدال ’العقل‘ *brain* بما ’تحت الوعى‘ *subconscious*، والثانى أن ’الكاثوليكيين المؤمنين‘ يندر وجودهم بين جماعات الأرواحية، ورغم أن ’التواصلات‘ من المسيح أو القديسين ليست نادرة بحال بين الجماعات الأرواحية، ولابد أن نقصر الحديث على نفوذ الأفكار الكاثوليكية التى استقرت فيما تحت الوعى، بما فى ذلك الذين يعتقدون أنهم تحرروا منها، ويقول بابوس ما يلى،

"عندما كان فيكتور هوجو يقرض شعراً على ميزان البحر الثالث عشر أو ينصح بمقتطفات كانت مدام دى جيرادان تعلن عن حبها بعد موتها لوسيط أميريكى[7] فمن الأرجح بنسبة تسعين بالمئة أن يكون هناك خطأً فى الترجمة، وأن أصل هذه الأفكار المندفعة كامن فى مصدر قريب"[8]

ونقول صراحة إن هذه الحالات وغيرها بلا استثناء تُخطئ فى ترجمة الأرواحيين، لكن يمكن اكتشاف أصل الخطأ فى هذه ’التواصلات‘ بسهولة، فكل ما يتطلبه الأمر بحثٌ هيِّن فى قراءة أذواق الحضور ومشاغلهم المعتادة، وكانت ’التواصلات‘ بالطبع فائقة للعادة بموجب مضمونها أو نطاقها المفترَض، والتى لا يرغب الأرواحيون فى تناولها بالاحترام الواجب، فقد أصاب العمى الكامل هؤلاء الناس بفعل أفكارهم المسبقة وتصديقهم للضلال بلا حدود، كما حدَّ من ذكائهم وتمييزهم، ونحن نتحدث عن غالبيتهم

---

7 وهو هنرى لاكروا الذى سيأتى ذكره لاحقا.

8 وهنا مثل آخر على لسان دوجلاس هووم الذى يُعد من أشدها شطحًا فى كتابه *Traité methodique de Science occult, p 847*، وكذلك فى المرجع السابق *p 341* "إن الوقائع المسجلة فى جلسة أرواحية انعقدت فى نابولى قد انطوت على ذكر الأرواح لشخصيات مارجريتا بوستيريا و دنيس السيراكوزى و كليوباترة و ريتشارد قلب الأسد و علاء الدين و بيلكاديل و جوراتسى و مانبن و فيكو، ثم أبراهام و ملكى صادق و يعقوب و موسى و داود و سينا كريب و إلياس و يواقيم و جوديث و يائيل و ومريم المجدلية و دانيال و القدبس بولس و القديس يوحنا وكثير غيرهم، وتؤكد المذكرات أن شخصيات الكتاب المقدس تتواتر أمام الناصرى والقديس يوحنا المعمدان".

حيث إن للعمى درجات ومراتب، ويبرهن قبولهم للنظريات الأرواحية على بلاهتهم وجهلهم، والبلاهة داء لا دواء له ولا نملك لهم إلا الشفقة، أما الجهلاء فينبغي توعيتهم بمواطن جهلهم إن لم يكن متجذرًا فيهم تمامًا لكي يصبح بدوره داءً عقليًا عُضالًا لا دواء له.

3 اللاأخلاقية وحب البقاء

إن من بين مزاعم الأرواحية طرح ’براهين علمية‘ أو تجريبية على خلود ’النفس *soul*‘[1]، وهو أمر ينطوى على عدد من النقاط الغامضة التى ينبغى كشفها قبل أن نعكف على فرضيتهم الأصولية عن ’الاتصال بالموتى‘، وأولها الغموض فى مفهومهم عن ’الخلود‘، والذى لا يتخذ المعنى ذاته عند كل الناس، فما يسميه الغربيون ’خلودا‘ ليس ما يسميه الشرقيون بمصلح يبدو مساويًا فى الظاهر من المنظور اللُغَوى *philological*، فكلمة آمريتا تُتَرجم حرفيًا إلى ’الخلود‘، والتى تصلح فقط فى الحالات التى لا يطولها تغير من أى نوع كان، ففكرة ’الموت‘ فى سياقها تمتد لتشتمل على كل التغيرات المحتملة، أما عند الغربيين الذين اعتادوا اعتبار ’الموت‘ بمعنى نهاية الوجود الأرضى فلا وعى لديهم بأى تغيرات أخرى حيث إن الدنيا عندهم بمثابة نصف الكون، أما الدنيا عند الشرقيين فليست إلا شظية من الكون الكلى، ونتحدث هنا عن الغربيين المحدثين الذين اختزلت الثنوية الديكارتية مفهومهم عن الكون إلى هذا الحد، وهو ما يدفعنا للإصرار على ذكرها نظرًا لتجاهلها عموما، وسوف تعمل هذه الاعتبارات على تسهيل دحض المنظور الأرواحى، ومن منظور الميتافيزيقا الصرف للشرقيين لا وجود لعالمين مترابطين على منوال ’الحياة الدنيا والعالم الآخر‘ بالتماثل والتوازى، بل هناك عوالم لا حدود لها فى بنية محكمة، أى حالات للوجود التى لا يعدو فيها عالمنا عنصرًا من مكوناته، وليس أكثر ولا أقل قيمة من غيره من العناصر، فهو ببساطة يحتل الموقع الذى قُدِّر له فى مجمل الكون الكلى، وبالتالى كان ’الخلود‘ بالمعنى المقصود لا يجرى فى العالم الآخر بل بالحرِىِّ فيما وراء كافة العوالم والأحوال المشروطة، فالخلود فيما وراء الزمان والمكان وكل الأحوال والصيغ التى تشاكلهما حيث إنه مستقل مطلقًا عن أية صيغة للدوام، فهو يتماهى مع الأبدية ذاتها، وليس ذلك لقول إن الخلود كما يراه الغربيون لا معنى له لكن معناه

[1] A work of Gabriel Delanne bears the title L'Ame est immotelle, Démonstration expérimentale.

مختلف تماما، فليس إلا امتداداً لامحدوداً لحياة تعدَّلت أحوالها بالانتقال المشروط، لكنها تظل على تماهيها مع الحياة الأرضية، وواقع أنها 'حياة' برهان كافٍ على ذلك، ويحسُنُ ملاحظة أن فكرة 'الحياة' أحد الأفكار التى أنكرها الغربيون المحدثون إلا بجهد جهيد حتى لو كانوا لا يؤمنون بالخرافات التى تسم الفلاسفة المعاصرين، ولابد من إضافة أنهم لا يفلتون من فكرتا الزمان والمكان طالما لم يمكنهم تطبيق الميتافيزيقا، وليس الخلود عند الغربيين خارج الزمن بمعناه المعتاد، وحتى فى إطار المفاهيم التبسيطية الواقعة فى حدود برهة 'دوامٍ لامحدود *indefinit*'، والتى سبقها 'المحدود *the Infinte*' بالضرورة، والواقع أنه مناظرٍ لإمكانية بعينها، لكن الشرقيون لا يخلطون بينها وبين الخلود الحق فيسمونها 'طول عُمرٍ نسبى *longivity*'، والتى لا تعدو امتداداً للحال الإنسانى، ويسهُلُ إدراك الفارق حينما نتساءل عما يبقى خالداً فى الحالتين، وهو أمرٌ فردىٌ شخصانىٌّ بالمعنى الفلسفى واللاهوتى، ولن نتمكن هنا من سرد التمايزات بين الشخصانية والفردية، لكننا نعلم جيداً ماهية الحال العقلية لكثير من الناس، ونقول بعدم جدوى السعى إلى اكتشاف التناقض بين المفهومين، فالكون الكلى يشتمل على كافة احتمالات الوجود شرط أن يعرف المرء كيف يضعها فى موضعها الصحيح، ومن سوء الطالع أن منظومة الفلاسفة تمنع الخوض فى هذه العوارض المتشابكة.

وحينما يكون الأمر 'برهاناً على الخلود تجريبيا' فمن نافلة القول إن الخلود ميتافيزيقيا لن يمكن أن يكون موضوعاً للتساؤل على أى نحو كان، فتعريفه أنه 'وراء كافة التجارب'، كما أن الأرواحيين لا يعلمون فتيلاً عن الخلود الميتافيزيقى، وبالتالى ينعدام أساس مناقشة دعواهم إلا من وجهة نظر الغربيين للخلود فحسب، ولكن 'البرهان التجريبى' المذكور سيظل استحالة لمن تأمل قليلاً فى هذا الأمر، ونزيد عن الاستخدام الجائر لهذه المسألة التى تتبين بالرياضيات، ولكن سوف نتركها لنلاحظ فحسب أن الأوهام الغريبة التى تسم العقلية الحديثة تتضمن حشر العلوم التجريبية فى نطاقات لا تنتمى إليها، والاعتقاد بكفائة العلوم للامتداد إلى أى نطاق كان، وقد انتشت العقلية الحديثة بتطورها الذى تحقق فى نطاقات ضيقة مخصوصة، وسلمت بها قصراً حتى عجزت عن رؤية غيرها من خارجها، وبالطبع فاتهم إدراك الحدود التى يصحُّ فيها التجريب، ونتحدث هنا عن التجريب بمعناه العام بلا تحديد، ومن الواضح أن تلك

الحدود لن تعدُ مجالًا ضيقًا باعتبار الصيغ المحدودة المقبولة عند الباحثين العاديين، أما فى النطاق الذى نتناوله هنا فيسوء فهم حدود التجريب، وسوف نلتقى بأمثلة فجَّة أخرى مما يسمى براهين التناسخ، والتى توفر مناسبة لاستكمال ملحوظاتنا من منظور طفيف الاختلاف.

إن التجريب يتعامل فقط مع وقائع محددة فى مكان محدد وزمان محدد، وهذه على أقل تقدير ظواهر يجوز للتجريب أو ما يسمى 'المنهاج العلمى' تناولها، وهذا معلوم على وجه العموم لكنه يؤدى إلى خطأ تفسير معنى التعميم فى النتائج التى يتمخض عنها، فالتعميم يخرج عن طبيعة التجربة ومعناها حيث يكتسب شرعية للذهاب وراء التجربة ذاتها، ولا تصلح التعميمات إلا لأصناف ومراتب وجماعات ووقائع بعينها، وكل من هذه المجموعات بذاته مخصوص محدود على منوال الوقائع التى أدت إلى تعميمه، وعليه فإن هذه المجموعات لا تحصى عددًا إلا أنها تبقى كجماعات، لكن ذلك لا ينطبق على مكوناتها من العناصر، أى إنها بإيجاز لا تملك استنتاج أن ما تؤكده فى مكان وزمان محدودين يجرى فى أى مكان آخر على المنوال ذاته، ولا يأبهون إلى أن نتائج التجربة التى استغرقت زمنًا محدودًا لن تصلح للامتداد على دوام الزمن بأكمله، وبالطبع لا ينبغى لنا الخروج عن المكان والزمن، ولا نأبه لشيء إلا للظواهر أى مظهر التجليات، ولابد للمرء من التمييز بين التجربة وتفسيرها، ولن نلاحى الوصف الذى يصفونها به، لكن تفسير الأرواحيون يقدم لنا السبب الحقيقى لتلك الظواهر الزائفة، ولنسلم مؤقتًا بأن تفسيرهم قد يكون صحيحًا وأن الظاهرة المطروحة هى حقًا إنسان لامنسوخ *disincanated*، فهل يعنى ذلك أنه إنسان خالد وأن وجوده بعد مماته بقاءٌ لامحدود؟ ومن اليسير رؤية أن هناك امتداد غير مشروع للتجربة هو إضفاء دوامٍ مؤقتٍ على واقعةٍ زمنية محدودة، ويكفى هذا لحسب لصرف النظر عن فرضيات الأَرواحيةِ واعتبارها من مستوى متدَنٍ حتى لو صدقنا منطلقاتهم، فمسلك الأرواحيون الذين توهموا أن التجربة تبرهن على الخلود ليس بأفضل من أن يكون المرء لم يرَ قط إنسانًا يموت، ومن ثم يمكنه توكيد أن جمهورًا من الناس يعيش مالا يحصى من السنين بلا تغير لأنه شاهده فى حقبة بعينها، ونكرر أن هذا ليس لوصف الأروحية بالزيف ولا بالصدق، فسواءٌ أكان حكمنا على الأرواحية عدلًا أم إجحافًا فإننا نفترض صدق النظرية الأرواحية مؤقتا.

إلا أن هناك أرواحيون قد أدركوا هذا العنصر الوهمى بوضوح يقل أو يزيد، ولذلك كفُّوا عن الحديث عن الخلود وتحدثوا عن ’البقاء *survival*‘، ونحن نسلم بأنهم قانعون بالخلود أكثر من غيرهم أو أنهم يعتقدون أن استمرار ’البقاء‘ يعنى الخلود، لكن هذا الاعتقاد يشارك فيه غير الأرواحيين الذين لا يختلفون كثيرًا عن أتباع أى دين فيما عدا الدعم المطلوب لإيمانهم، زد على ذلك الفُرجة على ’الأرواح‘، لكن تعبير هؤلاء يستلزم الحذر، فالأرواحيون يرون أن الظواهر ناتجة عن أعمال الأرواح الدنيوية، ولو اعتقد أرواحى بالخلود فقد فسره ’بالتواصلات‘ التى تنكر الخلود، فأى مبدأ يتيح لهم السلطة فى توكيده أكثر من ذلك؟ والواقع أنه يمكن بموجب اتفاق الآخرين مع قناعاته، لكن تلك القناعات لابد لها من أساس آخر مستقل عن تجربتها، ويقوم على أسباب ليست أرواحية بحال، وعلى كلٍ يكفى ملاحظة أن الأرواحى يشعر بحاجة إلى التخلى عن زعم إمكان البرهنة على الخلود ’علميًا *scientifically*‘، وهى نقطة مهمة فى صالحه لتحديد الأفق الصحيح لفرضيات الأرواحية.

والسلوك المذكور عاليه هو ذاته منظور الفلاسفة المحدثين الذين يميلون إلى الأرواحية، والفارق الوحيد هو أن الفلاسفة يتحدثون على نحو مشروط عما يؤكده الأرواحيون على نحو مطلق، أى بتعبير آخر أن الفلاسفة المذكورين قانعون بالحديث عن إمكانية البرهان على البقاء *survival* تجريبياً فى حين أن الأرواحيين يعتبرون هذا الظن واقعًا متحققًا، فقبل أن يكتب هنرى بيرجسون الفقرة التى اقتبسناها عنه قد سلم بهذه الفرضية على المنوال ذاته، واعتقد "أن الخلود لا يمكن البرهنة عليه تجريبيا"، وبذلك يتضح موقفه تمامًا من هذا الأمر، أما عن حديثه عن البقاء *survival* فقد كان حذرًا فى ركونه إلى ’الاحتمال‘ فحسب، وربما كان ذلك لإيمانه بأن التجريب لن يؤدى إلى يقين حقيقى، لكنه اختزل قيمة البرهان التجريبى، وأقرَّ "بأن هناك أمر ما قد يكون جسيما"، أما عند الميتافيزيقيين فليس إلا أمرًا هيِّنًا يجوز إهماله، والواقع أن الخلود بالمعنى الغربى نسبيٌ للغاية، ولذا لا علاقة له بالميتافيزيقا الصرف، فما الذى يُمكن قوله عن البقاء *survival* حتى لو كان بعيدًا عن الاعتبارات الميتافيزيقية؟ ولا نرى أهمية لأن يعرف الإنسان احتمالًا ولا يقينًا البقاء لفترة مقدارها *X* من السنوات، فهل يكون ذلك عنده أهم من أن يعرف مدى حياته الأرضية التى تبدو له دوامًا غير محددًا؟ وهنا

ندرك الاختلاف مع المنظور الدينى الحق الذى يعتبر البقاء فى الحياة بلا قيمة ولا دوام، وباعتبار نتائج ادعاء الأرواحية بالتجريب فى هذا الصدد يمكن رؤية أحد الأسباب التى تجعلها دينًا زائفًا.

ولازال هناك جانبٌ آخر للمسألة، فأيًا كانت أسس اعتقاد الأرواحيون بالخلود فإنهم يؤمنون بأن كل ما يبقى من الإنسان على الأرض خالدًا، ولنتذكر أن العناصر الباقية هى مجمل ’الروح‘ و’الجسد النجمى‘ و’البيريسبيرت‘ الذى لا ينفصل عنهما، أما عند الغيبيين فما يبقى هو ’الروح‘ و’الجسد النجمى‘، والروح وحدها تبقى فى حين يفنى الجسد النجمى[2]، إلا أن الغيبيين والأرواحيين جميعًا يؤمنون بضرورة التجريب فى خلود الروح والجسد النجمى ليكشف عن تحلل المنظومة اللامنظورة للإنسان، وأما الآخر فلن تكون أمامه فرصة لملاحظة شيء من هذا القبيل، فالنظرية الغيبية تدفع بأن هناك ’موت ثانى‘، وأن ’المستوى النجمى *astral plain*‘ هو الموت بما هو على المستوى العضوى، ومن ثم اضطر الغيبيون إلى الإقرار بأن الظواهر النفسية لن تبرهن على البقاء فيما وراء المستوى النجمى، وينبغى لهذه الاختلافات أن تبين تهافت تلك البراهين التجريبية المزعومة عن الخلود لو كان هناك حاجة للأسباب التى ذكرناها فى منظورنا سبب حاسم للتسليم بفجاجتها التامة ودفوعها المتهافتة عن البرهان التجريبى المزعوم عن الخلود، لكن ملاحظة أن تجريب الخلود فى المدرستين يقوم بناءً على المقولة ذاتها فإن ما يخلُدُ فى أحدهما يفنى فى الآخر، أضف إلى ذلك أن المسألة تنحو إلى التعقيد عند الأرواحيين والغيبيين على السواء بطرح فرضية التناسخ، فشروط البقاء‘ فى منظورهما تختلف بين المدارس المتنوعة فيما تعلق على نحو طبيعى بالفترة الوسيطة بين حياتين أرضيتين لكل من التناسخات الجديدة، فلابد من أن يجدوا أنفسهم فى الورطة ذاتها كما فى حالهم السابق، لكن المطروح دائمًا هو ’البقاء‘ العَرَضى، وفى نهاية المطاف فإن السؤال يبقى بلا جواب، حيث لا يمكن القول إن ذلك التغير بين الوجود الأرضى والوجود فوق الأرضى يستمر بلا انقطاع، وقد تجادلت المدارس فى ذلك لكن التجربة تحسم القرار، فلو كانت المسألة مؤجلة إلا أنها لم تُحَلّْ، كما أن الشكوك ذاتها تحيط بمصير

---

[2] *Papus, Traité métaphysique de Science occulte, p 371.*

الإنسان على الأقل، فالتناسخ لو كان أمينًا نظريًا أعجز من أن يطرح حلًا، وخاصة فيما تعلق بالتجريب، والواقع أن هناك من يعتقد أنه قد وجد براهين تجريبية فى التناسخ، لكن ذلك ليس من الأمور التى سنعالجها.

ولابد لنا من تذكر ما قاله الأرواحيون عن ’ما بعد الموت‘ أو ’البقاء‘ ينطبق جوهريًا على الفسحة ما بين ’تناسخين‘، وهو حال ’الأرواح‘ التى يعتقدون أن ’تجليها‘ هو ما يسمونه ’حياة فى الفضاء‘ أو ’حياة جوالة‘، وكما لو كانت حياتها الأرضية تنبثق فى الفضاء! وتناسب تسمية ’ما بعد الموت *afterlife*‘ مفهومهم حيث إنها تعنى امتدادًا لحياتهم فى أحوال تشبه حياتهم الأرضية بقدر الإمكان، فليس عندهم ’انتقال *transposition*‘ يسمح للآخرين أن يبصروا حياة ’ما بعد الموت‘ حتى لو كانت دائمة على منوال يناظر الاحتمالات الواقعية أيًا كان موضعها فى النظام الكلى، لكن تلك الحياة التى تصورها الأرواحية استحالة فحسب حيث إنها الإبدال الحرفى لحال إلى آخر، وبما يعنى إدماج عناصر لا تتقابس ولا تمتزج، وهذا الافتراض المستحيل ضرورى لهم، فبدونه لن يحدث تواصل مع أرواح الموتى ولن يمكن حتى تصوره، فلكى تتجسد لابد ’للمنسوخ‘ أن يكون فى متناول إدراك الأحياء من كافة الجوانب، فوجود أحدها يشاكل وجود الآخر، ويدفعون بهذا التشاكل إلى أقصاه بدرجة تستعصى على التصديق، وتشهد بأن وصفهم لحال ’ما بعد الموت‘ مجرد انعكاس للأفكار الدنيوية من إنتاج ما ’تحت الوعى‘ للأرواحيين أنفسهم، ونرى من الأوفق الوقوف أمام هذا الجانب من الأرواحية الذى لا يُعدُّ من أقلها حماقة.

4 محاكاة ما بعد الموت

وقد قيل إن بعض البدائيين ’الوحشيين‘ يصورون الوجود فيما بعد الموت كما فى الحياة تمامًا حيث يعكف الموتى على عمل كل ما كانوا يعملون من صيد وحرب وما كانوا ينشغلون به فى حياتهم حتى الطعام والشراب، ولن تُقَصِّر التعليقات فى وصف

سذاجتهم وعطب مفاهيمهم، والواقع أنه يجب الحذر عند ذكر 'البدائيين' لأسباب عدة، وأولها مذكرات الرحالة الخيالية فى معظمها، وثانيها من يعتقد أنه يصف واقعياً ما شاهد أو ما سمع إلا أنه لا يفقه شيئًا منها، وقد يبدِّل فهمه الشخصى بالواقع دون أن يعى، وأخيرًا الدارسون أو من تسمُّوا بذلك الذين يقحمون علينا تفسيرهم الذى لا يعدو أفكارًا مسبقة، وليست حصيلة الأعمال من هذا النوع هى ما يظن 'الوحشيون'، وأخيرًا من الدارسين الذين يصوغون أفكارهم الشخصية فى أطرٍ نظرية 'أنثروبولوجية' أو 'اجتماعية'، وليست الأمور بسيطة فى الواقع، أو هى بالحرىِّ معقدة بطرق مختلفة، فالمتوحشون لهم طرق مخصوصة فى التفكير والتعبير شأنهم شأن المتحضرين، ويصعب على الأمم الأخرى فهمها وتناولها، وهناك قليل من طرق البحث لإدراك مغزى ما يقول 'الوحشيون' أو توكيد مدى فهمهم لهم، وعمومًا فإن 'الوحشيين' لا يملكون تفسير عقولهم، أما عن 'التوكيد' المذكور فيُقال إن هناك كثير مما يؤيده فى الواقع على منوال الأشياء التى تُدفَن مع الميت أو قرابين الطعام التى توضع على القبر، ولازالت هذه الطقوس تُمارَس حتى الآن بين أقوام لا يجوز وصفهم 'بالوحشية'، ولا تناظر هذه الطقوس المفاهيم الفجة التى تُتَّخذ براهينا.

والمعنى الحقيقى يختلف تمامًا عن الذى يعزوه المفكرون الأوربيون إليها، فالواقع أن هذه الشعائر مقصورة على عناصر بشرية دنيئة، ويُنظَر إلى 'الوحشيين' لا من حيث البدائية بل من حيث الانحطاط، ولابد أنهم حفظوا شعائر ماضٍ سحيق دون فهمها، وقد فُقِد معنى تراثهم ومن ثم أصبح روتينًا أو 'خرافات' بالمعنى اللغوى، وفى هذه الأحوال لن يصعب تصور أن بعض القبائل ترى حياة المستقبل كما طرحناها عاليه، ولكن لا يلزم الذهاب بعيدًا حتى نكتشف المفاهيم أو الأوصاف كما ذكرنا تماما، ففى زمننا وفى أى زمن آخر يمكن أن تعيش تلك المفاهيم فى الطبقات الدنيا حتى فى المدنيات المتحضرة، ولو جرى بحث لهذه المسألة بين الفلاحين الأوروبيين لكانت حصيلته شاسعة كما نعتقد، كما أن أوضح الأمثلة فى تلك البلاد هى التى تميزت بإيجازها، والتى أنتجتها قرائح متعلمة لمن يُطلق عليهم 'مفكرون ***intellectuals***'، والتى يؤكدها الأرواحيون بحمية أكثر من أى جهة أخرى، وهو موضوع غريب نوصى به علماء الاجتماع الذين لن يخاطروا بتفسير خاطئ على الأقل.

ولا نملك ما هو أفضل من الاقتباس من آلان كارديك ما قال عن 'حال الحيرة' الذى يتبع الموت مباشرة،

"وتمثل هذه الحيرة سمات خاصة لكل فرد بحسب طريقة موته، فالموت العنيف مثل الانتحار والتعذيب والحوادث والجلطة الدماغية والجروح وغيرها يؤدى إلى حيرة الروح التى لم تُدرك بعد أنها قد ماتت، وتحاول بعنادٍ أن تتمسك بالعكس، إلا أنها ترى جسدها ولا تعى انفصالها عنه، فتذهب إلى أحبائها وتكلمهم وتندهش لأنهم لا يسمعونها، ويستمر هذا الوهم حتى ينفصل البريسبيرت تمامًا فينقضى الوهم وتعلم أنها لم تعد بين الأحياء، ويسهل تفسير هذه الظاهرة، فحينما يدركها الموت فجأة يصيبها دوار من التغير الفجائى، فقد كان الموت عندها مرادفًا للهلاك والفناء، وتتوهم أنها ترى وتسمع طالما لم تدرك أنها قد ماتت، وما يزيد من وهمها أنها ترى جسدًا كجسدها السابق، لكنها لم تدرك بعد طبيعتها الأثيرية فتعتقد أنها على شاكلة جسدها الأول، وحينما تنتبه إلى ذلك تحتار ولا تشعر بذاتها،.. وتتصرَّف بعض الأرواح على المنوال ذاته رغم أن موتها لم يكن فجائيًا، وهو كذلك تصرف الأرواح التى كانت مريضة إلا أنها لم تفكر فى الموت، وترى مشهدًا فريدًا لروح تسير فى جنازتها كما لو كانت غريبة عنها حتى اللحظة التى تدرك فيها الحقيقة،.. وقد لوحِظ فى حالة الموت الجماعى أن الذين ماتوا فى اللحظة ذاتها لا يلتقون من فورهم بل يذهب كل منهم فى طريق أو ينشغل بالذين يهتم بهم فحسب"[1].

وها هنا ما يسمى الحياة اليومية 'للأرواح'،

"إن موقف الأرواح والطريقة التى تنظر بها إلى الأمور تختلف بموجب مرتبة نموها الأخلاقى والفكرى، وتبقى الأرواح الأسمى على الأرض فترة قصيرة، حيث يبدو كل شىء فيها صبيانًا تافهًا بالقياس إلى اللامتناهى، فى حين يراها الأحياء أمورًا بالغة الأهمية، فلا يجدون ما يستحق انتباههم ما لم يكن أمرًا يتعلق بتقدم الإنسانية، أما الأرواح متوسطة التقدم فتبقى على الأرض فترات أطول حتى لو

---

[1] *Le Livre de Esperits, p 72-73.*

كانت تدرك الأمور من منظور أوسع من منظورها أثناء حياتها، وأما الأرواح الكثيفة فتشكل الشطر الأعظم من العالم الخفى، فقد تمسكت بأفكارها ومذاقها وميولها إبان حياتها الجسدية، وتلتحق بلقاءاتنا وأعمالنا وتسليتنا، وربما شاركت فيها على نحو فعال، وعندما تعجز عن إرضاء مشاعرها تبتهج بالذين يشجعونها، ومن بينهم من كان جاداً فى رؤيته للأمور حتى يتعلم ويكتمل"[2]

ويبدو أن تلك 'الأرواح الهائمة' التى تنتظر انتساخًا جديدًا تجمع المعلومات "من ملاحظة ما يحدث فى المواقع التى تمر بها" وأيضًا فى "سماع محاضرات المستنيرين ونصائح الأرواحيين الأرقى منها، حيث تكتسب أفكارًا لم تعهدها من قبل[3]"، وطواف هذه 'الأرواح الهائمة' الذى قد يكون معلمًا يكون كذلك مرهِقًا مثل السفر الأرضى، ولكن،

"هناك عوالمًا مخصوصة بها يمكنها أن تقيم فيها مؤقتًا، وبها أماكن للراحة من رهق التجوال الدائم، وهى عوالم وسيطة مرتبة بحسب نوعية الأرواح التى تلجأ إليها، وكذلك التى تستمتع فيها بوجودها"[4].

وليس لأى روح أن تذهب حيث تشاء، وفيما يلى تفسير هذه الأرواح للعلاقة بينها وبين تلك المواقع،

"والأرواح التى تنتمى إلى مراتب مختلفة ترى بعضها بعضًا لكنها تختلف عن بعضها البعض، فهى تتقارب وتتباعد بموجب التشاكل والتضاد فى مشاعرها كما يحدث فيما بيننا، فهى فى عالم بأكمله لا يعدو عالمنا منه إلا انعكاسًا شائبًا[5]، وتقع الأرواح على نظائرها بالتماهى لتشكل جماعات وأسرٍ تتوحد أما بالتعاطف وإما بتماهى غاياتها، فتأتلف الأرواح الخيّرة بالرغبة فى عملٍ الخير وتتفق الأرواح الشريرة بالرغبة فى عمل الشر، ومثل مدينة شاسعة حيث تتجمع الطبقات كل منها فى موضع وحال

---

[2] *Ibid., p 145.*

[3] *Ibid., pp 109-110.*

[4] *Ibid., p 111.*

[5] وقد جاءت هذه العبارة تحتها خط فى نص الكتّاب بمقلوب معنى العلاقة المقصودة حيث نحصل على المعنى الحق.

نظرًا لتشاكل ميولها، فالطيور على أشكالها تقع، ودون اختلاط بينها، حيث تتبع الفضيلة والرذيلة أحدهما الآخر دونما حديث،.. والخيِّر يذهب حيث شاء لكى يؤثر على الشرير، أما مناطق الخيرين فتمتنع على الأرواح الناقصة حتى لا تتسبب بدوافعها الشريرة فى أذى،.. والأرواح ترى وتفهم بعضها بعضًا، لكن الحديث مادى حيث إنه انعكاس للروح، ويوفر السائل الكونى بينها اتصالًا لا ينقطع، فهو أداة حاملة للصوت كما لو كانت تلغرافًا كونيًا بين العوالم المختلفة،.. ويوفر البريسبيرت وسيلة لتمييز الشخصيات بعضها بعضًا كما يفعل الجسد فى أحواله الأرضية بين الأحياء"[6]

ويمكن للمرء مضاعفة هذه الاقتباسات، ويضيف متونًا تجعل الأرواح متداخلة على منوال الأحداث الأرضية، وأخرى تحدد 'تحدد مهن الأرواح وغاياتها'، لكن ذلك سيغدو مملًا كما لوكانت قراءة لعدة كتب من الأدبيات الأرواحية، ونعتقد أن المقتطفات المذكورة كافية بلا تعليق، وسنلاحظ مرة أخرى فكرة أن الأرواح قد احتفظت بحواس الأحياء، ذلك أنه أمر شديد الأهمية دائمًا ما يتردد، والاختلاف الوحيد هو أن تلك الحواس لا تصل إلى الأرواح عن طريق أعضاءٍ مخصوصة بل بكيان 'البريسبيريت' بكامله، وتعتمد معظم الملكات الحسية على المنظومة الجسدية، وتعتبر 'أسماء الروح أو صفاتها'[7].

وبعد أن عرضنا لآلان كارديك يحسُنُ بنا أن نعرض لتلميذه وممثله ليون دينيس،

"إن الأرواح المتدنية مغلفة بسوائل غليظة داكنة، وتقع فى قهر الجاذبية الأرضية وتنجذب إلى الأسفل نحو المواد ولا تملك الانفصال عن المدارات المادية،..وتصطحب من قبرها عاداتها واحتياجاتها ومشاغلها المادية، ولا تقدر على رفع ذاتها فوق حياتها البشرية المنهمكة فى صراعها وعملها ومسرَّاتها، ففى حياة التجوال زحام يسعى إلى حال أفضل دائما ما يروغ منها،.. وتعمل كما لو كانت دهليزا يفصلها عن فضاء النور والعوالم الأفضل، وتدور مهمومة مكتئبة فى الأفلاك

---

[6] *Le Livre des Esprits, pp 145-137.*

[7] *Ibid., pp 116-117.*

الدوارة دون أن تعى أنها تؤثر على عناصر المناخ،..

"فى حين تذهب الأرواح النقية إلى أفق شاسع من النور حيثما شاءت ولا تكاد تشعر بحدود لطيرانها، وحياتها عمل دائم بلا مشقة، فهى تتحرك بسرعة فكرها كبخار من نور، وتبلغ بلطفها حدًا لا تستطيع الأرواح المتدنية إدراكه، فهى ترى وتسمع وتشعر بدون وساطة الحس العضوى بيننا وبين الطبيعة، بل على نحو مباشر بكل كيانها، كما تدرك بجلاء ووضوح يفوق قدرتنا، فهى تسبح فى أحضان محيط من هدهدة مشاعر جميلة متناسقة، وترى أمامها صور عطرة وأصوات رقيقة، لكنها قادرة على الانفصال عنها إلى فضاء السكينة، فلا حاجة بها إلى أمور جسدانية، فالغذاء والنوم لا ضرورة لهما.. فكل مدارات الكون تشغلها أرواح لا تكلّ، ومنها ما يرتفع وما يخفض وما يتحرك فى أحضان النور أو فى أغوار الظلام، وأحيانا ما تجتمع أرواح حول روح أسمى لتستمع إلى تعاليمها، كما أن منها جماعات تحتفل لاستقبال القادمين الجدد، وفى أنحاء أخرى تشكل الأرواح سائلًا بألف لون وألف صورة استعدادًا لتنفيذ رغبات عبقرية متسامية، وحيث إن الأرواح سائلة فإنها تعمل فى النطاق السائل للفضاء بقوة إرادتها، وتمزج بين بعضها بعضًا كما يحلو لها وتصبغها بألوان وتصوغها بصور كما تريد، فهى تعمل بهذه السوائل أعمالًا تفوق التصور فيما وراء كافة المقارنات والتحليلات، وصورًا تتحول وأضواء تتلألأ لحيوات إنسانية فى الإيمان والتضحية والشهادة والصراع اللامحدود،.. وفى هذه الموائل السائلة للأرواح تتجلى الأعمال العظيمة، فالأرواح النقية تتلألأ فى أوشحة من النور تنم عن سموها وتصاعدها وصفاتها،.. ويبدو مقامها بدلالة وشاحها السائل، وهو الغطاء المنتسج من الفضائل التى تنتقل معها فى تتابع وجودها، والتى تبدو فى الأرواح الدنيئة كئيبة مظلمة، ولكنها تقارب بياض النور كلما تقدمت لتصبح أكثر نقاءًا لتضفى البهاء على الأرواح السامية"[8]

ولا يقولن أحد إن هذه مجرد تحسينات بلاغية، فإن الأرواحى يأخذها بالمعنى الحرفى بما هو.

---

[8] *Après la mort, pp 270-290.*

لكن الأرواحية الأنجلوساكسونية قد فاقت شطحات الأرواحية الفرنسية ومفاهيمها للحياة الأخرى، وخاصة فى كتاب بعنوان *Summerland* يحكى عن ’موائل الأرواح‘، وقد ذكرنا فى موضع آخر أن الثيوزوفيين أحيانًا ما ينتقدون هذه الخزعبلات بشدة، وقد أصابوا فى ذلك، وقد تحدثت آنى بيسانت عن ’أشدها غلظة‘ فى الكتاب الحديث *Summerland*[9] وما ذكره عن ’زوج الروح‘ و ’زوجة الروح‘ و’أرواح أطفالهما‘ وذهابهم إلى المدارس والجامعات حتى يصبحون أرواحًا بالغة الرشد *adult spirits*[10]، وقد أصابت يقينا، لكننا نعجب ما إذا كانت الثيوزوفية لها الحق فى التهكم على ’الأرواحيين‘؟ ويمكن الحكم على ذلك من مقتبسات عن أحد وجهاء الثيوزوفية هو ليدبيتر،

"وعندما تصل الروح بعد الموت إلى النطاق النجمى فلا تفهم أنها قد ماتت بعد، وحتى لو كانت واعية بذلك فإنها لا تدرك فى أول الأمر كيف اختلفت هذه الحياة عما كانت عليه فى العالم العضوى،.. فالميت الحديث يحاول أن يأكل ويُعد لنفسه عشاءً وهميًا، فى حين يبنى آخرون بيوتًا، ولقد رأيت فى الماوراء رجلًا يبنى لنفسه بيتًا قالبًا بقالب، ويشكل القوالب بجهد فكرى، فلم يدرك بعد أنه يستطيع بناء بيته بالكامل بالعملية ذاتها دون الدخول فى تلك الأعمال المنهِكة، وعندما أدرك أن القوالب لا وزن لها فقد فهم تدريجيًا أن أشراط هذه الحياة الجديدة تختلف عما اعتاده على الأرض، وهو ما أدى به إلى الاستمرار فى تجربته، وفى كتاب *Summerland* يحيط الناس أنفسهم بصور مشاهد أرضية قد ابتكروها بأنفسهم، فى حين يرضى بعضهم بما تصوره الآخرين، فالذين يعيشون فى المقام السادس القريب من الأرض يُحاطون بمحاكاة للجبال والأشجار والبحيرات حتى إنها توفر عليهم جهد إنتاجها بأنفسهم، أما الذين يقطنون مقامات أسمى ويحومون حول سطح الأرض فإنهم يصنعون المشاهد بأنفسهم بمجرد الرغبة،.. فقد كان هناك مادىٍ بارز عُرِف عنه أثناء حياته كعضو فى الجمعية الثيوزوفية، وقد اكتشفوا

---

[9] *La Mort et l'au-dela, p 85 of the Frensh translation.*

[10] وهنا يقبل الكاتب الثيوزوفى اصطلاح الأرواحيين.

مؤخرًا أنه لازال محاطًا بكتبه ويتابع دراساته كما كان يفعل على الأرض"[11].

ولا نكاد نرى فارقًا بخلاف تعقيد 'المقامات' الأعلى والأدنى، والواقع أن ليدبيتر أرواحى سابق، ولابد أنه كان لايزال متعلقًا بأفكاره السابقة، لكن ذلك هو حال زملائه، فالثيوزوفيون قد استعاروا الكثير من الأرواحيين بما يسمح لهم بانتقادهم، ولابد من ملاحظة أنهم يُعزون ما يسمونه 'مشاهداتهم' من هذا النوع إلى العِرَافة *clairvoyance* فى حين يدفع الأرواحيين بأنها 'اتصالات'، إلا أن الأرواحيين لهم عرّافيين *seers*، والغريب فى الأمر أن كل انحراف بين المدرستين يناظر انحرافًا فى رؤيتهما، فكل من انتمى إلى مدرسة يتفق مع منظورها، ولا يجوز إضفاء قيمة على أحدهما أكثر من الآخر حيث تنطبق كافة الشروط فى كليهما، وحيث يلعب 'الإيحاء' دورًا مهيمنًا.

ولكن لنعد إلى الأرواحيين، وقد كان أعجب ما صادفنا من الكتب بعنوان 'تجربتى مع الأرواح *Mes experiences avec les esperits*' للأميريكى الفرنسى الأصل لاكروا *Henry Lacrois*، وهذا الكتاب الذى نُشِر فى باريس عام *1889* يبرهن على أن الأرواحيين لا يتمتعون بحاسة العبث، وقد اعتبر بابوس كاتبه من 'أخطر المتعصبين'، وكتب أن "قراءة هذا الكتاب تدفع بالأسوياء إلى الابتعاد عن الأرواحية"[12]، وقال ماكناب *Donald MacNab* "إن على الذين لا يعادون المرح اللطيف قراءة هذا العمل لكى يعرفوا شطط الأرواحية" وأنه "يوصى للنفسانيين *psychologists* على وجه الخصوص بالانتباه إلى هذا الكتاب"[13]، ويعنى ذلك أن الكتاب بجمله جدير بالاقتباس لبيان الغاية التى يذهب إليها الأرواحيون، وهو أمر لا يقبل التصديق، فتوصيات هذا الكتاب يقينًا دعاية رائعة لمناهضة الأرواحية لدى الذين لم تصبهم عدواها لكنهم قد ينجذبون إليها، ومن عجائب هذا الكتاب وصف 'بيت الكاتب السائل *fluidic house*' وكذلك ما رسمه من صور شخصية 'لأبنائه من الأرواح' 'تحت سيطرتهم الميكانيكية'، وقد فقد منهم اثنى عشر من خمس عشر، لكنهم استمروا فى الحياة والنمو فى 'العالم السائل *fludic world*'، حتى إن بعضهم قد تزوج فيه ! وقد ذكر الكاتب ذاته عن الموضوع نفسه

---

[11] *L'Occultisme dans la Nature, pp 19 note 2 and 44.*

[12] *Traité métaphisique de science occulte, p 341.*

[13] *La Lotus, March 1889, p 736.*

"إن فى الولايات المتحدة زيجات متواترة بين الأحياء والموتى"، ويذكر حالة القاضى لورنس الذى تزوج بامرأته الميتة على يد قسيس من أصدقائه[14]، ولو كان ذلك صحيحًا لكانت عقلية الأرواحية الأميريكية فى حال مؤسف، وقد علمنا من مصدر آخر كيف تتغذى الأرواح *spirits* وماذا ترتدى وكيف تبنى بيوتها، ولكن أفضل ما فى ذلك حكاية تجلى مدام دى جيرادان وقصص أخرى، وها هنا عيِّنة منها،

"كنت منشغلا فى هدءة الليل بالقراءة أو الكتابة عندما رأيت مدام دى جيرادان تقترب منى وتحت ذراعها لفافة وضعتها أمام قدمى، ولم أدرك ساعتها ما هى ولكن سرعان ما أدركت أنها صورة إنسان، ثم إنى أدركت المطلوب منى، فقد كان علىَّ تخليص هذه الروح التعسة من ماديتها، وكان اسمها دى موسيه *de Musset* ! وما أقنعنى لحظتها أن مدام جيرادان أسرعت بالانصراف كما لو كانت تخشى حضور العملية،.. وكانت العملية هى إزالة صورة الروح بالكامل حيث إنها كانت مرتبطة بالروح تمنعها من الطيران، وتلتصق بكل نقطة منها بدءًا من الرأس وقد فرغت من المهمة دون أن اهتم بصراخ المريض وتقلصاته،.. وفى اليوم التالى جاءت مدام جيرادان لتحدثنى عن الذى ترعاه، وقالت إنها قد أنفقت جهدًا طائلًا عليه واتخذت كل الاحتياطات الممكنة بعد الآثار الفظيعة للعملية التى أجرتها عليه حتى تُعيده إلى طبيعته، وأن أصدقاؤه أقاموا ’احتفالًا وثنيا‘ لخلاصه"[15]

وليس أقل من ذلك إدهاشًا موضوع ’مسرحية الأرواح‘،

"وبينما كانت سيليست إحدى بناتى من الأروح فى نزهة معى ظهرت لنا مدام جيرادان فجأة وقالت لها "لماذا لا تدعين أباك ليشهد الأوبرا التى تغنى فيها؟" فأجابت سيليست "لابد لى من سؤال المخرج أولًا !".. وبعد عدة أيام جاءت سيليست وقالت "إن المخرج سيسعد بحضورك مع كل أصدقائك"، فذهبت إلى الأوبرا مع مدام جيرادان ودستة من أصدقائى الأرواح إلى القاعة الشاسعة

---

[14] *Mes experiences avec les spirits, p 174.*

[15] *Ibid., pp 22-24.*

للمسرح المفتوح *amphitheater* الذى كان يغص بالمشاهدين، ولحسن الحظ كانت المقاعد المحجوزة لنا تسمح بالحركة بحرية، وقد بلغ عدد الحضور ما يقرب من عشرين ألفا، ويبدون كمحيط هائج عندما تحرك قلوبهم مع الأوبرا، وكان اسمها آريديد بمعنى علامات الزمان، وقد توهجت سيليست ببهاء النار الفنية التى حركتها، وقد عُرِضت الأوبرا اثنى عشر ألف مرة وشهدتها كل العقول المرموقة وأسرت أرواحًا شتى تكأكت عليها، حتى اضطروا إلى بناء قبة على المبنى، وكان فريق الممثلين مئة وخمسين فنانًا غير الأدوار الثانوية والأوركسترا، وقد ذكرت لى سيليست مسرحيات أخرى مثَّلت فيها، وقالت إن بلزاك كتب أوبرا رائعة بمشاهد خلَّابة، وهى التى يعرضها المسرح حاليا"[16]

ورغم نجاح سيليست المسكينة فقد وقعت فى سوء تفاهم مع المخرج فطردها من الفرقة ! وفى مرة أخرى حضر الكاتب لقاءً من نوع آخر ’فى معبد دائرى بديع مكرّس للعلم *Science*‘، ودعاه مدير المسرح فى لقاء دورى إلى إلقاء كلمة، فاعتلى المنصة وألقى خطبة رائعة على مسامع ستمئة روح من العلميين[17]، وفى مناسبة أخرى تواصل مع روح الفنان كوربيه وشفاه من مرض السُكْر الذى انتابه بعد الموت، ومن ثم رشّحه لإدارة أكاديمية عظيمة للفنون، والتى كانت لها شهرة سابغة فى المنطقة التى أقيمت بها[18]، ثم يأتى دور ماسونية الأرواح التى تشاكل ما سمَّته الثيوزوفية ’ المحفل الأبيض الأعظم‘،

"وقد كان عظماء الإخوة هم الذين وصلوا إلى أعلى المراتب الروحية والمادية إبَّان حياتهم، ومن ثم أسسوا جمعية من مراتب متنوعة على مشارف العالم السائل نحو العوالم الأثيرية، وهى العوالم الأكمل والأسمى، ومن ثم كانت بمثابة الحكومة التنفيذية للنطاقين السائل والأثيرى، وسُميت هذه الجمعية ’محفل الأخوة الأعظم‘، وهى طليعة العالم الأثيرى والعالم الأرضى، والتى تحكم أرواح الفانين فى كل مراتب وجودهم".

---

[16] *Ibid., pp 101-103,* وهو مالم يمنع الأرواح من حضور الأوبرات التى لم يكونوا مقصودين بها على الخصوص، *Ibid., pp 155-156.*

[17] *Ibid., pp 214-215.*

[18] *Ibid., p 239.*

ويصف فى فقرة أخرى 'تعميدا رئيسيا' فى المحفل المذكور لروح بلجيكى يسمى يوبارد Jobard [19]، ويشبه هذا التعميد شعائر الماسونية، لكن 'المِحَن' trials كانت أكثر جدية ولم تكن تكن رمزية فحسب، وقد رأس الكاتب هذا الاحتفال رغم أنه لازال حيًا، إلا أنه كان من أعلى المقامات فى تلك الجمعية الغريبة، ونراه فى يوم آخر 'يضع نفسه على رأس جيش من عشرة آلاف روح من الرجال والنساء من العالم الثالث، كذا، ليغير على مستعمرة لأرواح متخلفة، ويقوم بعملية كيميائية معروفة لنا لتنقية أجوائه التى يسكنها أكثر من مليون روح حتى يعالج الأفكار الشائعة بينهم، ويبدو أن هذا البلد كان مستقلًا عن فرنسا السائلة[20]، فكل بلد على الأرض لها 'قرين سائل' فى الفضاء كما يقول الثيوزوفيون أيضًا، وتناضل 'الأخوة الأعظم' منظمة سائلة أخرى 'لمنظومة كهنوتية'[21]، كما يصرِّح الكاتب "أن الغرض الرئيس لمهمته كانت كبح السلطة الكهنوتية فى العوالم الأخرى وتدميرها، ومن ثم يحدث ذلك على الأرض"[22]، ونكتفى من تلك البلاهات، غير أننا نكشف هنا عن العقلية التى تميز الأرواحيين والأرواحيين الجدد بدرجة أو أخرى من التخفيف، ألا يبرر ذلك إنكارنا لهذه الأمور واعتبار خطورتها على الجماهير؟

وحبًا فى الاستطلاع نورد أيضًا هذا الوصف الذى يختلف تمامًا عن سابقه مما قالته 'روح' عن حياتها الأخرى،

"غالبًا ما يموت الإنسان دون وعى بما يحدث له، ثم يعى ذلك بعدة أيام وأحيانًا بعد عدة شهور، فاليقظة ليست سهلة حينما يرى نفسه محاطًا بكائنات لا يعرفها رؤوسها أشبه بالجماجم، والرعب الذى يتملكه يفقده الوعى أحيانا، ويتعود رويدًا رويدًا على هذه المرائى، فأجسامها ليست مادية بل تتكون من كل غازية كالهواء، وتتشكل من رأس وصدر بلا بطن ولا أيدٍ ولا سيقان، وتتحرك بالسرعة التى تريدها، وحينما تزداد سرعتها تتحول إلى اسطوانة، وعندما تبلغ سرعتها أقصى حد تتخذ شكل اللولب المكون من أربعة عشر حلقة، ويبلغ قطرة حوالى 35 سم، لكنه

---

[19] *Ibid., pp 180-183.*

[20] *Ibid., pp 152-154..*

[21] *Ibid., pp 170-171..*

[22] *Ibid., p 29.*

يمكن أن يتقلص إلى أربعة سنتيمترات حتى يصل إلى سرعة الصوت،.. وغالبًا ما نجد أنفسنا فى بيوت الناس حيث إن الريح والمطر لا يناسبانا، أما نور غاز الأسيتيلن فيناسبنا تمامًا، كما أن الوسطاء يشعون بنور يجتذب الأرواح، ولا ترى الأرواح ملابس الناس إلا على شكل سحاب، كما أنها ترى بعض الأجهزة الباطنية فى جسد الإنسان، لكنها لا ترى المخ نظرًا لوجود الجمجمة، وتسمع أفكار الناس من بُعد حتى لو لم يتلفظوا بها، ويهيمن قانون الأقوى فى عالم الأرواح، فهو حال من الفوضى، وأحيانًا ما يفشل مجلس التحضير نظرًا لاحتلال روح شريرة للمائدة وتبقى عليها من جلسة إلى أخرى، وتُبعِدُ الأرواح الجادة التى ترغب فى التواصل،.. وتعيش الأرواح فترة تتراوح بين مئة ومئة وخمسين عاما، ثم تتضاءل كثافتها وقوتها حتى تتحلل فى الطبيعة تماما،.. فنحن خاضعون لقوانين ضغط الهواء، نحن مواد لا نكرِّم أنفسنا بل نكرهها، فكل ما كان ماديًا خاضع لقوانين المادة، وحيث إن المواد تتحلل فكذلك نذوى ولا نحتمل بعد مئة وخمسين عامًا على أكثر تقدير، ومن ثم نموت إلى الأبد"[23].

وتنكر هذه الروح المادية الخلود كما ينكره معظم الأرواحيون من الذين يميلون إلى الزندقة وليست مستنيرة بحال، والتجريبيون الذين يصادفون مثل هذا 'الاتصال' الغريب يؤكدون أن "أذكى الأرواح تعترض على فكرة 'الرب'"[24]، ولدينا عدة أسباب للظن بأن لديهم تفضيلٌ قوىٌ 'لمذهب الواحدية *monism*'، وأيًا كان الحال فالذين سجلوا تُرَّهات الأرواحيين التى عرضناها هم غالبًا من الذين يدعون بإمكان دراسة الظواهر 'علميًا *Scientifically*'، ويحيطون أنفسهم بأجهزة مبهرة ويزعمون أنهم قد أسسوا علمًا جديدًا أطلقوا عليه اسم ' علم النفس العضوى *physical psychology*'، وألا يغرينا قول عذر البسطاء لو امتعضوا من هذه الدراسات بدهيًا *a priori*؟ إلا أننا وجدنا إلى جوار المقال الذى اقتبسنا منه توًا مقالًا لنفسانى *psychist* من الواضح أنه أرواحى سئ التنكر يعلن بوقار "إن الشكاكين والمعار

---

[23] وهو اتصال تلقاه فان زيلست *Zaalberg van Zelst* و ماتلا دى لاهاى *Matla de la Haye*، ونشر فى *Le Mond Psychique, March 1912.*

[24] *'Le Secret de la Mort', by Matla de la Haye and Zaalberg van Zelst, Le Mond Psychique, April 1912.*

ضين والمعاندين لدراسة الظواهر النفسية لابد من اعتبارهم من مرضى العقول"، و"أن العقل العلمى قد أثار نوعًا من الهوس *mania* بين الباحثين طوال فترة من الزمن، وجنونا مزمنا أدى إلى تأسيس الشك كأحد مجالات البحث، وقد يتمخض عنه نوع من جنون الخطل"[25]، حيث يبدو سليم العقل فى عيونهم مختلّ العقل، وهذا طبيعى، ولكن انتشار الأرواحية يبشر بيوم يودع فيه المواطن الذى ينتقدها فى مصح أمرض عقلية.

والمسألة التى يعلق عليها الأرواحيون أهمية كبرى رغم فشلهم فى الوصول إلى تفاهم متبادل حيالها هى معرفة ما إذا كانت الأروح تحتفظ بجنسها، وسبب اهتمامهم هو نتا ئج التناسخ، فلو كان جنس البريسبيريت لابد أن يبقى بلا تغير فى كل أحوال الوجود، ومن الواضح أن التى حضرت ' أعراس الأرواح' على منوال هنرى لاكروا فإنهم سيوافقون على المسألة، أو بالحرىّ لا يُطرح السؤال، ولكن ليس كل الأرواحيون على درجة استثنائية من الملكات، وأما آلان كارديك فقد كان جوابه بالنفى،

"ليس للأرواح جنس كما نفهم بهذا الاصطلاح، فالجنس يعتمد على النظام *organization*، [ولا شك أنه كان يعنى المنظومة الحيوية *organism*] وبينهما محبة وتعاطف، وقد تتناسخ الأرواح كذكور أو إناث بحسب عواطفها وليس بموجب جنسها، حيث لابد أن تتقدم فى كل شىء، فكل جنس كما لو كان وظيفة اجتماعية عليها إنجاز ما يلزمها، وأمامها فرصة لاكتساب الخبرة، فمن ظل رجلًا على الدوام لن يعرف إلا ما يعرفه الرجال"[26].

لكن تلاميذ كارديك لم يكونوا على يقين، ولا شك أن بعضهم قد تلقى 'رسائل' مناقضة، فقد طرحت مجلة *Fraterniste* الأرواحية عام *1913* التساؤل ذاته كما يلى،

"كيف تأتى لك إدراك الحياة الأخرى؟ وخاصة فيما إذا كان البيريسبريت يحتفظ بجنسه، أم أن المرء يصبح متعادلًا *neuter* عندما يصل إلى المستوى النجمى؟ ولو كان الجنس مفقودًا فكيف تفسر أن الجنس فى حالة التناسخ أمر لازم؟ فمن

---

[25] *Le Mond Psychique, March 1912.*

[26] *Le Livre des Espirits, p 88.*

المعلوم أن كثيرًا من الغيبيين يدفعون بأن البيريسبريت هو القالب الذى يشكل الجسد الجديد".

وتنطوى العبارة الأخيرة على خطأ يتعلق بالغيبيين بمعنى الكلمة، والذين يقولون إن 'الجسد النجمى' مرادف تام للبيريسبيريت، والذى يذوب فى الفترة التى سبقت انتساخه، وبالحريِّ يكون الرأى الذى تعبر عنه العبارة هو رأى أرواحيين بعينهم، لكن هناك اضطرابًا جسيمًا فى كل ذلك حتى ليمكن اعتماده عُذرا لفقدان الاتجاه، فبعد أن سأل ليون دينيس النصيحة من مرشدية الروحيين أجابوا بأن الجنس يبقى لكنه يظل متعادلا *neuter*، وأن البريسبيريت فى حال التناسخ يرتبط بالمادة ويتخذ جنسه المعتاد، على الأقل مالم ترغب الروح فى تغيير جنسها، حيث إن ذلك حسب اختيارها، وقد كان جابرييل ديلانيه أشد إخلاصا لتعاليم آلان كارديك، فيقول "إن الأرواح لا جنس لها *asexual* بموجب أنها ليست بحاجة إلى التناسل فى الآخرة،

"وأن هناك وقائع بعينها تبرهن على إبدال الجنس لروح بعينها بناءً على الغاية التى تكفلت بها فى الدنيا، وهو ما يبدو كما لو كان من تعاليم الاتصالات مع الأرواح التى ما فتئت تتردد طوال نصف قرن"[27].

وقد كان من بين الأدبيات الغيبية الشتى يقول بابوس باستحضار سُلطة سويدنبيرج ما يلى،

"إن الجنسان موجودان فى الكائنات الروحية إلا أنهما ليسا على منوال العلاقة بينهما فى هذه الأرض، ففى العالم الخفى أرواح نسوية عاطفية وأرواح ذكورية عقلية، وحينما تأتيا إلى الأرض يجوز لأيهما أن يختار جنسه المادى بخلاف الجسد النجمى الذى كان يحتكم عليه".

ومن جهة أخرى يعترف الغيبى المنشق بوسك *Ernest Bosc* بأن الحياة الأخرى التى يتصورها لا تختلف مطلقًا عن الحياة الدنيا، إلا أننا لدينا وقت فى الحياة الأخرى للعمل على التطور الفكرى والروحى دون أن تعوقنا احتياجات مادية، ولم يمنعه هذا التبسيط

---

[27] *Le Fraterniste. March, 1014.*

عن الاحتجاج مصيباً على الملحوظة الجارحة التى عقَّبت على الاستبيان الذى عقدته مجلة *Le Fraterniste*، وهو ما يلى،

"وسوف يُفهم معنى المسألة حينما نقول إن غالبية الأرواحين يعتقدون أن الأرواح بلا جنس *asexual* رغم أن الغيبيون يسلمون بوجوده، ومن ثم يصفون جنس أصدقائنا فى الفضاء".

ولم يحدث أن قال أحد من قبل أنهما آدميان لامتناسخان *disincarnated*، رغم أن الغيبيين يعتبرونهما من قبيل 'العناصر *elementals*'، ولكن كان قبلهم من اعتقدوا بالإجماع أنهما ليسا إلا شيطانين لاغير، أليس فى ذلك موعظة !

وقد كان لنا أن نتوقع مسألة التناسخ إلى حد ما، وفى ختام هذا الباب نلفت النظر إلى نقطة أدت إلى انحراف آراء مشتتة كما عرضنا عاليه، فهل تجرى كل التناسخات على الأرض أم أنها تجرى على كواكب أخرى؟ ويدفع آلان كارديك فى تعاليمه 'بأن الروح يجوز أن تعيش عدة مرات على الكوكب ذاته لو كانت قاصرة عن بلوغ عالم أسمى'[28]، وعنده أن أن الوجود الأرضى للروح قابل للتكرار، لكن ذلك موجود فى كواكب أخرى، وأن مرتبة تطور الروح هى التى تحدد انتقالها من صورة إلى أخرى، وفيما يلى بعض التفاصيل التى تتعلق بكواكب المجموعة الشمسية،

"تقول الأرواح إن سكان الأرض من بين كل مدارات منظومتنا الكوكبية أقلها تقدمًا من حيث بنيتها وأخلاقها، لكن المريخ أقل منها حظا فى حين كان المشترى متقدما من كافة الجوانب، وليست الشمس مأهولة بأى جنس حى بموجب تكوينها العضوى، فهى بؤرة من الكهرباء، وتبدو كافة الشموس متماهية معها من حيث موضعها المركزى فى أفلاكها، لكنها ملتقى الأرواح السامية التى تشع منها بالفكر إلى عوالم أخرى لكى توجهها بواسطة أرواح أقل منها تقدما، وتنتقل بالسائل الكونى، ولا شأن للبعد عن الشمس بدرجة تقدم العوالم، حيث تبدو الزهرة متقدمة عن الأرض، وزحل أقل تطورًا من المشترى، وقد تناسخت

---

[28] *Le Livre des Esperits, pp 76-77.*

كثيرٌ من الأرواح التى حفزت سكان الأرض على كوكب المشترى، وهو أقرب عوالم المجموعة الشمسية إلى الكمال، وقد كان من المدهش أن نرى ذلك التقدم من الأرض واعتبارنا لكفاءته، ولكن ذلك لا يستدعى دهشة لو كنا نعرف أن أرواحًا بعينها قد أُرسِلت منه إلى لإنجاز مهام فى الأرض، ومن منظورنا فهم لا ينبغى أن يحتلوا المرتبة الأولى، وثانيًا أن بين الوجود الأرضى والوجود على كوكب المشترى مراحل وسيطة يمكن استخدامها فى الترقى، وثالثًا وأخيرًا فإن فى كلى المشترى والأرض درجات من التقدم، وربما كان الفارق بينهما كالفارق بين حال العصر الهمجى وبين زمن الإنسان المتحضر، ومن واقع أن المشترى فيه حياة فذلك لا يعنى بالضرورة أنها أكثر المستويات المتقدمة رقيًا أكثر من الحياة فى باريس حيث يشعر المرء أنه عضوٌ فى المؤسسة العلمية"[29].

وقد حكينا قصة الأرواح التى تسكن المشترى فى سياق ذكر رسومات الوسطاء و فيكتورين ساردو، ونتساءل عن الكيفية التى يمكن لتلك الأرواح التى تعيش بها فى كوكب آخر وأن تبعث 'رسائل' إلى الذين يعيشون على الأرض، فهل اعتقد الأرواحيون أنهم قد حلّوا مشكلة التواصل بين الكواكب بطريقتهم الخاصة؟ ويبدو أن آراءهم تتجه إلى إمكان التواصل لو كان الأمر متعلقًا 'بروح سامِيَة' رغم أنها تقطن فى عوالم بعينها، وليست مقصورة عليهم كما هو حال الذين يعيشون على الأرض وقد تمرسوا على أن يكونوا فى كل مكان"[30]، وقد ادّعى بعض الغيبيون والثوزوفيون 'العرّافين' على شاكلة ليدبيتر أنهم قادرون على الانتقال إلى كواكب أخرى حتى 'يُبحثوا' عن الأرواحيين الممتازين الذين يتحدث عنهم 'الأرواحيون'، وحتى لو كان باستطاعتهم الانتقال إلى كواكب أخرى بشخصهم فليسوا بحاجة إلى هذا العناء، فالأرواح ذاتها سواءٌ أكانت منسوخة أم لا منسوخة كفيلة بذلك، والحق إن 'الأرواح' التى يتحدث عنها الأرواحيون ليست بذى بال، ففى كتاب دوجلاس هووم الذى اقتبسنا منه عاليه فى سياق الحديث عن آلان كارديك نجد بابًا بعنوان ' عبثيات *Absurdities*' ننتقى منه ما يلى،

---

[29] *Ibid., pp 81-82.*

[30] *Ibid., p 81.*

"إن المعطيات العلمية التى نطرحها على القارئ قد بلغتنا من نشرة مطبوعة، وتنطوى على تقرير قيّم للعالم المتعلم، حيث يبدو مثلًا أن الزجاج مادة لا غنى عنها على كوكب المشترى، فهو لازم لاستكمال رفاهية الوجود فى تلك المدارات، فالموتى يوضعون فى صناديق زجاجية تُستخدمَ حلية فى البيوت، كما أن بيوتهم ذاتها مبنية من الزجاج، فليس من الحكمة ردم الكوكب بالأحجار، وهناك صفوف من هذه القصور الزجاجية يسمونها سيمينا *Semena*، ويقام فيها احتفال أسرارى كل سبع سنوات، وتُحمَل الضحية المقدسة على عربة زجاجية فى موكب يطوف المدينة ، وسكانها طوال القامة يترواح طولهم بين سبعة وثمانية أقدام كما يقول سكارون *Scarron*، ويتخذون من الببغاوات وغيرها طيورًا داجنة وبعض الحيوانات الأليفة، وعند دخول بيوتهم تجدهم منهمكون فى شغل طواقى النوم،.. ولو صدقنا وسيطًا آخر ليس أقل معرفة من سابقه يقول إن زراعة الأُرز فى تربة الكوكب توافق مناخ كوكب عطارد لو صدقت الذاكرة، ولكنه لا ينمو هناك على الصورة التى ينمو بها على الأرض بفضل المناخ وحسن المعالجة، فهى ترتفع أكثر من شجرة السنديان العتيقة، ولو سعى مواطن عطارد إلى الاستمتاع فى عمره الطويل بكمال البهجة والكرامة *otium cum dignitate* لكان فى شبابه قد بذل كل جهده فى زراعة الأُرز، وكل ما عليه اختيار شتلة قوية من ولايته الواسعة، ثم يتسلق الشجرة إلى أعلاها، ويزرع شتلته فى الفرع الذى يلتهمها كما لو كانت فاكهة لذيذة، وعندما ينتهى من أكلها يتركه ليقوم بعمله مرة أخرى"[31].

ولم يشر هووم إلى أى مرجع لسوء الحظ، ولكن لاشك من أصالة ما يحكيه، والتى فاقتها شطحات هنرى لاكروا ببون شاسع، وهذا الاستعباط الذى يسم أقوال الأرواحيين بصوت وقور كعادتهم فى تلاوة 'الرسائل'، والتى تدل قبل أى شىء آخر على فقر خيالهم، وكل ذلك بعيد عن توهمات الكتّاب الذين حلموا بالارتحال إلى كواكب أخرى، والذين لا يدعون اختراعها، وأنها تعبير عن واقع، كما أن هناك حالات من هذه الأعمال التى كان لها أثر ملحوظ، فقد سمعنا عن أرواحى يصف

---

[31] *Les Lumières et les Ombre du Spiritualisme., pp 179-181.*

سكان نبتون، والتى استلُهِمت من روايات ويلز *Wells* بشكل واضح، ويحسُنُ ملاحظة أن هذه التخيلات عند أفضل الكتّاب تظل مربوطة بالأرض، وقد شكلوا بيئة الكواكب الأخرى بعناصر مستعارة من كوكب الأرض، وقد تتغير من حيث ترتيبها أو تناسباتها، ولن يكون الأمر إلا كذلك، وهو من أنصع البراهين على نوعية خيالهم الذى لا يربو عن الملكات الحسية، وتسهل هذه الملحوظة فهم المقارنة بين مفهومين 'للحياة الأخرى' على نحو صحيح، فالمصدر واحد للمفهومين، والنتيجة مسألة وهمية هى 'ما تحت الوعى' من النوع الشائع تحت المتوسط للإنسان، وهذا الموضوع على صلة مباشرة بمسألة 'التواصل مع الموتى'، وهذه التوصيفات الأرضية تسمح بالاعتقاد فى قيام إمكانية التواصل، وهكذا كان علينا تمحيص الفرضية الأساسية للأرواحية، وسوف يكون ما تقدم تسهيلًا لها.

5 التواصل مع الموتى

وهناك صنف واحد سواءً أفى مناقشة ’الاتصال بالموتى‘ أم ’التناسخ‘ أم أية مسألة مذهبية لن نعيرها اهتمامًا بأية درجة، فهو كل ما كان عاطفيًا، وهو لاشئ مطلقًا من أى منظور كان، ونعلم أن الأرواحيين يلجأون إلى مثل تلك الأسباب التى ليست أسبابًا على للإطلاق، وأنهم يقيمون أهم قضاياهم عليها، وأنهم معتقدين تمامًا بأنهم يبررون مذهبهم، والذى لا يخرج عن التوافق مع عقلياتهم، وبالطبع ليست العاطفية حكرًا على الأرواحيين بل هى سمة غالبة على عقلية الغربيين المحدثين، لكن عاطفية الأرواحيين تتخذ صورًا تثير قلق الذين تحرروا من انحيازاتهم، ولا علم لنا بأى أمر أشد منه بلاهة إلا الدعوات التى يحضِّرون بها ’الأرواح العزيزة‘ على قلوبهم، ناهيك عن الأغانى التى يفتتحون بها مجالسهم، والحماس العبثى الذى يصاحب أى اتصال غثٍ أيًا كان فى هذه الأحوال، وما لا يُدهِش أن الأرواحيين يداومون على ذكر ’العزاء‘ فى نظرياتهم، وأنهم يجدون العزاء عما أصابهم فى أعمالهم ولا يأبهون لأعمالنا، وهناك ما لا يقل عنهم عددا من الذين لا يشاركون فى تقييمنا للأمور بل يدفعون بعكسه رغم أن ذلك لا يبرهن على شىء، وعمومًا فحينما يلجأ غريمان للقول بالمقولة ذاتها فالأرجح أنها لا قيمة لها، أما الحالات التى تشاكل موضوعنا الراهن فقد كنا نندهش على الدوام أن البعض لا يملك قول شىء لدحض الأرواحية إلا أنها ليست ’عزاءً‘ كافيا، وأن الموتى غالبًا ما ينشرون الغباء بتحريك الموائد أو الاستغراق فى ألف بلاهة، وغالبًا ما نهتم بهذه الآراء أكثر من اهتمامنا بأفكار الأرواحيين الذين يجدون ’عزاءً‘ فى هذه الأمور، ولا نصدق أن هذه الاعتبارات لها قيمة حينما يتعلق الأمر بصحة نظرية أو خطلها، فلا شىء يفوق نسبيتها حيث يجد كل امرئٍ فيها ’عزاءً‘ كما يهوى بما يتفق مع ميوله العاطفية، ولا حاجة بنا إلى الجدل فى هذه الأمور التى تتعلق بالمذاق، ويكمُن العبث فى الرغبة فى إقناع الآخرين بأن تقييمًا بعينه أفضل من نقيضه، فليس كل الناس بحاجة إلى ’عزاء‘ بالقدر الذى يجعل منه أمر لازمًا، فالأمر الضرورى عندنا هو الحقيقة فحسب، ولا يصلح منظورهم إلا لهم فقط حتى إن العاطفيون من خارجهم لا يرون الأمور على هذا

المنوال، فالحق فحسب هو ما يُلزم كل الناس بالقدر ذاته بشرط فهمه، وأخيرًا فليس الحق بحاجة إلى عزاء، ولو وَجد فيه بعض الناس عزاءً فهنيئًا لهم، لكن لذلك معاملا يتوقف على الطريقة التى ينفقون بها عاطفيتهم بطرق تختلف وأحيانًا ما تتناقض، ومن المؤكد أن الأمور تسير على هذا المنوال، فليس كالعاطفية مثيلًا فى التنوع والتناقض، وأيًا كان الحال فلا علاقة لها بالحق.

وبعد مقالنا هذا لابد أن نتذكر مسألة 'التواصل مع الموتى'، فهذا التعبير يعنى أن ما يتم التواصل معه هو الكيان الحقيقى للميت، والأرواحيون يعتقدون بصحة ذلك، وهذا ما ننوى طرحه بالتفصيل، فلا يمكن أن تكون مسألة أى تدخل لعناصر ثانوية متحللة من الميِّت، وقد ذكرنا أن تدخل هذه العناصر أمرٌ ممكن، لكن الأرواحيين لا يرغبون فى اعتبار هذه الإمكانية أصلًا، وينطبق الأمر ذاته على التناسخية، ونتذكر أيضًا أن الأرواحيين يعتقدون أن التواصل يتم بوسائل مادية، ولذا عرَّفنا أطروحتهم بحيث يتضح معنى كلامنا من بداية الأمر، فأمامنا مُتَّسع لتعدد المعانى حيث إن للمسألة مفاهيمًا متضاربة، فما كان ماديًا عند البعض قد يكون لاماديًا عند غيرهم، ناهيك عن الذين غابت عنهم فكرة المادية برمتها لأنها غريبة وبلا معنى، ولكى نتوخى وضوحًا أكثر نقول إن الأرواحيين يرون أن التواصل يتم بوسائل محسوسة.

والواقع أن هذه هى الفرضية الأصولية للأرواحية، ونقول إنها استحالة مطلقة، وسوف نعكف فيما بعد على طرح أسبابنا لذلك باختصار، وسوف نحرص على أن تكون واضحةً تمامًا، والفيلسوف الذى ينكر الحق سوف يعتبرها فرضية بين فرضيات أخرى على الأقل، وحتى لو وجد فيها مالا يُعقَل فسوف يبدو التواصل مع الموتى والتناسخ من 'المشاكل' المستحيلة التى لا يملك لها حلًا، أما نحن فنرى أنها ليست مشاكل لأنها استحالات ببساطة، ولا ندَّعى البرهان على ذلك حتى يفهم الجميع أمرٌ بسيط، فهى راجعة إلى أفكار ميتافيزيقية ابتدائية، كما لا ندَّعى أن أطروحتنا كاملة الأوصاف على إطلاقها، ذلك أن حدود هذه الدراسة لا تسمح بذكر كل ما انطوت أطروحتهم عليه، وعلينا تناولها فى سياق آخر، فلو فُهِمَ هذا الطرح تمامًا لأدى يقين مطلق ككل الأمور التى تصطبغ بالميتافيزيقا، ولو رأى البعض إنها ليست مُرضِيَة تمامًا فليس الخطأ إلا فى طريقتنا للتعبير عنها، أو بسبب نقص فهمهم لها.

ولكى يتواصل كائنان بحواسهما المفهومة يلزم أن تكون حواسهما متماثلة حتى على نحو جزئى، ولو كان أحدهما لا يحتكم على حواس أو كان لا يحتكم على الحواس المشتركة ذاتها فلن يمكن التواصل على أى نحو كان، وهذا واضح بما يكفى، لكن هناك حقائقًا من هذا النوع يسهل نسيانها أو ما لا يحظى بانتباه، إلا أنها تحمل معنى غير متوقع، والأولى أى النسيان هو الذى يؤسس للاعتقاد مطلقًا باستحالة التواصل مع الموتى عن طريق ممارسات الأرواحيين، أما الثانية أى عدم الانتباه فعادة ما تنحو إلى حلولٍ وسطٍ لإمكانية التواصل، وتتصل النقطة الثانية مباشرة بما ذكرنا فى نهاية الباب السابق، وسوف نفسرها بموجب أن الاعتبارات السابقة ستسهل فهم المسألة الثانية، وهى التى تُعَدَّ مربط الفرس لاهتمامنا الحالى.

فلو سلَّمنا بأن النظرية التى تفسر كافة الحواس بأنها حركة ترددية سريعة، ولو فكرنا فى جدول يبين سرعة التردد كل ثانية لكل نوع من الحواس فسوف تُفاجئنا حقيقة أن الفُسَح بينها هى التى تنقل إلينا إحساسًا لا يطول إلا لقدر متناهى الصغر من الكون الكلى، فهى تتفاصل بفُسَح أخرى لا تطولها أفهامنا، كما يستحيل تسميتها بأية حدود لارتفاع التردد أو انخفاضه[1]، ولذا لابد من اعتبار أن الجدول المذكور قابل للامتداد من أعلاه وأسفله مشيرًا إلى إمكانات لامحدودة من الحواس، وهو بمثابة قول إن هناك كائنات أخرى لا تتمتع بحواسٍ كحواسنا، لكن ذلك ليس مقصورًا 'علينا' بل يشتمل على كافة كائنات الوجود الأرضى عمومًا، فلا تبدو ملكات الحس مختلفة بدرجة كبيرة أصوليًا، فطبيعتها تحدد بالمناخ الأرضى، وليست خصيصة كامنة فى وظائف النوع العضوية من واقع أن كل الكائنات تعيش على الأرض لا فى أى مكان آخر، وقل مثل ذلك بالتشاكل إن ملكات الحس فى أى كوكب آخر لا تناظر ما على الأرض على أى نحو كان، وهو الأكثر احتمالا، فكل إمكانات الحواس يجوز أن تتحقق فى عوالم جسدانية أخرى حيث إن طبيعة الحواس أن تكون ملكات جسدانية، وهذه الإمكانات لا حدود لها، ولا يكاد أيها يتحقق مرتين، أى إن كائنان يسكنا كوكبان مختلفان لن تتفق

---

[1] من الواضح أن معيار تردد الذبذبات كل ثانية لا يمثل حدودًا دنيا، فالثانية فى الزمن وحدة نسبية تمامًا، كما هو حال كل وحدات المعايير والمقاييس، وليس إلا المعيار الحسابى الصرف فإنه لا يقبل الانقسام مطلقًا.

حواسهما تمامًا حتى بشكل جزئى، ولو فُرِض رغم كل شىء أن يجوز للاتفاق أن يتحقق باحتمال طفيف للغاية فى هذه الأحوال الزمنية والمكانية لكى تسمح بالتواصل فهذه المصادفات لامتناهية الصغر فى إطار العالم الجسدانى، وتُختزَل كثيرًا من منظور وجودها المتزامن فى لحظة بعينها، كما تُختزَل أكثر من ذلك بقرب الكوكبين أحدهما من الآخر باعتبار انتمائهما لمجموعة كوكبية واحدة، ولابد من أن يكون الأمر كذلك نظرًا لأن الزمن والمكان يحملا احتمالات لامحدودة، ولا نزعم أن الاتصالات الكونية استحالة مطلقة، ونقول فحسب إن احتمال أن يُعايَر أمر كهذا إلا بتعبير كمي لامتناهى الصغر، وأن السؤال لو طُرِح بين الأرض وبين كوكب آخر من المجموعة الشمسية مثلًا فلا مخاطرة فى اعتباره معدومًا، ولا يعدو ذلك تطبيقًا لنظرية الاحتمالات، والمهم هو ملاحظة أن العقبات فى الاتصال الكوكبى هى صعوبة التواصل بين كائنين على جهل تام بلغة أحدهما الآخر، لكن هذه المصاعب يجوز تخطيها نسبيًا بفضل الحواس المشتركة بينهما، ولكن فى حالة عدم وجودها على المستوى الحسى حيث يُفترَض للتواصل أن يتمَّ فإن العقبة لن يمكن تجنبها على أى نحو كان بموجب الاختلاف التام بين طبيعة الكائنين، ولو كانت طبيعة حواس تلك المخلوقات انعدام التأثر بما يؤثر على حواسنا فكما لو كانت تلك الكائنات لا وجود لها عندنا، والعكس صحيح، وحتى لو كانت تجاورنا فلن يجدى ذلك فتيلا، وربما لن نُدرِك وجودها، أو على الأقل لن ندرك أنها كائنات حية، ولنقل فى سياقنا إن ذلك يسمح لنا بالظن بإمكان وجود كائنات فى أرضنا ومناخها تختلف تمامًا عما نعرف من كائنات، ولا نملك تحقيق أى تقارب معها، ولكننا لن نسترسل فى ذلك خاصة وأنها لا تتصف بأى شىء مشترك مع الإنسانية، وأيًا كان الأمر فإن ما تحدثنا عنه يبين شدة السذاجة وجسامة الوهم الذى بُنِى على أخطاء مفكرين بعينهم كما ذكرنا آنفا، وهى أنهم عكسوا الأحوال الأرضية على كافة الأحوال، ولو قيل إن هذه التمثيلات هى سبيلنا الوحيد الممكن فسوف نوافق، ولكن لن يكون غيرها إلا تمثيلات زائفة، ومن الثابت أن المسألة ليست خيالا، ولكن لا ينبغى استنتاج أنها لا تُدرَك، وقد كانت أحد الأغاليط الكبرى للفلاسفة المحدثين خلط ما لا يُفهم بما لا يُتَخيَّل، وهو تخليط واضح عند كانط، لكنه ليس فريدًا فى هذ الباب، حتى إنه صار من السمات الثابتة للعقلية الغربية، وعلى الخصوص بعد أن اقتصر العقل الغربى على

معطيات الحس، ومن الواضح أن من يخلط الأمور على المنوال عاجز تمامًا عن فهم أية مبادئ ميتافيزيقية.

ولو سلمنا فى نطاق المنظومة الجسدانية بمبدأ لامحدودية الإمكان فلا مناص من احتوائها على كائنات لامحدودة، إلا أن هذه المنظومة ذاتها ليست إلا حالًا واحدًا من أحوالِ الوجود المشروط لكل ما وُجِد فيه حتى لو كانت تُفصح عن نفسها بطرق مختلفة، وسيكون الاختلاف أكبر بما لا يُقاس بموجب انعدام الشروط المشتركة، فالشروط التى تحدد حالًا بعينه تُستبدَل بغيرها مما يشاكل حالًا آخر، وفى هذه الحالة تنعدم نقاط المقارنة بين النطاق الجسدانى والنطاق الحسى بمجملهما بصيغة أو أخرى مثل ما يشكِّل الوجود الأرضى على منوال الزمن والمكان، والتى لن تنطبق على حال آخر بموجب أنها تمثيل لحال جسدانى، وحتى لو كان هناك شيء يناظرها بالتشاكل فإن هذا 'الشيء' لن يسمح لنا بأى تمثيل كان.

والخيال ملكة حسية لا تملك تحقيق وقائع نطاق آخر بأكثر مما يمكن للحواس ذاتها، فالحس هو ما يُغذى الخيال بكل عناصره، ولا يجد المرء وسيلة لاختزاله إلى غيره نظرًا للاختلاف بين الحالين ورغم أن ذلك ليس اختلافًا مبدئيًا، ولو كان للاتصال أن يجرى بين حالين مختلفين فلابد أن يكون لهما مبدأ مشترك أعلى من كلاهما وليس على نحو مباشر بينهما، لكن الواضح أن ذلك لا يتعلق بالأرواحية بأية درجة.

وقد ذكرنا سلفًا أن إمكان التواصل باعتبار الحالين بما هما يبدو نادر الاحتمال لو كانت مسألة الكائنات مقصورة على الصيغ المتنوعة للحال ذاته، أما لو كانت تتعلق بصيغتين مختلفتين للكائن ذاته فتصبح أقرب إلى الاستحالة، وباختصار فهى مؤقتًا على الأقل مسألة اتصال من المفترض أن يقوم بوسائل يجدها كل منهما شروطًا لازمة لحاله، وهذا هو حال الملكات الحسية فى المنظومة الحيوية، والواقع أن الأرواحيون يلجئون إلى الملكات الحسية، وهو أمر مطلق الاستحالة بموجب أن الملكات المقصودة تنتمى قصرًا إلى حال واحد هو النطاق الحيوى التى تمتاح منه، فسوف يختلط الحالين بحيث يصبحا حالًا واحدًا بموجب أن الشروط ذاتها هى التى تُعَرِّف حال وجود بعينه[2]،

---

[2] ولابد من ذكر تحفظ واحد بمعنى أن الشرط المشترك لكل حال فردية بعينها كما سنبين لاحقًا ليس من

ويتضح تمامًا مدى العبث الكامن فى الأرواحية ويجوز أن نترك الأمر على ذلك، ونضيف للذين لم يعتادوا النظر إلى الأمور على هذا المنوال بعض الملحوظات التى تعينهم على إدراك الأمر من منظور طفيف الاختلاف وأكثر تخصيصًا بما يبرهن على عبث الأرواحية.

ولابد للكائن من التجسد فى العالم الجسدانى، كما يلزم احتكامه على الملكات الضرورية، أى ملكات الحس والفعل، كما ينبغى أن يحتكم على الأعضاء التى تناظر هذه الملكات على نحو كامن مفترَض غير متحقق، وحتى لو افترضنا أن حاله الجسدانى قادر على تخلل حالٍ آخر محتفظًا بكل خصائصه الجسدية فإنه سيكون فى حال كمون فحسب، وبالتالى لن تصلح للتواصل مع كائنات أخرى، والواقع أن الأمر كذلك فبدونها يستحيل أن تصير إلى إمكانات، ونتحدث هنا عن الكائن بمجمل واقعه وليس بشطر منه لا يملك إلا إمكانات حال واحد على منوال حال الفردية الإنسانية، وكل ذلك خارج عن موضوعنا الحالى، ولم نشِر إليه إلا لكى نبرهن على أننا لم نترك شيئًا قد يهدينا كافتتاحية لاعتراضاتنا.

وحتى نجتنب أى تعدد دلالى فلا مناص من إضافة أن الشخصية الإنسانية ليست مقصورة على الحال الجسدانى، فإنها تشتمل كذلك على استطالات متنوعة للحال الجسدانى وكذلك درجة واحدة أو حال بعينه من الوجود الكلى، وهذا ما لا ينبغى الانشغال به حاليًا رغم أنها الوحيدة التى تتعلق بالتجليات الحسية، فإن ’الجسدى‘ يتماهى تمامًا مع ’الحسِّى‘، ولنعد إلى نقطة انطلاقنا، فيمكننا القول إن الاتصال ’الحسِّى‘ لن يجوز إلا بين كائنين متجسدين، أى إن الكائن الذى يبغى التجسد لابد أن يكون جسدا، وبهذا تصدق المقولة، وحتى الأرواحيون لن يستطيعوا التصريح بملاحاة صدقها، فهم يتوهمون أن ’أرواحهم‘ تنطوى على ملكات الحس التى يتميز بها الكائن الأرضى، ويصفونها كمنظومة لجسد ليس على الحقيقة جسدا، كما افترضوا أن لها خصائصًا لا تتقابس مع فكرة الجسد، وتفتقد كافة الخصائص الجوهرية لهذه الفكرة، وعند الأرواحيين أن ’الجسد‘ يحتفظ ببعض تلك الخصائص على منوال خضوعه لشروط الزمن

الأحوال ’فوق الفردية‘، ولا أثر لذلك على طرحنا بأى طريق كان، والذى حاولنا طرحه بأشد إيجاز وبساطة ممكنة، وبدون مخاطرة بحلول وسط للحقيقة.

والمكان، لكن ذلك بعيد عن الوفاء بالغرض، فليس هناك أرض وسيطة، فإما كان الكائن جسدًا وإما لم يكن له جسد، ولو كان ميتاً بالمعنى الدارج، والذى يسميه الأرواحيون 'لامتسخاً *disincarnated*'، أى إنه قد هجر الجسد، وعلى ذلك فلا ينتمى إلى العالم الجسدانى، وينبنى على ذلك أن كافة التجليات المحسوسة قد استحالت عليه، ونكاد تعتذر على توكيد أمور بسيطة أصلا، لكننا نعلم أن التوكيد ضرورى، ولنلاحظ كذلك أن هذا الاتجاه فى الجدل لا ينحاز إلى شىء يتعلق بحال الكائن الإنسانى فيما بعد الموت، وأيما كان إدراك هذا الحال فنحن نسلم بأنه ليس جسدانيًا على أى نحو كان ما لم نقبل تمثيلهم الكثيف لما بعد الموت *afterlife*، والذى نتناوله فى الباب الأخير بكل عناصره المتناقضة، وهذا الرأى لن يمكن الاعتقاد به جديًا ولابد من انطوائه على تسليم رسمى بإنكار الفرضيات الأرواحية، وهذه الملحوظة الأخيرة فى غاية الأهمية لأن هناك حالتان بعدها لابد من اعتبارهما، وهما ما بعد الموت مباشرة ومن ثم إلى أن ينتقل إلى حالة معروفة غير الحال الذى سبقها، ثم نقض ما ذكرنا عما ينطبق مباشرة بلا شروط على أن الميت يبقى فى صيغة هى ذاتها الحال نفسه بخلاف الصيغة الجسدانية، وتتمخض عن اختفاء واحد أو أكثر من الشروط اللازمة لتشكيل الوجود الجسدانى، أما الشرط الذى اختفى فهو حضور المادة أو على الأصح ' المادة المكممة *quantified matter*'[3]، ونسلم بأن الحالتين كلاهما إمكانيتان أصوليتان، فقد تركت الحال الفردية البشرية موضعها ليحتله حال آخر سواءً أكان فرديًا أم غير ذلك، ولا يجوز القول إنها إنسانية، وفى الحالة الثانية فإن الفردية الإنسانية تبقى فى أحد الاستطالات المذكورة، لكن هذه الفردية لاجسدانية وتعجز بالتالى عن التجلى الحسى، ويكفى اعتبارها لاشيئًا فى ظواهر الأرواحية، وليس بنا حاجة إلى الإشارة إلى أن الحال الثانية تناظر اللاأخلاقية بالمعنى الدينى الغربى، وحيث إن فكرة الحياة قد وردت بأى تعديل كان فإنها تعنى أن الحال قد استوفى شروط الحال الأسبق، فليست الحياة ذاتها إلا امتدادات تقدر عليها، وليست إلا أحد تلك الأحوال ولا غير، لكن لازال هناك حالة ثالثة، وهى الخلود بالمفهوم الميتافيزيقى الشرقى، أى الحال الذى يتحرر فيه المرء سواءً أكان عاجلًا أم آجلًا ليصير فى حال لامشروط، ومن ثم يسمو على كافة الأحوال المشروطة التى عرضنا لها فيما تقدم،

---

[3] *Materia quantitate signata, according to the Scholastic expression.*

فهى مبدأ كافة الأحوال الأدنى، لكن هذه المسألة النهائية احتمالٌ متعالٍ لن نعتبر فيه حاليا، ومن نافلة القول إن الأرواحية لا تشارك فى شىء من هذا القبيلٍ بموجب أن أساسها هو الظواهر، وليس هذا الحال الأخير فيما وراء العالم المحسوس فحسب بل كذلك فيما وراء كافة التجليات.

وقد كان نصب عيننا طوال ما طرحنا سلفًا أن التواصل مع الأرواح مقصور على الأرواحيين فحسب، وبعد أن أثبتنا استحالته فيمكن التساؤل عن إمكان وجود تواصل من نوع آخر بنوع من الإلهام أو البصيرة فى غياب كافة الظواهر الحسية، ورغم أن هذا لن يهم الأرواحيين إلا أنه يهم غيرهم، فمن الصعب معالجة المسألة بكاملها رغم إمكانها، فوسائل التعبير والتقرير تكاد أن تُفتقدَ تمامًا، كما أن الإمكانية الحقة لهذا التواصل تستلزم تحقق أحوال استثنائية بعينها لن يكون من المفيد التحدث عنها، وعمومًا فإنه يحسن قول إن المقام الذى نتحدث عنه لكائن فى حال وجود مختلف يتطلب تنمية إمكانات حال آخر من أحوال الوجود حتى لو اتَّخذ الكائن صيغة الحياة على الأرض، إلا أنها ليست فردية إنسانية تلك التى تستطيع التحقق بهذا الحال، ولكن فحسب بمدى ما كانت شيئًا آخر فى الآن ذاته، وأبسط الحالات نسبيًا هى التى تبقى فيها مسألة التواصل أحد امتدادات الحال الفردى الإنسانى، وفى هذا الحال يكفى أن تمتد الفردية إلى اتجاه مناظر فيما وراء الصيغة الجسدانية، والتى يحدُّها الفعل إن لم تكن الإمكانية، وهو ما يتحقق فى أحوال أسرارية بعينها حتى إنها تتحقق بلا إرادة، ولو اعتبرنا الاتصال مع كائن عبَر إلى أحوال مغايرة تمامًا فيجوز القول إنها مستحيلة عمليًا، ذلك ما لم يكن الكائن الحى قد تحقق بمقامات علوية تصبح مبدءً مشتركًا بين الحالين، وبالتالى يسمح بإدماجهما فى 'وحدة' تنطوى على كافة إمكاناتهما، لكن هذه المسألة لن يكون لها وزن، فوصول الكائن إلى هذا الحال يعنى عدم حاجته إلى العودة إلى أحوال أدنى لا تخصنا مباشرة فى هذا السياق، وأخيرًا لازالت المسألة هى الفردية الإنسانية فحسب[4]، أما عن التواصل مع كائن تحقق بالخلود المطلق فتفترض أن الكائن الحى ذاته قد تحقق بالكامل بحال

---

[4] ونحن تفترض أن الكائن غير الإنسانى لازال فى حال فردية، ولو كانت فى النطاق فوق الفردى فإنها لازالت حالًا مشروطة، ويكفى فحسب أن يكون الكائن الحى فى الحال ذاته لكن الشروط لن تسمح بالحديث عن التواصل على الأقل بمعنى يشاكل الفهم الإنسانى للكلمة كما هو الأمر فى مسألة الحال اللامشروط.

متعالية، ولا يمكن الحديث عنها بما يشاكل أية حالة كانت فى النطاق المشروط من الوجود، ولن يمكن تشبيهها بأمر يتعلق بالفرديات، وتفقد مسألة 'الاتصال' معناها تمامًا بموجب أن كل المقارنات مع أحوال الإنسان تمتنع على التطبيق فى هذا السياق، وقد تبدو هذه التفاسير غامضة بعض الشىء، لكن الاسترسال فيها يستلزم جهدًا طائلًا يخرج بنا عن موضوعنا[5]، وربما تناولناها فى دراسات لاحقة، كما أن المسألة ليست بالأهمية التى قد يعزوها البعض إليها، ذلك أن الإلهام الحق أمر مختلف تمامًا، فليس مصدره كامن فى الاتصال بأى كائن ما كان لكنه إلهام من أحوال أسمى فى الكيان الإنسانى، وهو أمر مختلف، كما نكرر أن أية علاقة بهذه الأمور قد وردت فيما أسلفنا ذكره عن السحر، أما ما نتحدث عنه الآن فمن مقام أسمى، والذين يعلمون كنه المسألة وعمقها لا شأن لهم بأمور التطبيق، أما عن 'التجريبيين' فمن الواضح أنهم لا يمتنعون عن التطبيق سواءً أكان صوابًا أم خطئًا أم كان جزئيًا مهلهلًا من معارف تعثروا بها، لكن من الأوفق دائمًا أن نحذرهم بأنهم يفعلون ذلك بالمخاطرة بأنفسهم.

[5] ولو افترضنا أن المبادرة قد جاءت من الجانب الإنسانى، فعلينا أن نفترض كذلك عكس المعنى، وهو ما سوف يجر تعقيدات شتى.

6 التناسخ

يمتنع علينا حتى الحلم بالقدرة على طرح كامل لمسألة التناسخ، فهى بحاجة إلى مجلد سميك بأكمله لفحص الموضوع من كل جوانبه، وربما عدنا إليه لأنه يستحق الجهد، وبالطبع ليس بذاته لأن مسألة الأرواحية برمتها عبثٌ صرف ولكن بموجب تفشى أفكارها التى تسهم بنصيب وافر فى تشويه عقل الغربيين المعاصرين، ولكن حيث أجبرتنا الظروف على معالجتها فسوف نقتصر على الأمور الجوهرية فحسب، ولن يقتصر دحضنا على أرواحية آلان كارديك بل كذلك على كل مدارس الأرواحية الجديدة *neo-spiritism* التى اتبعت كارديك واعتنقت أفكاره بتعديلات متنوعة الأهمية، ومن ناحية أخرى فإن تفنيدنا للتناسخ ليس عنصرًا جوهريًا فى الأرواحية كلها، فيجوز أن يكون المرء أرواحيًا دون أن يسلِّم بالتناسخ، ولكنه لن يكون أرواحيًا مالم يصدق ظاهرة تجلى الموتى حسيا، ومن المعلوم أن الأرواحيين الأميريكيين والانجليز الذين يمثلون الأرواحية القديمة قد كانوا مناهضون بالإجماع لنظرية دوجلاس هووم فى التناسخ ونقدوها بعنف[1]، ولم تبدأ فى تخلل الأنجلوساكسونيين إلا بعد انصرام فترة من الزمن، وحتى فى فرنسا انشق بعض أوائل الأرواحيين على مدرسة كارديك على منوال بييرار *Piérart* و بارث *Anatole Barthe*، لكن الأرواحيون الفرنسيون اليوم قد اتخذوها عقيدة *dogma*، زد على ذلك أن كارديك نفسه لم يتردد فى وصفها بذلك[2]، ولنتذكر مرة أخرى أن صورة الأرواحية الفرنسية التى انتحلتها الثيوزوفية فى أول أمرها وأن الغيبية البابوسية ومدارس أخرى قد جعلت منها موضوعًا للإيمان، ورغم أن تلك المدارس قد شجبت مفهوم الأرواحية للتناسخ بطريقة لافلسفية، ولم تستطع التعديلات والتعقيدات التى تراكمت عليها أن تخفى حقيقة الانتحال المبدئية.

وقد أشرنا سلفًا إلى الفوارق فى مسألة التناسخ بين فِرَق الأرواحيين وبعضهم بعضًا

---

[1] *Les Lmières et les Ombre du Spiritualisme, pp 118-0141.*

[2] *Le Livre des Espirits, pp 75-76.*

وبينهم وبين المدارس الأخرى، وقد ظلت تعاليم 'الأرواح' فى ذلك وفى غيره متناقضة بلا يقين، كما أن التأصيل المزعوم 'للعرّافين' لا يقل خيبة عن ذلك، فيدعى أحد الأحزاب أن الكائن الإنسانى دائم التناسخ بلا تمييز للجنس، ولم يتمكنوا من البرهان على أيٍ من قوانينهم، فهناك غيرهم ممن بدلوا التناسخ بين الذكور والإناث، فنجد بعضًا من الذين يعتقدون باطراد التناسخ على الأرض، ويزعم غيرهم بسهولة التناسخ على كواكب أخرى فى نظامنا الشمسى أو أى كواكب أخرى فى الكون، وهناك من قال إن هناك عدة تناسخات متتابعة على الأرض قبل أن تنتقل إلى موئل آخر، وهو رأى كارديك ذاته، أما عند الثيوزوفيين فليس إلا تناسخًا متتابعًا على الأرض طوال دورة شاسعة يبدأ جنس الإنسان بعدها فى التناسخ على كوكب آخر، وهكذا دواليك، وهناك نقطة رائجة عن فسحة الدوام بين تناسخين متتابعين، فيظن البعض أن المرء يتناسخ على الفور أو بفسحة من الزمن، وعند غيرهم تتفاصل الحيوات الأرضية بفسح مديدة، زد على ذلك ما رأينا من فرضية الثيوزوفيين أن الحد الأدنى للتناسخ لا يقل عن *1500* إلى *1200* عامًا، وقد اختزلوها الآن إلى التمايز بين 'درجات التطور' الفردى[3]، كما انطوت الغيبية الفرنسية على تنويعات جديرة بالملاحظة، فقد قال بابوس فى أحد مؤلفاته القديمة عندما كان يهاجم الثيوزوفيين الذى انشق عنهم واحتفظ منهم بمنظور "إن الروح بحسب علم الجوانية لا تستطيع التناسخ إلا بعد *1500* عامًا إلا فى أحوال استثنائية مثل وفاة طفل فى الولادة أو ميتة عنيفة لكاهن"[4]، حتى إنه يدفع بسلطة مدام بلافاتسكى و سينيت "بأن هذه الأشكال مرسومة بحساب فلكيٍ فى الجوانية الهندوسية"[5]، والواقع أنه لا وجود لتراث أصلى واحد تحدث عن التناسخ، ذلك أنه اختراع غربى تماما، ويناقض بابوس ما سمى بالقانون الذى سنَّته الثيوزوفية، ويعلن أنه ما من قانون يمكن صوغه فى هذا الشأن، ويقول،

"سيكون من العبث تثبيت شروط *1200* عامًا كما لو كانت *10* سنوات فى الزمن الذى يفصل بين التناسخ وبين عودته إلى الأرض لكى نضع فترات متساوية بين

---

[3] *Theosophy, chap 8.*

[4] *Traité metaphysique de Science occult, pp 42-43.*

[5] *Ibid., p 341.*

الحيوات الإنسانية على الأرض"[6].

وسوف يفشل كل ذلك فى إلهام الذين يحتكمون على منظور لا متحيز للأمور، فلو كان التناسخ لم يُكتَشف إلا 'بالأرواح' ووقائع الموائد أو الوسطاء فإن الملاحظات التى ألقيناها تكفى للبرهان على أن التناسخ لا يمكن أن يكون معرفة جوانية أصيلة يعلمها معمَّدون، ولذا لا حاجة إلى التعمق لنقض مزاعم الغيبيين والثيوزوفيين، فالتناسخ لا يربو عن مفهوم فلسفى تبسيطى، والواقع أن مستواه من أشد هذه المفاهيم انحطاطًا وعبثًا، كما أن الفلاسفة يعتنقون كثيرًا من فرضياتها، ويخدع الأرواحيون الجدد أنفسهم أكثر من ذلك إلا أننا نسلم بإيمانهم الذى ليس مطروحا للجدل هنا وخاصة لدى قادتهم، لكن ثقتهم فى الدفع بآرائهم هى من الأسباب التى تجعلهم أشد خطورة من الفلاسفة.

وقد استخدمنا تعبير 'المفهوم الفلسفى' حيث يكون 'المفهوم الاجتماعى' أقرب إلى المعنى باعتبار الأصل الحقيقى لفكرة التناسخ، والواقع أن الاشتراكيين الفرنسيين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بمن فيهم آلان كارديك كانوا يقصدون بهذه الفكرة تفسير انعدام تساوى الأحوال الاجتماعية التى كانت عندهم أمرًا صادمًا، وقد كان هذا الدافع من بين الدوافع التى يقول بها الأرواحيون تبريرًا لاعتقادهم بالتناسخ، حتى إنهم سعوا إلى تمديدها على كل أحوال اللاتساوى فكرية كانت أم عضوية، وفيما يلى مثل لما قال آلان كارديك،

"لاشك فى أن الأرواح ساعة مولدها كانت متساوية أو غير متساوية، فلو كانت متساوية فلماذا اختلفت القدرات؟.. ولو كانت غير متساوية فذلك لأن الرب خلقها كذلك، ولكن لماذا أُضفِىَ على بعضها امتيازات كامنة؟ فهل كان ذلك بناءً على عدالته ومحبته لمخلوقاته بالتساوى؟ ولنسلم بتتابع التقدم قبل الوجود حتى يمكن تفسير كل شىء، فالناس يولَدون ببصيرة مما اكتسبوه من قبل، وهم بذلك أكثر أو أقل تقدمًا بحسب عدد مرات وجودهم الأسبق، وبحسب تقدمهم من نقطة انطلاقهم، وتمامًا على منوال تجمع من الناس من كل مراحل العمر، ويعمد كل منهم إلى استعراض تطوره بحسب السنين التى عاشها، وستكون الحيوات

[6] *La Réincarnation, pp 42-43.*

المتتابعة لحياة الروح *soul* بمثابة السنوات التى عاشها الجسد،.. فالرب بعدله لن يتمكن من خلق أرواح أكمل، ولكن مجمل أحوال الوجود لا تتعلق بشىء سوى التساوى المحض"[7].

كما يقول ليون دنيس ما يلى،

"إن تعدد الوجود وحده يفسر تنوع الشخصيات واختلاف قدراتها وكذلك عدم تناسب الصفات الأخلاقية، أى كل هذه اللاتساويات المذهلة، وبصرف النظر عن هذا القانون نتساءل بلا جدوى عن السبب الذى جعل بعضهم أكثر موهبة وأنبل عواطفًا وأوسع آمالًا من بعضهم، فى حين يشارك أغلبهم فى الحماقة والانفعال الشرير والغرائز الكثيفة، فكيف لنا أن ننظر إلى ربٍ جعلنا من أجزاء متخالفة تتراوح بين المتوحشين والمتمدينين، ولماذا وهب منافع متخالفة ومستويات أخلاقية متضاربة؟.. وبدون قانون التناسخ يحكم العالم اللاتساوى،.. ولا تنحل هذه الغوامض إلا بمذهب الحيوات المتعددة، حيث تُقَيَّم قدراتهم الفكرية أو فضائلهم بمقدار أعمالهم واكتسابهم خبرة أوسع امتدادا"[8].

وتُعزى أسباب مشابهة عند المدارس التى لا تعدو نظرياتها لجاجة منظور الأرواحية، ففكرة التناسخ لم تتمكن مطلقًا من الإفصاح عن أصولها، فالثيوزوفيون على سبيل المثال يرِكِّزون بدورهم على اللاتساوى الاجتماعى كموضوع جانبى، وقد عكف بابوس على الأمر ذاته بلا توانٍ،

"يبدأ الناس رحلة حياتهم المادية فى العالم أثرياء أو فقراء وسعداء أو بؤساء بقدر حظوظهم من حيواتهم التى سبقت تناسخهم"[9].

وفى سياق آخر يعبر عن نفسه بتدقيق أكثر على هذه المسألة،

"وتعتبر الحياة الاجتماعية مجحفة بدون فكرة التناسخ، فلماذا كان المأفونون يلغُّون

---

[7] *Le Livre des Esperits., pp 102-103.*

[8] *Apres la mort, pp 164-166.*

[9] *Traité méthodique de Science occult, p 167.*

فى المال وألقاب الشرف فى حين كانت الكائنات الأسمى ترزح فى الفقر والصراع اليومى بحثا عن غذاء للجسد والأخلاق والروح.. ويجوز القول عمومًا إن الحياة الراهنة مقدَّرَة بالأحوال الأسبق للروح التى تحدد مستقبل حال المجتمع"[10].

وهذا تفسير وهمى تمامًا، فأولا لو لم تكن نقطة البداية واحدة للجميع ولو كان هناك أناس أقرب أو أبعد منها ولم يمروا فى عدد الحيوات ذاته فذلك عدم تساوٍ ليسوا مسئولون عنه، والذى يؤدى بدوره إلى اعتبار التناسخيون أن نظريتهم غير مسئولة عن اللاتساوى، وحتى لو سلمنا بالاختلافات بين الناس فلابد أن تكون هناك لحظة فى تطور الأمور التى بدأ منها اللاتساوى المحتوم الذى لابد له من سبب، ولو قيل إن ذلك السبب ينطوى على جرائم ارتكبها هؤلاء الناس سلفًا فلابد من تفسير لكيف تأتى لهم التصرف بغير ذلك قبل أن يفرض اللاتساوى نفسه عليهم، ولا تفسير لذلك بموجب التناقض الوارد، فلو كان الناس متساوون تمامًا فينبغى أن يكونوا متماثلون من كافة الأوجه، ولو فرضنا إمكان ذلك فلن يتحولوا عنه مطلقًا ما لم نرفض مبدأ 'السبب الكافى'، ويعنى ذلك انعدام قيمة أية قوانين أو تفاسير على الإطلاق، ولو استطاعوا عدم التساوى فذلك بموجب أنه من مكونات إمكاناتهم، وتكفى هذه الإمكانية المبدئية لجعلهم غير متساوين من البداية افتراضيًا على الأقل، ويصدقون أن المصاعب قد انتهت بحلولٍ لم تكن إلا تراجعًا، وفى نهاية المطاف تستوى إلى الأبد، ولكن ليس هناك مصاعب واقعية على الإطلاق، فالمشكلة ذاتها وهمٌ شأنها شأن حلها المنتظر، وقل مثل ذلك عن كثير من مشاكل النظريات الفلسفية التى ساء صوغها من جرَّاء تدخل الاعتبارات الأخلاقية والعاطفية فيما لا دور لها فيه، وليس السلوك المقصود لامفهومًا على شاكلة رجل يسأل لماذا لا يتساوى نوع من الحيوانات بنوع آخر، والواضح أن السؤال بلا معنى، ومن منظور الإنسان أن فى الطبيعة اختلافات ندرك بها اللاتساوى فى حين أن غيرها ليست كذلك، ولو وضعنا هذا المنظور جانبًا فليس هناك ما يستلزم الحديث عن العدالة والظلم فى هذا النطاق من الأمور، وأن نسأل لماذا كان كائن لا يساوى غيره فليس ذلك إلا سؤالًا عن اختلاف كائن عن آخر، فمجرد وجود كثرة من الكائنات يستلزم الاختلاف

---

[10] *La Reincarnation, pp 113-118.*

بينهم، فلو كان التماهى تامًا بين شيئين لكانا شيئًا واحدًا، وهى مسألة أصاب فيها لا يبنيتز على خير وجه، فكل كائن يتميز عن الآخر من البداية من حيث إنها دلالة على إمكاناته الجوهرية الكامنة فى طبيعته والتى ليست كإمكانات أى كائن آخر، أما عن مسألة ادعاء التناسخيون بأنها بمثابة إجابة فلا تربو عن سؤال ما إذا كان الكائن هو نفسه وليس غيره، ولو أردنا رؤية الحَيفِ فى ذلك بما يُعدُّ حقائق جوهرية فسوف تناقض الظلم، وحينما نسلخ حجاب فكرة العدالة من جلدتها العاطفية وخاصة ما تعلق بسمات الشخصية الإنسانية، فليست فى الواقع إلا الاتزان والتوافق، وحتى نحقق التوافق الأمثل فى الكون يكفى أن يحتل كل كائن بطبيعته موقعه كعنصر من التوافق الكونى، ويعنى ذلك تحديدًا أن الاختلافات واللاتساوى اللذان ننكرهما فى إطار الفكر ليسا إلا من جملة العناصر الفعالة التى تسهم بدورها فى الاتساق الكلى، ولا يملك هذا الاتساق إلا أن يكون، والرغبة فى السعى إلى أن تكون غير ذلك افتراض بأن الأشياء لم تعد كما كانت عليه، فمن العبث الظن بأن أمر ما سيحدث للمخلوق إلا لو كان متفقًا مع طبيعته، ولذلك كان نشطاء العدالة يصابون بحبور بالغ حينما يصبأ امرئ عن الحق دون أن يكون مضطرا.

ويقول آلان كارديك "إن عقيدة التناسخ مبنية على العدالة الربانية والوحى"[11]، وقد تناولنا هذين السببين للاعتقاد فى التناسخ، وليس لدينا ما نقول عن الأول أما الثانى فمن الواضح أنه يشير إلى وحى 'الأرواح'، كما ذكرنا أن ذلك الوحى لا وجود له، ولا حاجة بنا إلى تكرارها، لكن هذه الملحوظات أولية فحسب، ولا نرى سببًا ليعنى عدم التسليم بأمرٍ أنه زائف، ولكن يمكن للمرء التمسك بموقف الشك بهذا الصدد، كما يجدر بنا قول إن الاعتراضات التى ناقضت نظرية التناسخ ليست أرجح من التى تؤيدها، ذلك لأن معارضيها من نشطاء التناسخ عادة ما يتناولون السؤال من جانبيه الأخلاقى والعاطفى بدلًا من السؤال عن صدق المقولة وزيفها، وهو الأمر الوحيد الذى له معنى، أما الحديث عما إذا كان فيها 'عزاء' فتلك الأمور لا تنتهى بالاقتراب من جواب، فهى ما يقول عنه الفلاسفة 'ذاتية *subjective*'، ومن حسن الطالع أن هناك كثير مما يُقال فى

---

[11] *Le Livre des Espirits, p 75.*

دحض التناسخ من حيث سهولة الدفع باستحالته المطلقة، ولكن لابد قبل ذلك من معالجة سؤال آخر لتأكيد تمايزات بعينها لا لأهميتها فحسب بل كذلك لأن بعض الناس سيندهشون عندما نقول إن التناسخ فكرة غربية حديثة صرف ولا غير، فقد عاشت بين الناس كثير من الأفكار الزائفة طوال قرن من الزمن حتى من خارج دوائر ’الأرواحية الجديدة‘ كان لها آثار وخيمة، وقد وصل هذا التشوه حتى إلى المستشرقين الرسميين الذين فسروا التناسخ بالمعنى الأرواحى الذى لا وجود لمثله، وصاروا عاجزين عن فهم تلك الأدبيات على أى نحو كان.

ولابد من تمييز مصطلح ’التناسخ‘ عن مصطلحين يختلفا تمامًا فى المعنى هما ’ التحول *metamorphosis*‘ و’المهاجرة *transmigration*‘، وهى من الأمور المعلومة للقدماء ولازالت قائمة بين الشرقيين، لكن الغربيين المحدثين الذين اخترعوا التناسخ لا يعلمون عنها فتيلًا[12]، ولابد من فهم أنه حين نتحدث عن التناسخ فإننا نعنى أن كائنًا متجسدًا قد اتخذ جسدًا جديدًا، أى عاد إلى الحال الذى تركه بالفعل، كما أنهم يسلّمون بأن ذلك يتعلق بالكائن الحقيقى بأكمله وليس مقصورًا على عناصر مدسوسة تزيد أو تقل أهمية، ويحول التناسخ إلى موضوع يحوطه الشك، فالشرط الأول تمايز التناسخ عن المهاجرة كما تفهمها المذاهب الشرقية، والشرط الثانى تمييزه عن تقمص الأرواح *metempsychosis* بالمعنى الأورفى والفيثاغورى، وفى حين زعم الأرواحيون زيفًا بانتمائهم إلى زمن قديم فإن نظرية التناسخيين مصيبة فى قول إن لا تماهى مع تقمص الأرواح ولكنها تميز عنها فى مذهب تتابع الوجود الذى دائمًا ما يكون من قبيل ’التقدمية *progressive*‘، وأنها مقصورة على الكائن الإنسانى، ويقول آلان كارديك،

"إن بين تقمص الأرواح عند القدماء والمذاهب الحديثة للتناسخ اختلافًا جسيمًا، وهو أن الأرواحيين ينكرون مطلقًا مهاجرة الأرواح من الإنسان إلى الحيوان والعكس"[13].

---

[12] وقد تكون هذه مناسَبة لذكر أفكار قباليين بعينهم سُمّيت ’ثورة الأرواح *revolution of souls*‘ و’الحال الجنينى *embryonic state*‘، ولكننا لن نتحدث عن ذلك الآن خشية الابتعاد عن موضوعنا، كما أنها تتعلق بأحوال مخصوصة ببنى إسرائيل.

[13] *Le Livre des Espirits, p 96, Ibid., pp 262-264.*

والواقع أن القدماء لم يروا فى مهاجرة الأرواح ولا فى تناقلها بين الإنسان والحيوان ما توهم التناسخيون، ولا شك أن تعبيرات رمزية بعينها قد تفتح أفقًا لسوء الفهم، لكن ذلك لا يحدث إلا لو لم يعلموا ما يقصدون قوله، وهو أن فى الإنسان عناصر نفسانية تتبعثر بعد الموت، وقد تدخل فى أى كائن حى إنسانًا كان أم حيوانًا من واقع تحلل جسد الكائن نفسه، وقد تعمل على تشكيل أجسام أخرى، وهى فى الحالتين من الشطر الفانى فى الإنسان وليست من الشطر الباقى منه وهو الكائن الحق الذى لا تؤثر فيه تحولات الموت، وقد جانب بابوس الصواب حين تحدث عن الخلط بين التناسخ أو عودة الروح إلى المادة بعد المرحلة النجمية *astral stage*،[14] وأن تقمص الأرواح أو تحول الجسد إلى الصيغة الحيوانية أو النباتية قبل أن يعود إلى جسد مادىٍ جديد، ناهيك عن عدة غرائب شتى فى التعبير قد تنتج عن أخطاء بسيطة لكنها لن تسمى تقمص الأرواح حيث إن صورة هذه الكلمة لُغويًا تعنى أنها تنتمى إلى النطاق النفسانى لا إلى العناصر المادية، لكن بابوس أصاب فى ظنه أن تقمص الأرواح لا علاقة له بحقيقة الكائن الإنسانى، لكنه ضلَّ عن إدراك طبيعتها، أما عن التناسخ فيقول "إنه كان يُدرَس كأحد الأسرار الجوانية فى كافة أنواع التعميد القديمة"[15]، فيخلطه ببساطة بمهاجرة الأرواح.

ولم تكن مسألة تحلل العناصر المادية بعد الموت فحسب بل كذلك ما يمكن أن يسمى عناصر نفسانية، وقد فسرنا فيما تقدم كيف أن تلك العناصر تتدخل أحيانًا فى ظواهر الأرواحية بما يوحى بوهم حركة فعلية للميت، وربما كان الأمر على المنوال نفسه فى وهم التناسخ، وما ينبغى فهمه هو أن تلك العناصر تشتمل على كل الصور الذهنية التى

---

[14] ويضيف بابوس فى كتابه *La Reincarnation, p 9* "لا ينبغى خلط التناسخ بتقمص الأرواح، فالإنسان لا يتراجع فى الزمن، وروح الإنسان لا تصبح روح حيوانٍ إلا فى النطاق النجمى فى حال الجنى *jinn*، لكن ذلك لازال من الأسرار"، إلا أنه ليس سرا عندنا، وليس إلا مسألة ’عبقرية النوع *genius of species*‘، أى الكيان الذى يمثل الروح الحيوانية بأكملها وليس فردًا بعينه، والواقع أن الغيبيين يعتقدون أن الحيوان ليس الفرد المستقل الذى تعود روحه إلى ’جوهر العناصر‘ التى تشكل كينونة *suchness* النوع، وتقضى النظرية التى يشير إليها بابوس على نحو ملغز بأنها ’جنّى نوع الحيوان‘ ليست إلا الأرواح الإنسانية التى بلغت مستوى بعينه من التطور وكُلّفت بهذه الوظيفة، كما أن هناك عرَّافين يزعمون أنهم يرون الجن على صورة إنسان برأس حيوان علىَ شاكلة صور قدماء المصريين، وهذه النظرية الغيبية مخطئة تماما، فإن عبقرية الجنس حقيقة لا مراء فيها حتى لجنس الإنسان، ولكن ليس ذلك ما يرى الغيبيون، وليس فيها أى جانب مشترك مع أرواح أفراد الإنسان، أما عن ’النطاق النجمى‘ الذى تتواجد فيه فليس من مفردات البنية المعتادة للغيبية.

[15] *Ibid., p 6.*

نتجت عن التجارب الحسية التى أصبحت شطراً من الذاكرة والخيال، وكلها إلى زوال حيث تنتمى إلى نطاق الحواس وتعتمد على الحال الجسدانى، زد على ذلك أنها خرجت عن شروط أحوال الزمن التى تُعرِّف الحال الجسدانى، فليس للذاكرة سبب للدوام، وهذا بالتأكيد بعيد عن منظور علم النفس الكلاسيكى إلى 'الأنا' ووحدتها، فنظريات هذا العلم لا أساس لها من حيث النوع *genre* على منوال 'الأرواحية الجديدة'، وهناك ملحوظة أخرى بالقدر نفسه من الأهمية أنه قد توجد عناصر نفسية وراثية من كائن إلى آخر بدون افتراض أن الأول لم يمت بعد، والواقع أن هناك وراثة نفسية كما فى الوراثة العضوية من وقائع الملاحظات العامة، لكن قليلاً يتحسبون بافتراض قدرة الأبوين على توريث البذرة النفسيه مثلها مثل البذرة العضوية، وقد تنطوى هذه البذرة على مجموعات معقدة من العوامل التى تنتمى إلى ما تحت الوعى *subconscious* إضافة إلى الميول المعتادة، والتى تمدد حتى تتجلى فى الظاهر، وقد لا تتضح إلا فى أحوال استثنائية، وهذه وراثة مزدوجة من النفسى والعضوى، ويعبر عنها الصينيون بمقولة "إنك سوف تحيا فى آلاف من أحفادك"، ولا شك أن ذلك يصعب ترجمته بمعنى التناسخ رغم أن كثيرًا من الغيبيين والمستشرقين قد نجحوا فى اقتحام الترجمة، أما مذاهب الشرق الأقصى فتميل إلى تفضيل الجانب النفسى للوراثة، وترى فيه تمديداً للفردية الإنسانية، ولذا ربطوا الخلَف *posterity* بطول العمر *longivity*، فى حين سماه الغربيون خلوداً *immortality*.

وسوف نرى فيما يلى وقائع بعينها يتوهم التناسخيون فيها سندًا لفرضياتهم لها تفسير فيما تقدم توًا عن الحالتين، فإما كان توريثًا متداولًا لعناصر نفسانية وأما كان تمثيلًا لفردية بشرية من عناصر نتجت عن عمليات تحلل سابقة لأجساد أخرى، ولا رابط لها بأقل قدر مع سابقتها، وفى كل ما سبق نجد تناظراً وتشاكلًا بين النطاقين النفسى والجسدى، وهو أمر يسهل فهمه نظرًا لأن كلاهما من العناصر الفانية للإنسان، ونضيف أنه قد يحدث فى النطاق النفسى انتقال مجموعة من العناصر إلى فردية جديدة على نحو استثنائى، ولا جدال فى أن هذه الأمور تبدو صادمة للذين اعتنقوا التناسخية، ولكن هذه الحالات مراوغة كغيرها[16]، ولا يؤثر أيًا منها على الكائن الحى، ولكن يحق لنا

---

[16] ويعتقد البعض أن هناك انتقال مشاكل للعناصر الجسدية الأقل كثافة *subtilised*، وهكذا يفترضون أن هناك تقمص للجسد *metemsomatosis* و'تقمص للروح *metempsychosis*' بعد الموت، ويبدو هناك

العجب عما جعل القدماء يضفون أهمية عظمى على مصير تلك العناصر فيما بعد الموت، ويمكن القول ببساطة أن هناك من يتحسبون لمعاملة أجسادهم بعد الموت دون أن يتفكروا فيما يحيق بأرواحهم، ولكننا نضيف أن القاعدة العامة لهذه الأمور لا تخلو من أهمية لو لم يكن هناك ضرورة لشعائر الجناز، إلا أن لديهم أسباب عميقة، ونقول إن حركات هذه الشعائر تمارس من أجل عناصر الميت النفسانية، وقد ذكرنا فيما تقدم كيف فكر القدماء فى العلاقة بين عدم إقامة شعائر الجناز وبين ظاهرة البيوت المسكونة بالأرواح، وهو رأى قائم على أسس صحيحة، ولو كان الكائن قد عبر إلى حال آخر من أحوال الوجود فلن يكون هناك جدوى من التحسب للمصير فيما بعد الموت، لكن الموقف ليس كذلك باعتبار ما ذكرنا عن استطالات الفردية البشرية، لكن الموضوع يستدعى اعتبار غرابة الآراء وتعقيدها، والتى تمنعنا من الحديث عنها فى سياقنا هذا، كما أننا نرى أن الموضوع لا نفع فيه لمعالجته الأمور العامة بالتفصيل.

وبعد مقالنا فى تفسير تقمص الأرواح نعكف على موضوع مهاجرة الأرواح، وهو يتعلق قطعًا فى هذه الحالة بالكائن الإنسانى، ولكنه ليس عودة الأرواح إلى الحال الذى كانت عليه إبَّان وجودها، ولو قُدِّر لها أن تحدث لكانت ’هِجرة‘ *migration* من موضع وليست ’مُهاجَرة‘ *transmigration* إلى موضع آخر، بل هى على العكس مسألة انتقال الكائن الإنسانى الفرد من حال بشرية إلى حال أخرى من أحوال الوجود المشروط، وقول مهاجرة يعنى تغير الحال، وهو ما عكفت على تعليمه مذاهب الشرق التراثية، ولدينا كثير من الأسباب للظن بأنها من ’أسرار‘ القدماء، وحتى المذاهب المتزندقة *heterodox* مثل البوذية[17]، ولم يعد فى المسألة شىء رغم التفسير التناسخى المتفشى فى أوروبا، وهى

....

اضطرابٌ من أول وهلة فى وصفهم للعناصر النفسية الدنيا التى نشأت من أصل جسدانى بأنها قد ’تروحنت‘ بالانتقال إلى العالم اللطيف، والتى أشرنا إلى إمكانها فيما تقدم، فالحال الجسدانى والحال النفسانى صيغتان من حال وجود واحد لا يمكن فصلهما فصلًا باتًا، ونلفت نظر الغيبيين إلى ما ذكرنا عن الكاتب الذى يدمنون الاقتباس عنه دون وعى بأنهم يقتبسون، وهو كيليف بن ناثان *Dutois-Membrini* فى كتابه *La Philosophe Dinine, vol i, pp 292-293.*، وهذا الكاتب يخلط أحيانًا بين دعاوى أسرارية فارغة وبين قبسات ملهمة للغاية، وننتهز هذه الفرصة للإشارة إلى خطل الغيبيين فى ادعاء أن بن ناثان كان تلميذ لوى كلود دى سان مارتان *Louis Claude de Saint Martin*، فى حين أنه أشار إلى العكس حياله *ibid., vol I, pp 245-345.*، ويمكن تدوين كتاب كامل للتسلية بتعاليم الغيبيين وطرقهم فى كتابة التاريخ.

[17] وقد راجع الشيخ رأيه فى أواخر حياته عن فسوق البوذية عن الرشد التراثى *orthodoxy* للبراهمية، وقد حكم بناءً على معلومات من كوماراسوامى و ماركو باليس، المحقق.

المذهب الحقيقى للمهاجرة بالمفهوم الذى تطرحه الميتافيزيقا الصِرف، والذى يخولنا حق دحض فكرة التناسخ بشكل قاطع، وهى لحسب الأرضية التى تمكن من دحضها، وهكذا كان علينا أن نبين أن التناسخ استحالة، وحتى نفهم أن الكائن لا يملك أن يكون فى وجودين من العالم الجسدانى فى الآن ذاته، وباعتبار هذا العالم بأوسعِ مدىً ممكن، ولا يهم ما إذا كان هذا الوجود الافتراضى على كوكب الأرض أم فى جرمٍ سماوى آخر[18]، كما لا يهمنا ما إذا كانت صورته بشرية أم من مفاهيم زائفة عن تقمص الأرواح بصورة أو أخرى من الحيوان والنبات وحتى المعادن، ونضيف إلى ذلك ما إذا كان الوجود متتابعًا أم متزامنًا، فقد زعم بعضهم بافتراض أحمق عن مجموعة من الحيوات تزدهر فى مواضع مختافة فى الآن ذاته لشخص واحد، والأرجح أن يكون على كوكب غير الأرض، ويُعيدنا ذلك إلى الاشتراكيين عام *1848*، فيبدو أن بلانكى *Blanqui* كان أول من تخيل تكرارًا متزامنًا لامحدودًا فى فضاء ينطوى على أفراد متماهين[19]، كما ادعى بعض الغيبيين أن الفرد الإنسانى يمكن أن يعيش فى الوقت ذاته على عدة كواكب بجسده الطبيعى، ويذهبون إلى أبعد من ذلك لقول إنه لو رأى أحد فى المنام أنه يُقتَل فذلك لأنه قُتِلَ فعلًا على كوكب آخر! وكل هذا لم يكن ليصدَّق لولا أننا سمعناها بأنفسنا، ولكن سنرى فى الباب التالى قصصًا بالكثافة والغلظ ذاته، كما لابد من قول إن برهاننا هو الذى يصلح لدحض كل نظريات التناسخ فى أى صورة كانت، وينطبق بالمثل للأسباب ذاتها على أفكار بعينها تتسم بإغراءات فلسفية على منوال فكرة نيتشه عن ’العود الأبدى *eternal return*‘، أى كل ما افترَض سلفًا أى نوع من التكرار فى الكون[20].

ونحن لا نجرؤ فى سياقنا هذا على الحلم بطرح النظرية الميتافيزيقية عن أحوال الوجود المتعددة وكل التفرعات التى تنبنى عليها، وننوى تخصيص دراسة أو اثنتين لها

---

[18] وليست فكرة التناسخ على كواكب أخرى مقصورة على الأرواحية الجديدة، فهى عزيزة أيضًا على قلب كاميل فلاماريون، كما دفع بها أيضًا لوى فيجوى *Louis Figuier*، ومن العجب أن نرى كيف أن علم الفلك ’الوضعى‘ الحديث قد انطوى على بعض تلك الترهات.

[19] *L'Eternité par les Astrs.*

[20] وتقول مدرسية العصر الوسيط "إن الرب لا يكرر ذاته". المحقق.

حين تسنح فرصة[21]، لكننا على الأقل سنشير إلى أصول هذه النظرية، ذلك أنها المبدأ وراء البرهان المقصود، أى كلية الإمكان اللانهائية، وبدونها يستحيل إدراكها جوهريًا دون أن تترك خارجها شيئًا أيًا كان، كما يستحيل تحديدها بأى طريق كان، وأى تحديد لكلية الإمكان لابد أن يكون خارجها، وسيكون حرفيًا من قبيل الاستحالة أو اللاشيئية، وقول إن التكرار إمكانية كلية يعنى افتراض وجود إمكانياتان متماهيتان تماما، وهو تحديد للانهائية التى تستبعد التكرار، ولا يمكن أن نعود مرتين للعنصر ذاته إلا باحتمال متناهى الصغر، وحتى فى هذه الحالة لن يكون العنصر هو ذاته تمامًا إلا بشرط أن تكون أوضاعه فى منظومة متوالية مغلقة *closed set*، وهو شرط لن يتحقق مطلقًا طالما كان الكون الكون ذاته منظومة مغلقة أو بالحرىِّ كليةً مطلقة فلن يكون به نظامًا مغلقًا فى أى مكان، ولن يكون تماهى إمكانيتان إلا إمكانية واحدة، وحتى لو كانا اثنين فلابد من اختلاف شرط واحد على الأقل فيما بينهما، وفى هذه الحالة لن يكونا متماهيان، فلا وجود لشىء يعود إلى النقطة التى كان عليها كما فى منظومة محدودة، وكما هو حال العالم الجسدانى، فعندما نرسم دائرة على سبيل المثال تحدث حركة لاكتمالها، لكنها لا تكتمل مطلقًا إلا على نحو وهمى، وليس ذلك إلا تشاكلًا إلا أنه يُعين على فهم 'بدهيات *a fortiori*' الوجود الكونى، فالعودة إلى الحال ذاته استحالة مطلقة، فإن الإمكانات المخصوصة فى إطار كلية الإمكان هى التى تشكل أحوال الوجود دائمة التغير بالضرورة، وإنكار ذلك تحديد لمبدأ كلية القدرة، ولابد من التسليم بذلك لدرء التناقض، ويكفى فى سياقنا الإقرار بأنه ليس من مخلوق يستطيع أن يمر مرَّتين بحال واحد، وهذا البرهان بالغ البساطة بذاته، ولو عانى البعض من صعوبة فهمه فذلك لأنهم يفتقدون أبسط المفاهيم الابتدائية للميتافيزيقا، وهم بحاجة إلى أطروحة أوسع تفصيلًا، ونسألهم فحسب الانتظار حتى نتمكن من طرح نظرية أحوال الوجود المتعددة بكاملها، وعلى كلٍ فليطمئنوا إلى أن البرهان الذى دفعنا به توًا مُنزَّه فيما كان جوهريًا، أما الذين يظنون أننا نخاطر بتحديد كلية القدرة عندما ننكر التناسخ فنقول لهم إننا نرفضه بموجب استحالته ولاشيئيته، ومحاولة تأييد مجمل القدرات بإضافة وهمية لا تعدو صِفرًا مطلقًا

---

[21] وقد كتب الشيخ دراستين رئيسيتين لهذه النظرية الكونية الأصولية هما 'رمزية الصليب' و'أحوال الوجود المتعددة فى الفيدانتا'، المحقق وكلاهما من ترجمات تراث واحد قيد النشر.

absolute zero، فحينما ننكر العبث فإننا لا نُحُدُّ كلية القدرة، وذلك مثل استحالة وجود دائرة مربعة، كما لا يمكن أن يكون حاصل ضرب اثنين فى اثنين خمسة فى كافة العوالم المحتملة، والموضوع المطروح هنا مثل للحالة ذاتها، وهناك من كان شديد التدقيق على نحو غريب، فحينما يعزو ديكارت إلى الرب ’ حرية اللامبالاة *liberty of indifference*‘ مخافة تحديد كلية القدرة الربانية فإنه لم يدرك أن تلك الحرية التى تجرى فى غياب أى سبب ليست إلا تناقضًا ذاتيا، فمن واقع استخدام لغته ليس العبث عبثًا بموجب أن الرب قد شاء ذلك عسفًا، بل لأن الرب لن يجعل من العبث شيئًا آخر، ولا يمس ذلك كلية قدرته على أى نحو كان، فالعبث والاستحالة مترادفان.

ولنعد إلى أحوال الوجود المتعددة، ولابد من ملحوظة جوهرية، وهى أن هناك أحوال يمكن إدراكها بالتزامن والتتابع كليهما، ويمكن التسليم بأن التتابع ماثل رمزيًا حيث إنه من الشروط اللازمة لتلك الأحوال بلانهائيتها، وحتى الدوام فى أية صيغة يمكن أن يُسبَغ على بعضها، وحينما نتحدث عن التتابع لابد من إيضاح أن ذلك بمعنى منطقى فحسب وليس زمنيا، ونعنى بالتتابع المنطقى أن هناك سلسلة سببية بين أحوال متنوعة، ولكن حتى العلاقة السببية بمعناها الصحيح تعنى التزامن أو قل الوجود المشترك لشروطها، زد على ذلك وجوب تعيين أن الحال الفردية واقعة تحت قهر شروط الزمن إلا أنها تمثيل لتعدد الأحوال الثانوية، فالكائن الإنسانى لا يحتكم على عدة أجساد إلا من خارج صيغة الوجود الجسدى المتزامن، حيث يحتكم على إمكانية امتلاك صيغٍ أخرى يمكن أن تتجلى فيها إمكانات قابلة للنمو، ويؤدى بنا ذلك إلى التنويه عن فكرة مرتبطة بالتناسخ عن قرب، والتى دفع بها عدة نشطاء من جماعات التناسخيين بين ’الأرواحيين الجدد‘، وتقضى هذه الفكرة "بأن كل كائن فى مسار التطور *evolution* لابد أن يسير بالتتابع فى كافة صور الحياة الأرضية وغيرها"، ولا تمثل هذه النظرية شيئًا غير الاستحالة بموجب أن هناك ما لا يحصى من أحوال الحياة التى يستحيل على أى كائن أن يسير فيها جميعا، فهى كافة الصور التى قد تتلبس بها الكائنات الأخرى، ونفترض أن الكائن قد عبر فيما لا يُحصى من القدرات فى نطاق ممتد من ’صور الحياة‘ فلن يكون أقرب إلى نهاية سعيه، والتى لا يمكن تحقيقها على هذا المنوال، وسوف نعود إلى هذه النقطة فى سياق حديثنا عن ’تطورية الأرواحية‘، ويكفى حاليًا ملاحظة أن الازدهار الكامل

للعالم الجسدانى بأكمله وما يحتوى عليه لا يمثل إلا شطرًا من تجلى حالٍّ واحد، والذى ينطوى على بدهيات القدرات التى تناظر صيغ الحياة الأرضية، وهى بذاتها شطرًا محدودًا من العالم المادى، وهو ما يجعل افتراض تعدد أحوال الوجود التى يرتفع بها الكائن من أسفل دركٍ إلى أسمى مقام فى تطوره من ممالك المعادن إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان بكلٍ ما فيها من درجات حتى بلا لزوم للبرهان على استحالتها، والواقع أن هناك من عكفوا على بناء مثل هذه الفرضية وأنكروا احتمال الارتكاس *retrogression* فحسب، والواقع أن الفرد بكامل امتداده المتزامن يشتمل على قدرات تناظر كافة الدرجات المقصودة، ويُترجَم هذا التزامن بتتابع زمنى فى نطاق الصيغة الجسدانية فحسب، والتى تعبر فى سياقها المراحل المناظرة للحال الإنسانى كما يبين علم الأجِنَّة *embryology*، وبدءً من صورة الخلية المفردة لمعظم المنظومات الحية البدائية ومن ثمَّ تذهب إلى ما ورائها من صورة بلُّورة حتى صورة كائن إنسانى أرضى، ولنقل فى سياقنا إننا على النقيض من الرأى السائد فى علم الأجِنَّة ليسٍ من قبيل البرهان على ' النظرية التحولية *transformist theory*'، والتى لا تقل زيفًا عن 'النظرية التطورية' وأشكالها، فهى أغلظ كثافة من النظريات الأخرى، وسوف نعود إلى هذه النقطة لاحقا، وما ينبغى وضعه نُصب أعيننا أن منظور التتابع نسبى بالضرورة، كما أنه مشروع التطبيق قصرًا على معيار محدود، ويفقد كل نفع له بموجب أن البذرة تنطوى على احتمالات الكائن بكاملها، ولابد لنظرية التتابع من الخضوع لنظرية التزامن كما ينبغى حسب السمات الميتافيزيقية أو ما يفوق الزمنية فى نظرية أحوال الوجود المتعددة[22].

ونضيف فحسب أنه أيًا كان زعم الأرواحية والغيبية فإننا لم نصادف فى الطبيعة أى تشاكل يؤيد التناسخ، فى حين أن كل ما فى الاتجاه المعاكس له فى الطبيعة ما يؤيده، وقد اتضحت هذه النقطة تمامًا فى تعاليم مناهضة للأرواحية رسميًا كما ذكرنا آنفًا عن محفل ' الأخوَّة الهرمسية بالأقصر *H B of L*'، والأرجح أن يكون للمقتبسات التالية نفع لبيان أن تلك المدرسة على علم بطرف من حقيقة المهاجرة *transmigration* وكذلك بقانون الدورات،

---

[22] ويجدر ملاحظة نقد لايبنيتز للمكان *space* أى نطاق التواجد المتزامن والزمن *time* أى نطاق التتابع، وبدونه سنقول فحسب إنه قد مدد معنى هذه الأفكار كما فعل فى فكرة الجسد.

"إن الراهب الذى كتب ’أرض الأشباح *Ghostland*‘ كان مصيباً بقولة ’إن الإنسان ككائن لاشخصى يعيش فى لانهائية *indefintude* من العوالم قبل أن يصل إلى هذا العالم،.. وعندما يبلغ وعيه المرحلة العظمى *onsciouness* يصبح على قمة سلسلة التجليات، ولن تدخل روحه فى رَحِم المادة، ولن تعود مرة أخرى إلى التناسخ المادى، ومن ثمَّ يجرى مولده الثانى فى عالم الروح".

والذين يؤيدون هذا المذهب اللامنطقى الغريب عن حالات الميلاد الإنسانى لم يحققوا حال السكينة واليقظة الروحية لأنفسهم، فبدون ذلك تصبح التناسخية هُراءً، رغم توكيدها بجحافل الرجال والنساء المخضرمين فى ’حكمة هذه الدنيا‘، والتعليم ’الخارجى‘ لا قيمة له مطلقًا كطريق للمعرفة الحقة،.. فجوزة البلوط تصبح شجرة، وثمرة جوز الهند تصير نخلة، ورغم أن البلوطة قد أنتجت جوز بلوط يفوق الحصر إلا أنها تعجز عن أن تصبح جوزة مرة أخرى، وكما تعجز نخلة جوز الهند عن أن تصبح جوزة هند مرة أخرى، وقل مثل ذلك عن الإنسان، فبمجرد تجلى الروح فى النطاق الإنسانى ثم تحققها بالوعى فإنها لا تعود إلى حالتها الأولى مطلقا،.. وما يسمى ’إيقاظ الذاكرة الكامنة‘ التى يدَّعى البعض أنه استعادة لذاكرة حيوات أسبق يمكن تفسيرها بالقوانين البسيطة للقرابة والصورة، وكل جنس باقٍ بذاته لكن الدورة الأولى لن تكون الثانية، فكائنات المرحلة الأولى تصبح أباءً لكائنات المرحلة الثانية[23]، وهكذا تتكون كل دورة من أسرة عظيمة يشكلها توحد الجماعات المختلفة من النفوس الإنسانية تحت قوانين ثلاثية فى ’العمل‘ و’الصورة‘ و’القرابة‘،.. ومن هنا يجوز تشبيه الإنسان بجوزة البلوط وشجرته، فالنفس الجنينية اللامتفردة تصبح إنسانًا كما تصبح الجوزة شجرة، وكما تنتج الشجرة جوزًا لا يُحصى فكذلك الإنسان يُعقِّب نفوسًا لا تحصى تولد فى عالم الروح، ولذا بجَّل الدرويديون هذه الشجرة أكثر من عظماء الكهانة.

وهذا مثل على المعنى الروحى الصرف ’للخَلَف *posterity*‘ رغم أننا لا نملك الآن قول المزيد عن القوانين الدورية، وربما تسنح مناسبة لمعالجة هذا الموضوع لو وجدنا وسيلة مفهومة، فهناك مصاعب جمَّة نتجت عن عجز اللغات الأوروبية.

---

[23] وهم بمثابة بيترات التراث الهندوسى.

وللأسف أن محفل *'H B of L'* قد أقر باحتمال التناسخ فى أحوال استثنائية مثل الأطفال الموتى أو الذين ماتوا صغارًا والمولودين ببلاهة خَلْقِية[24]، وقد قرأنا فى نشرة أو أخرى أن مدام بلافاتسكى قد سلَّمت بهذا الاحتمال فى فترة تأليفها لكتاب *Isis Unvailed* [25]، والواقع أنها لو كانت استحالة ميتافيزيقية فلن يكون هناك مجالًا لأى استثناء، فيكفى أن الكائن قد عبر مرحلة بعينها حتى لو كان جنينًا وحتى لو كان جرثومة واحدة لا تقبل العودة إلى حال أسبق حتى لو كانت سببًا لوجودها، وقد حققت بذلك إمكانات وجودها بقدر ما سمحت طبيعتها، ولو توقف نمو هذه الإمكانات فى نقطة بعينها فذلك يعنى أنه ليس بحاجة إلى الذهاب إلى أبعد مما تحتمل صيغته الجسدية، ولكن دون تحسُّبٍ للإمكانات التى قد يؤول إليها فى صيغ أخرى من حال الوجود ذاته، ولو كان علينا أن نتحسَّب لها فسوف نرى أن الحالات المذكورة على منوال هذا التناسخ الأخير لا ضرورة لها مطلقًا، وهو ما يمكن التسليم به بمجرد معرفة أوجه استحالتها أيًا كانت المظاهر، وأنها تسهم على حالها فى التوازن والاتساق للكون، وهذه المسألة فى الواقع مشاكلة للتواصل مع 'الأرواح'، فهى استحالة فى أحدهما كما فى الآخر، والقول إن هناك استثناء لا منطقى مثل قول إن الهندسة الإقليدية تشتمل على حالات لا يصل فيها مجموع زوايا المثلث إلى ضِعف الزاوية القائمة، وأيًا كان العبث فهو عبث مطلق وإن لم يكن 'عامًا'، ولو سلَّمنا بالاستثناء فأيان لنا بتحديد حدوده المنضبطة، فعلى سبيل المثال كيف يتأتى لنا تحديد نهاية عمر رضيع بحيث لا يحتاج إلى تناسخ، أو ما هى درجة التعويق الذهنى الضرورية قبل التناسخ؟ ومن الواضح أنه ليس من أمر أشد عسفًا من ذلك، ونسلم بصحة ما قال بابوس فى قوله "..ولو أنكر المرء هذه النظرية فلا مجال للسماح باستثناءٍ من أى نوع وإلا انفتق شرخ ينفذ منه أى شيء كان"[26].

وقد كانت الملحوظة المذكورة توًا موجهة إلى كتّاب بعينهم قد اعتقدوا أن مذهب

---

[24] وقد كان هناك استثناءً ثالث من نطاق مختلف، ألا وهو 'التناسخ الطوعى الماشيحانى *voluntary messianic incarnation*' الذى عادة ما يجرى كل ستة قرون، أى فى نهاية كل دورة مما يسميه الكلدانيون ناروس، ولكن بدون أن تتناسخ الروح ذاتها أكثر من مرة واحدة، ودون أن يحدث تناسخين متطابقين فى جنس واحد، أما طرح وتفسير هذه النظرية فسوف يخرجنا تمامًا عن موضوعنا الحالى.

[25] *Theosophy, chap., 9.*

[26] *La Réincarnation. P179 cited by Dr Rozier, Intiation, April 1898.*

التناسخ متصالح مع مذهب الكاثوليكية، وقد ادعى كونت لارماندى *Count de Larmandie* لزوم استثناء الأطفال الموتى دون تعميد[27]، ومن الصحيح أن هناك متن لمجمع القسطنطينية الرابع مثلًا يدفع بأنه مناهض للتناسخ، وأنه لا ينطبق على الواقع، لكن الغيبيون ليسوا بحاجة إلى تهنئة أنفسهم بموجب أن الأمر لو كان كذلك فذلك فلأن زمن التناسخ يستحيل تخيله، وقد كانت المسألة التى ثارت فى المجمع هى رأى أوريجين عن أن حياة الجسد عقوبة للروح "التى عاشت كقوى سماوية قد تشربت بالتأمل الربانى"، ومن الواضح أن كُنه المسألة ليس حياة الجسد السابقة قبل وجوده فى العالم المفهوم، ولا علاقة لذلك بالتناسخ على أى نحو، ومن الصعب رؤية كيف استطاع بابوس أن يكتب "إن رأى المجمع يشير إلى أن التناسخ يشكل شطرًا من تعاليمه، وأنه لو كان هناك من كان منتسخًا بإرادته لا بسبب احتجاج على السماء بل من واقع حب الجار فلا يطول اللعن *anathema* أيهما" وقد اتخذ ذلك منطلقًا فأكد أن "فكرة التناسخ شطر من التعاليم الأسرارية للكنيسة"[28]، أما عن مذهب الكاثوليكية فلابد من الدفع بالتوكيد الغريب لآلان كارديك "إن عقيدة بعث الإنسان بجسده أساس لمذهب التناسخ عند الأرواحيين"، أو بالحرِىّ "إن الكنيسة ذاتها التى تعظ بعقيدة البعث بالجسد تعظ كذلك بمذهب تناسخ الأرواح"، ويطرح هذه المقولات بصيغة السؤال، وقد كانت روح القديس لويس هى التى أجابت بأن "هذه مسألة واضحة"، وأضافت "ولن يمض زمن طويل حتى يستقر التسليم بأن الأرواحية نابعة من المتون المقدسة فى كل خطوة تخطوها"[29]، وما لا زال يثير الدهشة وجود قسٍّ كاثوليكى متهم بالفسوق عن الرشد كى يقبل تأييد هذا الرأى، فقد كان الأب بيتى *Abbé J.-A. Petit* راعيًا سابقًا لأبراشية بوفيه، وكان صديقًا مقربًا للكونتيسه بومار، والذى كتب ما يلى،

"إن التناسخ كان معلومًا لمعظم الشعوب القديمة،.. كما أن المسيح بنفسه قد أقر به حتى إن لم يذكره الرسل، وكان ذلك بموجب أن المؤمنين كان عليهم تحقيق الفضائل الأخلاقية فى أنفسهم التى أغنت عن ضرورتها،.. وفيما بعد اختفاء

---

27 *Magie et Religion.*

28 *La Réincarnation, p 171.*

29 *Le Livre des Espirits*

عظماء القادة وتلاميذهم تحولت العقيدة تحت ضغط المصالح الإنسانية إلى عقيدة جامدة، وبقى منها أهداب من الماضى على منوال ’بعث الجسد‘ أو ’بعث الروح بالجسد‘، والتى تمخضت عن خطأ فادح عن بعث أجساد الموتى"[30].

ولن نعلق على ذلك، فليس من عقل لا منحاز يأخذها بجدية، لكن تحويل ’بعث الجسد‘ إلى ’البعث فى الجسد‘ هو أحد الألاعيب التى تثير الشك فى إيمان الكاتب.

وقبل أن نترك هذه المسألة نقول بضع كلمات عن متون الإنجيل التى يرددها الأرواحيين دفاعًا عن التناسخ، ببساطة ويلاحظ آلان كارديك اثنين منهما[31] ذكر أولهما بعد مقاله عن التحول *transfiguration*،

"وبينما كانوا يهبطون الجبل أمرهم عيسى "لا تحدِّثوا أحدًا بهذه الرؤية حتى يصعد ابن الإنسان من الموت"، وسأله تلامذته "فلماذا قال الكُتَّاب إن إلياس لابد أن يأتى أولا؟" فأجاب "إن إلياس يأتى ويعيد كل شىء كما كان، لكنى أقول لكم إن إلياس قد أتى ولم يتعرف عليه أحد، بل عذبوه كما أرادوا من تعذيب"، وعندئذٍ فَهِمَ الحواريون إنه قصد يوحنا المعمدان"[32].

ويضيف آلان كارديك "وحيث إن يوحنا المعمدان هو إلياس فإن روح إلياس قد تقمصت جسد يوحنا المعمدان"، أما بابوس فقال،

"إن الأناجيل تؤكد بلا غموض على أن يوحنا المعمدان هو النبى إلياس منسوخا، وهذا من قبيل الأسرار، فحينما سُئل المعمدان التزم الصمت، لكن الآخرين عرفوا، كما أن هناك مثل الرجل الذى وُلِد أعمى عقابًا له على الآثام التى ارتكبها فى حياته الأسبق، وهو أمر يدعو إلى التفكر"[33].

---

30 *L'Alliance Spiritualiste, July 1911.*

31 *Le Livre des Esprits, pp 105-107, Cf. Léon Denis, Cristianisme et Spiritisme, pp 376-378. See also Les Mesies et L'Eglise orthodoxe, pp 33-35, this work is a publication of so-called 'Essenian' sect to which we shall allude below.*

32 متى *17:9-15*، مرقص *9:8-12*، ولا يكاد يختلف هذا النص عن غيره إلا فى عدم ذكر يوحنا المعمدان.

33 *La Réincartion, p 170.*

فلا تشير المتون إلى الطريقة التى جاء بها النبى إلياس، ومن المفروض أنه لم يمت بمعنى الكلمة حرفيا، ويبدو من الصعب على الأقل افتراض عودته منسخًا، كما أن إلياس لم يتجلَّ متقمصًا يوحنا المعمدان[34]، زد على ذلك أن المعمدان حينما سُئِل رفض أن يجيب كما زعم بابوس، بل أنكر صراحة، ’فعندما سُئِل "هل أنت إلياس؟" قال "لا"[35]، ولو قيل إن ذلك يجوز أن يكون برهانًا على فقدانه ذاكرة وجوده الأسبق فنُجيب بالإشارة إلى نص أكثر صراحة، فعندما تجلى جبريل لزكريا ليبشره بغلام قال "وسوف يتقدمه بروح إلياس وقوته لكى يعيد قلوب الأباء إلى الأبناء، ويردُّ العاصين إلى الحكمة والعدل، ويمهد الطريق للسيد الآتى"[36]، وما من تعبير أفصح من ذلك عن أن يوحنا المعمدان لم يكن إلياس بشخصه بل إنه فحسب ينتمى إلى ’أسرته الروحية‘ لو جاز القول، وبهذا المعنى فحسب يمكن فهم الطريقة التى جاء بها إلياس، ولا يذكر كارديك قصة الرجل الأعمى، كما يبدو بابوس ذاهلًا عنها، فيتخذ مثلًا من معجزات الشفاء، وفيما يلى النص المنضبط،

"وفيما هو مُجتازٌ رأى إنسانًا أعمى منذ ولادته، فسأله تلاميذه قائلين يا معلم من أخطأ أهذا أم أبواه حتى ولِد أعمى أجاب يسوع لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه، ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى ما دام نهارٌ يأتى ليل لا يستطيع أحد أن يعمل، ما دُمتُ فى العالم فأنا نور العالم"[37].

ولم يكن هذا الرجل إذن ’يعاقب على أخطائه‘ لكن النص قد التوى بإضافة كلمة ليصبح ’يعاقب على أخطائه السابقة‘، ويُغرى ذلك باتهام بابوس بضعف الإيمان فى هذا الشأن إن لم يكن جهله عذرا، فقد كان يُحتمَل أن عاهة هذا الرجل كانت مقدرة بموجب الخطايا التى سيقترفها لاحقا، ولن يقبل هذا التفسير من يزعمون بالإنسانياتية *anthropomorphism* وبإخضاع الرب للزمن، وأخيرًا فإن النص الثانى الذى اقتبسه

[34] أما الشخص الآخر الذى تجلى فِى العهد القديم فهو النبى موسى الذى لا يعلم أحد له مدفنا، أما إخنوخ أو إدريس وإلياس فقد رفِعا إلى السماء لكى يظهرا فى نهاية الزمن، ولا يجوز ذكر أحد منهم جميعاً كمثل على تجلى الأموات.

[35] يوحنا *1:21*.

[36] لوقا *1:7*.

[37] يوحنا *9: 1-3*.

كارديك عن الحوار بين عيسى و نيكوديموس، فيكفى نقل الفقرة الجوهرية حتى نشجب التناسخ المزعوم،

"فأجاب عيسى الحق الحق أقول لك إن كان أحدٌ لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله، المولود من الجسد جسدٌ هو والمولود من الروح هو روح، لا تتعجب أنى قلت ينبغى أن تولدوا من فوق"[38]

ولا يتطلب الأمر إلا جهلاء كالأرواحيين ليصدقوا بالتناسخ، فى حين كان الأمر 'ميلادًا ثانيًا' بالمعنى الروحى، وهو يختلف جذريًا عن الميلاد الطبيعى، وتنتمى فكرة 'الميلاد الثانى' إلى معظم الأديان التراثية، والتى لم يتناول أيها أمورًا تشبه التناسخ كما يدَّعى الأرواحيون.

---

[38] يوحنا 3:3-7.

7 شطحات التناسخيين

لقد قلنا إن فكرة التناسخ قد أسهمت بنصيب وافر فى تمكين الخلل العقلى الذى انتاب زمننا، وسوف نبرهن الآن على ذلك بطرح أمثلة من شططها، وبناءً على الاعتبارات الميتافيزيقية السابقة نعتقد أن هذا سيكون من قبيل التسلية، والحق إن هناك أمرٌ أصولى يثير الشفقة فى تلك المشاهد الهزلية رغم أنها أحيانًا تبعث على الابتسام، وأول أمر نلاحظه فى دوائر الأرواحيين هو نوع من جنون العظمة *megalomania*، فالجميع يتوهمون أنهم تناسخات من شخصيات جليلة الشأن، وذلك حكمًا بالأسماء التى ترد مع 'الاتصالات' المزعومة، حيث يتجلى عظماء الرجال بشكل أيسر من غيرهم، وعلينا أن نعتقد أنهم يتناسخون كثيرًا وأحيانًا فى جماعات بأكملها على نحو متزامن، وإجمالًا فإن جنون العظمة عندهم يختلف عن المألوف فى نقطة واحدة فحسب، ألا وهى أنهم بدلًا من الاعتقاد بأنهم من عظماء الحاضر فإنهم فى أحلامهم المريضة يتوهمون أنهم من عظماء الماضى، ونحن نتحدث عن الأرواحيين بموجب كثرتهم، لكن الأمر كذلك مع الثيوزوفيين الذين لا يقلون عنهم جنونا[1]، كما أن بينهم من انتقل بأحلامه إلى أمل فى المستقبل، وربما كان ذلك من جرَّاء إيمانهم 'بالعزاء' فى التناسخ، وقد ورد فى تعاليم 'الأخوة الهرمسية بالأقصر' المذكورة فى الباب السابق، والذين أعلنوا أنهم نبلاء يستحقون حياة الملوك حتى لو كانوا فى ثياب شحاذين فى وجودهم الأخير على الأرض، وأنهم "حتمًا سيعيشون مرة أخرى كنبلاء وملوك أو عظماء من مقامات عالية"، وتبرهن هذه التصريحات على جهل مؤلفيها وانفعالهم العاطفى ناهيك عن قصور المعرفة.

ولا يتمالك الأنجلوساكسون المناهضون للأرواحية أنفسهم من السخرية من هذه الشطحات المفلوتة، فيكتب دوجلاس هووم ما يلى،

---

1 *Theosophy, chap. 10.*

"إن الذين يشاركون آلان كارديك أحلام يقظته خاصة من البرجوازيين الذين ليسوا بشيء يعتقدون أن فى التناسخ ’عزاء‘ لهم بموجب تلبسهم بوقار الشخصيات الجليلة التى تقمصوها، وأنهم سوف يفوزون مرة أخرى بعد موتهم".[2]

وكتب فى موضع آخر،

"وبغض النظر عن الاضطراب المقزز الذى يؤدى إليها هذا المذهب فى الأسرة والمجتمع فهناك استحالات مادية لابد من التحسب لها، وقد تعتقد سيدة كما يحلو لها بأنها كانت فى وجودها الأسبق زوجة إمبراطور أو ملك، ولكن كيف يتأتى لنصف دستة من النساء الاعتقاد بأنهن كن زوجات الشخص ذاته فى سابق حيواتهن، وتدعى كل منهن أنها كانت الزوجة المفضلة له؟ وقد رأيت فى الواقع دستة من النساء على الأقل اللائى تقمصن روح مارى أنطوانيت وستة أو سبعة تقمصن روح مارى ستيوارت، وطائفة من سانت لويز ونحو عشرين رجلًا من الإسكندر الأكبر والقياصرة، ولكنى لم أجد أحدًا بأسماء عادية مثل كل من هب ودب".[3]

ومن ناحية أخرى نجد نشطاء التناسخ بين الغيبيين على الخصوص يزعمون أنهم يرفضون ’الشطحات‘ التى تؤدى إلى إفساد قضيتهم، وهكذا يكتب بابوس،

"وقد رأينا فى دوائر أرواحية بعينها بؤساء يدَّعون أنهم تناسخًا من موليير أو راسين أو ريشيليو، ناهيك عمن يدَّعون التناسخ عن أورفيوس و هوميروس، ولا نملك هنا الحديث عما إذا كانت هذه الدعاوى تقوم على أساس متين أم إنها مرض عقلى متجذر، ولكن لنتذكر أن فيثاغورس عندما تحدث عن حيواته الأسبق لم يدَّع أنه كان عظيم زمانه[4]، ونلاحظ أن تمثيل ريشيليو الذى لا أثر فيه لأى عبقرية أو فيكتور هوجو الذى قرض شعراً بميزان البحر الرابع عشر بعد موته هو الطريق الوحيد للدفاع عن الدعاوى التى لا نهاية لها عن ’تقدم الأرواح فى اللانهائية‘ وهى

---

[2] *Les Lumières et les Ombre du Spiritism, p 111.*

[3] *Ibid., pp 124-125.*

[4] وليس ذلك إلا الاضطراب المتفشى بين تقمص الأرواح *metempsychosis* والتناسخ.

نظرية الأرواحيين، أما الأرواحيون المتعلمون الجادون كما نعتقد فسوف يستنكفون هذه الأمور"[5].

ويقول فيما بعد،

"ويعكف بعض الأرواحيون على ادعاء الانتساخ عن عظماء مشهورين، فنجد عاملًا بليدًا قد تناسخ عن فولتير بدون ألمعيته، وملازمًا متقاعدًا قد تناسخ عن نابليون بعد عودته من جزيرة سانت هيلانة وقد فقد أقل مقومات النجاح، وأخيرًا ما من جماعة خلت من شخصيات مثل مارى دى مديتشى أو مدام دى مينتينون أو مارى ستيوارت قد عادوا إلى الحياة فى إهاب نساء من الطبقة الوسطى، ومثل تورين و كونديه و ريشيليو و مازارين و موليير و جان جاك روسو يدير مجلسًا صغيرًا لتحضير الأرواح، وهذا هو السبب فى كساد الأرواحية طوال نصف القرن الماضى، ولا حاجة للبحث عن أسباب أخرى، أضف إلى ذلك جهل قادتها وتعصبهم"[6].

وقال فى عمل أحدث ما يلى عن الموضوع ذاته،

"إن الإنسان الذى بلغ الوعى بسر التناسخ يتصور على الفور الشخص الذى كانه فى سالف حياته، ويجد كما لو كان مصادفة أن ذلك الشخص كان دائمًا ذا حيثية ومنصبًا مرموقًا، ونادرًا ما نجد فى لقاءات الأرواحيين والشيوزوفيين تناسخًا لبعض السفاحين والسكيرين والخدم، لكن الغالبية دائمًا ما تكون تناسخًا لنابليون و لويس الرابع عشر و فريدريك الأعظم أو بعض الفراعنة فى جلود الذين توهموا انتساخهم، أما عن هذه الشخصيات العظيمة فلابد أن تكون عقوبة لهم أن يعودوا إلى الدنيا فى تلك الأحوال المهينة.. لكن الغرور حجر عثرة لكثير من دعاة مذهب التناسخ، وغالبًا ما يلعب دورًا يؤذى بقدر ما يرتفع، ولو كان هناك من يحاول تعبئة عظماء العالم لتناسخاته فلا مناص له من أن يحشر كبارالسفاحين

---

5 *Traité Méthodique de Science occult, p 297.*

6 *Ibid., p 342.*

وعظماء المجرمين لأعدائه".[7]

وقد وجد بابوس علاجًا للشرور التى أنكرها فيما يلى،

"وقد يشعر المرء بحدسه أنه عاش فى زمن بعينه وأنه كان يقطن فى أبهة بعينها، وقد يُلهَم فى عالم الأرواح أنه كان سيدة عظيمة عاصرت الفيلسوف العظيم أبيلار الذى لم يقدره معاصروه الأغبياء حق قدره، لكنه لن يتيقن مطلقًا من أنه قد عاش على الأرض".[8]

وقد لا تكون السيدة المقصودة بالضرورة هى هيلواز، ولو صدق المرء أنه قد عاش بنفسه بين هؤلاء المشاهير فذلك ببساطة لجواز أنه قد عاش بين مرافقوهم حتى فى دور خادم، ويبدو أن بابوس قد فكر فى هذه الاعتبارات بموجب الغرور، ولكننا لا نعتقد أن الأرواحيين سيقتنعون بإنكار أوهامهم ببساطة، فهناك أنواع أخرى من الخضوع ليست أقل خطرا، والحكمة التى عبر عنها بابوس لم تمنعه من كتابة ما يلى فى الموضوع ذاته،

"لقد كان للمسيح منزل يسع آلاف الأرواح، وكل روح دخلت بيته تتناسخ، وقد كان يلتزم إبان حياته الأرضية بالمعايير التالية كلما تناسخت روح فى بيته *'1'* أن يكون أكبر الأبناء فى أسرته *'2'* أن يكون اسم أبيه يوسف *'3'* أن يكون اسم أمه مريم، أو أى اسم يناظر هذه الأسماء من حيث قيمته العددية فى اللغات الأخرى، وأخيرًا هناك جوانب كوكبية تأتى من شقَّة المسيح كذا، لا حاجة لنا فى الكشف عنها هنا".[9]

ونحن نعرف القصة الكاملة لمن يسمونه 'المعلم *master*' الذى يُقال عنه إنه "أقدم روح فى الكوكب" ورئيس الاثنى عشر الذين عبروا من بوابة الشمس، والذين أنكروا 'معلمهم' مخافة 'تأخير التطور' بعقوبة مقدارها ثلاثًا وثلاثين تناسخًا متواليًا لا أقل ولا أكثر!

---

[7] *La Réincarrnation, pp 138-139, and 142-143.*

[8] *Ibid., p 141.*

[9] *Ibid., p 140.*

إلا أن بابوس كان لا يزال أثناء كتابة ما اقتبسنا عنه توًا مقتنعا بأنه يسهم فى التخفيف من شطحات بعينها، فقد أضاف "إن هناك ثلة من العرافين الذين لا يعلمون ذلك قد ادعوا أنهم تناسخًا من المسيح على الأرض.. والقائمة لا تنتهى"، وقد وجدت هذه النبؤة شفاعة فى قصة الماشيح الثيوزوفية وكذلك فى دوائر مشاكلة، لكن ماشيحية 'الأرواحية الجديدة' قد تلبست بأشد الصور شطحًا، بما فيها 'تناسخ المسيح' التى كان أحد نماذجها الأولى للقس جيوم مونو *Guillaume Monod*، وفى هذا الصدد لا تبدو قصة ' شقَّة المسيح' أشد شطحًا من غيرها، ونحن على علم تام بالدور الفاجع الذى لعبته فى مدرسة الغيبية الفرنسية، ولازالت تعيث بين جماعات متنوعة تمثل اليوم بقايا الغيبية الفرنسية، ومن جهة أخرى ظهرت عرَّافة أرواحية باسم مدموازيل مارجريت ولف التى تلقت من مرشدها رسالة 'تبشر بتناسخ المسيح القادم فى فرنسا'، وقد اعتقدت أنها بنفسها تناسخًا عن كاثرين دى مديتشى، ونشرت قائمة بمئتى 'تناسخ مشهور' كشفت فيه عما كان علية عظماء اليوم فى حيواتهم الأسبق، وهذه أيضًا حالة مرضية لافتة للنظر[10]، كما أن هناك أرواحيون قد اعتنقوا مفاهيمًا ماشيحية من نوع آخر، وقد قرأنا مؤخرًا مقالًا فى مجلة أجنبية ينتقد كاتبها مصيبًا أئلك الذين يزعمون 'بالمَقدِم الثانى' للمسيح متناسخا، لكنه قال ذلك لكى يقول فيما بعد إن عودة المسيح قد تمت بالفعل *fait accompli*.. فى الأرواحية، وأنه "جاء فعلًا وأن وصاياه مسجلة"، ولا مناص من إيمان خارق لكى يسلم المرء بمجيء المسيح والحواريين فى جلسات الأرواحيين ووسطائهم، خاصة عندما يكون قد صنَّف 'الاتصالات' المزعومة التى تُعزى إليهم[11]، وقد ظهرت فى الدوائر الأميريكية 'رسائل' ممن يُدعى أبولونيوس التيانى *Apollonius of Tyana* يؤيده 'شهود' عدة أنه فى الحين ذاته "كان تناسخًا من عيسى المسيح و بولس الرسول المذكوران

---

[10] وقد انتهت هذه المغامرة نهاية محزنة بعد أن وقعت فى أيدى محتالين استغلوها بشناعة، ويبدو الآن أن المسكينة قد ساء استخدام 'رسالتها' تماما.

[11] وقد نشرت مجلة أرواحية مستقلة تصدر فى مرسيليا باسم *La Vie Posthume* عرضًا فكاهيًا لحلقة من 'الأرواحية الواحدية *pietist spiritism*' لمجلس تجلى فيه عيسى المسيح والقديس يوحنا وآلان كارديك معا، وقد اقتبس بابوس هذا العرض بشيء من الحقد فى كتابه *Traité methodique de Science occult pp 332-339*، ولنذكر بهذا الصدد مقدمات كتاب الأرواح التى تحمل توقيعات القديس يوحنا الإنجيلى و القديس أوغسطين و القديس فانسان دى بول و القديس لويس و روح الحق و سقراط و أفلاطون و فينلون و فرانكلين و سويدنبيرج ..إلى آخرهم، ألا يكفى ذلك للصفح عن شطحات تلاميذ آلان كارديك؟

فى المتون المسيحية"، وأضاف إليهم أحيانًا القديس يوحنا، ووعظوا بأناجيل أعطاها لهم البوذيون، وقد نُشرت كثيرًا من تلك الرسائل فى خاتمة كتّاب هنرى لا كروا[12]، كما كان هناك غير الأرواحية جمعية سرية أنجلوأميريكية قد ادعت أن هوية القديس بولس و أبولونيوس مذكورتان ’فى مخطوط صغير محفوظ فى دير فى جنوب فرنسا‘، ولدينا أسباب للقطع بأن المصدر المذكور وهمى تماما، لكن اتفاق هذه الرواية مع قصة ’الاتصالات‘ الأرواحية يثير الشك، فهى تتحدث عن أمر أكثر من أن يكون ’ما تحت الوعى لاثنين أو ثلاثة من المخابيل‘[13].

ويتحدث بابوس عن روايات أخرى من النوع ذاته مثل ’الأرواح التى فى شقَّة المسيح‘، وفيما يلى عيِّنة من ذلك،

"كما أن هناك بعض النيازك التى تدور بين مجموعات شمسية لتزيد من قوى الشموس الواهنة، وكذلك مبعوثون دوريون يأتون فى أوقات معلومة لكى يثيروا البشرية الخاملة من جرَّاء فترات الهدوء الطويلة،.. وقد كان من بين هذه التناسخات الدورية التى أتت دائمًا من ’شقَّة المسيح‘ الخفية حتى لو لم تكن الروح ذاتها، وسوف نقتبس من تناسخات أدهشت المؤرخين على منوال الإسكندر و قيصر و نابليون، وفى كل عودة لهذه الأرواح تقلب قوانين الحرب رأسًا على عقب، وبدون اعتبار للذين تتحكم فيهم إذ تحولهم إلى أدوات للنصر لا جدوى من مصارعتها،.. وفى المرة التالية التى يأتى فيها ستجد الأرواح وسائلًا لمنع موت جنودها فى الحرب بين أكثر من ثلُثى العالم بإنشاء نظام دفاعى سوف يكون ثورة فى قوانين الحرب"[14].

---

[12] *Mes experiences avec les spirits, pp 259-280.* و’الشهود هم كايفاس و بونتيوس بيلاطس و القنصل فيليكس و داموس الغنوصى المسمى القديس مرقص و لوسيان المسمى القديس لوقا، و داميس كاتب سيرة أبولونيوس التيانى و البابا جريجورى السابع، وأخيرًا الشخصية الوهمية باسم ديفا بودهيساتفا بصفته النبى السابع والعشرين بعد بودها‘ ويبدو أن كثيرا منهم قد استخدموا ’روح فاراداى فى الترجمة !

[13] والجمعية السرية المذكورة محاطة بالألغاز على منوال محفل *S.S.S.* وأخوة *Z.Z.R.R.Z.Z,*، والتى كانت جميعها أعداء لمحفل ’الأخوة الهرمسية بالأقصر‘.

[14] *La Réincarrnation, pp 155-159.*

ولم تجر إشارة إلى تاريخ الزيارة التالية ولو على سبيل التقريب، وهو أمر سيء رغم أن بابوس ربما استحق المديح على عنايته، فكلما حشر نفسه فى نبؤات بعينها سارعت الأحداث بتكذيبه، ولكن بين يدينا 'شقّة' أخرى يقدمها إلينا،

"وقد حظيت فرنسا مرة أخرى بشرف تناسخ مبعوث سماوى من 'شقَّة عذراء النور حتى تدمج الضعف الأنثوى بقوة الملائكة المنسوخين، وقد شكلت القديسة جنفييف نواة الأمة الفرنسية، والتى أنقذتها جوان دارك فى اللحظة التى لم يكن لشىء آخر جدوى حيالها"[15].

أما عن مسألة جوان دارك فلا ينبغى لنا إفلاتها من مقولة مختصرة تناهض الإكليروس و الديمقراطية معا،

"والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ذاتها تُعادى أى مبعوث سماوى، وقد استغلت صوت الجماهير القوى لقلب عبارات القساوسة الذين أعمتهم السياسة للتضحية بمبعوث السماء"[16]

فلو كان بابوس قد اتخذ جوان دارك من ' شقة عذراء النور فقد كان فى فرنسا أرواحيون يسمون أنفسهم إسّينيين *Essenian* قدروا أنها كانت 'الماشيح الأنثوى'، والتى تضاهى المسيح ذاته، وأخيراً مثل 'العزاء السماوى' و'روح الحق' التى تحدث عنها عيسى[17]، ويبدو أن بعض الأرواحيين قد اعتبروها تناسخاً من المسيح ذاته[18].

ولننتقل إلى نوع آخر من الشطح فى فكر التناسخيين، ونقصد التشابه بين الأرواحيين وبين الغيبيين فى الاعتقاد بالوجود المتتابع، فعندهم أن الأعمال تتم فى سياق حياة واحدة ولابد أن تظهر نتائجها فى الحيوات التالية، وهذه سببية شديدة الخصوصية، أو هى بالحرىِّ فكرة الحدود الأخلاقية، ولكن بدلًا من أن تسرى على حياة فوق أرضية كما

---

15 *Ibid., p 160.*

16 *Ibid., p 161.*

17 وربما لازال هناك بعض الأمور الغريبة عن تلك الطائفة اللدودة للكاثوليكية، والتى تمسك بخيالات جاكوليو التاريخية الزائفة كشرف عظيم، وحاولت 'تحييد' المسيحية، وقد عالجنا هذه الأمور فى موضع آخر فى سياق ذكر الدور الذى عزته الثيوزوفية إلى الإسِينيين القدماء.

18 *Les Messies esséniens et L'Eglise orthodoxe, p 319.*

فى فكرة الحياة الأخرى فى المفاهيم الدينية، فى حين أن نتائج الأعمال الأرضية تظهر على الأرض فحسب، أما ’المعلمون *masters*‘ الذين أشرنا إليهم سلفًا فيعظون بأن ’الأعمال التى ارتكبت فى الأرض لا مناص من التكفير عنها فى الأرض‘، وقد أضفى الثيوزوفيون على هذه ’السببية الأخلاقية‘ اسم كارما، والتى لا تتقابس مطلقًا بموجب أن معنى الكلمة السنسكريتى هو ’العمل‘، وإن لم توجد هذه الكلمة فى مدارس أخرى فإن معناها الأصولى لن يتغير، ولن يتغير إلا على نحو ثانوى، وحينما يتعلق الأمر بنتائج عمل أو آخر فإن الثيوزوفيين عادة ما يتحفظون، لكن الأرواحيين والغيبيين يتنافسون فى طرح أدق التفاصيل حمقًا، مثل أن الذى أساء معاملة والده سوف يولد أعرج الساق اليمنى، ولو أساء معاملة أمه فسوف يولد أعوج الساق اليسرى، وهكذا دواليك، وهناك من يلقى اللوم على العاهات من هذا النوع على الأعمال التى حدثت فى حياة سابقة، وقد عرفنا غيبيًا أعرج كان يعتقد بيقين تام أن السبب فى عرَجه راجع إلى أنه كسر رجله عندما قفز من النافذة ليهرب من محاكم التفتيش *inquisition* فى حياته الأسبق، ولن يكفِ حديثٌ عن المخاطر التى يمكن أن تتمخض عن هذا النوع من التفكير وعلى الأخص فى الدوائر الأرواحية، ونعلم يوميًا عن أحدهم يقول إنه ارتكب جريمة لابد أن يتوقع لها جزاءً فى حياته الدنيوية، زد على ذلك أنه لا ينبغى له أن يعمل ما يعفيه من العقاب الذى سيحل عليه آجلًا أم عاجلًا، والذى سيكون أشد جسامة كلما تأخر، وفى ظلال هذه الأفكار سيندفع المسكين إلى قبول العقوبة المزعومة وحتى المطالبة بتوقيعها، ولو كان الأمر فعلٌ إرادىٌ فمن أشد الأمور عبثًا لن يهدئ من شخص بلغ هذا الحد من التصديق والتعصب، فقد أقنع ’المعلم‘ أحد تلامذته بأن الفعل الذى ارتكبه كان فى تناسخ جرى فى وجود آخر، ولابد له من زواج امرأة مقطوعة الساق اليسرى، وهكذا عكف التلميذ على نشر إعلانات فى مجلات متنوعة للبحث عن امرآة تستوفى معاييره، وسوف يجدها بلا جدال، وليس ذلك إلا مثلًا واحدًا فى جمهرة من الأمثلة المشاكلة، وقد ذكرناه من واقع تمثيله للخصائص العقلية للمقصودين بالحديث، لكن هناك غيرها مما يتمخض عن نتائج أشد مأساوية، وقد عرفنا غيبيًا آخر لم يأمل فى أمر أفضل من الموت فى حادثة تحررة من ’الكارما‘ شديدة الوطء، ومن ثم قرر ألا يتجنب السيارات فى عبور الطريق، ذلك إن لم يلق بنفسه تحت عجلاتها، لأن موته لابد أن يكون صدفة لا انتحارًا،

وبدلًا من يحرره من الكارما زاده رهقًا، ونرجو ألا تفترض أننا نبالغ بأقل قدر، فكل الأمور المذكورة ليست اختراعا، وتشهد صبيانية تفاصيلها على أصالتها، والواقع أننا يمكننا تقديم أسماء بعض الأشخاص الذين قاموا بهذه المغامرات، وليس بيدنا إلا الشفقة عليهم كضحايا لتلك التوهمات، ولكن ماذا نرى حيال المسئولين عنها؟ فلو كانوا مذنبون بعدم الأمانة فلا بد من إدانتهم القاطعة بتدبير الشرور، ولو كانوا مخلصون وهو أمر ممكن فى بعض الأحوال فلابد من معاملتهم كبلهاء خطرين.

ولو بقيت هذه الأمور فى نطاق النظرية فلن تكون إلا تخليطًا مثل الذى سعى إلى الانتقام من قاتله فى وجود آخر، وهكذا يصبح المقتولين فى عالمٍ سفاحين فى عالمٍ آخر، وهناك مثل آخر من النوع نفسه عن حوذيٍ يداهم الماشين كعقاب لهم، فالعدالة فيما بعد الموت عند الأرواحيين تقضى بأن العدلَ قائم فى القتل غير المقصود، فهذا الحوذى حين ينتقل إلى حياة أخرى سيكون ماشيًا يدهمه الذين دهمهم فى الحياة الدنيا بلا قصد حيث أصبحوا حوذية، ولكن المنطقى أن أعمال الأولين هى أعمال الآخرين بلا اختلاف، وعليهم أن يصيروا إلى المآل ذاته والعقوبة ذاتها، فالبأسان الفاعل والمفعول به عليهم تبادل الأدوار من حياة إلى أخرى ، وما من سبب لينتهى ذلك حتى نهاية الزمن، وبودنا أن نعلم ما ذا يظن جابرييل ديلانيه فى هذا الطرح، ففى هذه النقطة هناك أرواحيون جددٍ لا يعترفون بفضل الأرواحيون عليهم، فقد سمعنا غيبيًا ذو ميول أسرارية يحكى القصة التاليه كمثل على النتائج الوخيمة التى تتمخض عادة عن أعمال تعتبر بلا وزن، فقد عكف تلميذ على تكسير قلم وبعثرة حطامه، ثم إن شظايا القلم تجتمع مرة أخرى لتستوى قلَّما كما كانت بذاكرة جزيئاته، وأخيرًا بعد عدة قرون تحولت هذه الجزيئات إلى ماكينات، وفى يوم من الأيام حدث حادث أودى بحياة عاملٍ بعد أن طحنته الماكينة، وتبين أن هذا العامل كان التلميذ المذكور ذاته، وقد انتسخ بحيث يتلقى عقوبته على تكسير القلم، ويستعصى على المرء تخيل شيء أكثر غرابة وخيالًا من الذين يخترعون هذه القصص، والتى تكفى لتصوير دقيق للعقلية التى ابتكرتها، ناهيك عمن آمن بها.

ونرى فى هذه المقولات أن المسألة عادة ما ترتبط بمسألة العقاب، وهو أمرٌ مدهش من الذين يتفاخرون بمذهب فيه ’عزاء‘ قبل أى شيء آخر، لكن الأرجح بسبب

أنها تسيطر على الخيال، وكما قلنا إننا نأمل فى مستقبل يعوضنا عما عانيناه فى أعمالنا الماضية، أما مسألة معرفة ما هو صالح فى الحياة الراهنة كجزاء لأعمالنا الطيبة فى الماضى فيبدو من قبيل الغرور، لكن ذلك أقل فداحة من الرعب الذى يصيب المساكين من 'الجزاء' الوهمى على أخطاء هيِّنة، ولنضف أن نتائج الأخطاء الجسيمة أحيانًا كما يؤكد بابوس 'نادرة لدرجة أن الإنسان الروحى الذى تناسخ على الأرض ليس بالضرورة نتاجًا لأعمال طيبة فى الماضى باللغة الحالية'[19]، ويضيف أن "ملاحظة هذه الاعتبارات أمرًا مهمًا"، ولكنه لسوء الحظ ينسى ذكر الوسائل التى تُتَّبع لذلك، وحيث إننا نقتبس عن بابوس مرة أخرى فلن نهمل ذكر أنه يوصينا بالاعتقاد أن هناك أحيانًا حالات يجرى فيها تناسخ قبل الموت مباشرة رغم أنه لم يجرؤ على ذكرها صراحة، فيقول إنها حالة استثنائية فحسب، لكنه وصف حالة جَدٍ وحفيده تقمصًا الروح ذاتها بمقدار تهافت حال العجوز، كما أن فكرة أن المرء يتناسخ فى سلالته عزيزة عليه بشكل خاص بفضل أنها 'مبرر لموعظة المسيح بأن جزاء الخطيئة قد يمتد إلى الجيل السابع'[20]، وهو المفهوم الذى يسمى 'المسئولية الوراثية'، والتى أفلتت منه تمامًا رغم واقع أنها لاتُلاحى حتى من الناحية العضوية، فمجرد ميراث المرء لعناصر جسدانية أو نفسانية عن والدية يعنى تمديدًا لحياتهما جزئيًا على الأقل، ويصبح بواقع هذه العلاقة المزدوجة شيئًا من والديه حتى لو كان بذاته، ومن ثم تمتد نتائج أعمالهما عليه، وعرض الأمر على هذا المنوال يُخلِّصه من أى صبغة أخلاقية، كما يجوز القول على العكس إن الطفل وحتى أنجاله منذ البداية يتناقلون شخصيات آبائهم فيما تعلق بالخصائص العضوية والنفسية، وليس فيما تعلق بالروح وشخصانية الكائن بما هما، ولكن الأحفاد يمكن اعتبارهم 'مشاركون فى أعمال جدودهم حتى لو انقطعت عن الوالدين'، وقد أشرنا سلفًا إلى أن الجانبين المتكاملين للمسألة المقصودة لن تبقى بعد ذلك رغم أنها كافية لأن يدرك القارئ بصيصًا عما يهمه فى أمر الخطيئة الأولى.

ويحتج الأرواحيون على فكرة الخطيئة الأولى بموجب تصادمها مع معنى العدل

---

[19] *La Réincarrnation, p135.*

[20] *Ibid., p 35*، وتبدو هذه العبارة بلا صلة بباقى الفقرة التى اقتبسناها، لكننا نعلم ما يعتقد بابوس فى هذا الصدد.

عندهم أولًا، وثانيًا أن نتائجها على عكس نتائج منظورهم 'التقدمى' إلى الخطيئة الأولى، ولم يرغب آلان كارديك فى رؤية شيء من الخطيئة الأولى إلا تعبيرها عن واقع 'إن الإنسان قد هبط إلى الأرض وهو ينطوى على بذرة الشهوة كبقايا لانحطاطه الأول'، ويقول 'إن الخطيئة الأولى تمثيل للطبيعة الناقصة للإنسان، وعليه فإنه مسئول عن خطاياه فحسب وليس خطايا آبائه'، ويعزو هذه التعاليم إلى 'روح' القديس سانت لويس[21]، ويعبر ليون دينيس عن نفسه بإيجاز وعنف،

"إن الخطيئة الأولى هى العقيدة الأساسية لمجمل المذهب المسيحى، وهى فكرة صحيحة أصوليًا إلا أنها مغلوطة من حيث صورتها وطبيعتها فى الكنيسة، وتصح بمعنى أن الإنسان يعانى من هاجس أنه يحمل وزر خطايا ارتُكِبت فى حيوات أسبق والنتائج التى تمخضت عنها فى عصيان الزوجان الأولانيان للرب، ولن يصل إلى الخلاص إلا بظلم أفدح بتكليفه بالعدل بما يجافى المنطق والأخلاق ومبادئهما الجوهرية، أى الرحمة والعدل، وقد عملت الخطيئة الأولى على إبعاد الإنسان عن الإيمان بالرب أكثر مما عملت كل الهجمات والانتقادات الفلسفية"[22].

ويحق للمرء أن يسأل الكاتب عما إذا لم يكن منظوره للأمراض الوراثية لا يقل شططًا عن غيره عقليًا وأخلاقيًا، وما الذى يمنعه من تناولها بواقعية[23]، كما يجوز السؤال ما إذا كانت العدالة بالمعنى الإنسانى لا تنطوى على شيء سوى 'تعويض ظلم بآخر' كما يقول الصينيون، لكن الخطابة من هذا النوع لا تستحق الجدل، والأهم من ذلك لفت الأنظار إلى فنيات الخطابة المعتادة عند الأرواحيين، والتى تحتوى على ادعاء أن العقائد الكنسية والمذاهب القديمة لا تربو عن تحريف لنظريتهم، إلا أنهم يفشلون فى تذكر أن نظريتهم المزعومة اختراع حديث العهد للغاية، وهى سقطة يشاركهم فيها الثيوزوفيون الذين يزعمون أن نظريتهم هى "مصدر كافة الأديان"، ألم يعلن ليون دينيس رسميًا "إن

---

21 *Le Livre des Esperits, pp 446-447.*

22 *Christianisme et Spiritism, pp 93-96.*

23 وعن ليون دينيس *Ibid., pp 97-98* قول إن تسليم المادى بالوراثة ليس أمرًا جوهريًا لكن الأرواحيين لا يترددون فى رفضها من واقع متطلبات أطروحتهم، ويذهب جابرييل ديلين إلى عكسه بالتسليم بالوراثة إلى حد ما *L'Evolution animique, pp 287-301.*

أصول كل الأديان قائمة على الوقائع الأرواحية وليس لها أصل نظرى غير الأرواحية؟[24]" ويرى الأرواحيون فى الموضوع الراهن أن الخطيئة الأولى نموذج لإثم جرى فى حيوات أسبق، ولن يدرك معناه الحقيقى إلا من اعتقد بمذهب التناسخ على شاكلتهم، ومن سوء طالع أطروحة آلان كارديك أنها قد تقاربت بعض الشيء إلى النبى موسى!

وقد كانت تفاسير الخطيئة الأولى وسقوط الإنسان عند الغيبيين الفرنسيين على الأقل أكثر لطفًا وإن لم تكن أمتن أساسًا، ذلك أنها تتصل بنظرية التناسخ، وهى غريبة حتى على مدرسة بابوس التى سمت نفسها 'المسيحية الغيبية'، والذى كانت أحد صفاته الفريدة هى التهكم فى أية سانحة على المعانى الثلاثية والسباعية عند القباليين والجوانيين، ويرغب فى التمسك بالمعنى الحرفى للمتون فحسب، لكن ذلك لا ينهيه عن انتحال تفاسيرها فى أفكاره الشخصية كما سنرى لاحقًا، وحتى نفهم نظريته لابد من معرفة أن هذا الغيبى يفضل منظور مركزية الأرض *geocentric system* بمعنى أنه يعتقد أن الأرض هى مركز الكون حتى لو لم يكن من الناحية المادية فعلى الأقل من ناحية سكانها[25]، ويرى أن الأرض هى العالم الوحيد الذى يمكن أن يعيش فيه الإنسان نظرًا لعدم اختلاف أحوالها عن المناخ الأرضى الذى اعتاد عليه الإنسان، ومن الواضح أنه يتوهم قصرًا أن 'الإنسان' فحسب هو الفرد الموهوب بخمسة حواس تناظر ملكاته، وأن كافة أعضائه لازمة لحياته الأرضية، وأنه لا يملك أن يتناسخ إلا فى الأحوال الأرضية حيث لا وجود لأى موضع آخر فى الكون تسمح له بالحياة فيها، كما أن الإنسان يظل إنسانًا فى تناسخه، كما أنه يقطع باستحالة تغيير الجنس، "فبعد أن خرج الإنسان من يدى خالقه وُضع على الأرض لكى يزرع حدائقه"، وهنا تتكشَّف التعابير الإنساناياتية الحرفية وليس معناها الرمزى الحق، أى القول بأنه يعالج المادة التى يفترض أنها كانت أكثر لطفًا منها اليوم[26]، ولا بد أنه يفهم أن 'الإنسان' هو مجمل الجماعة البشرية، وأن جنس الإنسان ليس إلا مجموع أفراده، وعليه فإن 'كل الناس' بلا استثناء كانوا انتساخًا متزامنًا على

---

24 عن محاضرة ألقيت فى المؤتمر الأرواحى فى جنيف عام *1913*.

25 ويدفع الأرواحيون ذوو النزعة الفلكية بأن الأرض ليست مركز الكون حتى على المستوى المادى.

26 راجع ' هيمنة الكم وعلامات الزمان' باب *17* بعنوان 'تصلب العالم'، المحقق، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

الأرض فى أول أمرهم، وليس ذلك منظور مدارس الغيبيين الأخرى التى عادة ما تذكر "اختلاف عمر الأرواح البشرية"، ناهيك عن اختلاف الوسائل التى تحدد تلك الاختلافات أساسًا بدلالة جوانب دائرة البروج، ولن يمكن أن يوجد مولد إنسانى فى الأحوال المذكورة، ولا وجود لإنسان لامتناسخ قبل أن يموت أولا، أى حتى 'السقوط' الذى يشارك فيه الجميع بلا استثناء، والذى "يمثل سلسلة من الأحداث التى جرت منذ عدة قرون مضت"، لكنهم يحرصون على تجاهل طبيعة تلك الأحداث، فقد تحولت المادة بعد السقوط إلى شىء أوغل كثافة بعد أن تعدلت خصائصها بحيث تخضع للفساد، واحتبس جنس الإنسان فى تلك المادة، ومن ثم وقع فى قهر الموت وضرورة التناسخ، وهكذا بدء فى التوالد بموجب أن الإنسان اللامتناسخ يظل فى الفضاء أو فى النطاق اللامنظور على الأرض سعياً إلى التناسخ فى أجساد بشرية جديدة، أى العودة إلى الأحوال الطبيعية، ويقضى هذا المفهوم بأن الكائنات الإنسانية ينبغى أن تتناسخ دوريًا من الأزل إلى الأبد فى الحياة الأرضية، فهناك مدارس أخرى تزعم بأن النهاية هى هيمنة 'الخلود العضوى'، وكل هذا اللغط بالتأكيد بسيط ومنطقى بشرط التسليم بنقطة البداية، وخاصة فيما تعلق بأن الإنسان لا يملك التواجد فى صيغ غير أرضية وغير جسدانية، وهو ما لا يتصالح مع أقل الأفكار الميتافيزيقية، إلا أنها تبدو من أقوى الدفوع التى تؤيد فرضية التناسخ![27]

ويمكن أن نتوقف هنا قبل أن نبدء فى استكمال قائمة هذه الغرائب، لكننا قلنا ما يكفى لبيان دوافع القلق لانتشار الأفكار التناسخية وأثرها على الحال العقلية لمعاصرينا، ولا ينبغى لنا أن نندهش لاختيارنا بعض الأمثلة من خارج الأرواحية، ذلك أنها انتُحِلت فى مدارس أخرى، فهذه الأفكار راجعة أصلًا إلى الأرواحية على نحو غير مباشر على الأقل، وأخيرًا نعتذر عن ذكر الأسماء السابقة، فلا رغبة لدينا فى المناظرة حول تلك الأطروحات، ولو كنا نطرح اقتباسات مما كتبوا بأسمائهم أو حتى بأسماء زائفة فإن الحال يختلف فى أمور لامكتوبة كالتى نتناولها، ولكن لو دعت الحاجة يومًا إلى تفاصيل أكثر فلن نتردد فى طرحها، فسوف تحدد الأحوال وحدها سلوكنا فى هذا الصدد.

---

[27] وقد كتبنا ذلك عندما علمنا بموت هذا الغيبى المقصود، ويمكن الآن قول إن المذكور فى هذه الفقرة هو د. روزييه *Dr Rosier*

8 حدود التجريب

وقبل أن نترك مسألة التناسخ لابد من ذكر ادعاء ’البراهين التجريبية‘ التى جرت لإثباتها، وحينما يستحيل شيء كما هو الحال هنا فلابد من تعبئة كل الوقائع التى تؤيدها بدون معنى، ويمكن أن نتأكد مقدمًا أن تفسير تلك الوقائع قد جرى على نحو مُغرِض، ولكن أحيانًا ما يكون التركيز عليها مدهشًا ومفيدًا، ونجد هنا مثلًا طيبًا للأوهام العلمية الزائفة التى يندمج فيها الأرواحيون بمتعة بالغة، كما أن بعض النفسانيون يسمحون لأنفسهم بالتقاط العدوى بلا وعى منهم غالبًا، وسنعكف أولًا على توضيح المسائل التى تتعلق بحالات التناسخ بما أسموه ’إيقاظ الذاكرة‘ التلقائى، وعندما تكون هذه الحالات حقيقية فليست إلا حالات بسيطة من تقمص الأرواح *metempsychosis* بالمعنى الحقيقى للكلمة، أى انتقال عناصر نفسية بعينها من فردٍ إلى آخر، كما أن هناك حالات لا تستدعى الذهاب إلى هذا الحد، فأحيانًا ما يحلم المرء بمكان لم يعرفه من قبل، وحينما ينتقل بعد فترة إلى بلاد غريبة لأول وهلة يجد فيها كل ما رأى فى حلمه كما لو كان متوقعا، وبافتراض أنه يعتقد بالتناسخ وأنه قد حفظ فى ذاكرته الواعية صورة حلمه وأنه تعرّف عليها فقد يتوهم أنها كانت حالة تذكرلوجود أسبق، ويمكن تفسير حالات شتى على المنوال ذاته، وعلى الأقل حينما لا تكون الأماكن التى تعرف عليها لا تستدعى ذكر أحداث بعينها، وتقع هذه الظواهر تحت ما يسمى ’أحلامًا توقعية *premonitory dreams*‘ وليست نادرة بحال، وغالبًا ما يتجنبوا الحديث عنها مخافة اعتبارها هلاوسًا، ويجوز قول الأمر ذاته عن وقائع ’التخاطر *telepathy*‘ وغيرها من النوع ذاته، فهى تثير امتدادات من ’تحت الوعى‘ يسهل تفسيرها بدرجة أكثر مما يمكن تصوره، والواقع أن أى كائن يحمل فى ذاته افتراضات بعينها كما لو كانت بذرة لكل ما يمكن أن يعرِض له، حيث إنها تعديلات ثانوية لأحوال الكائن، ولابد أن يكون حاملًا لمبادئها أو سبب وجودها فى طبيعته ذاتها، وهى مسألة رآها لايبنيتز فحسب بوضوحٍ دون كل الفلاسفة المحدثين، ورغم أن مفهومه أصبح زائفًا بفكرة أن الفرد كائن كامل ونظام مغلق، إلا أن وجود ميول متنوعة سواءً أكانت نفسانية أو عضوية مسلَّمات من ظاهرها فحسب،

ولا نرى سبباً لألا يصح ذلك على بعض هذه الأمور التى عليها أن تحقق فى المستقبل، فى حين أن غيرها لا يتناظر مع الحال الراهن للكائن، ولو اعترض أحدٌ على أن هناك أحداثٌ عَرَضِية فإننا نرد بأنها الطريقة التى يرون بها الأمور بأنفسهم، والتى ليست إلا إنكارًا لمبدأ السبب الكافى، فمن السهل إدراك أن كل حدث جرى فى الماضى قد أثر على الكائن ولو بحد أدنى حتى من الناحية العضوية، وتكمن الصعوبة فى إدراك أن هذه الحالة تتوازى بين الماضى والمستقبل، ذلك أنهم لم يحسبوا لنسبية الحال الزمنى، والواقع أن هناك نظرية بكاملها بتفاصيلها الشتى، لكننا تقتصر على ملاحظة أن هناك إمكانات ينبغى تجاهلها هنا حتى يجوز أنها تنطوى فى العلم بمفهومه الشائع، والذى يتعلق فقط بقدر ضئيل من الفردية الإنسانية والعالم الذى تسعى فيه، فماذا لو كانت المسألة تستلزم الذهاب إلى ما وراء نطاق تلك الفردية؟

أما الظواهر التى لا يمكن تفسيرها بالطريقة المذكورة فهى التى يتعرف فيها المرء على أماكن لم يزرها من قبل، لكنه يشعر أنه يعرفها بوضوح كما لو كان قد عاش فيها، أو أن حادثًا بعينه جرى له فيه، أو حتى إنه مات فيها، وقد تأكد فى الحالات المحققة من هذا النوع أن ما يعتقد أن ما جرى له فى هذا المكان قد جرى بالفعل لأحد أسلافه الأولين، وهذا مثل واضح للتداول الوراثى لعناصر نفسانية تناولناها فيما تقدم، ويجوز أن تسمى الوقائع من هذا النوع ' ذاكرة الأسلاف *ancestral memory*'، وما يبدو غريبًا لأول وهلة أن هذه الذاكرة قد لا تخطر على بال عدة أجيال سبقته، لكن هذه الحالة هى ذاتها فى تشابه الصفات الجسدية وكذلك بعض الأمراض الوراثية، ويمكن التسليم بأن الذاكرة المقصودة خلال الفترة البينية قد بقيت على شكل كامن أو حال فيما 'تحت الوعى *subconcience*' تنتظر مناسبة للظهور، ولولا أن الشخص المقصود لم يذهب إلى مكان آخر لما ظهرت هذه الظواهر ولبقيت كامنة حتى ذلك الحين دون أن تطفو على الوعى بشكل واضح، زد على ذلك أنها مماثلة لما ترسَّب فى الذاكرة نظرًا لأنه يبقى احتمالًا دائمًا للظهور حتى ما يبدو منسياً تمامًا وما لا يستحق التذكر كما يُرى فى حالات غير طبيعية، ولكن لكى تظهر بالفعل مرة أخرى لابد من توفر الأحوال التى تسمح بهذا الظهور، والواقع أن كثيرًا من الذكريات لا تعود للوعى، وما يجرى فى حقل الصفات العضوية يشاكل هذا الحال تماما، فالفرد قد يحمل على نحو كامن احتمال أمراض على

شاكلة السرطان مثلًا، لكن هذا المرض احتمال كامن قد تثيره صدمة عنيفة تُضعِف المنظومة الحيوية، ولو لم تتوافر الظروف التى واجهها الشخص لما أصابه المرض، لكن البذرة تبقى كامنة على الحقيقة، وهذا مثل الميول النفسية التى لا تظهر بأى نحو ظاهر لكنها تبقى احتمالًا قائمًا، ولابد من إضافة أن الظروف المواتية سببٌ لاستعادة 'ذاكرة الأسلاف' عند شخص واحد ولا غيره من الأسرة ذاتها، مثل ضرورة وجود سبب لتشابه شخص مع أحد أسلافه أو أحد أقاربه المباشرين دون الآخرين، وهنا لابد من تكرار ما ذكرنا عن ' قوانين التماهى *laws of affinity*'، لكننا لا نرغب فى ترك موضوعنا لو اضطررنا إلى تفسير كيف يتأتى لشخص بعينه أن يكون تواصلًا لشخص آخر، زد على ذلك الروابط الوراثية، وقد يبدو عجيبًا أن تلك الروابط يمكن أن تقوم بين كائن إنسانى وآخر غير إنسانى، كما أن الروابط المصطنعة يمكن أن تنتج بإجراءات سحرية سفلية، وقد كان الغيبيون يدفعون بتفاسير خيالية، فقد كتب بابوس ما يلى،

"إن الجسد الطبيعى ينتمى إلى عائلة حيوانية بدلالة العدد الأكبر من خلاياه بعد تطور نجمى بعينه *astral evolution*، ويجرى التطور النجمى لجسدٍ فى النطاق النجمى، وهكذا يكون هناك أجسادًا تشبه الكلب أو القرد أو الذئب وحتى الطيور والأسماك، وهذا سر أصل الطوطم عند الأجناس الحمراء والسوداء".[1]

ونحن نعترف بجهلنا معنى 'التطور النجمى' للعناصر الجسدية، لكن هذا التفسير لا يستحق أكثر من توهم علماء الاجتماع الذين يرون أن الطوطم سواءً أكان حيوانًا أو نباتًا يُعتبر حرفيًا وماديًا سلفًا للقبيلة، ويبدو أنهم لا يشكون فى مذهب التحولية '*transformism*'، وهو اختراع حديث للغاية، والواقع أن ما يزعمون بأنه عناصر جسدانية ليس إلا عناصرًا نفسية، فليس من المعقول افتراض أن معظم الخلايا فى الجسد الإنسانى أو بالحريِّ عناصره المكوِّنة لابد أن تسود بتماهيها مع المنظومة النفسانية كما أسلفنا القول، فقد يجرى كذلك الحفاظ على عدد وافر من العناصر المترابطة، أما عن 'سر أصل الطوطم' فيمكن القول إنه ظل سرًا عند الغيبيين وعلماء الاجتماع، وربما كان من الأفضل أن يبقى سرا، فتلك أمور يستعصى تفسيرها نظرًا لتطبيقاتها العملية

---

[1] *La Réincaration, pp 11-12.*

والنتائج التى قد يستخلصها البعض، كما أن هناك أيضًا مزالقًا خطيرة من المؤسف أن يقع فيها التجريبيون.

وقد تحدثنا توًا عن حالات ليست تداولًا وراثيًا، فحينما يتعلق هذا التداول بعناصر هامشية فلن تكاد هامشيتها تبين، والواقع أن هناك استحالة لتوكيد ذلك على وجه اليقين، ففى كل منا عناصر متخلفة عن تحلل أفرادٍ أسبق منَّا، ولو كانت هذه العناصر 'فيما تحت الوعى' فإنها تبدو كما لو كانت على هامش الوعى ولا يتمكن المرء من تفسير أصلها، لكنها عادة ما لا تحظى بانتباه يستحق الذكر حيث تبدو بلا معنى ولا علاقة لها بالمحتوى المعتاد للوعى، لكن هذه الظواهر من الأحوال الغريبة التى تنتاب الوسطاء والمنوَّمين إلى حد ما، كما أنها تجلٍ لعناصر مشاكلة فى نطاق الإيمان بمقدم المسيح، والذى لا يرتبط إلّا قليلًا بالفردية بدلًا عن أن يكون شطرًا متكاملًا منها، ولكن يحدث أحيانًا أن تلك العناصر بمجرد تخللها للفرد تبقى ثابتة فيه، وليست هذه أقل خطرًا من التجريب، ولنعد إلى الحالة التى يكون فيها التداول تلقائيا، فإن وهم التناسخ لا يكاد يحدث إلا بحضور عدد لا بأس به من عناصر النطاق ذاته بما يكفى لتمثيل الذاكرة الفردية، وهذه الحالات نادرة الحدوث إلا أن لها بعض الأمثلة، فهى تبدو على شاكلة وليد يموت لأسرة، ثم يولد غيره حاملًا لذاكرة جزئية من الأول، وسوف يستعصى تفسير هذه الوقائع بأفكار بسيطة، وليس ذلك لقول إن الأقارب لم يقوموا دون وعي منهم بدور فى التداول الحقيقى للعاطفية التى لن تسهم بشىء فى تفسير التناسخيين، فتداول الذاكرة أمر معلوم لطفل من أسرة أخرى فى أحوال مختلفة، والتى تجرى على عكس فرضياتهم، وعلى كلٍ فحينما يحين الموت مبكرًا فإن العناصر النفسية تثبُت دون تحلل، ولذا كانت معظم الحالات المسجلة لهذا النوع متعلقة بالأطفال، كما أن هناك حالات من الشباب الذين تحتوى ذاكرتهم على ذاكرة بالغين، لكن بعض هذه الحالات يحوطها الشك أكثر من سابقتها، حيث إن كل شىء يمكن اختزاله إلى إيحاءات أو أفكار منقولة، ولو كان بعضها فى وسط متأثر بالأرواحية فلا بد من اعتبارها موضع شك بلا ريب، ذلك رغم أن المسألة لا تتعلق بإيمان الذين لاحظوها بأكثر مما تتعلق بحالات التجريبيين، والذين يشكلون سلوك الخاضعين لهم لكى توائم نظرياتهم، وليس فى كل ذلك استحالة بدهية فيما عدا التناسخية ذاتها، وقد سعى البعض إلى اكتشاف براهين على

التناسخ فى ’أعاجيب الأطفال‘[2] التى ذكرنا بعضها، وحضور العناصر النفسانية التى أشرنا إليها فى فرديات أخرى، كما نضيف أن فى حالات الموت المبكر إمكانية تحلل العناصر النفسية التى تؤخر التحلل بشكل مصطنع على الأقل، لكن ذلك أيضًا حالة يحسن عدم توكيدها، ولا حاجة بنا إلى الخوض فى حالات ’الأسلاف الروحيين‘ بالمعنى الذى أشرنا إليه عاليه، وذلك بطبيعتها التى تفلت من كافة حدود بحث التجريبيين.

وقد قلنا سلفًا إن الذاكرة مرهونة بالتحلل بعد الموت حيث إنها مَلَكة من النطاق العضوى والملموس، ويحسُنُ إضافة أن الذاكرة أثناء حياة الكائن لابد أن تمر بمراحل من التفكك الجزئى، والأمراض الشتى للذاكرة التى يدرسها الطب النفسى العضوى ليست إلا تفككًا من النوع ذاته، وهذا تفسير لما سُمِّى ’ازدواج الشخصية‘ على الخصوص أو تعددها، حيث انفصمت الشخصية إلى شطرين أو أكثر من الذكريات التى تحتل نطاق الوعى على شكل واضح مميَّز، ولابد لهذه الذكريات من التشظى والتعايش معًا فى الآن ذاته، حيث تطفو أحدها أما الباقى فيودع فيما ’تحت الوعى‘، زد على ذلك أن هناك شىء من الاتصال فيما بينها، وتتحقق هذه الحادثات تلقائيًا عند بعض المرضى على منوال السير أثناء النوم *somnambulism*، كما أنها قد تتحقق تجريبيًا فى ’الأحوال الثانية‘ للمنوَّمين، كما لابد من إضافة كثير من ظواهر التناسخ عند الأرواحيين إلى هذا الصنف، والفارق بين المنوَّم والوسيط وبين الناس الطبيعيين هو تفكك عناصرهما النفسية، والتى تزداد جسامة بالمجاهدات التى يقومون بها، فبفضل هذا التفكك تنتج الظواهر التى يعجبهم شأنها، كما تسمح لعناصر الزندقة أن تسرى فى فردانيتهما.

وواقع أن الذاكرة ليست مبدءً ثابتًا للكائن الإنسانى ناهيك عن الأحوال العضوية المرتبطة بها تُبيِّن لماذا لم نتصدَّ للحديث عنها بجدية أكثر، واعتراضنا المتكرر على أطروحة التناسخ التى يعتبرها نشطاء الأرواحية ’ليست بذى بال‘، وهو الاعتراض الناتج عن واقع النسيان إبَّان وجود بعينه من الحيوات السابقة، وقد كان رد بابوس على وجه التأكيد متهافتًا أكثر من الاعتراض ذاته،

[2] *Allan Kardic, Le Livre des Esperits, p 101, Lion Denis, Aprè la Mort, p 166. Christianism et Spiritisme, p 296, L'èÈvolution animic, p 282…etc.*

"إن النسيان ليس ضرورة لازمة لتجنب الانتحار، فكل روح ترى مِحنا لابد لها من اجتيازها قبل أن تعود إلى الأرض أو النطاق العضوى، ولو تناسخت الروح مرة واحدة فإنها ستعلم ما تتعرض له حيث يسقط سببها وتُفقَد شجاعتها، ومن ثم ينتج الانتحار العمد من هذا المفهوم الواضح،.. وإمكانية الانتحار لابد أن تمَّحى لو كان على الإنسان أن يستعيد يقينه بذكريات الوجود الأسبق"[3].

ولا يتضح ما إذا كانت هناك علاقة لازمة بين ذاكرة الوجود الأسبق وبين الرؤى المسبقة للوجود الراهن، ولو كانت الرؤى المسبقة ردًا على الاعتراض على النسيان فليس لها لزوم، لكن لابد من قول إن فكرة 'المِحَن' عاطفية خالصة، وتلعب دورًا جسيمًا عند الغيبيين، وأحيانًا يكون الأرواحيون أقرب إلى المنطق دون قصد منهم، وهكذا أعلن ليون دينيس "أن نسيان الماضى شرطٌ لا غنى عنه لكل محنة وللتقدم الإنسانى عموما"، فيقول،

"يستطيع المخ أن يستقبل انطباعات الاتصالات ويختزنها فى النفس المحتبسة فى المادة، وتستطيع الذاكرة استرجاع ما استوعبت فحسب، فكل مولد تمثل المنظومة الدماغية لدينا كتابًا جديدًا برسم الصور والأحاسيس"[4].

وربما كان ذلك ابتدائيًا أكثر مما يلزم، فالذاكرة ليست جسدانية أصلًا من حيث طبيعتها، لكن من المعقول أن يلاحظ الكاتب أننا لا نحتكم على ذاكرة عن معظم الوجود الراهن، ثم إن الاحتجاج ليس بالجسامة التى قد نتوهمها رغم أن له مظهرًا جادًا عن الاحتجاجات التى قامت على العواطف، وربما كان أفضل ما يمكن أن يدفع به من يجهلون الميتافيزيقا، أما نحن فلا حاجة بنا إلى اللجوء إلى مثل تلك الدفوع المتهافتة.

ولم نتناول بعد البراهين 'التجريبية' ، لكن بقى شىء عن مسألة التجريب بالمعنى المنضبط، وهو أن النفسانيين ذاهلون عن الحدود التى لابد أن يخضع لها التجريب، والذين تمكنوا من متابعتنا حتى الآن لابد أنهم رأوا أنهم لازالوا بعيدون عن إمكان الدفع ببرهان صالح على ما عكفنا عليه حتى الآن، فكيف يتأتى لوقائع التقمص الروحى

[3] *La Réincaration, pp 136-137.*

[4] *Aprés la Mort, p 180.*

مثلًا أن تصلح للبحث؟ وقد لاحظنا سوء فهم فريد من نوعه لحدود التجريب عند الأرواحيين، والذين يدَّعون "أنهم يبرهنون على الخلود علميا"، وسوف نجد فيما يلى دفعًا بلا تحيزات ’علمية‘ لا يقل عنه إدهاشا، وليس فى نطاق الأرواحيين بل بين النفسانيين *psychisrs* كذلك، كما أن من الصعب أحيانًا رسم خط فاصل بينهما كما ينبغى من حيث المبدأ، فيبدو أن هناك من يتوسلون بالنفسانية درءً لوصفهم بالأرواحية حيث إن سمعتها أحطُّ من غيرها فى اعتبارهم، كما أن هناك غيرهم ممن يستسلمون لنفوذها بلا وعى منهم، وسوف ينزعجون لو قيل لهم إن لاوعيهم بالتحيز قد أصبح زائفًا بموجب تجاربهم، فينبغى على التجريبيين أن يتجاهلوا الأرواحية حتى يتمكنوا من دراسة الظواهر بلا أفكار مسبقة، وهو أمر بالغ الاستحالة، ولو كان الحال هكذا واقعيًا فلن يجرؤ أحد على الحلم بإجراء تجارب بغرض البرهان على التناسخ، ولو بدا من ظاهر الأمر انعدام الفكرة التى تبرهن على هذه الفرضية فلن يجرؤ أحد على الدفع بوقائع على شاكلة ما طرحنا، فالمُنَوَّمين الذين تعودوا على التجريب يعكسون آراءً مبيته أو غير مقصودة، ويكفى أن المجرب يعتقد صوابًا أم خطئًا أن نظرية ما لا تربو عن استحالة، ولو قُدِّر لها أن تكون نقطة انطلاق لهلوسات المنوَّمين فإن المجرِّب سوف يرحب بسذاجة بانتحال ما كان ’تحت وعى‘ المنوَّم كما لو كان من بنات أفكاره، وهذا صحيح إلى حد أن أشد النوايا ’العلمية‘ انضباطًا لا حصانة لها من أخطاء بعينها.

وقد كان من أقدم الدفوع عن التناسخ من هذا النوع ما نشره أستاذ من جنيف هو بروفيسور فلورنوى *Professor Flournoy* الذى تجشم عناء جمع شوارد كل شىء فى مجلدٍ[5]، وادعى أن كل ما قال له أحد تلاميذه عن أنواع الوجود المتنوعة قد عاشها بنفسه على الأرض وعلى غيرها، والأنكى من ذلك أنه لم يندهش عندما علم أن المريخ يسهل التعبير عنه باللغة الأرضية ! وهذه الحكاية تضاهى الأحلام أيًا كانت، والواقع أنها تصلح للدراسة من منظور النفسانيين للأحلام التى نتجت عن أحوال التنويم، ولا يكاد يصدَّق أن هناك أمور أخرى فى المسألة رغم أن ذلك هو ما جرى، فقد أراد نفسانى آخر اشتهر بجديته فى التجريب هو كولونيل دى روشا *Colonel de Rocha* بعد برهة أن

---

5 *Des Indes à la planete Mars.*

يتناول المسألة على نحو أكثر منهجية، لكنه افتقد الذكاء اللازم ليعلم كُنه ما يتناول ولا العلم بالتحوط لبعض المخاطر، فقد كان ناشطًا فى التنويم، والذى حمله بلا وعى منه على التسليم التام بالنظريات الأرواحية[6] ، وقد كان آخر كتاب له[7] مكرَّسًا لدراسة التناسخ تجريبيا، وكان سجلًا لأبحاثة التى سمَّاها 'الحيوات المتتابعة *successive lives*' بدلالة ما سماه ظاهرة 'نكوص الذاكرة'، وقد وافق نشره إنشاء 'معهد البحوث النفسانية' فى باريس برعاية دى روشا وإدارة ليفران *L. Lefranc* و لانسيلان *Charles Lancelin*، ونشير إلى أن الأخير قدم نفسه كنفسانى وغيبى، لكنه اشتهر بأنه كان أرواحيًا فى الواقع، أما ليفران الذى كان ميالًا للتوجه ذاته فقد أراد أن يكرر تجارب دى روشا، وبطبيعة الحال كانت نتائج التجريب هى ذاتها فى الحالين، وأيًا ما كان غير ذلك سوف يثير الدهشة حيث إن نقطة انطلاقهما كانت فرضية مسبقة ونظرية تامة، حيث إنه لم يجد أفضل من العمل مع المنوَّم الذى كان يعمل عليه دى روشا فيما قبل، وقد انتشرت هذه الأفكار حاليًا فى كل أين، فكثير من النفسانيين يؤمنون بالتناسخ لمجرد أن منوَّمًا حكى لهم عن حيواتهم الأسبق، ولابد من الاتفاق على صعوبة إثبات ادعاءاتهم، لكن ذلك لن يوفر لهم بابًا جديدًا فى تاريخ ما أسموه 'البرهان العلمى'، ومعرفة شيء عن حقيقة منوَّميهم وكيفية نقله من باحث إلى آخر بلا تمييز لنشر الإيحاءات المتنوعة التى استقبلوها، ولا جدال فى أن الدوائر النفسانية قد حملت عبء نشر وباء التناسخ، ولذا كان بيان صورها ببعض التفصيل لازما[8].

وقد اعتقد دى روشا أنه لاحظ فى بعض منوَّميه 'نكوصًا فى الذاكرة *memory regression*'، ونقول إنه 'اعتقد ولاحظ' إن لم تكن أمانته موضع شك، فمن الصحيح بالقدر نفسه أن الوقائع التى فسرها باعتبار أنها فرضيات محض يمكن أن تُفسر على نحو أبسط، فهذه الوقائع لا تربو عن أن هناك حالات بعينها من مشى النائم يستطيع فيها المنوَّم أن ينسبها ذهنيًا إلى حقبة سالفة، ومن ثم يتحدث عنها كما لو كانت فى الزمن

---

[6] وقد قبل كولونيل دى روشا عام *1914* لقب عضو شرفى كما فعل فلاماريون من قبله فى ' اتحاد الدراسات الأرواحية ' الذى أنشأه بوفى *M. Puvis* مع ليون دينيس وجابرييل ديلانيه كرؤساء شرفيين.

[7] *Les Vies successives.*

[8] ونحن لا نستدعى من الذاكرة 'تخرُّصًا عن الماضى' الذى يرتع فيه 'العرافون' من الجمعية الثيوزوفية، فهذه الحالة مشاكلة للأخرى فيما عدا أن إيحاءات التنويم تستبدل بإيحاءات ذاتية.

الراهن، ويتبين من ذلك أن المسألة عنده ليست فى 'التذكر' بل فى 'نكوص الذاكرة'، فيقول لانسلان "إن المنوَّم لا يتذكر بل يوضَع فى الحقبة المذكورة"، ويضيف بحماس زائد "أن دى روشا قد اتخذ من هذه النقطة البسيطة منطلقًا لاكتشاف هائل"[9]، ولسوء حظه أن تلك 'النقطة البسيطة' قد احتوت على تناقض اصطلاحى، فإن لم يكن المنوَّم 'لا يتذكر' فلا مجال للحديث عن 'التذكر'، ومن الصعب فهم السبب الذى جعلهم لا يدركونه، وهو ما يؤدى بنا إلى الظن أنه ليس مجرد خطأ فى التفسير، وبغض النظر عن هذه الملحوظة لابد أولًا من السؤال عن إمكان 'التذكر المحض' التى استُبعِدت بموجب أن المنوَّم يتحدث عن زمن مضى كما لو كان حاضرًا عنده، فحينما يُسأل مثلًا عما كان يفعل فى زمن أو آخر لا يجيب بأنه 'كان يفعل كذا' بل يقول 'إننى أفعل كذا'، وهذه الإجابة الفورية دليل على أن الذاكرة بما هى حاضرة دائمًا على نحو عقلى، ولا أهمية لذلك سواءً أكانت الذكريات عن الحاضر فى نطاق الوعى أم فيما 'تحت الوعى'، حيث إنها لا تقدر على الانتقال من أحدهما إلى الآخر، وهو ما يبين أنها دائمًا مسألة اختلاف فى الدرجة، وما كان فى وعينا الراهن بمثابة ذكريات واعية بأحداث مضت بمقارنتها بمفاهيم الحاضر فإن المقارنة ذاتها تسمح بالتمييز بينهما بعلاقات زمنية، أى علاقة التتابع بين الحادثات الظاهرة التى نعتبرها ترجمة ذهنية، وهذا التميز بين التذكر والإدراك من أوليات علم النفس، ولو استحالت هذه المقارنة لأى سبب كان فإن الذاكرة سواءً أكانت تكبت ذكريات أى انطباع برانى مؤقتًا أم غير ذلك فإنها لا تتموضع فى الزمن بالنسبة إلى العناصر النفسية الأخرى، وتفقد بالتالى الحق فى التعبير عن الماضى، ولا تتمسك إلا 'بحضورها'، وهذا ما حدث فى الحالات المذكورة، فإن الحال الذى وُضِع فيه المنوَّم يناظر تعديلًا لوعيه بالحاضر، ويعنى أنه امتداد لملكاته الفردية رغم أنه يحبط حواسه عن حالتها الطبيعية، وعليه فلو أمكن عزل المنوَّم عن مؤثرات مفاهيم الحاضر وكذلك عن الأحداث التى جرت فى فترات أسبق من تاريخ بعينه فإن ما يحدث حينما تُطرَح فى الوعى ذكريات تتعلق بلحظة بعينها متميزة عن الوعى المُعَدَّل فى نطاقها، ولن يمكن وضعها فى الماضى حيث لم يتبق فى الوعى إلا عناصرًا لا علاقة لها بالقَبلية.

---

[9] *Le Monde Psychique, January 1912.*

والمسألة فى كل ذلك ليست إلا حالة ذهنية تستلزم تعديلًا لمفهوم الزمن أو يُستحسَن لفهمه منسوبًا إلى الحال الطبيعى، زد على ذلك أن كلا الحالين اختلاف للصيغة للفرد نفسه كما هو الأمر فى أحوال متنوعة سواءً أكانت تلقائية أم مُقحَمة، وتناظر إمكانية تحولات الوعى الفردى بما فيها التى تجتمع تحت تسمية الأغاليط و'تعدد الشخصيات'، والواقع أنه لا موضع هنا لذكر أية حالات من الوعى فوق الفردى التى يتحرر بها المرء من الأحوال الزمنية ولا لأى امتداد فردى منها حتى على نحو جزئى، بل هى على العكس حيث يوضَع المنوَّم فى لحظة محددة تفترض سلفًا أن شروط حالته الراهنة قد تعدَّلت مؤقتا، كما أن الحالات التى نوهنا عنها توًا لن يمكن تحقيقها بوسائل تنتمى إلى النطاق الفردى حتى لو كانت تشغل حيزًا دقيقًا من مجمل إمكاناته، وذلك بالضرورة هو حال أى إجراء تجريبى، ومن جانب آخر فحتى لو كانت تلك الحالات يمكن تحقيقها بطريق أو آخر فلن يدرك هذا الفرد كنهها بموجب شروط وجوده التى ليس لها أية صلة بأحوال الوجود الأسمى، وتعجز بالضرورة عن الشعور بها ناهيك عن التعبير عن كل ما كان وراء إمكاناته، زد على ذلك أنها لن تربو عن أحداث عضوية فحسب فى كل الحالات المطروحة، فليس هناك ما يستلزم تدخل الأحوال الأسمى فى الوجود، وهى ما لا يطوله النفسانيون ولا حتى يتوهمون له وجودا.

أما عن العودة إلى الماضى فإن ذلك مستحيل للفرد بقدر استحالة انتقاله إلى المستقبل، وقد كانت فكرة السفر إلى المستقبل أغلوطة نتجت عن وقائع التنبؤ *prevision*، لكن هذا التفسير أهون شطحًا من الذى نتناوله هنا، وربما جاء يوم نرى فيه تفسيرًا، ولولا أننا واعون بنظريات النفسانيين المذكورين لما استطعنا وصف 'آلة الزمن' للروائى ويلز *H.G. Wells* إلا بالخيال المحض، كما لن يمكننا الخوض فى مناظرة جادة عن ' انعكاس الزمن *reversibility of time*'، والمكان قابل للانعكاس بمعنى أن أجزائه قابلة للنقل إلى أجزاء أخرى فى اتجاه بعينه، كما يمكن عبوره فى اتجاه عكسى، ذلك أن المكان منظومة من الإحداثيات المتزامنة بصيغة ثابته، فى حين أن الزمن تنسيق لعناصر مؤقتة متتابعة زائلة ولا يمكن أن ينعكس، فهذا الافتراض نقيض لمنظور التتابع، أو بتعبير آخر يربو إلى إمكان كبت الشروط الزمنية، ورغم أن هذا الاحتمال ممكن فى حد ذاته على منوال الأحوال المكانية إلا أنه ليس كذلك فيما نتناوله هنا،

والذى يشترط وجود الزمن دائمًا، كما نلاحظ أن مفهوم ’الحاضر الخالد‘ الذى يتمخض عن هذه الفرضية لا علاقة له بالعودة إلى الماضى ولا بالانتقال إلى المستقبل، حيث إن هذه اللحظة الخالدة تكبت الماضى والمستقبل كليهما، وتحررنا من قهر منظور التتابع، أى ما يشكل كافة الشروط الزمنية لوجودنا.

إلا أن هناك من استوعب فكرة ’انعكاس الزمن‘ وادَّعى أنها أساس ’ النظرية الميكانيكية *mechanical theorem*‘ التى نرى أهمية لطرحها كاملة، والتى اعتقد ليفران *Lefran* بضرورة وضع السؤال على المنوال التالى،

"هل يمكن للمادة والروح العودة إلى حقبة أسبق من الزمن، بمعنى إمكان العودة مرحلة أسبق من العمر؟ فالماضى لا يملك أن يعود، فهل يتمكن من العودة؟"[10].

وحتى نردُّ على السؤال نعود إلى مرجع أسبق نشره بريتون[11] عن انعكاس كافة الحركات المادية حتى لو كان الكاتب قد اعتمد على مفهوم اللعب الرياضى *mathematical game* الذى اعتبره عبثيا، والواقع أن أطروحته ذاتها عبثية بالقدر نفسه وتُعتبر سوء استخدام للجدل، وخاصة ما تعلق فيها ’بالمتخصصين‘، كما نلاحظ أن حقل الميكانيكا يوفر مناخًا مناسبا لهذا النوع من الأمور، وفيما يلى ما بدأ به بريتون كتابه،

"إننا نعرف كافة المصفوفات الكاملة للأحوال المتتابعة لمنظومة من الأجسام، وتنشأ تلك الأحوال من الماضى حيث إنها تحمل فى ذاتها نظامًا محددًا كأسباب يكون المستقبل بمثابة نتائجها، كذا، ولنتفكر فى أحد تلك الأحوال المتتابعة من دون تغيير لأيٍ من مكونات كتلها ولا القوى التى تعمل بينها[12] ولا القوانين التى تحكمها ولا الموضع الواقعى الذى تحتله فى الفراغ، ولنعكف على تبديل كل سرعة بما يساويها فى اتجاه عكسى.."

فالسرعة التى تنقضها أخرى فى اتجاه عكسى لا يجوز اعتبارها مساوية لها بالمعنى الحق

---

[10] *Ibid., January 1912.*

[11] *Les Mondes, December 1875.*

[12] وربما كان تعبير "تعمل بين الجماهير *'On these masses'*" أيسر فهمًا من تعبير "القوى التى تعمل بينها".

للكلمة، ويجوز أن يكون تساويًا كميًا فحسب، ومن ناحية أخرى هل يمكن الظن بأن هذا الاستبدال لن يغير شيئًا من قوانين الحركة المقصودة بفرض التسليم بأنها كانت تعمل منذ الأزل على منوال طبيعى؟ فلن يكون الاستبدال المقصود ممكنا، ولكن لننظر إلى ما يلى،

".. وسوف نسمى ذلك 'انعكاسًا *reversal*' لكل السرعات، ونسمى التغير ذاته *reversion*، وسنسمى هذه الإمكانية فى التغير 'إمكان انعكاس الحركة فى منظومة'"

ولنتوقف هنا لحظة، فنحن لا نسلم من منظور الحركة ذاته بهذه الإمكانية، فالحركة تجرى فى الزمن، والمنظومة المذكورة تستمر فى الحركة فى الاتجاه العكسى بما ينطوى عليه من مصفوفات لأحوال تتابعية جديدة تحتل المواضع التى شغلتها سابقتها فى الفراغ، ولكن حتى بافتراض ذلك فإن الزمن لا يُستعاد بذاته على أى نحوٍ كان، ويكفى أن هذا الشرط وحده لا يتغير فى أحوال جديدة ليتماهى مع أحوالٍ قديمة، كما أن الطرح المنطقى الذى اقتبسناه قد نصَّ صراحة أن علاقة الماضى بالمستقبل تُشاكِل علاقة السبب بالنتيجة، لكن العلاقة السببية الحقة تعنى العكس تمامًا بناءً على تزامن المصطلحين، حيث تعتبر الأحوال المقصودة فى اتباع أحدهما الآخر تعجز فى منظوره عن احتواء أحدهما على الآخر، وهو بمثابة قول إن حالًا لا وجود لها أنتجت حالًا لم يوجد بعد، وهذا هو العبث، كما يتمخض عن ذلك أن ذاكرة المثيرات الحسية السببية يمكن أن تنتج ظواهراً ذهنية من أى نوع كان بشرط أن تكون فى الحاضر، أما انطباعات الماضى فلن تنتج شيئا، ولكن لنستمر، "فحينما يتحقق انعكاس السرعات فى منظومة من الأجسام.." وقد أضاف مؤلف هذا المنطق بين قوسين "لا فى الواقع بل فى الفكر المحض" دون أن يدرك أنه قد خرج بذلك من حقل الميكانيكا عن موضوعه تماما، فما يتحدث عنه حاليًا لا يتعلق 'بمنظومة الأجسام'، ولكن لا ننسى أن الكاتب ذاته يرى أن ما سماه 'انعكاسًا *reversion*' مستحيلا، وعلى عكس فرضيات الذين أرادو تطبيق منطقه على ' نكوص الذاكرة *memory regression*' بافتراض حدوث 'الانعكاس' واقعيًا، وفيما يلى ما آلت إليه المسألة،

"وسوف تصبح المسألة هى إيجاد منظومة مقلوبة للمصفوفات الكاملة لأحوال

الماضى والمستقبل، فهل يستعصى هذا البحث على المسألة المناظرة للأحوال المتتابعة للمنظومة التى لم تنعكس؟".

والواضح أن كلا الحالتين مسألة دراسة معطيات حركة العناصر، ولكن تناظر الدراسة مع أمر واقعى أو حتى ممكن لابد أن تخدعنا بالتلاعب بالمسميات كما يلى،

"ويؤدى حل أحد المسألتين إلى حل الأخرى بإجراء جبرى بسيط بكتابة ‘*t*-’ بدلًا من ‘*t*+’ والعكس".

وهذا أمر يسهل فى النظرية ويستحيل التحسب فيه ’للأرقام السلبية **negative numbers**‘ المصطنعة التى تفيد فى تبسيط الحسابات فقط، ولا تناظر أى شىء فى الواقع، وقد وقع كاتب هذا المنطق فى خطأ جسيم يشارك فيه كثيرٌ من الرياضيين، وحتى يفسر تغيير علامات الترقيم ’- +‘ التى أشار إليها يهرع إلى قول "إن مصفوفتين كاملتين للأحوال المتتابعة لمنظومة الأجسام ذاتها ستختلف فحسب فى أن الماضى سيصير مستقبلًا ويصير المستقبل ماضيا.."، ولا جدال فى أن ذلك وهم من نوع نادر يستحق التعليق عندما تكتسب علامتين جبريتين تلك القوة العارمة عند الرياضيين من النوع ذاته،

"وسيكون ذلك بمثابة نقل مصفوفات من الأحوال المتتابعة إلى الاتجاه العكسى، ويعنى انعكاس السرعات فى أى وقت مجرد انعكاس الزمن ببساطة، فمصفوفات الحالات المتتابعة الأولى تنقلب إلى اللحظات التى تناظرها من المنظومة ذاتها بسرعات متساوية فى اتجاهات متعاكسة"، كذا.

ومن سوء طالعه أن انقلاب السرعات يُغير الأحوال المكانية فحسب لا الزمنية، وبدلًا من أن "تنعكس مصفوفات الأحوال المتتابعة إلى الاتجاه العكسى" ستكون المصفوفات الثانية انعكاسًا للأولى فى المكان فحسب، ويستحيل أن يصبح الماضى مستقبلًا ولا أن يصبح المستقبل ماضيًا بعد كل هذا العناء إلا بالقدر الممكن من القانون الطبيعى للتتابع الذى ينتج فى كل لحظة بالتناظر الحق بين المصفوفتين، فيلزم ألا تكون اعتبارات التغير المقصود إلا تغير الموضع فحسب، وهى فحسب التى تقبل الانعكاس فى حدود المكان، فلن ينطبق منطق الانعكاس إلا على المكان فقط، وبالتالى يستحيل مطلقًا أن نسعى إلى

تحصيل نتائج مثل ما يلى،

"..ففى المملكة النباتية على سبيل المثال نرى كيف تمر الثمرة الساقطة برعمًا ثم زهرة ثم ثمرة فى الوقت الذى تتحلل فيه إلى حمض الكربونيك وبخار الماء الذى ينتشر فى الهواء من ناحية، ومن ناحية أخرى تتحول باقى العناصر إلى سماد".

ويبدو أن فلاماريون قد وصف الأمر ذاته مع إضافة افتراض أن 'الروح' تهجر الأرض بسرعة تفوق الضوء ويحتدُّ بصرها حتى تميز أدق تفاصيل ما يحدث على الأرض[13]، وهذه نزوة فى الافتراض وليست 'انعكاسًا للزمن' حيث إن الأحداث ذاتها سوف تستمر فى مسارها المعتاد، وليس الانعكاس إلا وهمًا بصريًا، فكل لحظة تُحدِث تغيرًا فى الكائن الحى لا يمكن اختزالها إلى تغير فى الوضع فحسب حتى فى الأجسام غير العضوية التى تبدو ' مادة خاملة *inert matter*' تحدثت عنها الميكانيكا الكلاسيكية، والتى لا وجود لها فى العالم الطبيعى بموجب سبب بسيط، وهو أن كل ما كان خاملًا يخلو بالضرورة من كل الخصائص الحسية وغيرها، ويسهل إدراك الكثير من السفسطة الخفية لهذه الدفوع، لكن ذلك هو كل ما نجد لتبرير نظريات 'ما قبل العلم والفلسفة' التى يدّعيها منظور 'نكوص الذاكرة'.

وقد برهنَّا على سهولة تفسير ما يسمى 'النكوص إلى الحياة الأسبق' الذى يعنى فى الواقع وعيًا واضحًا بذكريات مختزنة فيما تحت وعى المنوَّم وتتعلق بفترة من حياته، ولكى يكتمل هذا التفسير لابد من إضافة أن تسهيل المنظور النفسانى بوقائع الانطباعات الحسية التى تترك أثارًا على المنظومة المقصودة، ولا نحتاج إلا الى البحث عن الطريقة التى تُسجَّل بها تلك الانطباعات فى مراكز عصبية بعينها، فهذه مسألة تنتمى قصرًا إلى العلوم التجريبية، ولا نعنى بذلك أن تلك العلوم قد وصلت إلى نتائج مُرضية بهذا الصدد، لكن أيًا كان الأمر فإن وظائف المراكز العصبية تختلف بتناظرها مع صيَغ الذاكرة المتنوعة بمعونة العوامل النفسية للإيحاءات التى تلعب دورًا رئيسيًا، فالنطاق النفسانى مقصور على الأحوال البرانية للذاكرة، ونقول إن هذا العمل قد تحقق بما يسمح باستبدال المنوَّم الحالات اللازمة للتجربة المذكورة، وعلى الأقل فيما تعلق بالشطر

---

13 *Lumen.*

الأول الذى يتناول الأحداث التى شارك فيها المنوَّم فى زمن سابق، لكن ما يميل إلى خداع المجرِّب هو الأشياء التى تتعقد بنوع من 'الحلم العملى' الذى يجرِّبه السائر نائمًا، فيعكف المنوَّم على تمثيل ما أوحى إليه حركيًا بدلًا من روايته سواء أكانت مشاعر أم انطباعات، وهكذا طفق دى روشا على 'استرجاع عمر المنوَّم إلى فترة طفولته'، وكان لابد أن يتوقع أن الطفل سيخاطبه كالأطفال، وقل مثل ذلك عن المنوَّم الذى فُرِض عليه أن يكون حيوانًا، فلن يُقصِّر فى الرد بطريقته، فهل استنتج دى روشا من ذلك أن منوَّمه كان حيوانًا فى حياة أسبق؟ و'الحلم العملى' قد ينطلق من ذاكرة شخصية أو من معرفة عرَضية لعمل كائن آخر، كما قد يختلط هذان العنصران بقدر ما، وربما كانت هذه الحالة الأخيرة تحدث عندما يحاول أن 'يضع' المنوَّم فى حال طفولته، كما قد تكون مسألة معرفة لم يحتكم عليها على نحو طبيعى، والتى تصل إليه عن طريق المجرِّب دون أن قصد منه، وربما كان ذلك سببًا لكى يقول دى روشا ما يلى،

"إن المنوَّم قد نكص إلى ما قبل مولده وجعله يعود إلى حاله فى الرحم بتراجع الزمن فإنه يتقمَّص أوضاعه المتنوعة فى المشيمة".

ولن نقول إن هذه الحالة الأخيرة ليست من فردية المنوَّم حيث إنها آثار عضوية أو حتى نفسية فى الأحوال المذكورة بل إنها حتمًا تكون كذلك، والتى تشكل فيما بعد الشطر الأعظم من 'الحلم العملى'، ولكن ليس هناك بالطبع تناظرٌ عضوىٌ أيًا كان إلا فى الانطباعات التى أثرت على منظومة المنوَّم فحسب، ومن المنظور النفسى فإنها وعى الفرد بصلتة بفرديتة الواقعية، ويكفى ذلك لبيان فسولة وهم البحوث التجريبية فيما وراء حدٍ بعينه، وهو فى الحالة الأخيرة قبل أن تبدأ حياته الجنينية، إلا أن ذلك هو ما يدَّعيه 'من يضعه قبل الحمل'، أما عن نشطاء الفرضية المسبقة للتناسخ فيتوهمون إمكانها بتراجع الزمن حتى يعيش المنوَّم فى حيواته الأسبق، وفى الآن ذاته يعكفون على دراسة "ماذا يحدث للروح غير المعمَّدة!".

وهنا نصل إلى خيال جامح، إلا أن لانسلين يؤكد أن 'النتائج المتحصلة' مهولة، وليس بذاتها فحسب بل بالطرق التى تتفتح عنها لاستكشاف 'الحيوات الأسبق للكائنات الحية'، وأن هذه خطوة واسعة لتلميذ من الطراز الأول، أما كولونيل دى روشا فقد

عكف فى الطريق الذى انفتح له على نزع الغيبية عن الغيبيين، كذا، وأعلن عن "ظهور مبدأ جديد تتمخض عنه نتائج لا تحصى"[14]، ولكن كيف يتأتى الحديث عن 'قبليات الكائن الحى' فى حين تتعلق المسألة المطروحة بزمن حياته فى الحال الفردى؟ وكيف يقصد أحد أن يعود بها إلى ما وراء أصولها، وفى أحوال لا وجود لها لكى تناظر الواقع؟ وذلك أشبه بواقع مصطنع من لا شىء، أى مجرد 'واقع ذهنى' لا يمثل أية وقائع محسوسة، ونقطة انطلاقه هى الإيحاءات التى يوفرها المجرِّب، كما يوفر الخيال الذى يصنعه المنوَّم باقى الأمور، ولا شك فى إمكان أن يجد المنوِّم فى َنفسه أو فى مناخه النفسى بعض العناصر التى طرحناها سلفًا عن تحلل أفراد آخرين، وسيفسر ذلك السبب الذى يوفر تفاصيلًا تتعلق بأشخاص قد وُجدوا بالفعل، ولكن حتى لو لوحظت هذه التفاصيل ودُرِست فلن تؤدى إلى البرهان على شىء أكثر من غيرها، فكل ذلك لا يعدو ما يجرى فى الأحلام المعتادة، كما يقول المذهب الهندوسى "إن الفرد يصنع عالمًا ينبع بكامله من نفسه، وتتشكل الأشياء فيه من مفاهيمه الذهنية فحسب"، وبالطبع تستخدم النفس كل العناصر التى تحتكم عليها من أى نطاق كان، زد على ذلك استحالة تمييز هذه المفاهيم أو بالحرىِّ تمثيلاتها عن المفاهيم التى ترسبت عن أصول برانية، ومالم تجرِ مقارنة بين هذين النوعين من العناصر النفسانية تُمكِّن من تمييزهما فذلك نظرًا للانتقال الواعى من حال الحلم إلى حال اليقظة، لكن هذه المقارنة تستحيل مطلقًا فى الحلم الناشئ عن الإيحاء، حيث إن يقظة المنوَّم لا تحتفظ بذاكرة وعيها المعتاد، كما أنه فى بعض الأحوال يتخذ من الصور الذهنية ذاكرة أخرى ليست ذاكرته الواقعية، فقد يحتوى الحلم على ذكريات وانطباعات لا تنتمى إلى شىء غير التوهمات الذهنية للحظة الحاضرة، فهذه التوهمات شأنها شأن غيرها من منتجات الخيال حديثة التشكل من عناصر أسبق وجودا، وبالطبع لا نتحدث هنا عن الذكريات الملتوية التى تعدَّلت أو تشوهت عن أحوال اليقظة التى عادة ما تختلط بالأحلام، ولا يصل الاختلاف بينهما مطلقًا إلى تمايز تامٍ على الأقل فى حال النوم المُقحَم، وهو ما يفسر النسيان التام للمنوَّم حين يستفيق، ودائمًا ما يكون هذا النسيان نسبيًا، فهو مسألة تنوع الصيَغ فى الوعى الفردى ذاته، ويظهر ذلك جليًا فى وقائع الإيحاء فى التنويم التى تترك أثرًا فى يقظة المنوَّم، فى حين

---

[14] Le Mond Psychique, January 1912.

يبدو أنه لايذكرها، ولو كانت دراسة ظاهرة الأحلام قائمة على نحو أعمق مما نطرح هنا فسوف يتضح أن العناصر التى تستدعيها الذاكرة تدخل فى نطاق تجليات الحال التنويمى، والحالتان ليستا إلا تمثيلًا لحال واحد من أحوال الكائن الإنسانى، والفارق الوحيد هو أن الحال التنويمى متصل بوعى فردى آخر، وهو وعى المُجرِّب، والذى يتمكن من تمثيل ذاته أحيانًا بعناصر من وعى الباحث كما لو كان أحد امتداداته، ولذا كان المنوِّم المغناطيسى يُزوِّد المنوَّم بمعطيات تستخدم فيما بعد كعناصر لأحلامه، وقد تكون هذه المعطيات صورًا يزيد تعقيدها أو يقل، وكذلك أفكار أو نظريات من أى نوع كان مثل فرضيات التناسخيين، وأفكار يتشوق المنوَّم لترجمتها بتمثيلات خيالية، ويمكن لكل ذلك أن يحدث بلا حاجة إلى صياغة شفاهية، وحتى بلا إرادة منه، وهكذا كان الحلم المُقحَم حالة مطابقة من كافة الجوانب للأفكار الطيبة الموحاة إليه، أو التجزؤ الكلى أو الجزئى للمفاهيم الخيالية، وباختلاف وحيد هو أن المجَرِّب ذاته ضحية لإيحاءاته حيث يتَّخذ من تصورات المنوَّم الذهنية 'إيقاظًا للذاكرة'، أو حتى ارتحالًا واقعيًا إلى الماضى، وفى نهاية المطاف فهذا ما يسمى 'استكشاف الحيوات الأسبق'، وهو 'البرهان التجريبى' الوحيد على ما يسمى التناسخ الذى استطاعوا الدفع به لصلاحية نظريتهم.

وقد دفع 'معهد البحوث النفسانية' فى باريس بنظرية عيادة 'العلاج العصبى والتعليمى' بعد بعض الجهد فى تطبيق اقتراحهم عن 'العلاج النفسى *psychotherapy*' وخاصة فى علاج الإدمان على الكحوليات والمجانين، ولتحسين الحال الذهنى لبعض البلهاء، وقد ذاع صيت هذه الجهود، وأيًا كانت النتائج التى وصلوا إليها فلا غبار عليهم، وعلى الأقل من جهة إعلان النوايا التى ألهمتهم، ولكن من الصحيح أن المستوى الطبى المحض الذى يتبعونه أشد ضررًا من نفعه، وأن الذين يطبقونه منهم لا يكادوا يعرفون شيئًا عما يتداولوا، لكن يحسُن فى نهاية المطاف أن يتوقف النفسانيون هنا، فلو كانوا يرغبون فى أخذهم بجدية لابد أن يُمسِكوا عند هذا الحد عن الإيحاءات التى تؤدى بهم إلى جنون العظمة كما أسلفنا القول، إلا أننا لازلنا نرى بينهم من يفتخر 'بالبرهان المبين على الأرواحية'، ويعارض 'غموض الميتافيزيقا'، والتى يلوثونها بفلسفتهم اليومية[15]، وهو

---

[15] وهذا اقتباس عن مقال ممهور باسم *J. Rabicault* فى مجلة *Le Monde Psychique, January 1912* يلتزم تمامًا بميول الدعاية الأرواحية، فالبساطة عندهم تعنى الانحطاط الفكرى الذى سُمِّى امتيازا، وسوف

مثل فريد من العبث! حتى إن بعضهم يدعى لنفسه ’خبرة بالميتافيزيقا‘، وهو غافلون عن أن الكلمتين ليس إلا لغواً، وأن مفاهيمهم محتبسة فى عالم الظواهر، وهو كل ما وُجِد من حصيلة التجربة، ولا يدهشنا من ذلك شيء، فمن الواضح أن كل الأرواحيين وعلماء النفسانية أيًا كانت قناعاتهم على جهل عميق بالميتافيزيقا الحقة الذين لا يعلمون فتيلًا عن وجودها، لكننا سنرضى بملاحظة الميول التى تشكل الذهن الغربى الحديث، والذى انحرف انحرافًا جسيمًا لا مثيل له فى أى مكان، فقد اقتصر فى النهاية على الظواهر فحسب، ورغم أن ’الأرواحيين الجدد‘ فى مشاجرة دائمة مع ’ الوضعيين‘ والعلماء ’الرسميين‘ فإن عقلياتهم جميعًا واحدة، ولا تعنى صبوة بعضهم إلى الأرواحية تغيرًا جسيمًا كما قد يتخيل المرء، ولا هو تعنى فقط إن ذهن العالم محدود على الدوام، بل كذلك أنه فقد التوازن النسبي الذى كان يتسم به قبل ’صبوته‘، ويجوز أن يكون المرء ’تلميذًا من الطراز الأول‘ بطرق أقل التواءً من طريقة كولونيل دى روشا، فالمرء يستطيع أن يكون ’عبقريا‘ بمعيار الفكر الدنيوى السائد[16] لكن ذلك لن يحميه من الحوادث المذكورة، ويبرهن كل ذلك ببساطة على أن الباحث أو الفيلسوف أيًا كانت قيمته وأيًا كان ’تخصصه‘ لا يتميز عن الجماهير الغفيرة من الجهلة والمصدقين بالزيف الذين يشكلون السواد الأعظم من عملاء الأرواحية

....

تعود إلى هذا الأمر فيما بعد.

16 وقد ذهب رابيكو *Rabicault* إلى أبعد من ذلك عندما أكَّد أن "كثيرًا من عظماء العباقرة كانوا رهبانًا فى الأرواحية"، وأن من بينهم قلائل ممن يستحقون هذا اللقب، ولكن سيكون من الخطأ أن يسمح المرء لنفسه بالانشكاع بأن يكون عبقريًا أو الاقتناع بأهميته، فما يسمى عبقريًا لا يربو عن نسبى للغاية ولا يساوى شظية من المعرفة الأصلية.

9 تطورية الأرواحيين

يرتبط التناسخ عن قرب فى مدرسة آلان كارديك ومن اتبعها ’ب التقدمية *progressivist*‘ أو لو أحببت ’ التطورية *evolutionist*‘ فى مفهومها للأمور، وقد كانت كلمة ’تقدم‘ تُستخدَم فى الأصل ببساطة، لكن كلمة ’تطور‘ أصبحت مفضَّلة، ورغم أنهما رديفان إلا أن الثانية أوعر ’علمية‘ من الأولى، ولا يكاد المرء يقدر على تخيل مدى إغراء الكلمات الفخمة، والتى تنتحل شبها زائفا للفكر فى ذهن الأرواحيين الأميين، وهذا النوع من ’ اللفظية *verbalism*‘ يوحى بوهم الفكر للذين يعجزون عن الفكر أصلا، كما أنها غامضة بحيث تؤخذ بمعنى التعمق عند العوام، أما بهرجة الكلام الفارغ المستخدم فى مدارس الأرواحيين الجدد فليست إلا أحد عناصر نجاحهم، لكن مصطلحاتهم خائبة نظرا لأنها كلمات مستحدثة *neologism* صكها أنصاف أميون تحديا لقوانين التأصيل اللغوى، وعلى سبيل المثال لو أردنا أن نعرف كيف استطاع آلان كارديك صك كلمة *perisperit* فهى ببساطة "أن بذرة الثمرة مغطاة بغشاء يسمى *perisperm*، وبالتالى تُغطَى الروح بغشاء باسم *perispirit*"[1]، والذين لهم باع فى البحث اللغوى سيجدون فى هذا الموضوع مجالا لبحث عجيب الشأن، لكننا سنقتصر على ملاحظة عابرة، فغالبا ما يتمسك الأرواحيون بمصطلح فلسفى أو علمى يستخدمونه كما يحلو لهم، وبالطبع كانوا يفضلون نشر الأعمال التى تشيع على نطاق واسع بكلمات تصطبغ بالروح ’العلمية‘ القميئة، أما كلمة تطور *evolution* التى شاعت مؤخرا فقد كانوا يقصدون بها ما يتسق مع التنويعات المختلفة لنظريات الأرواحية أيًا كانت، كما اتخذت كلمة ’تطور‘ إبان القرن الماضى صورا متعددة، إلا أنها جميعا تنويعات لكلمة ’التقدم *progress*‘ التى قصدوا بها تسمية تتسق مع نظريات الأرواحية فى العالم الغربى إبَّان النصف الثانى من القرن الثامن عشر، وهى أحد سمات العقلية الغربية الحديثة، كما أنها قطعا من سمات الأرواحية الجديدة عموما بكل طوائفها.

---

[1] وقد اخترع نفسانى يميل إلى الغيبية هو كونت ترومبلين كلمة *manspirit* لكى تدل على غشاء الإنسان الحى، كما طلع باصطلاح *"biolic force"* *Le Livre des Esprits, p38.*

ويعظنا آلان كارديك بأن "الأرواح ليست بطبيعتها خيِّرة ولا شريرة، لكنها هى التى تُحسِّن نفسها بنفسها، وبذلك ترتقى من منظومة دنيا إلى منظومة عليا، وقد كلَّف الرب كل روح برسالة لكى تستنير وتتقدم نحو الكمال بمعرفة الحقيقة، ومن ثم يقربها إلى ذاته العلية"، كما يقول "إن الجميع يصبحون كاملين"، و"أن الأرواح ستبقى ساكنة لكنها لن تتراجع" وأن "الأرواح التى اتبعت طريق الشر ستصل إلى الدرجة ذاتها من العظمة لكنها لن تحقق بالخلود"[2]، وأن "المهاجرة المستمرة *progressive transmigration* هى التى ستحقق التصاعد"،

"إن حياة الروح ككلٍ تسرى فى المراحل التى نراها فى الحياة الجسدية ذاتها، وتمر تدريجيا من الحال الجنينى إلى حال الطفولة، ومن ثم تسير بالتتابع إلى حال الرشد، وهى حال الكمال، لكن هناك اختلاف، فلا تعانى من تدهور ولا عجز على شاكلة حياة الجسد، فالحياة التى تبدأ لا نهاية لها، ومن منظورنا أن الزمن الطويل الذى تستغرقه الروح لكى تصل إلى الطفولة الروحية، كذا، لكى تُكمل تطورها، ولا تكتمل فى عالم واحد بل تجتاز عدة عوالم، وهكذا تشتمل حياة الروح على عدة حيوات جسدية فى عدة عوالم، وكل منها يشتمل على أيام يكتسب فيها الفرد خبرة وتعليما، وكما أن فى حياة الجسد أياما لا ثمر فإن فى حيوات الروح كساد لأنها لم تعرف بعد كيف تنتفع بها.. وطريق الأرواح فى تقدم دائم لا يتخلف مطلقا، فهى ترتفع تدريجيا فى مراتب لا تهبط منه، وقد تهبط فى وجودها الأرضى كم يهبط الناس وليس الأرواح"[3].

وفيما يلى وصف لنتائج هذا التقدم،

"وكلما تطهرت الروح فإن الجسد يصير كالروح، وتخف كثافة المادة ولا تعود إلى الزحف على الأرض، وتصبح الحاجات العضوية أقل كثافة وعناءً، ولا تحتاج الكائنات الحية إلى الصراع على الطعام، فالروح تحرر بحيث يستعصى علينا إدراك مفاهيمها عن الأمور بعيدة المنال، وترى بعين الجسد ما نراه نحن بالفكر فحسب،

---

[2] *Le Livre des Esprits, pp 49-53.*

[3] *Ibid., pp 83-85.*

ويؤدى هذا التطهر إلى كمال الأخلاق، فتتهافت الشهوات الحيوانية وتتحول الأنوية إلى تعاطف الأخوَّة، فلا تُعرف الحروب فى العوالم الأسمى من عالمنا، وما من ضرورة للكراهية والتشاحن، ذلك أنه لا أحد يحلم بإيذاء جاره، وتلهم بصائرهم بمستقبلهم أمانًا وضميرًا بلا ندم، حتى إن الموت يفقد رهبته، فيرونه آتيا بلا خوف بصفته تحول بسيط، ويبدو طول الأعمار فى العوالم المختلفة متناسبا مع امتياز السمات الجسدية والأخلاقية، وهو أمر منطقى، فكلما خف تثاقل مادة الجسد كلما تجنب الأسقام التى تمزقه، وكلما زاد تطهر الروح كلما قلت الشهوات التى تفتتها، وهذا بفضل الرعاية الربانية التى تشاء اختزال الشقاء، والاعتبار الحاسم هو العالم التى تتناسخ فيه الروح ودرجته فى السمو،[4].. كما أن العوالم خاضعة لقانون التقدم، فكل شيء بدأ من حال أدنى، وسوف تمر الأرض ذاتها بتحولات مماثلة حتى تصبح فردوسا أرضيا حينما ينصلح الناس،.. وسوف تختفى الأجناس التى تعيش على الأرض اليوم ليحل محلها كائنات أوفر كمالا"[5].

ولنقتبس فقرة أخرى تتعلق على الأخص ’بمسيرة التقدم‘ على الأرض،

"إن على الإنسان ألا يتوقف عن التقدم، فلن يعود إلى حال الطفولة، ولو تقدم فإن ذلك ما شاء الرب، ولو ظن أنه يستطيع الرجوع إلى الحال البدائى فإن ذلك إنكار لقانون التقدم".

وهذا أمر واضح، لكن ذلك القانون هو ما أنكرناه سلفًا، ولكن لنستمر،

"إن التقدم الأخلاقى ناتج عن التقدم الفكرى إلا أنه لا يتبعه على الفور،.. وحيث إن التقدم شرط من شروط الطبيعة الإنسانية فليس فى مقدور أحد أن يعترضه، فهو طاقة حية قد تعطلها قوى أخرى ولكنها لن تخنقها،. وهناك نوعان من التقدم يساند أحدهما الآخر لكنهما لا يتزامنا هما التقدم الفكرى والتقدم الأخلاقى، ويجد أولهما كل التشجيع اللازم فى البلاد المتحضرة فى هذا القرن، ووصل إلى مستوى

---

[4] ولنتذكر ما سمَّاه آلان كارديك ’عوالم‘ لم يكن إلا كواكب مختلفة، والتى لا تعدو جوهريا مناطق من العالم الجسدانى.

[5] *Le Livre des Espirits, pp 69-80.*

من الرفعة لم يتحقق من قبل، ويجب أن يصل الثانى إلى المستوى نفسه، إلا أننا لو نظرنا إلى الأخلاق الاجتماعية منذ بضع قرون فلابد أن يكون أعمى من أنكر التقدم الملموس، فلماذا كان الفارق بين مستوى القرنين التاسع عشر والقرن العشرين أكبر من الفارق بين مستوى القرن التاسع عشر والقرن الرابع والعشرين؟ والشك فى إمكان التقدم يربو إلى إنكار قدرة الإنسانية على بلوغ أوج الكمال، أو أن ادعاء استحالة كمال الإنسانية التى تكذبها التجارب"[6].

وأخيرا نرى فيما يلى كيف 'تسهم الأرواحية فى التقدم'،

"إن تحطيم المادية التى أصبحت جرحا لا يلتئم فى المجتمع فإننا نبين للناس أين تكمن مصالحهم الحقيقية، ولم تعد حياة المستقبل مُحاطة بالشك بحيث يستطيع الناس فهم أن مستقبلهم كامن فى حاضرهم، وكذلك لتحطيم أحقاد الطوائف وفروق الطبقات والجنسيات وتعليم الإنسان كيف يوحِّدها بالأخوَّة"[7].

ومن ثم نرى كيف ارتبطت 'الأخلاقية' *moralism*' والطوباويات الاشتراكية والإنسانية، ويتفق كل هؤلاء فى السعى إلى تحقيق 'فراديسهم الأرضية' وحلم 'السلام' و'الأخوة الكلية *universal brotherhood*' فى مستقبل ما، ويضيف الأرواحيون ببساطة أن هذه أمور تحققت فى كواكب أخرى، وتتبدى سذاجة الأرواحيين فى مفهومهم عن 'العوالم الأسمى من الأرض'، ولكن لا سبب للدهشة عندما نرى كيف يعبرون عن وجود 'أرواح لامنتسخة *disincarnated spirits*'، وسوف نقتصر على ملاحظة تفوق العاطفية على ما يشكل عندهم ذلك 'الامتياز *superiority*'، فهم يضعون 'التقدم الأخلاقى' فوق 'التقدم الفكرى' للسبب ذاته، وقد كتب كارديك "إن التحضر الكامل يُعاير بالتقدم الأخلاقى"، ويضيف ما يلى،

"وشأن التحضر شأن أى أمر آخر من حيث درجاته، فالحضارات الناقصة لا تعدو حالة انتقال تنطوى على أمراض اجتماعية لم تكن معروفة فى الأحوال البدائية، إلا أنها تشكل تقدما طبيعيا لازما لعلاج الشرور التى تتمخض عنها كلما

---

[6] *Ibid., pp 326-329.*

[7] *Ibid., pp 336-337.*

اكتمل تقدمها، وتضع نهاية للشرور التى انطوت عليها، والتى ستختفى مع التقدم الأخلاقى للشعبين اللذين وصلا إلى قمة السلم الاجتماعى، وهما فحسب ما يجوز وصفه بالتحضر بمعنى الكلمة، حيث يقل فيها الأنانية والجشع والغرور، وتصبح العادات أقرب إلى الفكر والأخلاق منها إلى المادة، حيث تتطور مع تعاظم الحرية والعطف والتفاهم والكرم، وتجف جذور تحيزات الطبقات والأعراق، والتى تناقض محبة الجار الحقة حيث لا يفرق القانون بين أولهم وآخرهم، وتنتشر العدالة بلا تحيزات حيث يجد الضعيف عونا على القوى، وتُحتَرَم حياة الإنسان وآرائه ومعتقداته ويقل التعساء، وأخيرا يطمئن ذوو النوايا الطيبة على أنهم لن يفتقدوا الضروريات"[8]

وتؤكد هذه الفقرة على الميول الديمقراطية فى الأرواحية، والتى يسهب فيها كارديك فى أبواب بعناوين ’قانون المساواة‘ و’قانون الحرية‘، ويكفى قراءة ما تقدم من مقتبسات للاقتناع بأن الأرواحية نتاج صرف للعقلية الحديثة.

ولا أسهل من نقد ذلك التفاؤل الأهبل بين معاصرينا فى مفهومهم ’للتقدم‘، ولكننا لن نتوسع عن هذا الحد، فسوف يخرج بنا الجدل بعيدا عن الأرواحية، والتى لا تعدو فصلا من المعتقدات الشائعة، والتى أمسكت بتلابيب دوائر بالغة التنوع، وكل منها يصور ’التقدم‘ بحسب ما يهوى، لكن الخطأ الأصولى الذى يُعزى إلى تورجو و فورييه على الأخص هو الحديث عن ’التمدين *civilisation*‘ كما لو كان مطلقًا، وهو أمر لا وجود له، فقد كان هناك دائما ’حضارات‘ لكل منها طريق للنمو، كما أن من بينها ما ضاع تمامًا وفقدت الحضارات التالية تراثها، ولا جدال فى أن فترات التدهور فى حضارة أو حتى تقدمها النسبي فى حقول بعينها يتوازن بتدهور غيرها، كما أنه يصعب على عموم الناس فى شعب واحد فى زمن واحد القيام بأعمالهم بالتساوى فى اتجاهات متخالفة، وهى الحال فى الغرب الحديث على وجه اليقين، حيث تقتصر التنمية على أضيق نطاق ممكن، ويبدو من الظاهر "أن الفكر قد وصل اليوم إلى مستوى من الرفعة لم يتحقق من قبل"، لكن الذين يتوهمون ذلك ذاهلون عن معنى الفكر الحق، ويعتقدون أن

---

[8] *Ibid., pp 333-334.*

التقدم المادى فى نطاق العلوم التجريبية وتطبيقاته فى الصناعة على الخصوص هو 'الفكر الحق'، وهو من أوعر الأوهام ضلالًا منذ ظهوره فى عصر النهضة الذى واكب انحطاطًا مُريعًا فى الفكر لا يُقارن بأى تقدم مادى ولا يُعوض عنه، وقد تحدثنا عنه فى موضع آخر يضيق المجال هنا عن تكراره[9]، وما أسموه 'التقدم الأخلاقى' نابع عن العواطف والميول فحسب، وليس إلا لعبا بتقديرات فردية، ويؤدى هذا المنظور إلى أن يهرع كل فرد إلى ابتكار 'المثال' الذى يتوهم أنه ملائم لمذاقه، إلا أن مذاق الأرواحية وغيرها من الديمقراطيات لا تناسب الكافة، لكن 'الأخلاقيون' لا يفهمون الأمور على هذا المنوال، ولو كان عندهم مقدرة لفرضوا أفكارهم عسفًا على الجميع بلا تمييز، والواقع أن الذين يعظون بالتسامح والأخوَّة هم أقل الخلق تسامحًا وإخاءً، وأيًا كان الأمر فإن التجربة قد برهنت على أن 'الكمال الأخلاقى' للإنسان بموجب المفاهيم السائدة ليس إلا كذبة، فقد كذَّبت كثير من الأحداث الجارية كارديك ومن جرَّ جرَّه، ولا حاجة لنا بالبرهان عليها، لكن الحالمون لا يتلاءمون مع الواقع، وكلما اندلعت حربٌ توهموا أنها آخر الحروب، والذين يسوقون 'التجريب' عند كل منعطَف لاهون تمامًا عن التناقض الذى ينطوى عليه، أما عن مستقبل الأجناس *races* فدائمًا ما يُدرَك بحسب أوهام المرء، والأرواحيون على الأقل قد استنكفوا عن تناول التفاصيل التى احتكرها الثيوزوفيون، وحدُّوا أنفسهم فى إطار غامض من اعتبارات عاطفية لا قيمة لها لكنهم على الأقل أهون ادعاءً، وأخيرًا لابد من ملاحظة أن 'قانون التقدم' عند من يدفعون به شرط لازم للإيمان، ويقول كارديك "إن على الإنسان أن يتقدم" ويرضى بإضافة ".. لو أنه تقدم فإن الرب هو الذى شاء له بذلك"، ولو سألناه من أين جاء بذلك فربما أجاب 'من الأرواح التى قالت له'، ولو كان ذلك مبررًا متهافتًا فهل يمكن تصديق من يقولون إن من شاء ذلك هو 'العقل *reason*'، فهل كان موقفهم أفضل منه كثيرًا؟ فهناك عقلانية لا تربو عن عاطفية متنكرة، وليس هناك عبث يستعصى على العقلانية، كما أن كارديك ذاته قد صرَّح بأن "قوة الأرواحية كامنة فى فلسفتها فيما تعلق بالعقل والمعقولية العامة *common sence*"[10]، ولا شك أن 'المعقولية العامة' قد ساء استعملها

---

[9] راجع الأبواب الأولى فى كتابنا 'مُدخل عام إلى دراسة المذاهب التراثية'، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

[10] *Le Livre des Espirits, p 457.*

منذ ديكارت، والذى اعتقد أن عليه تلبيسها بالديمقراطية لعجزه عن البرهان على أنها فكرة وسيطة بين حقٍ وباطل أيًا كانت، وحتى العقلانية 'الفلسفية' ليست ضمانا أفضل لاجتناب الخطأ، ولنضحك إن شئنا على كارديك حينما يعلن "إن على الإنسان أن يتقدم فإن الرب هو الذى شاء له بذلك"، ولكن ماذا ينبغى على المرء أن يظن الظنون عن عالم اجتماع مرموق وممثل مؤهل 'للعلوم الرسمية' يقول ما سمعناه شخصياً "لو أن الإنسانية تقدمت فذلك لميلها الطبيعى إلى التقدم"؟ وأحيانا ما يبلغ العبث الوقور للفلسفة الجامعية حدود اللغط الأرواحى، والتى تحمل مخاطراً مشتقة من 'دين زائف'، ولذا كان إنكارها برهان على بلاهتها.

ولابد من تناول ما أطلق عليه كارديك 'تقدم العقل'، ونبدأ ببيان سوء استخدام التشاكل فى المقارنة التى أجراها بين العقل والحياة الجسدانية تنطبق على مرحلة التدهور والعجز كما قال كارديك، فلماذا لا تصدُق على مرحلة التنمية *development*؟ وقل مثل ذلك عما سماه ' الكمال *perfection*' النسبى، والغاية التى يتوخاها الأرواحيون آجلًا أم عاجلًا ليست إلا أمرًا يضاهى 'حال الرشد *adult state*' النسبى الذى يتحقق 'تدريجياً'، وحتى لو استلزم 'زمانا طائلا'، لكننا سنعود إلى هذه النقطة فيما بعد، وأخيرًا يقضى المنطق والميتافيزيقا بأن ما لا نهاية له لا بداية له كذلك، وبمعنى آخر أن ما كان خالدا حقًا فهو أبدى حقًا للسبب ذاته، ومن الواضح أن كارديك الذى تحدث عن 'اللانهائيات' بصيغة الجمع يتخيل دوامًا زمنياً بسيطًا نظرًا لأنه لا يرى له نهاية، لكن ما لا حدود له ليس إلا أمرًا محدودًا بذاته، وأن كافة أنواع الدوام نسبية بطبيعتها، كما أن هناك ازدواجًا دلاليًا لابد من صرفه، فما يسميه 'روح' وادعى أنه يشكل الكائن بمجمله ليس إلا فردية إنسانية حتى لو تكررت فى تناسخات شتى، فليست أقل محدودية لهذا السبب، وبمعنى أن الأرواحيين يبالغون فى تحديدها، فلا يعلمون إلا فتيلا عن إمكاناتها الحقة، وليس التناسخ مطلوبًا لكى يمتد الفرد فى استطالات لامحدودة، ولكن بمعنى آخر إضفاء قيمة أضخم على أهمية فردية الكائن بكل استطالاتها المحتملة، وهو ما لا يعدو مكونًا متناهى الصغر، وهذا الخطأ المزوج لا يتوقف عند الأرواحيين بل يشارك فيه العالم الغربى برمته، فالفرد الإنسانى أكثر وأقل مما يتوهمون، ولو كان ذلك الفرد أو بالحرىِّ الشطر المحدود من تلك الفردية مفهوما خاطئا لمجمل الكائن لاستحال ظهور أمر

مثل ’التطور‘، فيجوز قول إنه ’يتطور‘ لو كان مفهوما بمعنى ’التقدم الدورى‘، وهذا أمر قابل للدحض على الأقل من ناحية مجمل الكائن بكليته، وحتى الحقل النسبي لهذه الفكرة عن التقدم لا ينطبق إلا على حدود ضيقة للغاية، زد على ذلك أن لها معنى فحسب فى أمور دقيقة من تفاصيل معطيات العلاقات التى تطبقها، أما الباقى فكل من قال بالتقدم لابد أنه يعنى التتابع حتما، فلا معنى لكل ما لا يُرى فى صيغة التتابع، ولو كان الإنسان يضفى عليها معنى فذلك لأن الفرد خاضع لقهر الزمن، ولو مدد هذا المعنى بسوء تعبيره فذلك لأنه لا يدرك مالا يخضع للزمن، فليست كل أحوال الوجود فى أية صيغة كانت إلا دوامًا مؤقتًا فحسب، ولا مجال للحديث عن أى أمر آخر حتى لو كان نسبيا أو غير ذلك من العوارض مهما تضاءلت، فليست إلا إمكانات فى أحوالها، ولو كانت المسألة هى الإنسان بجملته التى تجمع التكاثر اللامحدود لكافة أحواله فإن من العبث الحديث عن التقدم والتطور أو أى نوع كان من النمو، والأبدية التى تنكر أى تتابع أو تغير تعنى بالضرورة دوامًا مطلقًا.

وقبل أن نفرغ من هذا الجدل لا بد أن نقتبس مزيدًا من اللذين كتبوا عن كارديك بسلطان لا يُنقَض فى الدوائر الأرواحية، ونبدأ بذكر ليون دينيس الذى يتحدث على منوله تقريبا،

> "إن المسألة هى أن علينا أن نكدح للتقدم بأنفسنا إلى الغاية القصوى من الكمال، والطريق إلى التقدم طويل نخطو عليه خطوة بخطوة، وتبدو الغاية البعيدة كما لو كانت تتراجع كلما تقدم المرء، ولكن يحصد المرء فى كل خطوة ثمارًا من عمله تثرى تجربته وتنمى حواسه،.. فبين الأنفس اختلافات فى الدرجة فحسب، وهى اختلافات يمكن التصالح معها فى المستقبل"[11].

وليس بعد هذه النقطة من جديد، ولكنه قال عما يسمى ’تطورية البريسبيريت‘ حيث يعالجها بالتفصيل على نحو إلهامات مستوحاة من نظريات علمية فاسدة، وقد كان انتشارها دليلًا دامغًا على فسولة فكر معاصرينا.

---

[11] *Après la mort. Pp 167-168.*

"وتفسر التجارب الأخيرة للأرواحية العلاقات بين الناس والأرواح[12]، وتبرهن على أن بقاء الكائن فى صورة سائلة أكثر كمالًا، وهذه الصورة الصامدة رفيقة وخادمة للنفس، وشاهدة على صراعها وعنائها وطوافها، ويرتفعا إلى التطهر سويًا، وقد تشكلا فى المناطق السفلى لكن الكائن البريسبتارى يرتفع ببطء شيئًا فشيئًا إلى مراتب أعلى من الوجود، وقد كان فى أول الأمر كائنا أوليا أو رسمًا تخطيطيًا للكائن، وعندما يصل إلى الصورة الإنسانية يبدأ فى ممارسة عواطف أكثر سموا، ومن ثم تبدأ الروح فى إشعاع قوة تتزايد لتضىء البريسبيريت بأنوار جديدة.

"ومن حياة إلى أخرى تتسع آمالها، وتتطهر الحواس رويدًا رويدًا وتتوسع حقول المعرفة، فتثرى بحواس جديدة، وكلما اكتمل تناسخ فإن الجسد الروحى يطير كالفراشة التى خرجت من شرنقتها، ويتحرر من أردية الجسد المهترئة، وتجد الروح نفسها وقد تحررت من الرداء السائل الذى يكسوها بمظهر سعيد أو بائس لتراقب تقدمها"[13].

ويجوز تسمية ذلك ' تحولية نفسانية *psychic transformism*'، ويضيف إليها بعض الأرواحيون اعتقادا بأن هذه التحولية بالمعنى المعتاد لا تكاد تتصالح مع ما يقول به كارديك من "إن بذور كل الكائنات الحية الكامنة فى الأرض تبقى فى حال كُمُون حتى اللحظة المناسبة لميلاد الجنس"[14]، إلا أن جابريل ديلانيه الذى يحاول الادعاء بأنه أكثر 'علمية' من مدرسة كارديك فيقبل نظرية 'التحولية' بكاملها، لكنه يحاول استكمال 'التطور الجسدانى' بإضافة 'تطور حيوى *animic evolution*'،

"ويحرك المبدأ الحيوى ذاته الكائن الحى، والذى يظهر أول أمره فى صيغ بدائية، ثم يكتمل رويدًا رويدًا ليرتفع على سلم الكينونة، وإبان تطوره ينمى الملكات الكامنة فى نفسه على نحو يشاكل ما نحن عليه بقدر اقترابه من الإنسانية.. ولا نعلم لماذا

---

[12] وعلى سبيل المثال 'إن الوسطاء المتصلون بشخصيات عظيمة فى الفضاء' كذا، يورد الكاتب 'أنها مثل مهرجان العذارى فى روما أو كاهنات اليونان *sibyls* والدرويديين فى جزيرة سيين *Sien* و.. جوان دارك!'

[13] *Apres la mort, pp 229-230.*

[14] *Le Livre des Esperits, p 18.*

اختار الرب أن يخلق الرب كائنات يحكم عليها بالشقاء دون أن يسمح لها بالاستفادة من الجهود التى تبذلها فى تحسين ذاتها، ولو كان مبدأ الذكاء الذى يحركهم محكوم عليه باحتلال مناصب وضيعة فلن يكون الرب عادلًا فى تفضيل الإنسان عن باقى الخلق، لكن العقل يقول لنا إن الأمور لا ينبغى لها أن تكون على هذا المنوال، فالشواهد تدلنا على أن هناك تماهٍ جوهرى بين أرواح الحيوانات وأرواحنا، وكل شىء متصل بالكون ومترابط معه من أصغر ذرة حتى الشمس ذاتها التى تختفى فى ليل الفضاء، وتطير كل الكائنات الحية بدءً من أحادية الخلية حتى الأرواح السامية فى رحابٍ سماوى"[15].

وقد كان طلب العدالة الربانية محتوما، وقد قلنا آنفا إن من العبث السؤال لماذا لا يكون جنس بعينه من الحيوان على شاكلة جنس آخر، لكن على المرء أن يفهم أن اختلاف التساوى لا مسرة فيه لعاطفية الأرواحية ناهيك عن الأحوال الاجتماعية بين البشر، فالأخلاقية أمرٌ يستحق التبجيل! والغريب كذلك أن الجزء الذى تلى ذلك ونقتبسه بالكامل لبيان أن العقل العلمى *scientistic*' يمكن أن يتخلل الأرواحيين بكراهته الوحشية لكل ما تعلق بالدين أو التراث،

"فكيف تأتى تكوين هذه الروح وأى تحولات جرت لمبدأ الذكاء قبل الوصول إلى مرتبة الإنسانية؟ وهذا هو ما نتعلمه من التحولية بوضوح باهر، ونتوجه بالشكر لعبقريات لامارك و داروين و والاس و هايكل وجيش عرمرم من علماء الطبيعة، فإن ماضينا قد استُخلِص من أعماق الأرض، وسجلاته محفوظة فى عظام الأجناس البائدة والعلوم التى أعادت رسم الخط الصاعد منذ اليوم حتى آلاف القرون الآتية وتعود إلى بداية الحياة كما ظهرت فى أول أمرها على كوكبنا وقد تحررت من جهل الأديان وطار العقل البشرى متحررًا بعد أن تخلص من الخرافات والمخاوف التى قيدت آبائنا، وتجرأت على تناول إشكاليات أصولنا فوجدت حلولها، وهذه واقعة أولية لنتائج الأخلاقية والفلسفة التى لا تحصى، ولم تعد الأرض عالمًا غامضًا تجلى على أوتار المنشدين وسكنته نباتات وحيويانات لكى

---

[15] *L'Ēvolution animique, pp 102-103.*

يصير الإنسان ملكًا عليها، أما الآن فإن العقل المستنير يجعلنا ندرك أن تلك القصص شاهد على الجهل والغرور! فليس الإنسان ملاكًا ساقطًا يبكى على فردوس وهمى مفقود، فلا ينبغى له أن يحنى أمام عصا رب حقود منتقم، فليس هناك خطيئة أولى تصبغه منذ ميلاده، فمصيره بيده ولا يعتمد على أحدٍ غيره، فقد حل يوم تحرره الفكرى ودقت ساعة التجديد لكل الكائنات التى ترزح تحت نير الشك والخوف والعقيدة، فقد ألقت الأرواحية ضوءً على المستقبل والسموات اللانهائية، ونشعر بنبض الروح فى أخواتنا وفى إنسانيات سماوية أخرى، ونرتفع فوق ظلام كثيف من الماضى حتى نفهم شبابنا الروحى، ولا نجد موضعا لذلك الطاغية المخيف الذى تحدثت عنه الأناجيل وليس فى الخليقة برمتها ما كان متعسفًا أو لامنطقيًا يخل بتناسق القوانين الأبدية"[16].

وتشبه تلك الادعاءات مقولات كاميل فلاماريون التى تهمنا لتصوير تماهى الأرواحية مع كل ما انحط فى الفكر الحديث، ولاجدال فى ان الأرواحيين يخشون ألا يظهروا مستنيرون بما يكفى، فيراهنون على المبالغة فى معارف الرائين *savants* أو من سموهم بذلك، ويغرسون فضائلهم ويشهدون بثقتهم فى الفرضية الجزافية التالية،

"ولو واجه المذهب التطورى كثيرًا من المناوئين فذلك بموجب أن الأحقاد الدينية قد تركت جذورًا عميقة فى عقول تعترض أى تجديد. وقد أتاحت لنا النظرية التطورية فهم أن الحيوانات المعاصرة هى آخر منتجات سلسلة طويلة من الصور المتحولة التى اختفت على مدار العصور لتترك ما وجدنا فى الحاضر، فنجد كل يوم مكتشفات جديدة لحفريات من عظام حيوانات ما قبل التاريخ كحلقات من سلاسل لا تنتهى، ويكمن أصلها فى الحياة ذاتها، وحيث لا تكفى الحفريات برهانًا على ذلك فإن الطبيعة تقدم لنا مثلًا باهرًا فى مولد كل مخلوق، فكل حيوان على الأرض ينجب ذرية تشكل جنسه، والذى يمر بمراحل قبل أن يصل إلى ذاته، فإن خلاصة التطور من أجداده تستقر بلا رجعة فى قَرابة لا تنى بين الإنسان والحيوان عدا ما يظهر من نزعات فردية،. فقرابة الإنسان بالحيوان بدهية لكل من

---

[16] *L'Ēvolution animique, pp 107-108.*

لا يتحيَّز من المفكرين"[17].

ومن ثم تطلع علينا فرضية جديدة تضاهى الإنسان الأول بالمتوحشين المعاصرين،

"إن الروح الإنسانية ليست استثناءً من القانون العام للتطور، فنحن مرتبطون بحال على الأرض بمراحل تنطوى على أشد التجليات تنوعًا بين المفهومين المتواضع والعظيم الذى يزدهر فى عبقريات الأمم المتحضرة"[18].

وهنا مربط الفرس، ولكن يكفى الحديث عن هذه العقلية 'الأولية'، فما نرغب فى بيانه هو التكافل القائم الذى يوجد بلا ضابط بين أشكال التطور المتنوعة.

وبالطبع لا محل هنا لنقد تفصيلى للتحولية *transformalism* يأخذنا بعيدًا عن الأرواحية، لكننا سنشير إلى ما ذكرنا آنفًا عن اعتبارت نمو الجنين التى لا تبرهن على شيء على الإطلاق، والتى يزعمون بوقار أنها ما يسمونه 'أطوار تذكِّر بتتابع النشأة *phylogeny*'، ولا جدال فى أنهم ذاهلون عن أن ما يتخذونه قانونًا لا يربو عن فرضية[19]، وليست إلا افتقارًا إلى قضية، فلابد لها من برهان على أن لها 'نشأة'، فلم تكشف المشاهدات عن شيء من قبيل تحول جنس إلى جنس آخر، لكن النمو الفردى يبرهن على ذاته مباشرة، ونرى أن الصور المختلفة لا سبب لوجودها على نحو أكثر مما يدركه الفرد بحسب الصيغ المتوافقة مع طبيعته والإمكانات المختلفة للحال التى تنطوى عليه، ويكفى لهذا الأمر وجود واحد فحسب، فلا قدرة لها على المرور فى حال واحد مرّتين، كما أن المنظور الميتافيزيقى يقطع بأن التزامن *simultaneity* هو ما يهم وليس التتابع، والذى لا يمثل إلا جانبا نسبيا من الأمور، ومن يفهم الطبيعة الحقة للأجناس لا حاجة له بالتحولية، فليست استحالة فحسب بل كذلك أمر لا نفع منه، وأيًا كان الحال فما يهمنا هو الحقيقة فحسب، وربما كان الذين يلغطون بالنزعات الفردية *self-interested protestations* يعكسون على مناوئيهم ما حملوا من هموم، وهى قناع من العقلانية يستر عاطفيتهم، ولا تخلوا هذه التجشؤات من ألاعيب سياسية من أحط المراتب، والتى

---

17 *Ibid., pp 113-115.*

18 *Ibid., p 117.*

19 راجع كتابنا 'أحوال الوجود المتعددة' الباب السابع، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

يستسلم لها غالبية الناس، ويبدو اليوم أن ’التحولية‘ قد بلغت نهايتها بعد أن فقدت أرضًا تقوم عليها، وعلى الأقل بمدى جدية الدوائر العلمية، لكن الفكرة قد تستمر لتلويث عقول العوام حيث لا وجود لآلة عسكرية قادرة على تغييرها، والحق إننا لا نعتقد أن النظريات من هذا النوع تنتشر تلقائيًا، ولا أن الذين حملوا عبء ترويجها يعملون بحافز شخصى، فهم بذلك يحملون هومًا فكرية وانفعالات حادة وعداوة.

ولنترك كل تلك الحكايا جانبا عن ’التدنى‘ الذى اكتسب أهمية من واقع مداعبته لخيال العوام، كما يرجع إلى التطور المزعوم لكائن بعينه، فذلك يُفضى إلى مسائل أكثر جدية، وسوف نتذكر ما قلنا عاليه عن فرضية أن الكائن لابد له من المرور فى كافة الصور فى مراحل متتابعة من حياته، وليست هذه الفرضية إلا ما أطلق عليه ديلانيه ’التطور الحيوى *animic evolution*‘، وقد بيَّنا استحالته أولًا، وثانيًا لانعدام فائدته المزدوج، فلا نفع منه بموجب أن الكائن يحمل فى ذاته ما يساوى كل صور الحياة بما فيها مسألة الكائن الفردى بناءً على أن الكائنات جميعًا تنتمى إلى حال وجود واحد، ألا وهو الذات الإنسانية الفردية، والتى تنطوى على كافة إمكانات الإنسان المتكاملة، وكما قلنا فإنها الفردية المقصورة على الصيغ الجسدانية، والتى تقفو بعضها أثرَ بعضٍ بالتتابع وطرق النمو الجنينى، لكن ذلك يتعلق بشطر صغير من الفردية المتكاملة حيث تختفى مسألة التتابع، إلا أن ذلك ليس إلا حال وجود واحد من أحوال لا تحصى، ولو أردنا الحديث عن التطور لرأينا حدوده الضيقة التى ينطبق فيها، ثم إن الفرضيات المقصودة بلا نفع للمصير النهائى الذى لابد أن يبلغه الكائن على أى نحو كان، ونرى ضرورة تفسير مقولتنا حيال كلمة ’كمال‘، والتى أساء الأرواحيون استخدامها، ومن الواضح أنهم لا يعلمون فتيلا عن ’الكمال الميتافيزيقى‘ الذى يستحق وحده هذه الصفة، فهو مناظر للانهائية *infinity*، أى كلية القدرة *universal possibility* فى رحابة رضوانها، وهذا أمر ينأى فيما وراءهم ولا يخطر لهم ببال، ولكن لنسلم بأنها يمكن الحديث عنها بالمعنى النسبى بالتشاكل *analogically* مع كمال أى شىء كان، وسوف يكون هذا الكمال النسبى هو كل ما يمكن للكائن تحقيقه بكل إمكاناته، ويكفى الآن قول إن هذه الإمكانات لا تحصى عددا، ولا يبلغ أحد الكمال ’تدريجيا‘ و’تقدميا‘ كما زعم كارديك، فالكائن الذى عبر من أحدها إلى الآخر بإمكاناته الخاصة بالتتابع أيًا كان عددها لن

يكون متقدمًا رغمًا عنه، ونجد عونا فى مقارنة حسابية[20] لفهم ما نقصد، فلو جمعنا كافة الأعداد اللامحدودة فإن حاصل جمعها لا يُدرَك بإضافة أحدها إلى الآخر بالتتابع، لكنها تُبلَغ فحسب بعملية حسابية فريدة هى 'التكامل'، ولذا تعين تحديد هذه العناصر فى 'تزامنها'، وهذا دحض لادعاء باطل قد تفشى فى الغرب، والذى يقضى بأن المرء لابد أن يصل إلى التركيب *synthesis* من خلال التحليل *analysis*، فى حين أن التركيب المقصود يستحيل بلوغه على منوالهم، ولو توفرت مصفوفات لا تحصى من العناصر فسوف يستحيل بلوغ الحد الأقصى أو حاصل جمعها، وليست أحد تلك العناصر ولا وجود لها فى المصفوفات، ويستحيل بلوغها تحليليا، وعلى العكس من ذلك يمكن بلوغها بعملية تكامل واحدة، ولكن فى هذه الحالة سواء أكان المرء قد راجع المصفوفات أو أن أحدها بلا أهمية فليس هناك معيار مشترك بين أى نتيجة جزئية وبين حاصل الجمع، وينطبق هذا المنطق الرياضى على الفرد نظرًا لاحتوائه على إمكانات تحتمل اتجاهات نمو لم يكتمل تحققها، ولا لزوم لتدخل 'زمن لا يُدرك له امتداد'، فحتى لو عالجناه بالتتابع فلن يكون قد تحقق بتمامه، ولكن بمجرد التسليم بالتزامن فلن توجد صعوبة إلا فى إنكار التطورية، ولو كانت المسألة هى الكائن بكليته وليس الجانب الفردى منه فحسب فلازال الموضوع واضحًا، وأولًا لن يكون هناك اعتماد على عامل الزمن أو أية أمور تشاكله، وثانيًا سيكون هناك أمور أخرى لابد من اعتبارها فيما وراء التعرف البسيط على الإمكانات الفردية رغم أنها فى مجملها لا تربو عن عنصر متناهى الصغر فى خضم مصفوفات حالات الوجود التى لا تُحصى، وعند هذه النقطة فيمكن أن نراجع فكرة الكمال الميتافيزيقى، فنفترض أن الكائن قد عبر مالا نهاية له من الإمكانات تحليليا أو تركيبيا فإن التطور بكامله لن يمكن أن يساوى إلا صفرا من الكمال، و ما لا حدود له *indefinite* كامن فى المحدود *finite* وناتج عنه، وبالتالى لا علاقة له باللامحدود، وبتعبير آخر من منظور اللانهائى أو الكمال الذى يتماهى معه فلن يكون إلا صفرًا، ولن يكون إلا بمثابة إضافة مقادير متناهية الصغر واحدا بعد آخر، وسيكون مساويًا لإضافة صفر بالتتابع إلى صفر آخر بما يُنتج صفرا على الدوام، ولن يمكن الإفلات من هذه العملية

[20] وحتى نصل إلى معالجة كاملة للرمزية الحسابية راجع كتاب الشيخ عن الرمزية الرياضية *The Metaphysical Principles of Infinismal Calculus*. المحقق.

العقيمة إلا بالتكامل *integration* بخطوة واحدة لتركيب علوى *transcendent* لا يسبقه أى تحليل كان.

والتطوريون الذين لا يعلمون شيئا عن الميتافيزيقا يستخدمون كلمة ' الأبد *eternity*' بقصد الدوام اللامحدود، لكنه بالضرورة ليس دواما *non-duration*، وهذا الخطأ على شاكلة الاعتقاد بأن الفضاء لامحدود، والواقع أن الخطئين متلازمين نتيجة الخلط بين المفهوم *concievable* و المُتَصوَّر *imagined*، والواقع أن الفضاء لامحدود قياسًا إلى المحدود، وقل مثل ذلك عن الدوام الذى ليس بشىء بالنسبة إلى الأبدية، لكن الأمر الفريد هو وضع كل الواقع فى الصيرورة *becoming*، ويبدو أن الأرواحيين من أية مِلَّة يقسِّمون أنفسهم على صنفين بين ما مضى وما يأتى فى مستقبل آخر، مثل الفقرة الغريبة من فلاماريون عن الفلك،

"لو ماتت العوالم وانطفأت الشمس إلى الأبد فمن المحتمل أن تخلو السماء من النجوم، ذلك أن الخلق قديم حتى ليمكن اعتباره ماضٍ أزلى، فمنذ أن تشكلت الشموس التى لا تحصى فى الفضاء فقد عاشت زمنا يكفيها لتنطفئ، ولا يبقى منها شموس جديدة، أما القديمة فتنطفئ، وتفرض فكرة التتابع على عقولنا، وأيًا كانت العقائد الشخصية التى اعتنقها كل مِنَّا عن الطبيعة والكون فيستحيل التسليم بأن الخلق فى المنظور القديم قد جرى بكامله مرة واحدة، ألم تكن فكرة الرب مرادفة لفكرة الخالق؟ فبمجرد أن وجد فقد خلق، ولو كان قد خلق مرة واحدة فلن تكون فى الكون شموس أخرى فى امتداد الفضاء الشاسع لتنير الكواكب وتدفئها بالحرارة والكهرباء والحياة، وإن لم يوجد الرب فإن قِدَم الكون وأبديته ستفرض ذاتها على نحو أشد"[21]

ولا داعى للفت النظر إلى الفرضيات الاعتباطية الشتى التى اجتمعت فى هذه السطور القليلة بلا معنى، مثل وجوب وجود شموس جديدة لأن القديمة قد انطفأت، لكنها هى القديمة وقد اشتعلت مرة أخرى، ويحتم الاعتقاد بأن إمكاناتها تنفَدُ بلا هوادة، فماذا يجب قوله عن 'القِدَم *ancientness*' الذى يناهز الأزلية؟ وقد يكون الجدل منطقياً لو أن

---

[21] *Astronomy Populaire, pp 380-381.*

الناس لا يتناسخوا بمجرد موتهم، فمن المحتمل فناء الناس من الأرض، ولكن حيث إن على الأرض ناسٌ فلابد من انقضاء ’زمن يكفيها‘ لكى تموت، وهذه مقولة نهديها إلى التناسخيين رغم أنها لا تكاد تسهم فى تأييد نظرياتهم، فكلمة ’تطور‘ لم ترد فى العبارة المقتبسة، ومن الواضح أن ’فكرة التتابع‘ لابد من استبدالها بفكرة النظرية القديمة عن ’خلق الكون مرة واحدة‘، والتى زعموا أنها مستحيلة بموجب اعتقاد بسيط، كما أن الرب ذاته ’خاضع للزمن‘ فى منظورهم لفعل الخلق ’بمجرد أن وجد فقد خلق‘، وبما يعنى أن للرب بداية وربما وضعوه فى الفضاء الذى يزعمون أنه لانهائى، والقول إن ’فكرة الرب مرادفة لفكرة الخالق‘ تُلاحَى من عدة جوانب، فهل يجرؤ أحد على الدفع بأن كل الشعوب التى لم تخطر لها فكرة الخلق بمعنى أن عقائدها ليست من مصدر يهودى لا يحتكمون على فكرة تناظر الربوبية؟ وهذا من قبيل العبث، ولنلاحظ أنه كلما طرأت مسألة خلق العالم فإنها تتناول الخلق الجسدانى فحسب ومحتويات الفضاء التى يراها الفلكى بتلسكوبه، والواقع أن الكون لابد أن يضيق على الذين يبعثرون اللامحدود والأبدى جزافا فى كل أين حيث لا تطرأ فكرة ’حضورهما‘! ولو كان ’الماضى الأزلى‘ لازما لإنتاج العالم الجسدانى كما نرى اليوم فى الفرديات الإنسانية التى تمثل أعلى تعبير عن ’الحياة الكلية الخالدة‘، ولابد من الاتفاق على أن النتيجة مؤسفة[22]، وبالتالى فإن ’المستقبل الأبدى‘ لن يطول بما يكفى للوصول إلى ’كمال‘ نسبى يحلم به التطوريون، ويذكرنا ذلك بالنظرية الخرقاء لبعض الفلاسفة المحدثين الذين تصوروا أن النصف الثانى من الأبدية قد مضى فى إصلاح أخطاء النصف الأول! وهؤلاء هم الفلاسفة الذين يُعِدّون أنفسهم ’مستنيرون‘ يأنفون من المفاهيم الدينية!

وكما قلنا توا إن التطوريين يضعون الواقع فى الصيرورة فذلك من جرَّاء أن فهمهم على طرف نقيض من الميتافيزيقا التى تنطوى على الدائم والصمدى، أى إنها لا تتقابس مع التطورية، وفى هذه الأحوال فإن الرب يخضع للصيروة كأى شيء آخر، وهذا هو المعتقد السائد للتطوريين، أو على الأقل الذين يرغبون فى النزاهة، ففكرة الرب الذى ’يتطور‘ والتى لم تكن استثنائية فى ذلك الزمن، فنجدها عند فلاسفة مثل رينان وكذلك

---

[22] وتدفع مارجريت وولف الذى سبق ذكرها بأن "الرب قد ضل فى صنع العالم لأنه كان أول حدث من نوعه ولم يكن عنده خبرة كافية"، وأضافت "ولو تأتى له صنعه مرة أخرى لأحسن فى ذلك"!

الذين ينتمون إلى طوائف لا تعود أصولها إلى أبعد من بدايات القرن التاسع عشر، وفيما يلي مثال عن المورمون[23] الذين يرون ،

"أن ربهم كان نتيجة انصهار جزيئين من المادة الأولية، كما اتخذ فى سياق تطوره صورة الإنسان،.. وقد بدأ إنسانا لكنه صار إلى رب بالتقدم المطرد، وأنه قادر على استمرار التقدم إلى مالانهاية لو شاء على المنوال ذاته، والإنسان كذلك يمكن أن تزداد معرفته لو كان قادرا على معرفة كل ما يعرفه الرب"[24].

كما تقول،

"إن أضعف أبناء الرب على الأرض سوف يحتكم مع الزمن على نفوذ أوسع ونفيرا أكثر وعلى مجد وقوة أكثر مما احتكم عليه اليوم عيسى المسيح أو أباه، فى حين تأتى منعة الأب ورفعته بالمعدل ذاته"[25].

وليس هذا العبث بأعظم مما نجد فى الأرواحية التى تجولنا فى ظاهرها فحسب، ولأنه يحسُن بنا الإشارة إلى تناظرات بعينها توازى ما سُمى 'التجدد الأبدى *eternal refression* للإنسان' كما ذكرنا توًا، ويتماهى تماما مع فكرة الأرواحية عن 'تطور الربوبية *evolution of the Divinity*' إن لم تزد عنها منطقيًا فى نظرياتهم، والواقع أن هناك أرواحيون لا يستحون من القول تصريحا بهذا الضلال، وهكذا كتب جين بيزيا *Jean Béziat* رئيس طائفة الأخوَّة *Fraternist*، فى مقال نشره من بضع سنوات ليبرهن على أن "الرب فى تطور مطرد، وأن الشيطان هو رب الأمس"، وسيجد المرء ما يكفى فى الفقرة التالية،

"ولا يبدو لنا الرب كلى القدرة فى البرهة موضوع الاعتبار حيث إن هناك صراع بين الشر والخير الذى ليس مطلقًا،.. تمامًا كما كانت البرودة درجة أقل من الحرارة، فالشر ليس إلا درجة أقل من الخير، وليس الشيطان إلا درجة أقل من

---

[23] *See Miscellanea pt 3 chap 5. Ed.*

[24] وللمزيد عن المورمون راجع كتاب الشيخ *Micellania* جزء *3* باب *5*. المحقق.

[25] *The Star of the Millinium publication of president Brgham Young, 1852.*

الرب، فليس هناك إلا ترددات معيارية، فالرب هو نيَّة التطور فى التصاعد الدائم، ألا يتبع ذلك أن رب الماضى أقل تطورا من رب اليوم؟ وأن الذين خرجوا بالأمس من رحاب الرب أقل ربوبية ممن خرجوا اليوم، وهكذا دواليك، وأنه يمكن التنويه ببساطة عن أن ما نسميه 'الشيطان' الذى ليس ربا بعد لكنه رب الماضى لا رب اللحظة الراهنة "[26]

وليست هذه الترهات جديرة بالدحض تفصيلًا، ولكننا نضع خطًا تحت المنطلق الأخلاقى حيث إن الأمر لا يعدو الخير والشر، كما نلاحظ أن جين بيزيا يرى أن مفهوم الشيطان يناقض الرب حرفيًا، وهو مفهوم ثنوى ربما كان من الخطأ عزوه إلى المزدكية، وعلى كلٍ فإنه يقحِم مفاهيمه على الآخرين الذين يعتبرونه غريبا بالكامل، ويؤدى بنا ذلك إلى 'الشيطانية' مباشرة، وهى إشكالية دقيقة ومعقدة، وهى من بين الأمور التى لا ننتوى الخوض فى تفاصيلها هنا، إلا أننا نشير فحسب إلى بعض جوانبها حتى على مضض.

[26] *Le Fraternniste, March 27, 1914.*

10 مسألة الشيطانية

إن الذين يغبطون أنفسهم على حداثتهم قد تواضعوا عند الحديث عن الشيطان على ابتسامة احتقار أو هز أكتاف، كما أن هناك ممن لازالوا على معتقد دينى أو آخرَ قد تبنوا السلوك ذاته مخافة أن يُوصفوا 'بالتخلف'، وهؤلاء فى الواقع مجبرون من حيث المبدأ على التسليم بوجود الشيطان رغم حرجهم من ذكر أفعاله، فسوف يؤدى ذلك إلى الإخلال بالنطاق الضيق للأفكار الجاهزة التى تعودوا على اللغو بها، وهو مثال على 'الوضعية العملية' التى أشرنا إليها سلفًا، فالمفاهيم الدينية أمر و'الحياة المعتادة' أمر آخر، ولابد من الحفاظ على الفصل بينهما بحاجز مانع للتسرب بقدر الإمكان، وليس ذلك واقعياً إلا إقرارًا بالكفر بدون منطق الكفرة، ولكن ماذا يعملون حيال مجتمع 'مستنير' و'متسامح' على منوال مجتمعنا الذى سيعامله باعتباره 'واهما' فحسب؟ ولا مناص من ضرورة الحذر، لكن الحذر لا يقضى بالإنكار بلا تمييز من حيث المبدأ، ولكننا نقول دفاعًا عن بعض الدوائر الكاثوليكية بأن هناك خزعبلات على منوال ما يقول ليو تاكسيل تقارب هذا المنحى، كما لو كان بندول ساعة يتأرجح بين ناحية وأقصاها، ولو كان من ألاعيب الشيطان أن يحشد الناس لإنكاره فلابد من الاتفاق على أنه أساء العمل، ومن ناحيتنا فإننا نتناول هذا الموضوع بامتعاض، ولكن ليس بالمنطق المقصود، فليس الاستهزاء من طبيعتنا، وحيث إننا نتخذ موقفًا محددًا من العقلية الحديثة بكل صورها فلا لزوم للبهرجة، لكن هذا الموضوع لا يمكن تناوله بدون إثارة مسائلٍ كنا نفضِّل أن تبقى فى الظلال، ولا مناص لنا من تناولها بقدر ما، فهناك خطر الصمت التام الذى قد يُساء تأويله.

إننا لا نصدق أن الشيطانيين الواعين الذين يعبدون الشيطان بالفعل كثيروا العدد، وقد قال اليزيديون ذلك غالبًا، لكن هذه حالة استثنائية وليست مؤكدة، ولكن ربما ساء تفسيرها فحسب، لكننا نجد فى كل أينٍ حالات منفصلة من السحرة الذين ينتمون إلى أحط المراتب فى السحر الأسود، والذين سقطوا فى المراتب ذاتها، وربما كان بينهم كذلك من يؤمن بالشيطان، ومن ناحية أخرى كان اللوسيفيريون *Lucierians* من النوع

ذاته رغم مزاعم ليو تاكسيل وأتباعه مثل د. هاكس، وربما أيضًا بقايا من أميريكا أو أى بلد آخر، ولو كانوا قد شكلوا جمعيات فإن ذلك على عكس اعتقادنا تقريبا، فلو كان هناك من يستحضر لوسيفر ليقيم عبادته فذلك لأنهم لا يعتبرونه الشيطان ذاته بل أحد 'حَمَلَة النور'[1]، وقد سمعنا قول إنه 'الذكاء الخلاق الأعظم'، ولكنهم يبدون على قدر غرابة ذلك شيطانيون بدون وعى منهم بموجب تعلقهم بمسائل ثانوية دون الدخول إلى قلب الحقيقة، فهم مخطئون فى إدراك طبيعة الكائن الذى يعبدونه، وليست الشيطانية اللاواعية أمرًا نادرًا بحال، ولابد أن نلفت النظر لخطأ فريد، فقد سمعنا أن الأميريكيين يُسلمون بوجود علاقة لهم بالشيطان الذى أطلقوا عليه اسم لوسيفر، والواقع أن اللوسيفريون لن يمكن أن يكونوا أرواحيون، فالأرواحية تقضى بالتسليم بتواصلات الكائنات الإنسانية اللامنتسخة *disincarnated*، وتنكر تدخل أى كائنات أخرى فى إنتاج الظواهر، وحتى لو حدث أن اللوسيفريين قد اتبعوا إجراءات تُشاكِل إجراءات الأرواحية، لكنهم ليسوا أرواحيون بموجب ذلك، وهو أمر ممكنٌ رغم أن استخدامه السحرى المحض يجعله أكثر احتمالا، ولو كان الأرواحيون يستقبلون 'رسائلًا' ممهور باسم لوسيفر أو الشيطان فإنهم لا يترددون فى إسناده بعنف إلى 'أرواح عابثة' حيث إنهم لا يؤمنون بوجود الشيطان، والحديث مع الأرواحيين عن الشيطان مخاطرة تتمخض عن كراهة وعنف، وهو علامة لا تبشر بخير، أما ما يشارك فيه اللوسيفريون الأرواحيين فهو الضيق الفكرى، وكلاهما بعيد عن الحقيقة من المنظور الميتافيزيقى، كما أنهما محدودان على نحو آخر منطقيا من حيث عدم تقابس منظورهما، وبالطبع ليس ذلك لقول إن القوى ذاتها لن يمكن أن تعمل على حالين تختلف أفكارهما تمامًا.

ولا نفع فى اقتباس مزيدٍ من لغط الأرواحيين والغيبيين والثيوزوفيين عن مسألة وجود الشيطان بما يملأ مجلدًا جسيمًا سوف يكون مملًا بلا عائد، وقد رأينا كيف أن كارديك كان يعظ بأن ' الأرواح البليدة' ستتقدم تدريجيًا وأن الملائكة والشياطين كلاهما كائنات إنسانية على طرفى نقيض من 'المعيار الروحى'، كما يضيف أن الشيطان

---

[1] وقد أسبغت مدام بلافاتسكى اسم *Lucifer* على مجلة أسستها فى انجلترا قبيل نهاية حياتها، وقد ادَّعت أنها أخذت الاسم بالمعنى الاشتقاقى من 'حملة النور'، أو كما قالت "حملة مشعل الحقيقة"، ولم تر فى ذلك إلا رمزًا فحسب، فى حين أنه عند اللوسيفريون كائنًا حقيقيًا.

لا يربو عن تشخيصٍ إسمِيٍ للشر بمعنى استعارى[2]، ويلجأ الغيبيون إلى رمزية لا يفقهونها ضمن خيالاتهم، زد على ذلك أنهم يصنفون الشياطين *demons* مع ’ العناصر *elemetals*‘ وليس مع الأرواح اللامنتسخة، لكنهم على الأقل يسلمون بأنها كائنات لا تنتمى إلى جنس الإنسان، وهذا أمر جُلَل، ولكنا نجد رأيًا نادر الانتشار عن تشارلز لانسيلين الذى أسلفنا ذكره، فهو يلخص ’نتائج بحثه‘ فى مسألة وجود الشيطان التى خصص لها أعمالًا عدة[3].

"ليس الشيطان إلا شبحًا ورمزًا للشر، وكانت اليهودية الأولى ذاهلة عنه، كما أن الطاغية يهوى لا حاجة به إلى ذلك الغلاف، وقد جاءت رواية ’سقوط الملائكة‘ فى كتاب إخنوخ التى اعتبرت منذ زمن زائفة ومن أصل حديث، وفى أثناء السبى البابلى تعلم اليهود انطباعًا عن الأرباب الشريرة فى أديان شرقية، لكن الفكرة بقيت شائعة دون أن تتخلل العقيدة، فلازال لوسيفر نجم الصباح ولازال الشيطان ملاكًا وابنًا للرب، وعندما تحدث المسيح فيما بعد عن ’الشرير‘ و’الشيطان‘ فإنما كان يحتوى أفكار العامة فى زمنه، لكنه لم يسلِّم بوجوده، وقد أصبح يهوى الرب الحقود أبًا للخير، ومنذ ذلك الحين أصبح بعض الملائكة أربابًا للشر، ومع نمو المسيحية تواصلت مع الهللينية واستقت منها أفكارًا على منوال بلوتو و الفيوريات وخاصة تانطاروس وطوعتها لأفكارها، واختلطت بأرباب الشر الوثنية اليونانية والرومانية وغيرهما من الأديان، لكن الشيطان ولد فى العصور الوسطى، ففى تلك الحقبة المضطربة عاشت بلا قوانين ولا روابط، ونزع الكهنوت إلى جعل الشياطين جنودًا للمجتمع لكى تكبت الأقوياء، ومن ثم أحيوا فكرة الشرير وأرباب الشر، وعكفوا على خلطها بشخصيات غيلان الملوك والشعوب، لكن هذه الفكرة التى مثَّلها أضفت عليه قوة شديدة، ولكنه وقع أخيرًا فى شِباكِه، ثم عاش الشيطان بعد ذلك الحين، وقد تأكدت شخصيته فى مسار الزمن حتى بدأ فولتير و الموسوعيون فى رد الفعل، حتى إنه هيمن فى القرن السابع عشر كمعلم، وتهافتت

[2] *Le Livre des Espirits, pp 54-56. On satan and hell cf. Leom Denis Christianism et Spiritism, pp 103-108. and Dans l'Invisible, pp 395-405.*

[3] *Histoire mythique de Shatan, and Le Teraire magique de Shatan.*

فكرة الشيطان تدريجيًا، واتخذ كثير من القساوسة المستنيرين منه رمزًا لحسب.."[4].

ومن نافلة القول إن القساوسة 'المستنيرين' محدثون، وأن الروح التى تحركهم تشبه تلك الأفكار التى أكدتها السطور السابقة على نحو مريب، وهذه الطريقة الخيالية الغريبة فى كتابة التاريخ أكثر من مجرد توهمات، لكنها بمجملها تمثيل لما سمى فيما بعد 'علم الأديان'، ومن الواضح أنها إلهامات لطرق 'نقد' الأديان ولا تختلف عنها كثيرًا، ولابد أن يكون المرء ساذجًا لكى يأخذ بجدية أقوال أناسى يكتبون ما يؤمرون بكتابته، والذين يجدون دائمًا وسائل لترجمتها لكى تتسق مع تحيزاتهم.

ولكن لنعد إلى ما سميناه 'الشيطانية اللاواعية' حتى نجتنب كافة الأخطاء، وأولها أن الشيطانية من هذا النوع قد تكون ذهنية أو نظرية لا تنطوى على تعامل مع كيانات أخرى أيًا كانت، ولا وزن لها فى كثير أو قليل، وبهذا المعنى تكون النظريات التى تعالج الربوبية شيطانية بدرجة ما، وأن المفاهيم المقصورة على الرب أو 'الرب المتطور' لابد أن تكون فى الصدارة، كما أن 'الأحدية' مجرد حالة بين حالات أخرى، حيث إن افتراض أن ذلك الكائن المتطور يلزِم بفهمه ككيان محدود، وفى هذا السياق نقول 'كائنًا' لأنه ليس 'الوجود الكلى' مطلقًا، بل كائنًا فرديًا مخصوصًا قد يعنى نوعًا من 'الجمعية *pluralism*'، فى حين أن الكائن بالمعنى الميتافيزيقى لا محلَّ له، وليس 'الإيمان ب بطون الرب فى الكون *immanentism*' إلا إخضاع الربوبية للصيرورة، وقد لا يكون ذلك ظاهرًا فى الصور الأقدم للفكرة على منوال الشِرك *panthiesm* عند سبينوزا بل ربما كان نقيضًا له، وعلى كلٍ فقد كان واضحًا عند هيجل حيث بدأت التطورية، ومفاهيم المحدثين فى زمننا ذات مغزى بهذا الصدد، إذ إن فكرة 'الرب المحدود' لها نشطاء مخلصون، وسواءٌ أكانوا طوائف كالتى جاء ذكرها فى نهاية الباب السابق أم فى بعض تيارات الفلسفة تراوحت بين التشخيص *personalism* عند رينوفييه *Renouvier* وبين أفكار وليم جيمس والروائى ويلز[5]، فقد أنكر رينوفييه اللامتناهى الميتافيزيقى بعد أن خلطه باللاتناهى الرياضى الزائف، أما عن جيمس فقد كان مختلفًا، فنظريته قد

---

[4] *Le Mond Psychique, February 1912.*

[5] *Dieu, L'invisible Roi.*

انطلقت من ’الأخلاقية‘ الأنجلوساكسونية، ومن المنظور العاطفى الذى مثَّل فيه الرب شخصًا فرديًا بصفات أخلاقية تضاهى صفاتنا الراهنة، وكان مفهوم المركزية الإنسانياتية *anthropomorphic* مفروضًا فى السلوك البراجماتى كصدق مطلق، والذى قام على استبدال الحق بالمنفعة، كما أنه خلط بين الدين والتدين كما هى عادة العقل البروتستنتى، أى بمثابة قول إنه لا يرى شيئًا غير العناصر العاطفية، لكن فى أطروحة جيمس أمر أكثر من ذلك جدية، وهو ما تعلق أساسًا بما ذكرنا عن ’الشيطانية اللاواعية‘، وهو تعبير يثير غضب المعجبين به وخاصة من دوائر العقلية البروتستنتية التى تنكر مثل هذه الأفكار[6]، وقد كانت نظرية جيمس عن ’التجربة الدينية‘ التى جعلته ينظر فيما ’تحت الوعى‘ كوسيلة للتواصل مع الربانى، ومن المسلم به أنها خطوة إلى إقرار ممارسات الأرواحية، واعتبار الوسطاء أدوات فائقة لتلك التواصلات، وينطوى ما ’تحت الوعى‘ على كل ما يحتاجه الكائن من بقايا الأحوال السفلية للوجود التى لابد أن تتصل بالإنسان، أى القول إنها كل ما يمثل فى عالمنا تلك الأحوال السفلية، وادعاء أنها ربانية بمثابة وضع الربوبية فى أسفل درك من أحوال الوجود، أى فى الجحيم *in inferis* بالمعنى الحرفى[7]، فهى نظرية ’جهنمية‘ على الحقيقة، وانقلابًا على النظام الكونى الذى نصفه هنا بمصطلح ’شيطانية‘، ولكن حيث إن ذلك لم يكن مقصودًا عند الذين قبلوا تلك النظرية دون إدراك جسامتها فليست إلا ’شيطانية لاواعية‘.

وتتسم الشيطانية دائمًا بالنكوص عن الترتيب الطبيعى، فهى المعنى النقيض لمذهب الرشد *orthodoxy* التراثى، وتقلب دلالات رموز أو صيغ بعينها، وحتى إن بعض أعمال السحرة ليست إلا ممارسات دينية معكوسة، وقد جرت أمور غريبة فى انعكاس الرموز رغم أننا لن نسهب فى هذا الأمر حاليًا، لكن يجوز قول إن ’العلامات‘ نادرًا ما تخدع، كما نلاحظ أنه سواءً أكان ذلك التقلب مقصودًا أم لم يكن يشير إلى الشيطانية الواعية وغير الواعية على السواء[8]، وقد كان استخدام الرمز المقلوب فى طائفة الكرمل

---

6 وقد واجهنا اللوم من ذلك الجانب لما أطلقوا عليه اسم ’ التحيزات المناهضة للبروتستنتية‘، فسلوكنا بهذا الصدد بعيد عن التحيز، فقد وصلنا لآرائنا على منوال فكرى صرف كنتيجة لكل الاعتبارات التى طرحناها فى عدة مواضع من كتابنا ’مدخل عام إلى فهم المذاهب التراثية‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر.

7 وعكسه *in excelsis* بالمعنى الأسمى لأحوال الوجود، أى السماوات كما تمثل الأرض أحوال الإنسان.

8 وقد شهد البعض رموزًا مقلوبة فى صورة ’محصول العنب التى رسمتها ’الأرواح‘ والتى اتخذها كارديك

التى أنشأها فينتراس *Vintras* منذ زمن سحيق ترى لأول وهلة فى الصليب *Carmenleen* المقلوب علامة تثير الشك، والواقع أن هذه العلامة فُسِّرت بمعنى 'آلام المسيح' التى حل محلها 'أمجاد المسيح'، ويُحتمل أن فينتراس كان شيطانيًا دون أن يعى فى خِضم الظواهر التى جرت حوله من 'الأرواحية الشيطانية'، ولكن ربما لا يُقال ذلك عن تابعيه المعتمدين، كما أن هذه المسألة تحتاج إلى عمل خاص يلقى ضوءً على ' التجليات القَبْلِيَّة *preternatural*' التى انتشرت فى القرن التاسع عشر، وأيًا كان الحال فإن هناك أكثر من التقارب بين 'الدين الزائف' وبين حركة 'مناهضة الأديان'[9]، ويلزم الحذر فى تناول هذه المقارنات التى لا مبرر لها، لكن يجوز أن يكون 'للدين الزائف' وحركة 'مناهضة الأديان' درجات شتى فى الانتقال بين أحدهما والآخر والذى يحدث بلا إدراك حسى دون ملاحظة الحركة، وهى أحد المخاطر الكامنة فى أى نوع من الاجتياح حتى اللاإرادى فى نطاق الدين بما هو، ولو قُدِّر للمرء أن يسير فى منزلق سيستحيل أن يعرف أين سيتوقف، كما أنه لن يتماسك إلا بعد فوات الأوان.

وقد فسرنا السمة الشيطانية لمفاهيم بعينها عادة ما لا تعتبر كذلك، وهو ما يؤدى إلى طرح اعتبارات مكملة لاغنى عنها لكثير ممن لا يميزون بين حقول متجاورة لكنها منفصلة بالضرورة، وما قلنا توا يشير إلى النظرية الميتافيزيقية عن تعدد أحوال الوجود، وهى تبرر اللغة التى نتحدث بها، فكل ما قيل لاهوتيًا عن الملائكة والشياطين يجوز التعبير عنه ميتافيزيقيًا بالأحول الأسمى والأحوال الأدنى، وهنا 'مفتاح' كما يقول الغيبيون، لكن الشعائر *arcana* التى تفتح ليست فى مطالهم، وهو مثل عما طرحنا سلفًا فى موضع آخر[10] عن أن كل حقيقة لاهوتية بالمصطلح الميتافيزيقى لا يصح عكسها، فهناك حقائق ميتافيزيقية لا تُفَسَّر باللغة اللاهوتية، ومن جانب آخر لا وجود لشىء بين اللغتين إلا التناظر وليس التماهى ولا حتى التساوى، فاختلاف اللغة يفصح عن اختلاف المنظور الحقيقى، وطالما بقيت أمورًا لا تتبدى فى اللغة ذاتها فلا تنتمى إلى للنطاق ذاته، فالكلِّية

....

غلافًا لكتابه *Le Livre des Esperits*، والواقع أن طرح التفاصيل غريب بما يكفى، ونذكره فحسب على سبيل المرجعية.

9 وتنطبع نوايا مناهضة الدين على السحر، لكن لابد من من تمييزها عن السحر حتى لو كان من أحط المراتب، فليس للسحر علاقة مباشرة بين نطاق السحر بما هو وبين الدين.

10 'مدخل عام إلى فهم المذاهب التراثية'، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

Universality التى تتميز بها الميتافيزيقا فحسب لا وجود لها فى اللاهوت، والأمر الذى تتناوله الميتافيزيقا ليس إلا إمكانات الكائن الإنسانى، أو هى على وجه الدقة الوجود الذى تشتمل إمكاناته على أكثر من الفردية الإنسانية وحدها، لكنها تبدو مثيرة لاهتمام اللاهوتيون، وليس لها الأهمية ذاتها عند الميتافيزيقيين الذين يسلمون بأنها لابد أن تكون كذلك بمجرد أن أصبحت إمكانية فعالة، وليس هناك من تحديد اعتباطى يتقابس مع الميتافيزيقا، كما لو أن هناك تجليات مبدئها حال بعينها فلا يهم ما إذا كانت ترجع إلى هذا الكائن أم إلى غيره من الواقعين فى الحال ذاته، وقد لا تكون راجعة إلى كائن محدد أيًا كان، ولا لزوم إلا للحال التى نجدها فى أنفسنا كانعكاس أو بقايا لحال أسمى أو أدنى من حالنا، فمن المهم تأكيد أن تجلى حالٌ أيًا كانت طبيعته ترجمة غير مباشرة لحال آخر، ولذلك نقول إنها من حيث المبدء فحسب وليست سببًا مباشرًا فى ذلك الحال الآخر، وتسهِّل هذه الاعتبارات فهم ما قلنا عن 'القوى الهائمة'، والتى يُعتبر بعضها شيطانيًا حقًّا سواءً أنظرنا إليها كقوى بسيطة للعمل أم كانت تخص كائنات بعينها بالمعنى الصحيح[11]، وقد يصح الاثنان معًا فى حال بعينه، ولابد أن نترك الباب مفتوحًا لكل الإمكانات، ولا يغير ذلك من الطبيعة الكامنة للقوى المذكورة، ويبين ذلك الحد الذى نتوقف عنده عن الجدل اللاهوتى، وليس ذلك لقول إننا لا نسلِّم بمشروعية اللغة اللاهوتية فى هذ المنظور حتى لو استخدمنا بعض المصطلحات اللاهوتية لكى نبين التناظرات الحقيقية، فإننا نستعيرها كوسيلة للتعبير تتوافق مع الأفهام التى نخاطبها، وعلى الكائن المذكور أن يركِّز على تمييز الاضطراب الحاصل عن جهل الناس وسوء نيتهم، ويصح ذلك لكى يستعين اللاهوتيون بالاعتبارات المذكورة لصالح منظورهم، أما الآخرين فلو كانوا يخشون الكلمات فعليهم إيجاد مصطلح آخر لتسمية الشيطان، فما نصرُّ عليه من تسمية الشيطان شيطانًا فذلك لأننا لا نجد فيها نقصًا خطيرًا، وبموجب أن الذين يكتفون بالتسليم بسهولة فهمها على نحو أفضل باستخدام لغة أقل شيوعًا فيعنى تعقيدًا بلا عائد.

وليس الشيطان مرعبًا فحسب بل كذلك قبيحا، وليأخذ ذلك كلٌّ بقدر فهمه، لكن الذين سيندهشون من ذلك فعليهم أن يرجعوا إلى التفاصيل العجيبة فى أدبيات

---

[11] وقد ادعى كثير من الغيبيين أن ما يبدو على هيئةٍ قوى هو على الحقيقة كائن فردى يضاهى الإنسان، وهذا المفهوم الإنسانياتى *anthropomorphic* غالبًا ما يناقض الحقيقة.

السحر، ثم التجليات النابية عند الأرواحيين الذين ينسبونها إلى ’عدم التناسخ‘، وفيما يلى عيِّنة من آلاف منها،

".. ويُتلى دعاء للأرواح ويضع كل الحضور أيديهم على المائدة أو أى أثاث قريب منهم، ثم تُظلِم الغرفة».. ثم تهتز المائدة قليلًا لكى تعلن عن حضور ماثورين».. وفجأة تُسمع خربشة عنيفة تحت أيدينا كما لو كانت بفعل مخالب من الصلب تجعلنا نتراجع من الدهشة، ومن ثم تبدأ الظواهر فى التجلى، فتُسمع دقات عنيفة على الأرض تحت نافذة فى ركن بعيد عن التناول، ثم يتجسد إصبع يخدش يداى بعنف أحدهما بعد الأخرى، ثم تدفأ اليد وتلمس يدى اليمنى وتحاول خلع الخاتم من إصبعى لكنها لا تستطيع».. فتنزعُ زِرَّ كُمِّى وتلقى به على حجر من يواجهنى ولا أستعيده إلا بعد انتهاء الجلسة، وكان معصمى محشورًا بين إبهام اليد الخفية وسبَّابتها، وأشعر بشد سترتى من أسفلها عدة مرات ونقرات على فخذى الأيمن، ثم أشعر بإصبع يدخل تحت راحة يدى اليمنى المطروحة على المائدة ويخربشها».. ويعمد ماثورين الذى كان يبدو منشكعًا بنفسه إلى التدحرج على المائدة مقتربًا من أيدينا، وقد يطلب منا فى بعض الأحيان أن نغنى ما يريده من أغانى بدقات على المائدة.. وقد وُضع على المائدة كوب زجاجى به سكر، ودورق ماءٍ وزجاجة صغيرة من الروم وملعقة صغيرة موضوعة على مائدة قريبة من النافذة، وقد تعجبنا عندما سمعنا الكائن يقترب، ويصب بعض الماء وبعض الروم، ويرفع غطاء وعاء السكر، وقبل أن يضع السكر فيما أعده يأخذ الكائن قطعتى سكر ويحكُّهما ببعضهما فتصدرا شرارًا عجيبا، ثم عادت[12] إلى الروم بعد أن وُضِعت قطعتا السكر على المائدة، وأخذت بعض السكر من الوعاء ووضعته فى الكوب، وسمعنا صليل الملعقة تدور فيه، ثم أعلنت الدقات عن تقديم الخليط لى كى أشربه، وأدرت وجهى بحيث يجد ماثورين أذنى حيث يتوقع أن يجد فمى، لكننى أسأت تقدير ضيفى، فقد أتى الكوب إلى فمى بلا توانٍ، وتخلل المشروب دون أن تسقط منه نقطة واحدة».. وقد كانت تلك هى الوقائع التى جرت كل سبت طوال خمسة

[12] ومن الواضح أن هذه ’الروح‘ من جنس غير محدد، فالإشارة إليها تجرى بصيغة مذكرة ومؤنثة فى ذلك السياق. المحقق.

عشر عامًا بتنويعات لا تُذكر"[13].

ومن الصعب تصور أمر أكثر من ذلك صبيانية وسذاجة، فلابد من الاعتقاد بأن الموتى يعودون للانخراط فى الفكاهات والتسالى، فماذا نقول عن 'دعاء للأرواح' الذى تبدأ به الجلسة؟ والسمة الأقبح فى كل ذلك هى الاستغراق فى التدنى، فحتى لو كان المصدر هو كائن إنسانى فلابد أنه جاء من منطقة منحطة مما 'تحت الوعى'، وهو ما يسم كافة ممارسات ونظريات الأرواحية، ولا نستثنى من ذلك ما كان أكثر 'ارتفاعًا' كما يقول الأرواحيون عن بعض 'التواصلات' التى يستقبلونها، والذين يدَّعون أنهم يُعبرون عن أفكار عبثية لا تُفهَم أو عن زعمٍ لن يُقصِّر أقل الناس تعليمًا عن إدراك بلاهته، أما باقيها فلا يربو عن عاطفية مضحكة، وما من شك فى عدم لزوم تحضير الشيطان لتفسير نتائجهم التى تنتمى قصرًا إلى ما 'تحت الوعى' الإنسانى، ولو وافق الشيطان على التورط فيها فلن يجد صعوبة فى التعبير عنها على نحو أفضل، كما يُقال إن الشيطان لو أراد لأصبح ثيولوجيًا لا يشق له غبار، لكن من الصحيح كذلك أنه يترك فى تعبيره شيئًا من العبط كما لو كان على سبيل التوقيع، ونضيف أن هناك نطاقًا واحدًا لا يُسمح له بدخوله، وهو النطاق الميتافيزيقى، وليس هنا مجال لذكر أسباب ذلك رغم أن الذين فهموا التفسيرات السابقة سوف يدركونها بلا صعوبة تُذكر، ولكن لنعد إلى تجوال ما 'تحت الوعى'، ويكفى القول بأنه قد ينطوى على عناصر شيطانية بالمعنى السابق، والتى قد تضع المرء لاإراديًا فى اتصال مع تلك القوى حتى لو كانت لاواعية، لكنها 'شيطانية' على السواء، وندفع بأن ذلك يكفى للتعبير عن الشخصية ذاتها فى مسألة 'التواصلات' المزعومة، والتى تميز بالضرورة بخشونة اللغة، ويجوز أن يحدث أحيانًا قبل أن يُعجَب به الأرواحيون، وهناك علامات يصعب تمييزها من أو وهلة، وقد تكون توقيعًا مختصرًا من واقع علاقته بالكل، أو كصيغة خاصة أو بإنشاء بعينه، وهناك مصطلحات وعبارات تتكرر فى كل أين، وهى تذهب فيما وراء هذا المناخ أو تلك الجماعة، ويبدو كما لو كان مفروضًا من إرادة ما تهيمن على الحركة العامة، ونلاحظ هذا فحسب دون نية استنتاج نتائج دقيقة، ونفضِّل ترك الجدل فى هذا الموضوع لنشطاء ' الأسرارية الثالثة *third*

---

[13] *Le Fraterniste, December 26, 1913. The almst identical séance with the same mediums and the same 'entity' was given in L'Initiation, October 1911.*

‘mysticism’ أو ’ الأسرارية الإنسانية ‘human mysticism’ التى توهمها القسيس البروتستنتى الصابئ جور Gorres، أما نحن فلو تعيَّن علينا وضع السؤال على الساحة اللاهوتية فلن يكون على منوالها حيث إنها مسألة عناصر ’تحت إنسانية‘، أى ممثلًا لأحوال أخرى حتى لو كانت كامنة فى إنسانيتنا، لكن ذلك ليس موضوعنا.

ونرى الأمور التى أشرنا إليها توًا فى ’التواصلات‘ العاطفية على الأخص تسم السواد الأعظم منها، وسيشعر كثير من الناس بالغضب لاستحضار الشيطان فى هذا الأمر مهما كان بشكل غير مباشر لكى يعظ فى الأخلاق، وهذه أطروحة أرواحية لنقض منظور المناوئين بدعوى النظرية الإبليسية demoniacal theory، ونجد هنا مثلًا للمصطلحات التى يلجأ إليها الأرواحيون وفى الآن ذاته قس بروتستنتى يعبر عن نفسه، وهى كلمات تستحق الانتباه بموجب ازدواجيتها،

"يُقال فى الكنيسة إن الأرواح التى تتشكل هى شياطين من الخطر أن نتصل بإبليس، وأنا لم أحظ بعد بشرف لقائه ولكن لنفترض أنه موجود، وما أعلم عنه أن له صيت واسع لذكائه الخارق وخبثه الشديد، وفى الآن ذاته بعدم ضرورة أن يكون خيِّرًا ومحسنًا، ولو كانت ’التواصلات‘ التى تترى علينا منه ذات صبغة سامية وجمال فائق تستحق التصوير فى الكاتدرائيات والتلاوة فى المواعظ فكيف تأتى له لو كان شريرًا أن يهدى الذين يتوسلون به إلى أعظم النصائح المُعَزية والتعاليم الأخلاقية؟ ولذا كيف لا أصدق أننى أتواصل مع الشيطان؟"[14]

وهذه المقولة لا تروق لنا على أى نحو كان، فأولًا لو كان الشيطان لاهوتيًا فذلك أمر فى صالحه إذ يكون أخلاقيًا بالبداهة، وهو ما لا يتطلب ذكاءً خارقا، ويمكننا حتى قبول معقولية أن يتبدى فى تلك الهيئة حتى يجيد خداع الناس لقبول مذاهبه الزائفة، وثانيًا أننا نرى فى كونه ’معزيًا‘ و’أخلاقيًا‘ من أحط الأمور رغم وصفها بأنها "ذات صبغة ساميَة وجمال فائق"، ولو نحن وضعنا الأخلاقية فوق كل شيء آخر كما يفعل البروتستنت والأرواحيون فقد قلبنا النظام الطبيعى للأمور، وهذا أمر شيطانى حقٌّ، وليس ذلك لقول إن كل الذين يعملون على هذا المنوال يتواصلون مع الشيطان بالفعل.

---

[14] Descourse of Pastor Alfred Bénézech at the 1913 Geneva Spiritit Congress.

كما أن هناك ما يمكن قوله بهذا الصدد، فإن الدوائر التى توالى الوعظ بالأخلاقية عادة ما تكون لاأخلاقية عمليا، وتفسير ذلك ببساطة أن أى شيء يتماس مع هذا النطاق يستدعى أحط ما فى الطبيعة الإنسانية، فلم يكن من العبث ربط فكرتا الخير والشر بلا انفصال، فلا يمكن لأيهما أن يوجد بدون الآخر، فلا فارق بينهما إلا معنى التضاد، ولكن لو رأى الذين أصيبوا بالعمى من الأرواحيين من جرَّاء الأحقاد يُعجبون بالأخلاقية أن كثيرًا من الأمور التى تثير غضبهم الذى يعبرون عنه بفظاظة، ولو كان الذين يرتادون هذه الجماعات صادقون فإن هناك كثيراً مما تحت السطح لا ينبغى ابتلاعه، فقد ردَّ جابوريو *F.K. Gaboriau* على الهجمات على منشورات أرواحية[15] متنوعة كما يلى،

"إن الأدبيات الأرواحية تعمل على ترويج السلبية، أى العمى والتهافت جسديًا وأخلاقيًا للكائنات التعيسة التى تَطحَن أعصابها ونفسياتها فى جلسات تحضير الأرواح ليست إلا انفعالات سفلية بشعة،.. ويجوز لنا القصاص لو جاز فى الثيوزوفية نشر سلسلة مقالات عن الأرواحية فى مجلة *Lotus* عن القصص القبيحة التى نعلم بها لفضح كل الوسطاء متلبسون بأعمالهم، ويمكننا تمزيق المنشورات التى كتبها بيريل *Bérels* بتحليلها ونقدها[16] وتفسير انتمائها إلى كتاب هوتشر *Hucher*، فيمكن الرجوع إلى قصة قاع الأرواحية وإعلانات المواخير فى المجلات الأرواحية الأميريكية، والتى تصف بالتفصيل أهوالًا من كل نوع حدث ولازال يحدث فى تجسدات عكرة لمجالس تحضير الأرواح الأميريكية والانجليزية والهندية والفرنسية، ولربما أمكننا القيام بالغسيل، لكننا نرجح الصمت حتى لا نعكر صفو العقول"[17].

ورغم ذلك التحفُّظ نجد شاهدًا بيّنا لا يُدحض فى 'الأرواحيون الجدد' الذين عَبَروا من

---

15 *Notably in Revue Spirite of September 17, 1887.*

16 ويتعلق ذلك بوسيط يسمى *Jules-Edward Bérels* الذى تواضع بادعاء أنه 'سكرتير الرب'، ونشر مجلداً جسيماً من أحط أنواع الخطل، كما كان هناك حالة مرضية أخرى رغم أنها من خارج الأرواحية فى شخص أوفار *Paul Auvard*، والذى كتب كتابًا بعنوان 'بإملاء الرب' *'Le Saint Dictamamin'* الذى جمع قليلًا من كل شيء فيما عدا معنى الرب.

17 *Le Lotus, October 1887.*

الأرواحية، وقد وجدنا بعضهم مثل كاستيلو *Jollivet-Castelot* الغيبى الذى اشتغل بالخيمياء و النفسانية *psychism* والذى انفصل عن مدرسة بابوس منذ زمن، والذى انتمى إليها ظاهريًا، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى تفجرت فى الصحافة مسألة الاحتيال البيّن فى تجارب التجسد التى تعلقت ب مدام بيسون *Mme Julliette Alexandre Bisson* و د. نوتسينج، *Dr von Schreck-Notzing*، ووسيطة باسم غامض هو *Eva C...* ، وقد غضب الأرواحيون عندما نُشر مقال كاستيلو فى مجلة *Le Matin* فضح فيه أن اسم الوسيطة المذكورة ليس إلا مارتا بيرو *Marthe Béraud* التى احتالت على د. ريتشيت فى فيلا كارمن بالجزائر، كما كانت أحد 'العارفين' الرسميين فى تجارب معامل السوربون[18]، وقد ألقى مستر شيفرى *Mr Chevreuil* على وجه الخصوص كومًا من الإهانات على كاستيلو[19] وفضح أخلاقيات الدوائر الأرواحية إلى أقصاها بوصمها 'بالسادية المختلطة بالاحتيال والحمق والغفلة التى لا تنفصل عنها عند الوسطاء والمجربين على السواء'، وقد استخدم ألفاظًا نابية لن نذكرها هنا، لكن نقتبس السطور التالية فحسب،

"من المؤكد أن مصدرها غالبًا ما يكون نجسًا، فتلك الوسيطات العاريات وفحص 'المخابئ الدفينة'للأشباح التى تجسدت تُتَرجم بلغة الشبق لا بمفهوم معجزة الأرواحية والنفسانية، وأعتقد أن تلك الأرواح ذاتها لو عادت لظهرت على منوال آخر غير ذلك"[20].

وهنا صاح شيفرى قائلا،

"إننى حتى لا أريد أذكر اسم الكاتب المأفون بالكراهية الذى غرق فى الحمأة ولا وجود لاسمه عندنا"[21].

---

[18] وقد كانت كل نتائج هذه التجارب سلبية، وقد توقفت منذ فترة قبل تأليف هذا الكتاب، ولابد لنا من اعتقاد اتخاذ احتياطات كافية فى ذلك الحين.

[19] *Le Fraterniste, January 9 and Februay 1 and 6, 1914.*

[20] *Les Nouveaux de la Science et de la Pançée, February 1914, p 87.*

[21] *Le Frateniste, February 1914, p 87.*

ويبدو ذلك غضباً هزلياً لا يصلح لكى يكون دحضًا، وتظل الاتهامات على حالها، ونعتقد أنها قائمة على أساس، وقد جادل الأرواحيون إبان هذه الفترة فى مسألة إشراك الأطفال فى مجالس التحضير، ويبدو أن جماعة 'الأخوَّة' منعت ذلك فى التجريب، ولكنها عوضت ذلك 'بدروس فى التراحم'[22]، ومن ناحية أخرى أعلن بوديه *Paul Bodier* عن مؤتمر 'الجمعية الفرنسية لدراسة الظواهر النفسية' الذى ربما لم يسمح للأطفال بحضور 'المجالس التجريبية التى انتشرت فى الآفاق'، وأن 'الأرواحية التجريبية' لا يجوز ممارستها إلا فى المراهقة[23]، و كان الأرواحيون المعتدلون إلى حد ما يخشون من آثارها الضارة على عقول الأطفال، أليس ذلك الاحتياط إدانة لتلك التجارب على عقول البالغين؟ والواقع أن الأرواحيين يصرُّون دائمًا على أن دراسة الظواهر الأرواحية والنظرية التى تفسرها مفتوحة للكافة بلا استثناء بدلًا من قصرها على نوع من الصفوة المحمية نسبياً من المخاطر الناجمة، ومن ناحية أخرى فإن استثناء الأطفال الذى يُدهش دهاقنة الدعاية الأرواحية يُفسر على خير وجه لو تذكرنا كل تلك الوقائع الغريبة فى جلسات بعينها، والتى أنكرناها بشهادات لا تُنقض.

والسؤال الآخر الذى يضىء شيئًا من العادات المأثورة فى دوائر الأرواحية والغيبية ويتصل مباشرة بمسألة الشيطانية هو مسألة مضاجعة ذكور الجن *incubus* ومضاجعة الجنيات فى الأحلام *succubus*، والتى أشرنا إليها عَرَضًا فى الحديث عن 'جنس الأرواح'، وردُّ إيرنست بوسك على هذا الموضوع، وقد عقَّب محرر المقال بالمذكرة التالية،

"إن مستر ليجران فى المعهد الرابع للأخوّة قد لفت نظرنا فى أول مارس *1914* إلى حالة شابة عذراء فى الثمانية عشر قد خضعت منذ سن الثانية عشر لمضاجعة جنى كل ليلة، وقد أيد هذا الموضوع ببرهان تفاصيل مذهلة"[24].

وللأسف لم يُذكر شىء عما إذا كانت هذه الفتاة ترتاد مجالس الأرواحية، وعلى كلٍ فقد وجدت وسطًا يناسب الحديث عن مثل هذه التجليات، ولن نحكم عما إذا كان ذلك

---

[22] *Ibid., December 12, 1913.*

[23] *Revue Spirite, March 1914, p 178.*

[24] *Le Fraterniste, Marsh 13, 1914.*

من قبيل الهلاوس أم كان هناك أمر آخر، لكن الحالة ليست معزولة، فيؤكد بوسك لقُرَّائه إنها ليست حالة 'عدم تناسخ' وأن 'كثيرات من الأرامل والفتيات قد أكَّدن عليها له ببراهين دامغة'، لكنه أضاف على سبيل الحذر 'أنه لا يملك الحديث عن ذلك هنا، فذلك يستلزم وجود جَوّانية حقيقية وأسرارًا لا تقبل التواصل'، وهذه العبارة الأخيرة فاحشة ببساطة، فالأسرار التى لا تقبل التواصل التى تستحق صفة الأسرار بمعنى الكلمة ذات طبيعة تامة الاختلاف، وليس للجوانية الحقيقية علاقة بتلك الأمور[25]، وهناك غيبيين يتحفظون من الكلام فى هذه المسألة أكثر من بوسك، ونعرف أحد الذين ذهبوا إلى حد نشر مطوية بعنوان 'الطرق العملية لجماع ذكور الجن والجنيات'، فى حين لم يزد الأمر عن إيحاءات ذاتية فحسب، ونكتفى بذلك عن هذه النقطة، ولكن لو أصر البعض على تفاصيل أكثر فنحذرهم من قبيل الإحسان بأنهم سيندمون من جرَّائها، وقد علمنا طوال فترة ممتدة من البحث عن أشخاص بعينهم يقومون اليوم برئاسة محافل أديان زائفة باعتبارهم من ' عظماء الأساتذة *grand masters*' الذين ننصحهم بالخفاء، ولن نسهب فى المسألة بأكثر من ذلك فى هذا الصدد، لكننا لا نملك تجاهل نقطة عن الذين يشعرون بحاجة مَرَضية إلى تخليط الأمور الغيبية بدراسات ما سمى 'بالأسرارية *mysticism*'، ويحسن قول ما تقدم ولو على سبيل معرفة عقلية هؤلاء الناس، وبالطبع لا ينبغى التعميم لكن هذه الحالات ما فتأت تتوالد فى دوائر 'الأرواحيين الجدد' حتى لا يصح اعتبارها مصادفات، وهناك خطر آخر لابد من الإشارة إليه فيما يبدو اندفاع الأرواحيون الجدد إلى إنتاج كل أنواع التصنيف حتى لم يعد هناك ما لم تتضمن، ولو اتخذنا صفة 'شيطانى' بمعناها الاستعارى شديدة الوقع لأمر مَرَضى بهذه الدرجة.

وهناك أيضًا مسألة خطيرة لابد من قول كلمات قلائل بصددها، فقد نشر ' لو كليمان فارس القديس مرقص' رئيس 'الفيدرالية الأرواحية البلجيكية' حينها و'المكتب الدولى للأرواحية' نشرة نابية بعنوان *L'Euchristie* أى 'الصلوات' يؤكد أنها دراسة تاريخية يهديها إلى إيمانويل فاوشى زميل جين ماسيه السابق فى مدرسة 'رابطة التعليم الفرنسية'، وأقحم فى مقدمتها خطابًا من إيمانويل فاوشى يقول فيه باسم 'العقول

---

[25] ولابد من ذكر أحداث بعينها عن 'مص الدماء *vampirism*' الذى يستقى من أحط درك السحر حتى لو لم يكن هناك قوى فوق إنسانية.

السامية’ "إن المسيح لابد أن يفخر بالدور الذى دفعه إليه كهنوته"، وهو ما يبين عقليات الأرواحية ومدراء جمعيات المفكرون الأحرار، وقد وزعت آلاف النسخ من هذه النشرة التى عزاها إلى الكهنوت الكاثوليكى كدعاية مجانية لن نتناول تفاصيلها، وزعم أنه لا يلوم أحدًا لكنه رأى فى هذه الممارسات سرًا عظيم الأهمية من المنظورين الدينى والسياسى، وهو ما لا يكاد يُحتَمَل، فقد كانت الفضيحة مجلجلة، وغضب كثير من الأرواحيين فى بلجيكا[26]، وانسحبت كثير من الجماعات من الفيدرالية، وطُلِبت الاستقالة من رئيس مجلس الإدارة، لكن اللجنة أعلنت عن موقفها إلى جانبه، وقام لى كليمان فارس القديس مرقس بجولة فى مراكز متنوعة ليطرح آراءه لكنه نجح فى زيادة تسمم الأمور، ثم إن المسألة عُرِضت على المؤتمر الأرواحى فى دنيف الذى أدان النشرة ومؤلفها[27]، وأُجبر لى كليمان فارس القديس مرقس ومن جَرَّ جرُّه على الاستقالة وكذلك الذين رافقوه فى استيداعه، وأنشأ طائفة جديدة باسم ’الإخلاصية *sincereism*‘، والتى تضمنت أجندتها ما يلى،

"إن الأخلاقية الحقة هى فن إحلال السلام فى المنازعات، فالسلام الدينى يعتمد على كشف الأسرار ورفع وطأة الإكليروس العقائدية فى تعاليم الكنائس، وتحقيق السلام العالمى بالاتحادات الفيدرالية، وفرض السلام فى الصناعة بمشاركة العمال فى إدارة رأس المال والعمالة والمدارس العامة والسلام الاجتماعى بالزهد فى الرفاهية وتطبيق عائد الدخل لصالح أعمال الخير، وحماية الأمومة وكبت كل مشاعر الغيرة"[28].

وقد بيَّنت نشرة *L'Euchristie* المعنى المقصود من قول ’كشف الأسرار‘ الذى لابد من فهمه، أما البند الأخير من البرنامج رغم أنه ملتبس المعنى فسهل الفهم بالإشارة إلى نظرياتهم التى تروج ’للاتحادات الحرة‘، وقد وجدت ’الأخوَّانية *Fraternism*‘ التى أسسها ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ نشطاء متحمسون للدفع بها، وبدون أن

---

[26] ونجد فى هذه البلاد كثيرًا من العجائب على منوالِ تاريخ الراية السوداء، وليس لها علاقة مباشرة بالأرواحية إلا أنهما مضفورتان على نحو أكثر مما يعتقد.

[27] مناظرة قُدّمها مستر فرايكين إلى المؤتمر الأرواحى فى بلجيكا فى 23 نوفمبر 1913.

[28] *Le Fraterniste, November 23, 1913.*

نذهب بعيدًا تنصل أحد قادة الطائفة هو بول بيلّو من مسئولية الفارس بالعذر التالى،

"لابد لى كطبيب أمراض نفسية من قول إننى لا أعتقد أن ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ شأنه شأن كل الناس قابل للإصابة بأمراض نفسية *psychosis* مختلفة، وأنه كان ضحية تأثير عندما كتب هذه النشرة وطبعها، ولابد من البحث عن السبب الحقيقى وراء إنتاج النشرة المذكورة"[29].

ونلاحظ أن ’الأخوَّاتية‘ *Fraternism* التى ليست إلا الأرواحية المائلة بشدة إلى البروتستنتية، وأنها تضفى لقب *psychosia* أو *psychosic philosophy* على مذهبها، أما *psychoses* فتعنى عندهم ’القوى الخفية‘، وتبدأ كل جلساتهم بدعاء *Good Psychose*[30]، وقد دفعوا بمذهبهم إلى أقصاه بكبت حرية الإرادة بالكامل أو تكاد، ومن المؤكد أن حرية الفرد أمر نسبي محدود بحدود الكائن ذاته، ولكن لا تجوز المبالغة فى ذلك، فنحن نسلم بقدر بعينه بالعمل على عدة أنواع من القوى لكنها ليست كما تتوهم الأرواحية، وفى نهاية المطاف لم يكن ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ وسيطًا فيما نعلم، لكنه لعب دورًا سلبيًا كأداة لاواعية، كما أنه لا يمكن بين الأرواحيين قبول عذر أحد بسهولة، أما الثيوزوفيون البلجيك فقد كانوا أول من احتج بعنف، رغم أن هذا السلوك لم يكن منزهًا عن الغرض، فقد جرى إبَّان فضيحة مدراس[31]، وقد حكم ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ بأن من المفيد ذكر بعض التهم التى أدين بها ليدبيتر تأييدًا لأطروحته، وقد لزم دحض هذا التآمر المنحاز، وقد ظهر من ناحية أخرى ثيوزوفى آخر هو تيودور ريوس الأستاذ الأعظم ل محفل تمبلار المشرق الذى كتب إلى ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ ما يلى "وأرسل إليكم نشرتين من مجلة *Oriflammes*[32] ستجد فيهما أن محفل تمبلار المشرق على الرأى ذاته فى نشرة *Eucharistie* فى المجلة ذاتها عام *1912*، والواقع أننا نجد فيه جوابًا للمسألة التالية،

---

29 *Ibid., December 12, 1913.*

30 *Report of the first Congres des Fraternelles held in Lille, November 25, 1913.*

31 راجع ’الثيوزوفية‘ اباب *21*.

32 وتصدر مجلة *Oriflamme* مكتوبة بلهجة ألمانية محدودة التداول، وهى اللسان الرسمى لعدة جماعات ماسونية ’غير رسمية‘ يديرها تيودور ريوس، وكذلك جماعات عرضنا لها فى كتابنا ’الثيوزوفية، تاريخ دين زائف‘ بابا *3* و *25*. ترجمات تراث واحد قيد النشر.

"إن محفلنا يحتكم على مفاتيح الأسرار الهرمسية والماسونية، ألا وهى مذهب ’سحر الجنس *sexual magic*‘، والذى يفسر كافة ملغزات الطبيعة وكل الرموز الماسونية وكل الأديان".

ونذكر بهذا الصدد أن ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ كان من وجهاء الماسونية البلجيكية وأحد زملاء هيرمان بولجر الذى كتب عنه فى المجلة الكاثوليكية،

"هل لازالت الماسونية مغرمة بالشروح الغامضة التى تكتبها عن نفسها؟ لا أدرى، لكنه يصرِّح بأن المذهب هو سر الطائفة، ويكاد يكون حضوره تآمرًا وخاصة عند الأعضاء الذين ثاروا علنًا على أعماله"[33].

ولا حاجة لقول إن ادعاءات ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ وتيودور ريوس لا أساس لها على الإطلاق، فهى مزعجة حقًا لبعض الكتّاب الكاثوليك الذين اعتقدوا أنهم لابد أن يسلموا بها سواءً فيما تعلق بالماسونية أم بالأسرار القديمة دون أن يدركوا أنهم يُضعِفون موقفهم، والواقع أننا لا نرى فى هذه الأمور إلا تجشؤات عقول مريضة، وتنويهات شائنة كُتِبت عن سيرة ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ قد برهنت على عدم أمانته، ودفعت بعدة استنكارات من الذين مسَّهم بلا روية، وكان أن ادعى أنه لازال مدعومًا بمشورة ’قس كاثوليكى عامل‘، وهى عبارة نابية عن السياق تعنى أمرًا يختلف تمامًا عما قَصَد بها، والتى أطلق عليها ’برهانًا دامغًا‘[34]، والقس المذكور هو الأب بيتى *Father J.A. Petit* الذى جاء ذكره سلفا، والذى أسرع لإصلاح الأمور كما يلى،

"إن الحكم على ذلك ما يلى، ’إن أطروحتك على ما أعلم تعتمد على حقيقة أولانية، وأنك أول من تحدث عنها علنًا‘، ويبدو الحكم على هذا المنوال برهانًا على أنه ’لو كان كليمان فارس القديس مرقص‘ هو الذى دفع بها، لكن من المهم صرف سوء الفهم، فما هى تلك الحقيقة الأولانية؟ فيدعى الكاثوليك أن تناول خبز القربان هو جسد المسيح الذى ولدته مريم العذراء، وهو الذى صُلِب، ومن ثم مثَّل دمه بالنبيذ وجسده بالخبز ، لكن ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ قال

---

[33] *Le Catholique, December 1913.*

[34] *Ibid., October 1813.*

"لا"، وكان مصيباً من آكثر من جانب، فلا ينبغى للمسيح أن يستطيع وضع جسده المصلوب هناك خاصة بعد الصلب، لكنه حاضر فى التناول بالمبدء الحيوى *vital principle* الذى تناسخ فى العذراء، وهو جعل ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ أول من فَتّش هذا السر، وهو ما أسميه ’سرًا أولانيًا‘، ونتفق معه فى هذه النقطة، ولكن الاتفاق يتوقف بعدها، فقد دفع ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ بعنصر بشرى فى حين أننى دفعت بعنصر ربانى وبكل ما قال القديس بولس عن ’الكلمة‘[35]، وهكذا أصبحنا على طرفى نقيض،.. وأنا إذًا غريمه المُعلَن كما يشهد دحضى لمنشوره"[36].

ويشهد الحال أن تلك التفاسير الشخصية للأب بيتى لا تبدو أشد فسوقًا من ادعائه أن ’قيامة الجسد‘ تعنى التناسخ، فهل يستطيع أن يكون أمينًا فى تفسير كلمة ’المصلوب *crucfied*‘ كما فعل فى تفسيره لحضور المسيح فى القربان؟ وعلى كلٍ يتطلب الأمر حسن نية جسيم للاتفاق مع ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ حتى على نقطة واحدة، والذى يرى المسيح مجرد إنسان رغم أن رده الرسمى كان دحضًا لرأيه، وقد كتب مونسنيور لاديوز *Msgr Ladeuze* مدير جامعة لوفين خطابًا إلى مجلة *Revue Spirit Belge* فى *19* إبريل *1923* يقول فيه،

"لقد أُرسِل إلى عددكم المؤرخ بأول مارس *1913* أشير فيه إلى أن ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ قد ذكر أحد أعمالى فى نشرته بعنوان *L'Eucharistie* كمرجع للبرهان على وجود الأعمال الدنيئة التى تتعلق بشعيرة القربان، ولن أحط بقدرى بالجدل معه حول ذلك الموضوع المنحط، إلا أننى أرجوكم التنبيه على قرائكم بأن ترجمة عملى على هذا المنوال تدل إما على جهل تام باللغة اللاتينية، وأما عن عدم الأمانة فقد جعلنى هذا الكاتب آقول ’إن الأكاذيب محرمة مالم تكن لدرء شر فادح‘، فى حين أننى قلت فى الفقرة المذكورة إن الزيف محرَّم حتى لو لدرء شرٍ فادح‘، ولن يخطئ تلميذ فى سنته الرابعة فى فهم معنى النص".

---

[35] الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس *14:44*.

[36] *Le Catholique, December 1913. The refutation in question a[[eared in La Vie Nouvelle of Beauvais.*

وتبدو لافتة ’ الإخلاصية *sincereism*‘ فى هذه الأحوال تهكما، ونختم هذا الجدل بما سماه هيرمان بولينجر بما يلى،

"قصة جنونية يتعرف فيها القارئ المتمرِّس فى اللاهوت الأسرارى على السمات الشيطانية فيما عرض له"[37].

ونضيف لحسب أن الخلاف الذى نشأ فى الأرواحية البلجيكية من جرَّاء هذه المسألة لم يستمر طويلا، ففى *26* إبريل عام *1914* جرى تدشين ’بيت الأرواح‘ فى ’الرابطة الكارديكية‘ فى بروكسل، كما دُعِيت إليه ’الفيدرالية الإخلاصية‘، وقد أُلقِيَت محاضرتان أولهما للرئيس الجديد لمجلس الإدارة مستر فرايكين *Mr Fraikin* وألقى الثانية ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘، ومن ثم تحقق التصالح[38].

وقد رأينا أنه يحسُنُ طرح الوقائع التى يجوز لكل قارئ تفسيرها كما يهوى، وربما وجد اللاهوتيون فيها أمرًا أكثر مما يجد ’الأخلاقى‘ البسيط، أما نحن فلا نرغب فى دفع الأمور إلى أقصاها، وليس من شأننا التساؤل عن الأفعال المباشرة ’الشخصية‘ للشيطان، فهذا أمر لا أهمية له فى فهم الأمور، ولكنها مسألة ’التشخُّص *personification*‘ لو جاز التعبير، ولا لزوم لها من منظورنا، لكن ما ينبغى قوله مستقل فى الواقع عن ذلك التفسير وكل ما عداه من تفاسير، والتى لا ننوى استبعاد أيها بشرط وحيد هو أن تناظر إمكانية ما وتشاكل أية حركات سالفة، وهى قوى آتية بلا ريب مما سماه البعض ’ نطاق المسيخ الدجال *sphere of Antichrist*‘، كما يمكن اتخاذها بمعنى رمزى، لكن ذلك لن يغير شيئًا من واقع أنها ’أقل نحسًا‘، ولا ريب أن الذين يشاركون فى تلك الحركات وحتى الذين يتوهمون أنهم يوجهونها لا يعلمون فتيلًا عن هذه الأمور، وهنا تكمن أعظم مخاطر الأكاذيب، فمن الثابت أن بعضهم سيهرب رعبًا لو علموا أنهم خدم ’القوى الظلام‘، لكن عماهم المستعصى وتصديقهم سيصيبا ضحايا جُددًا، ألا يحضنا ذلك على قول إن أعظم خبائث الشيطان هى أن يوحى إلينا بانعدام وجوده؟

---

[37] *Le Catholique, December 1913.*

[38] ولم يتنازل ’لو كليمان فارس القديس مرقص‘ عن أفكاره مطلقا، فقد نشر حديثًا نشرة جديدة طرح فيها أفكار ’متقدمة‘ لنظرياته ذاتها.

11 عَرَّافون و نطاسيون

وعند الأرواحيين عدة أنواع من الوسطاء، ويصنِّفونهم بناءً على طبيعة ملكاتهم المخصوصة والظواهر التى يستطيعون إنتاجها، وبالطبع كان ما يقولون عنهم متضاربًا، فقد قسَّموهم على أصناف رئيسية وفرعية لا يُدرك لها حدود، وفيما يلى عيِّنة من قوائمهم الناقصة،

"إن هناك وسطاء يستطيعون إنتاج مؤثرات عضوية وإثارة ظواهر حسية مثل الضوضاء والدق على الحوائط[1] وتحريك الأشياء دون لمسها[2]، وهناك وسطاء حساسون يشعرون على نحو غامض بانطباع عن الأرواح الموجودة، كما أن هناك وسطاء سماعيون يميزون الأرواح اللامنتسخة أحيانًا ما تبلغ وضوح صوت الإنسان الحى، وأحيانًا ما تكون همسًا قلبيًا، وهناك وسطاء متحدثون[3] ووسطاء يكتبون"، بسلبية تامة، وينقلون اتصالات مما وراء القبر، وهناك وسطاء راؤون يرون فى يقظتهم أرواحًا، كما نجد وسطاءً موسيقيون ورسامون وشعراء ونطاسيون، والذين تعبر تسمياتهم عن ملكاتهم الغالبة"[4].

كما أن هناك أفراد يحتكمون على عدة ملكات فى الآن ذاته، وأكثرها شيوعًا من ينتجون مؤثرات عضوية بكافة أنواعها، ويكاد معظم الباقى أن يكون حالات تنويم كما سبق القول، إلا أن هناك أصنافًا لابد من الحديث عنها ببعض التفصيل وخاصة ما زادت أهميته عند الناس.

فالوسطاء الحساسون والراؤون والسماعيون يجوز جمعهم فى صنف أساسى واحد، ولا يسميهم 'وسطاء' غير الأرواحيون بناءً على أفكارهم المسبقة، وهم أفراد موهوبون

---

1 وهذه الحالة غالبًا ما تميز عن الآخرين باعتبارها أوسع شيوعًا من غيرها، ولا تتطلب ملكات فائقة.

2 ونضيف الارتفاع عن الأرض *levitation* إلى هذه القائمة.

3 وهم الذين يسمون أحيانًا 'الوسطاء المتناسخين'.

4 *Felix Fabart, Histoire philosophique et politique de l'Ecculte, p 133.*

بنوع من ’الحواس فوق الجسدية‘ التى أطلق عليها البعض ’الحاسة السادسة‘ باستعارة مصطلحهم عرضيًا دون أن نكون أوفر بيانًا، ويعمَد البعض إلى جمع ’الرائين‘ و’العرَّافين‘ وغيرهم من ذوى الملكات المتنوعة تحت صنف واحد، وقد ادَّعت بعض الجماعات أن للإنسان سبع حواس باطنية[5] إضافة إلى الحواس الخمس الظاهرية، وكل ذلك خروجٌ على معنى كلمة ’حاسة‘، ولا نرى كيف يتأتى وجود ’حواس باطنية‘ غير ما يسمى *sensorium commune* أى العقلية بوظيفتها فى التركيز والتنسيق مع المعطيات الحسية، ونسلِّم طوعًا بأن الفردية الإنسانية تحتكم على ملكات فوق حسية بعينها عند بعضهم، لكنها لا تشكل حواسًا بذاتها، ولو تحدثنا عنها بالاستعارة كحواس جسدانية فذلك لصعوبة الحديث عنها مطلقًا، ولو تحدثنا عنها حرفيا فذلك التمثيل لا يعدو وهمًا جسيمًا عند من وُهِبَ بها، والذين لابد لهم من التعبير عنها تمشيًا مع قواعد التسمية على المستوى الجسدانى، لكن هناك واقعيًا سبب آخر فى الدوائر الأرواحية ومدارس الأرواحية الجديدة يحاولون به عمدًا تنمية الملكات من هذا النوع، ولن نتحدث عن المخاطر الكامنة فى هذه ’التوهمات النفسانية‘ التى تُطيح بتوازن الذين يسلِّموا بها، فمن الواضح فى تلك الأحوال أن يُغرَى المرء بإطلاق ’نبؤة‘ واقعية ليست إلا نتيجة لفرضية، ففى بعض المدارس على منوال الثيوزوفية تبدو ’العِرَافة‘ غاية أسمى، وتبرهن الأهمية الزائدة لهذه الأمور مرة أخرى انعدام صلتهم بالتعميد رغم ادعاءاتهم، فليس فى كل الهراء الا العَرَضية التى سيستنكف عنها كل من له صلة بمعرفة أعمق، وأقصى ما يمكنهم عمله هو اعتبارها ’خارج الموضوع‘ الذى يسعون لفهمه، والذى غالبًا ما يكون عقبة وليس ميزة، والأرواحى الذى ينمِّى هذه الملكات فى نفسه يتخيل أنه يرى ’الأرواح‘ ويسمعها، ولذلك كانوا يعتبرونها ’وساطة‘، ويتوهم بعض ممن فى مدارس أخرى أنهم يرون ويسمعون أمورًا متباينة، لكنها من باب الخيال ذاته.

وإجمالًا فإن المسألة دومًا هى وصف نظرية المدرسة التى تجلت فيها الظواهر

[5] ونشير هنا إلى أن بعض المنظمات التى تدَّعى الانتماء إلى طائفة الصليب الوردى بدون علاقة تاريخية ولا مذهبية بأصولها، وكما نوهنا عن ذلك فى البابين الثالث والاثنين وعشرين من كتابنا ’الثيوزوفية، تاريخ دينٍ زائف‘، ترجمات تراث واحد قيد النشر، وهذا العنوان من أشد العناوين سوء استعمال فى زمننا، وليس لأحد من الغيبيين من أى مدرسة كانت أن يتحدث عن صلته بالصليب الوردى ولا عن أيٍ من المنظومات التراثية التعميدية والجوّانية.

المقصودة وليس من حيث المبدأ، وذلك سبب كافٍ بلا خشية من وسمهم بالضلال الذى يقوم بدور متفاقم الهيمنة حتى إن لم يكن مقصورا، ويمكن للمرء الثقة بما يُحكى عن ’ رائين *seers*‘ تلقائيين لا ينتمون إلى أى جماعة، ولكننا نجد أسبابًا أوفر لإنتاج الأباطيل، وأولها عدم كمال صيغ التعبير التى يستخدمونها، ثم التفاسير المخلوطة لرؤاهم بدون إدراتهم ولا وعيهم، ولابد أن يكون لديهم أفكار مسبقة حتى على نحو غامض، ولابد من إضافة أن هؤلاء ’الرائين‘ لا خلاق لهم بالأفكار الكامنة وراء نظريتهم ومذهبهم بما يسمح لهم بمعرفة أنفسهم وتمنعهم من تشويه الأموربتدخل خيالهم، وهو للأسف أشد ملكاتهم تطورًا، وعندما يلجأ ’الراؤون الأسراريون‘ الراشدون *orthodox* إلى ميولهم الطبيعية إلى التهويم فإنهم يكبتونها على نحو ما لاختزالها إلى حدها الأدنى لتجنب الشطح فى الاستنتاج الذى يؤدى إلى اضطراب لا ينفثئ، وأكثر الأمور يقينًا عندهم على منوال سويدنبرج مثلًا ليس بمنآة عن ذلك الخطل، ولا نحتكم على محاذير أكثر من ذلك نفعًا للبرهان على مدى أصالة أعمالهم، ويحسُن بنا العودة إلى مصادر أنقى، فليس فى السابقة إلا ما وجد فى حالٍ فوضوى آخر على نحو أكثر قابلية للفهم.

وتبلغ المثالب التى طرحناه أوجُها بين ’الرائين‘ الأميين، والذين يسترسلون بلا ضابط مثل دى فيجانيير *Louis de Figanieres* الذى كانت أدبياته[6] تحظى بإعجاب الغيبيين الفرنسيين الذين يرون فيها أعظم ’وحى‘ ممكن، وهنا تكمن معظم أصول ما سموه ’العلم الحى *living science*‘، وهو أحد أوهامهم الرئيسية، والتى تُعبِّر عن ’الوحى‘ المذكور بأشد المفاهيم إنسانياتية ومادية، أو بالحرِىّ تضفى عليهم أوصافًا لا تصح إلا للرب، والذى يطلقون عليه اسم ’الرجل اللانهائى الأعظم‘ و’رئيس وزراء الحياة‘ و’الكون‘ الذى رأى البعض تسميته ’الكون الكلى‘ بكلمة واحدة *Omnivrse*،[7] وتتراوح المسألة فى كل ذلك بين ’شبكات‘ و’مواقع إنشاء‘ و ’عمليات هضم‘ و’روائح‘ و’سوائل‘ .. إلى آخرها، وهو ما يُعجَبُ به الغيبيون باسم ’ علم هيئة الكون الأسمى *sublime cosmogony*‘، ومن بين العجائب نجد تأريخًا لتكوين كوكب الأرض الذى تبناه بابوس وعمل ما وسعه

---

[6] *Clé de la Vie, Vie universelle, Réveil des peoples.*

[7] *The different parts of the 'omnierse' are called 'univers', 'binivers', 'trinivrse'. 'quadriverse' etc…*

الجهد لنشره، ولا نرغب فى الإسهاب فى هذه المسألة بل نطرح فكرة عن تلك المراتب، فنقتبس فقط موجزًا للأرواحى البلجيكى يوبار *Jobard* [8]، والذى حافظ على اللغة الخاصة للأصل،

"وكرتُنا الأرضية جديدة نسبيا، وقد بُنِيت من مواد قديمة فى موقع إنشاء الكون من الخُردة القديمة لبناء الكواكب، والتى تجمعت بفعل الجاذبية والتكلس، وبنائها فى كلٍ واحدٍ من أربعة كواكب قديمة وصلت إلى أقصى مراحلها، وجمعها البستانى الأعظم كغذاء مادى، فكما يجمع الإنسان ثمار أشجاره الناضجة فى حديقته الأرضية كذلك يجمع الرجل اللانهائى العظيم ثمار حديقة كونه، وهذا ما يفسر اختفاء عدد من النجوم التى عاشت طوال قرون فى باقة زهور السماء، فليس هضم ثمرة ناضجة فى معدة رب أرضى صغير[9] إلا يقظة ورحيلًا لشعب أصابه *catalepsy* أو نشوة من السعادة فى عوالمهم الصغيرة للاتساق مع أعمالهم الذكية.. ولنعد إلى تكوُّن تكلسات الكواكب بإدماج أربع كواكب قديمة فى قارات مثل آسيا وأفريقيا وأوربا وأميريكا فى مجال مغناطيسى *magnetic catalepsy* تكون من النفس السماوية على كوكبنا، مشحونة بهذه العملية بغض النظر عن توحيد الممالك الصغيرة فى مملكة شاسعة، والذى جرى بدون مفاوضات مطولة مع النفوس الساقطة من الأربعة كواكب المذكورة، ولم يبق إلا القمر ككوكب خامس، .. والذى له مكان محفوظ فى المحيط الهادى[10]، لكن النفوس الخيرة والشريرة لها إرادة حرة على منوال جنس الإنسان.. ونقول إنها تنويم مغناطيسى..."

ونتوقف هنا بعد تصوير ما قاله الغيبيون عن دينهم الزائف وجوانيتهم المخاتلة.

---

[8] وقد ظهر هذا الموجز فى مقدمة كتاب *Clé de la Vie*.

[9] أى الإنسان لو كان 'الرجل العظيم' هو 'الرب الصغير'، وقد وجدت تعبيرات مشابهة عند سويدنبيرج على سبيل المثال، لكنها على الأقل كانت مفهومة رمزيًا، أما هنا فلا مناص من اتباع الترجمة الحرفية فى كل شيء.

[10] وقد شطح كثير غيره حتى عن هذه القصة، فزعموا أنه بعد أن اتخذ موقعه بين الكواكب الأخرى لم يتمكن من التخلص من جاذبية الأرض التى حكمت عليه بالدوران حولها عقابًا له على تمرده.

ولنضف أن لوى ميشيل ليس المسئول الوحيد عن اللغو الذى نُشِر باسمه، والذى لم يكتبه بل أملاه عن إلهامات ’روح ساميَة‘، وقد كان المعلم المسئول هو تشارل ساردو، وبالطبع فقد اصبغت كل هذه الأعمال بالأرواحية[11].

أما ’الراؤون‘ seers فقد كانوا ميالون دائمًا إلى فتح مدارس تتشكل حولهم دون أن يقوموا بدور مقصود، وقد كانوا فى الحالة الأخيرة ضحايا لحاشيتهم، والتى استغلَّتهم بوعى أو بلا وعى كما يفعل الأرواحيون بمن يكتشفون فيه ملكات وسائطية، وعندما نتحدث عن الاستغلال فى هذا السياق فإن المقصود به معناه النفسانى رغم فداحة نتائجه، فالرائى الذى يصبح مدير مدرسة *chef d'école* واقعيًا وليس ظاهريًا فحسب فلا تكفى رغبته فى أن يكون كذلك، ولكنه بحاجة إلى أمر يميزه عن ’تلاميذه‘ وتضفى عليه ملكاته الفائقة، ولم تكن هذه حالة لوى ميشيل لكنها ظهرت أحيانًا فى الأرواحية، وهكذا ظهرت فى فرنسا مدرسة أرواحية عجيبة الشأن، وقد أسستها وأدارتها مدام لوسى جرانج التى اتخذت الاسم الأسرارى *Habimélah* أو *Hab* اختصارا، والتى ادعت أن النبى موسى قد أسبغه عليها بشخصه، وقد أولت هذه المدرسة تبجيلًا خاصًا حيال فينتراس *Vintras* باعتباره ’نبيا‘[12]، وقد كانت مجلة *La Lumière* لسان هذه الجماعة التى بدءَ نشرها فى *1882*، والتى ضمت بين كُتَّابها بأسماء زائفة، وأكثر من واحد من الشخصيات المشبوهة، قد كانت مدام جرانج مشغولة ’بنبؤاتها‘، واعتبرت أن ’الاتصالات‘ التى تتلقاها من قبيل التنبؤات، وقد جمعت عددًا وافرًا من ’منتجاتها‘[13] فى مجلد جسيم، وسواءٌ أكانت *psychographic* أم *psychophonic* ’نبؤات معتادة‘ كما قالت، وتناولت عدة أنواع من مواهبها فى الوساطة، وقد حملت ’الاتصالات‘ التى تلقتها توقيعات المسيح ومريم العذراء والملاك ميخائيل والملاك جبريل[14]، والقديسين الرئيسيين من العهدين القديم والجديد، كما تضمنت سيرة وجهاء من التاريخ القديم والجديد،

---

[11] وقد تطورت خواطر لوى ميشيل فى عدة أعمال للكاتب آرتور دانجلمون *Arthur d'Anglemont*.

[12] *See a brochure entitles Le Prophèt de Tilly.*

[13] *Prophètes et Prophèties.*

[14] وقد توهمت مدموازيل كوريدون ’عرَّافة‘ شارع بارادايز التى تمتعت بساعة شهرتها أنها قد رأت الملاك جبريل، وقد اكتسبت ملكاتها فى الجلسات الأرواحية لمدام أورسا، وبالطبع سارع الأرواحيون باعتبارها ’وسيطًا متناسخًا‘

وبعض التوقيعات الأغرب على شاكلة ’ الجنية باسيبيه من مغارة الهلال‘ أو ’ رافانا روح كوكب المشترى‘، وتقول لنا إن القديس لوي فى ’اتصاله‘ كان انتساخًا من الملك داود، وأن جين دارك كانت انتساخًا من تامير ابنة داود، وتضيف الملحوظة التالية،

"إنه كان هناك صلة ذات مغزى بين داود رأس العائلة المقدرة، وأنه كان أصل ملوكنا الأواخر، وقد رأس القديس لوى أول التعاليم الأرواحية بلسم الرب الذى أصبح أبانا فى مسيحية جديدة برعاية آلان كارديك".

وقد كان لتلك ’التواصلات‘ معنى خاصًا فى عقلية الذين صنعوها، كما كان لها معنى واضحا تعلق بكل من اهتم بالجانب السياسى الدينى فى أجواء بعينها ومسألة حياة لويس السابع عشر، كما أن المجئ الثانى للمسيح كموضوع أقل ظهورًا فى هذه الدوائر، فهل كان لديهم نية لقول إن المسيح سيتناسخ فى ’قوم داود‘ الجدد وأنه سيكون ’الملك الأعظم‘ الذى أعلنت عنه ’ نبؤة أورفال‘ وبعض التكهنات بدرجات متفاوتة من الأصالة؟ ونقول إن هذه النبؤات والتكهنات لا قيمة لها، ولكن حيث إنها مصوغة بمصطلحات لا تكاد تُفهَم ويترجمها كل منهم بطريقته وعلى هواه وأن هناك أمور فى غاية الغرابة فيما يزعم البعض، وقد ’اهتدت‘ مدام جرانج فيما بعد إلى ما أسمته ’الروح المصرية‘ التى سمَّت نفسها ’شاليم هرمس‘ والتى أملَت عليها مجلدًا من ’الوحى‘، لكن ذلك أقل نفعًا مما تعلق بمسألة لويس السابع عشر، والتى بدأت بقائمة طويلة مُعَلّمِة للذين سعوا منذ بداية القرن التاسع عشر إلى الحقائق الخفية وراء توهمات بعينها.

وبعد حديثنا عن ’الرائين‘ لابد من قول شيء عن ’الوسطاء النطاسيون‘، فلو صدقنا الأرواح فإن ذلك من أسمى أشكال الوساطة، وعلى سبيل المثل ما كتب لوى دنيس أن كافة عظماء الكتّاب والفنانين ’ملهمون‘ و’وسطاء سماعيون *auditive mediums*‘،

"إن القدرة على الشفاء بالنظر أو اللمس أو اليد من أشكال ممارسة الأرواحية فى العالم، فالرب مصدر الحياة ومبدأ الصحة العضوية كما أنه الكمال الأخلاقى والجمال الأسمى، فإن أناسى بعينهم قد حققوا بالصلاة والمناسك قوة مغناطيسية تجذب هذا الفيض والإشعاع للطاقة الربانية التى تُشفى من السوائل الدنسة والتعاسة الشديدة، ولابد لهم من روح الإحسان والإخلاص التى تبلغ بهم حدَّ التضحية وبذل

النفس كشروط لازمة لحيازة هذه المكارم الربانية والاحتفاظ بها، وكان أعظمها العاملون فى فنون الشفاء بمعونة الأرواح،.. وهى أسمى من كافة الكائس الإنسانية وفوق كل الصيغ والشعائر والطوائف التى نتوسل بها الروح بفعل الإيمان،.. والواقع أن العلاج المغناطيسى لا يستلزم أية صيغ خاصة غير الحمية فى شفاء الغير بإخلاص الروح للرب مبدء كل القوى"[15].

ويسهل تفسير هذا الحماس لو تذكرنا الميول الإنسانياتية للأرواحيين، فيقول الكاتب ذاته،

"إن كلًا منا يمكن أن يشفى بيده على غرار المسيح والحواريين والأنبياء والسحرة لو أحب جاره وأخلص فى الرغبة فى شفائه،.. فما عليك إلا أن تستجمع ذاتك فى صمت وتدعو الأرواح الطيبة التى تحوِّم حول الشقاء الإنسانى، وسوف تشعر بسريان فيض من أعلى فى جسدك ومن ثم ينتقل إلى المريض، وهو موجة شافية تسرى فى مسببات الشر وتمدد عملك وتجدده، ومن ثم تُسهم فى تخفيف عبء العناء الأرضى"[16].

ويبدو عمل 'وسطاء الشفاء' مضاهيًا للمغناطيسية، إلا أن هناك اختلاف لابد من التحسب له، وهو أن المنوِّم المغناطيسى المعتاد يعمل بوحى إرادته دون الاستعانة بتدخل 'أرواح أخرى'، إلا أن الأرواحيين يقولون "إنه وسيط دون أن يدرى"، وأن نواياه فى الشفاء نوع من التسبيح الصامت حتى لو لم يؤمن 'بالأرواح'، والواقع أن العكس هو الصحيح، فإن المعالج الأرواحى هو الوسيط المغناطيسى اللاواعى سواءٌ أكانت ملكاته تلقائية أم مُدرَّبة بالممارسة، فليست إلا ملكات مغناطيسية، ولكنه يتصور بموجب أفكاره الخاصة أن يتوسَّل 'بالأرواح' وأنها تشارك فى الشفاء من خلاله، لكن الواقع أنه ناتج من نفسه، وهذا النوع من الوساطة المزعومة أشد ضررًا من غيرها على الذين يحتكمون عليها، ذلك أنها لا علاقة لها بافتقاد التوازن دون أن تعنى المرتبة ذاتها من السلبية، إلا أن الاعتقاد بالمغناطيسية فى الأحوال العادية قد لا ينطوى على مخاطر لمن

[15] *Dans l'Invisibele, pp 453-455.*

[16] *Ibid., p 199.*

استسلم لها، وخاصة من كان ’محترفًا *professional*‘، أما عن نتائج المغناطيسية فقد تصح تمامًا فى أحوال بعينها، لكن لا ينبغى المبالغة فى كفائتها، فلا نعتقد أن المغاطيسية يمكن أن تشفى أو حتى تخفف من كافة الأمراض بلا تمييز، فهناك طبائع لا تقبلها مطلقًا، زد على ذلك أن شطرًا جسيمًا من الشفاء راجع إلى قوة الإيحاء الذاتى أكثر مما يعود إلى المغناطيسية، أما عن القيمة النسبية لطريقة أو أخرى من الممارسات فذلك أمر مطروح للجدل[17]، وربما لم يكن أمرًا لاماديًا تمامًا كما يدَّعى ليون دينيس، وعلى الأقل فى حالة المغناطيسيين الموهوبين بملكات تلقائية طبيعية، فهذه الحالة توحى بوهم الوساطة بموجب أنها لا تترك مجالًا لجهود مقصودة، وربما انطبق ذلك على معظم ’النطاسيين *healers*‘ فيما عدا من اغتصب شهرته حينما يخلطها بالتهريج كما يجرى أحيانا، أما عن تفسير ظاهرة المغناطيسية فلا حاجة بنا لتناوله هنا، ولكن من نافلة القول أن النظرية السوائلية *fluidic theory*‘ التى يسهم فيها معظم المغناطيسيون لا أساس لها، فقد استقت منها الأرواحية مفهومها عن ’السوائل‘ من أى نوع كان، لكن هذه صورة عبثية بالغة الكثافة.

ويتضح مفهوم ’وسطاء الشفاء‘ فى ’الأخوّاة *Fraternism*‘ حيث يحتلون القمة فى الترتيب، ويبدو أن هذا السر يدين لهم بأصله لو صدق بول بيللار فيما كتبه عام *1913*،

"لم تكد تمر أكثر من خمس سنوات منذ حاولت فى مكتبى ومنزلى فى أوبى اختبار قدرتى كنطاسى، والتى اكتشفها فىَّ أخونا الطيب فى الفضاء جول ميودون وحضنى على ممارستها، وقد نجحتُ فى كثير منها فى حالات تتراوح بين العمى ووجع الأسنان، وقد سعدت بذلك حتى إننى قررت أن أضع خدماتى تحت طلب زملائنا بقدر الإمكان، ومن ثم انضم إلىَّ مديرنا جين بيزيا لنؤسس معًا

[17] ولا رغبة لدينا فى الدخول إلى المسائل الخلافية فى العلاقة بين التنويم المغناطيسى *hypnotism* وبين المغناطيسية *magnetism*، فالأولى اشتقاق من الثانية تاريخيا، لكن الأطباء الذين أنكروا المغناطيسية لا يملكون تبنيها دون أن يسبغوا عليها اسمًا جديدًا، ومن ناحية أخرى فإن المغناطيسية أوسع انتشارًا من التنويم المغناطيسى بمعنى أنها تعمل فى أحوال يقظة المريض وأقل اعتمادًا على الإيحاء، فيمكننا الإشارة إلى خلافات بين مؤيدى المغناطيسية ومناوئيها على شاكلة الخلافات القائمة بين مدارس سالبيتريير و مدارس نانسى، فالنتائج التى تحصلت من التجارب فى الجهتين تتسق دائمًا مع منظورهما، وهو ما يبرهن على الدور الحاسم للإيحاء حتى إن كان لاإراديا.

’المعهد العام للأمراض النفسية *l'Inistitut général psychosique*‘ فى سان لو نوبل، وأصدرنا العدد الأول عام *1910* من النشرة الدورية باسم *l'Inistitut de Forces psychosique*، والتى بدأت بنشر مجلتنا *Le Fraterniste*"[18].

وإبان عملهم فى النطاسة بدأوا فى عمل أوسع شأواً كما تبين الفقرة التالية عن بيزيا،

"إننا نشجع العلم على البحث فى الأرواحية، ولو أننا أرشدناه إلى الاهتمام بها فسوف يجد فى ذلك نفعا، وعندما ’يسعى ويجد‘ فإن الإنسانية سوف تجد السعادة، ولن تكون مجلة *Le Fraterniste* أكثر المجلات إثارة فحسب بل ستصبح أكثرها نفعاً بحيث ننتظر حقبة من السلام والبهجة بعد البرهان على صحة أسس الأرواحية واستقرارها، وسوف تُحل كافة المشاكل الاجتماعية"[19].

ولو قيل ذلك بإخلاص إلا أنه يفتقد التفكر، ولكن لنعد إلى نظرية ’العلاج النفسى السوائلية‘ التى طُرِحت فى محكمة بيتهون فى *17* يناير *1914*، التى اتهمت فيها السيدتين ليساج و ليكومت بممارسة الطب على نحو غير مشروع، وأطلق سراحهما نظراً لأنهما لم يكتبا أية روشتات، وفيما يلى أكثر ما فى الحكم أهمية،

"إنهما تضعن أيديهن وتهللن مع دعوتهن المُضمرة للقوى النجمية الطيبة[20]، ولا يقدمن دواءً ولا يكتبن علاجاً بالمعنى الطبي ولا رسائلاً، لكنهما تراعيا ألا تكون الوسائل السائلة خاملة كما فى المغناطيسية المعتادة، والتى تسمى ’المغناطيسية الأرواحية‘ أى أن المنوِّمين يتأثرون بقوى الأرواح الخيرة ومن ثم ينقلونها إلى المريض، والذى يشعر بتحسُّن أو بالشفاء التام بحسب الحال والوقت اللازم».. وقد سأل القاضى أثناء الاستجواب عن المعمل الذى يحتوى على أحواض من الماء الممغنط الذى أعده النطاسيون».. فليس الماء الممغنط هو ما يُشفى من منظورهم إلا بشكل نسبى، فهو يساعد فقط فى إزاحة السوائل السامة، لكن الأرواح هى

---

[18] *Le Fraterniste, December 26, 1913.*

[19] *Le Fraterniste, December 19, 1913.*، ولنلاحظ أن حركات السلام والنسوية من أهم بنود أجندة هذه المجلة.

[20] ويُراعَى أن ’الأخوَّات *Fraternaties*‘ المختارة أحياناً ما تستعير من مصطلحات الغيبية.

التى تعالج وتطرد الخبّث"[21].

وقد حاولوا فى موضع آخر إقناع الأطباء بأنهم لو نجحوا فى شفاء المرضى فإن نجاحهم راجع إلى ' القوى الخفية *psychoses*'، وقد أعلنتا بوقار،

"أيها السادة، إن القوى الخفية التى تشفى هى مجرد أداة، فأنتم أيضًا غاية هذه القوى، لكن من المفيد أن الأمور الطيبة قد جاءت من جانبكم كما من جانبا"[22]

ولاحظ كذلك قول بيزيا بهذا التفسير الغريب،

"ونستطيع تأكيد أن المرض أيًا كان أحد أنواع الشر *Evil*، فالمعالج ينفث سوائله فى المريض بحسن نيَّته ويقتل الخبَّثَ أو يحبط هذا النوع من المرض، وهذا هو السر بكامله"[23].

ومن حيث المظاهر على الأقل فإن الوقائع شديدة البساطة أو بالحريِّ شديدة 'التبسيط'، لكن هناك نطاسيون أُخر قد وجدوا طريقًا أبسط بإنكار الشر، فإن 'علماء المسيحية' و'علماء العقل' فى أميريكا حالة خاصة من رأى 'مذهب الأنطوانية *Antonism*'، وسوف نتناول هذه النقطة لاحقا، وتذهب 'الأخوِّيات' حتى إلى تسميتها 'القوى الربانية' فى طرق الشفاء عندهم، ومرة أخرى يدَّعى بيزيا "إمكان علاج المرضى بطاقات نجمية لامنظورة بالدعاء للوهاب مانح القوى، وهو الرب"[24] ، ولو كان هذا هو الحال فيجوز التساؤل عن ضرورة 'الدعاء للأرواح' و'القوى النجمية' بدلًا من الدعاء للرب فحسب على نحو مباشر، لكن ورد فيما تقدم ذكر عادة اعتماد 'الأخوّانية *Fraternism* ' على الرب، ويتعلق أمر آخر بهذه المسألة، فقد عقد سيباستيان فور *Sebastien Faure* محاضرة فى آراس *Arras* بتاريخ *9* فبراير *1914* بغاية طرح "اثنى عشر برهانًا على عدم وجود االرب"، وقد كرر إلقائها فى كل أين، وتحدث بعده بيزيا معلنًا أنه يسعى إلى الغاية ذاتها، وأنه يعتبر فور من أعظم مصادر سعادته، وينصح المستمعين بالارتباط به

---

[21] *Ibid., January 23, 1914.*

[22] *Le Fraterniste, December 19, 1913.*

[23] *Ibid., December 19, 1913.*

[24] *Ibid., April 10, 1914.*

بإخلاص لتحقيق البرنامج الإنسانياتى *Humaniterian*، وقال بعد عرضه لهذا الحدث فى مجلته ما يلى،

"إن أحباء سيباستيان فور ينكرون وجود رب الكنيسة، وهو مصدر قوة القهر الكلية لهذا العالم،.. ومن ثم لا نخشى طرح هذه المتناقضة، فلو كان سيباستيان فور وأمثاله لا يؤمنون برب كهنوت الكنيسة فلابد أنهم يؤمنون بالرب الحق، ونقول إن المرحلة الواقعية من التطور الاجتماعى هى أن ألئك المُنكِرون أكثر ربانية من غيرهم بموجب تشوقهم إلى سعادة الإنسان ونشر العدالة على الجميع،.. ونستنتج من ذلك أن فور الذى لم يعد مؤمنًا بالرب فذلك لحسب بموجب أن الذين يعرفونه أو بالحريِّ يشعرون به أكثر يعرفون مقدار التزامه بالفضائل"[25].

ومنذ ذلك الحين فشل سيباستيان فور فى بعض مغامراته التى بيَّنت حقيقة التزامه بالفضائل، ولا شك أن دعاة 'الأخوّات' المدافعين عن 'لى كليمان فارس القديس مرقس' لهم طريقة فريدة فى الصداقة.

وهناك كثير من المدارس التى أسسها أو أدارها أرواحيون مستقلون نسبيًا على منوال بوفييه من 'الوسطاء النطاسيون'، والذى أدمج نظريتا 'المغنطيسية' و'الكارديكية'، وقد أصدرت هذه المدارس مجلة ' السلام العالمى *Universal Peace*' التى ولدت بدورها مشروعًا شاطحًا باسم 'مؤتمر الإنسانياتية *Congress of Humanity*' المذكور آنفا[26]، وقد اعتلى عرض برنامجها الشعارين "إن المعرفة الحقة للذات تعتمد على محبة الآخرين" و"إنه لا يعلو مبدأ فى العالم عن الحقيقة"، وهناك بعض النفع فى ذكر أن المبدأ الثانى ترجمة حرفية لشعار الجمعية الثيوزوفية، ومن جانب آخر أن بوفييه الذى التحق 'بالأخوَّات' فى النهاية كان نقيضًا للحالة المعتادة من واقع صلته الحميمة بالغيبيين، والواقع أن الغيبيين يجلون وسطائهم 'النطاسيين' بقدر لا يقل شطحًا عن الأرواحيين، فلم يكن 'الأساتذة المجهولون' عند مدرسة بابوس إلا نطاسيون لا يعلمون فتيلًا عن المذهب،

---

[25] *Ibid., February 29, 1914.*

[26] 'الثيوزوفية، تاريخ دين زائف' باب *17*. ترجمات تراث واحد قيد النشر.

والواقع أن بابوس لم يكن بحاجة إلى ’أستاذ‘، وكان كل ما يحتاجه أشخاص يقيمهم مقام ’الأساتذة‘ لكى يضفى مظهراَ جديًا على أساس منظمته وترويج الاعتقاد فى ’القوى السامية‘ التى تعاضده، ولم يكن كل ذلك التاريخ الخيالى عن "مبعوثى الأب *envoys of the Father*" و"الأرواح من شقة المسيح *apartment of Christ*" إلا سببًا لوجودها، وفى أحوال كهذه لا مجال للدهشة من أن جمهرة البسطاء فى الغيبية يعتقدون فى وجود ’اثنى عشر أستاذًا مخفيًا فى مذهب الصليب الوردى‘، فى حين اعتقد بعض ’النطاسيون‘ على منوال ’ الأب أنطوان‘ و الألزاسى فرانسيس شكلاتر *Francis Schlatter* الذين تحدثنا عنهما فى موضع آخر[27]، كما كان هناك آخرون لم يكونوا على القدر ذاته من الأهمية إلا أنهم أبواق للمدرسة ذاتها، وعلى منوال من كتب عنه بابوس ما يلى،

"وسوف نشير إلى بعض ’الرهبان‘ من الأرواحيين خاصة سالتزمان *Saltzman* الذى يدعو إلى فكرة التناسخ، ويفتح فى كتابه الجميل ’المغناطيسة الأرواحية *Magnétisme Spirituuel*‘ آفاقًا رائعة لكل العقول الباحثة"[28].

وليس سالتزمان إلا أرواحيًا منشقًا بقدر ما، وليس ’راهبًا‘ ولا ’ساحرًا‘ بالمعنى الصحيح على أى نحو كان، والسحر *theorgy* الذى تحدث عنه لا علاقة له بالمفهوم القديم للكلمة، والذى لا يعلم عنه فتيلا، ويذكرنا ذلك بشخصية حمقاء اشتهرت فى فرنسا باسم يعقوب الزواوى *le zouave Jacob*، والذى جعل السحر خليطًا من المغناطيسية والأرواحية، وقد نشر عام *1888* نوعًا من النشرات بعنوان ’طرحُ سحرى علمى فلسفى فى إطار الصحة والشفاء بالسوائل ومخاطرها الطبية والكهنوتية والمغاطيسية والتنويم..إلى آخره‘ بشيء من الاختصار، وهو ما يبين على نحو قاطع نوعية أفكاره وعقليته، وسوف نحدُّ أنفسنا على تقييم لهذه الشخصية لكاتب أرواحى معروف،

"لقد كان للزواوى شهرة واسعة، وقد تعرَّفت عليه ولكن سرعان ما خاب أملى،

---

[27] *Ibid., chap. 26.*

[28] ونذكر كذلك جماعة حديثة للغيبيين التى تدّعى لنفسها مركزٍ ما أسمته ’الأسرارية المسحية *Christic mystesim*‘، والتى يطغى فيها المفهوم السحرى وعلاج الأمراض، وفى السياق ذاته هناك منظمة ملحقة بالمارتينيزية التى نشأت فى ألمانيا بجهود د. كراوس *Dr Theodor Krauss* بعنوان ’محفل السامريون الصالحون للعلاج والخيمياء ومحبو الإنسان‘، وأخيرًا نذكر ’محفل النطاسيون *The Order of Healers*‘ فى الأخوات التى أنشأتها الجمعية الثيوزوفية.

فعندما خاطرت باعتراض على أمرٍ ما جُنَّ جنونه وأفاض بوقاحة جديرة بالحمقى.. كما لو كانت أعماله جدليات متهافتة على لسان رسول *Apostle*! وأقول رسول لأنه قال إن الرب قد أرسله لشفاء أبدان الناس كما أرسل المسيح لشفاء أخلاقهم! وسيذكر هذه العبارة كثير من الناس، والحق إننى شاهدت كثيرًا من تجارب الشفاء الفورى أو تخفيف الآلام لحالات استعصت على الأطباء، وكان منها حالة رجل مشلول اليدين والساقين يحمله رجل، وقد نهض على قدميه وسار بلا عكاز،.. حتى ترك العيادة، أى طالما كان فى نطاق سيطرة النطاسى، ولكن حينما وصل إلى الشارع عاد إلى ما كان عليه، كما أننى سمعت عن علاجات الزواوى الشهير ورأيت بعضها، ولم أجد فيها إلا علاجًا زائفًا، وعندما عاد إلى بلده رجع مرضاه إلى ما كانوا عليه من مرض ناهيك عن إحباطهم، وعلى كل فلم يكن باستطاعته شفاء ما أسماه 'العمى الأخلاقى'، ولازلت أعتقد حتى الآن أن سر نجاحه لم يكن سيطرته على المرض بمعونة الأرواح بل كان نتيجة سلوكه المنحرف، فقد كان يُرعب مرضاه بمظاهر مخيفة وملحوظات جارحة، وربما كان سفليًا أكثر منه نطاسيًا معالجًا"[29].

وقد كان بإيجاز مهرجًا يتمتع بقدرة على الإيحاء، وسوف نجد أمرًا مُشاكلًا فى قصة الأنطوانية، التى كرّسنا لها بابًا خاصًا نظرًا لسِعَة انتشار هذه الطائفة، وكذلك من واقع أننا وجدنا فيها حالة مُثلى تُعين على تسويغ الحكم على الحال العقلية الراهنة لمعاصرينا، ولا نرغب فى قول إن كل 'النطاسيين' من هذا النوع على المنوال ذاته، فهناك بالتأكيد بعض الذين نحترمهم ولا ننكر صلاحية ملكاتهم حتى لو كنا نأسف لأن معظمهم يحاول تفسير ملكاته بنظريات تثير الشك، كما أن من العجب أن نرى قوة هذه الملكات فى أناسى متواضعوا الذكاء، وأخيرًا فإن نتائج 'الإيحاء' أكثر ثباتًا من نتائج علاج يعقوب الزواوى، وليست مجرد مظاهر تعمل على شفاء أمراض بعينها، كما يجوز التساؤل فى نهاية المطاف عن التهريج الواضح الخاضع لإيحاءاتهم الذاتية، وعما إذا كانوا يعتقدون فى وجود قوى تفوق العادة ينتحلونها لأنفسهم، إلا أننا نكرر ما قلنا عن 'الظواهر

---

[29] *Félix Fabart, Histoire philosophique de l'Occulte, pp 173-174.*

phenomena، من أى نوع كان من النظريات التى لاتبرهن على شىء، وليس من نفع فى تأييدها من أُناسى يعتقدون فى عدة نظريات متضاربة، وهو ما يبرهن على أن دفوعهم لا قيمة لها حين يصل الأمر إلى صدق تلك الأفكار أو كذبها، فكل غُلوِّ فكرى لابد من اعتباره لاشيئًا.

12 الأنطوانية

ولد لوى أنطوان فى مدينة لييج ببلجيكا لأسرة من عمال المناجم، وكان فى أول أمره من عمال المناجم، ثم صار أخصائيًا فى المعادن، وعاد إلى بلاده بعد فترة من العمل فى ألمانيا وبولندا، وسكن فى جيميب سير ميوز، وقد اهتم أنطوان وزوجته بالأرواحية بعد موت ابنهما، وسرعان ما وجد عامل المناجم الأمىّ نفسه على رأس جماعة تسمى نفسها ’رُعاة كروم الرب *vinedressers of the Lord*‘ التى أدارت مكتبًا للتواصل مع أرواح الموتى، ونشر شيئًا أشبه بالتدشين يتكون من استعارات من آلان كارديك، كما عكف أنطوان بعد فترة على مزاولة عمل جديد لم يكن فوق الشبهات، وهو إنشاء ’وكالة استشارات لعلاج كافة الأمراض الأخلاقية والعضوية‘، وسلّم إدارته إلى روح تسمى د. كاريتا، وشعُر أنطوان بعد فترة أنه يحتكم على ملكات الشفاء بدوره مما حدا به إلى إبطال كافة الأدعية الأرواحية وأن ’يعمل‘ بنفسه مباشرة، وقد تبع هذا التغير مشاحنة مع الأرواحيين لم تكن أسبابها واضحة، وقد ولِدت الأنطوانية من هذا الشقاق، وقد أعلن مستر فرايكين مدير الفدرالية الأرواحية البلجيكية فى مؤتمر نامور فى نوفمبر عام *1913* "إن الأنطوانية دائمًا ما ترفض الانضمام إلينا لأسباب لا تستحق الشقاق"، ويجوز افتراض أن تلك ’الأسباب‘ كانت تجارية، وأن أنطوان قد وجد نفعًا فى الحركة المستقلة عن كل الضوابط، أما المرضى الذين لم يتمكنوا من زيارته فى جيميب فقد أعد لهم دواءً سماه *Coune liquor*، وادعى أن هذا الدواء يمكن أن يُشفى كل شىء بلا استثناء، ونتج عن ذلك اتهامه بممارسة الطب غير المشروعة، وحكم عليه بغرامة بسيطة، ومن ثم استبدل دواءه بالمياه الممغنطة التى لا تُعتبر دواءً، ثم أتبعها بالأوراق الممغنطة التى كانت أسهل نقلًا، إلا أن المرضى الذين تكأكوا على منزله فى جيميب قد زادوا عددًا حتى إنه اضطر إلى إلغاء العلاج الفردى واستبدله بلمس بسيط بالكفّ، ومن ثم أقر منهج ’العمليات الجماعية‘، وقد كان أنطوان حتى هذه الفترة يتحدث عن ’السوائل‘ فحسب، لكنه بدأ فى فرض شرط الإيمان للشفاء، ومن ثم بدأ فى الوعظ بأن الخيال هو السبب الجوهرى لكل أمراض الجسد، وحرَّم على تلامذته السعى إلى استشارة أطباء

البدن، وقد أورد فى كتابه *Revelation* سؤال أحد تلامذته كما يلى،

"لو جاءك أحد قال فى نفسه 'إن لم ينفع هذا العلاج فسوف أذهب إلى الطبيب الفلانى'، فتدرك ما فى نفسه وتنصحه باتباع أفكاره، فلماذا تتصرف على هذا النحو؟ فقد رأيت كثيرًا من الذين اتبعوا نصيحتك قد عادوا إلينا مرة أخرى".

فأجابه أنطوان،

"الواقع أن مرضى بعينهم قد استشاروا طبيبًا قبل أن يأتوا إلينا، ولو شعرت بأن ثقتهم أكبر فى الطبيب فإن من واجبى أن أرسله إليه، فلو لم يُشفوا فذلك لأن زيارتهم لى عقبة لعمل الطبيب كما أن نيتهم فى استشارة طبيب عقبة لعملى، ويسألنى بعض المرضى عما إذا كان دواء بعينه نافعًا فإن هذا الفكر يُفسد عملى كطرفة عين، فهو برهان على أن إيمانهم ضعيف فى أننى سأعالجهم بلا دواء،.. فالطبيب لا يملك إلا نتائج دراسته، ويظل سبب المرض فعالًا ويظهر ثانيًا، ذلك أن كل ما بُنِىَ على المادة لا يعمل إلا مؤقتًا".

ويقول فى فقرة أخرى،

"إن المريض لا يجد شفاءه إلا باليقين فى مُعالِجُه، وقد يعتقد الطبيب بكفاءة عقاقيره، إلا أنها لا نفع منها بدون إيمان،.. فالإيمان هو الدواء الكلى الفريد، والذى يتخلل كل من نرغب فى حمايته حتى على بعد ألف فرسخ".

وتنتهى 'عملياتهم' بتلاوة "إن المؤمنين يبرؤون أو يُساعَدون"، وكل ذلك يشبه 'العلم المسيحى' الذى ظهر فى أميريكا حوالى عام *1866* عن مارى بيكر إيدى، وقد جرت فى الأنطوانية مثلها مثل جماعة 'العلم المسيحى' مناظرات حول القانون الذى يسمح للمريض بالموت بدون بذل أى عناية به، فقد رفضت المجالس المدنية منح تصاريح بالدفن عدة مرات حتى فى جيميب، لكن هذه العوائق لم تَفُتَّ فى عضد الأنطوانيين ولم تمنع الطائفة من الازدهار والانتشار، وليس فى بلجيكا فحسب بل كذلك فى شمال فرنسا، وقد مات الأب أنطوان عام *1912*، وترك ميراثه لأرملته التى سُمِّيَت 'الأم'، وسُمى ديرينيوكور أحد تلامذته 'الأخ'، وقد سافرت الأم والأخ إلى باريس فى أواخر عام

1913 لتأَسيس المعبد الأنطوانى، ثم إلى موناكو لافتتاح معبد آخر، وعندما اندلعت الحرب كان ’المذهب الأنطوانى‘ على وشك الحصول على اعتراف رسمى فى بلجيكا، وقد كان من شأنها أن تنتج قُسُسِها لكن العلاج سيكون مسؤلية الدوله، وقد أيد طلبها الحزب الاشتراكى واثنين من قادة الماسونية هما سيناتور تشارلز مانييه و سيناتور جوبليه دالفيللا، ومن الغريب ملاحظة أن الدعم السياسى للأنطوانية كان مقصوراً على الطبقات العاملة، ومن ناحية أخرى ما كتبنا سلفًا فى موضع آخر[1] عن تعاطف الثيوزوفيون، فى حين كان ’الأرواحيون الراشدون *orthodox*‘ يرون فى الأنطوانية عنصرًا مزعجًا يتمخض عن الانقسام، ولنضف كيف أن الألمان عاملوا المعابد الأنطوانية فحسب باحترام، وبالطبع كان أعضاء الأنطوانية يُعزون هذه الوقائع إلى حماية ’الأب‘ الميت، فضلًا عن الإعلان بوقار "إن الموت هو الحياة، ولن يمكنه فصلى عنك، بل لن يعطِّلنى عن المجئ إلى من يؤمن بى".

وما يلفت النظر فى حالة أنطوان لا يقتصر على عمله ’كنطاسى‘ والذى يشاكل عمل يعقوب الزواوى فى أكثر من ناحية، فقد اتسما دائمًا بنوع من التهريج، ولو كانا قد حققا بعض وسائل الشفاء الأصلية فذلك راجع إلى قوة الإيحاء وليس إلى أية ملكات كانت، ولا شك أن ذلك كان سببا لاشتراط ’الإيمان‘، وما يلفت النظر أكثر من ذلك أن أنطوان قد ادَّعى أنه يؤسس دينًا وأنه نجح فى ذلك على نحو مدهش رغم فراغ ’تعاليمه‘، والتى كانت مزيجًا غامضًا من النظريات الأرواحية و’الأخلاقية البروتستنتية‘ والتى غالبًا ما كانت تُدوَّن بلغوٍ غير مفهوم، وقد اتسمت خصائص فقرة بعنوان ’عشرة مقطوعات نثرية من تعاليم النطاسى أنطونين‘، وحتى لو كنا نحاذر من ’المقطوعات النثرية‘ التى رُتِّبت على نحو الشعر المُرسَل لبعض الشعراء المنحطين بقافية عَرَضية[2]، هو أمر يستحق الذكر،

"يقول الرب"

"إن المبدأ الأول لو أحببتنى - فلن تُعلمه لأحد حيث إنك تعلم أننى أسكن فقط

[1] *Theosophy chap., 26.*

[2] وقد استخدما كشيدة بدلا من نهاية السطر فى الشعر المنثور.

فى صدر الإنسان، ولا تملك الشهادة بوجود إحسان أسمى طالما فصَلَتنى عن جارك.

- والمبدأ الثانى ألا تصدق الذى يتحدث إليك عنى - بنيَّة تحويلك عن دينك - فلو احترمت كل دينٍ - كما تحترم من لا دين له - فأنت تعلم رغم جهلك - أكثر مما يُستطاع قوله.

- والمبدأ الثالث أنك لا تملك تعليم الأخلاق لكل من هبَّ ودبّ - فسيكون ذلك برهانًا - على أنك لا تعمل عملًا صالحًا - ذلك أن الأخلاق لا تُعلَّم بالكلام - ولكن بالمثل العملى - ولا ترى الشر فى أى شىء كان.

- والمبدأ الرابع لا تنطق مطلقًا بأنك محسن - فذلك تنويه عن أننى لست محسنًا - وأننى أب سىء - أو بخيل - يترك أبناءه جوعى - ولو كنت تعمل حيال زملائك - كأخ حقيقى - فإنك تعمل خيرًا لنفسك فحسب - وحيث إنه لا وجود لخير مقصور لا يشارك فيه أحدا - فإنك قد أسبغت عليه مهمة إنجاز واجباتك.

_ والمبدأ الخامس حاول دائمًا أن تحب من يقول - إنه عدوك - وعليك أن تعلم أننى قد وضعته فى طريقك - ولكن عليك أن ترى الشر فى نفسك وليس فيه.

- والمبدأ السادس عندما تسعى لمعرفة سبب شقائك - الذى تعيش فيه - ستجده فى عدم تقابس الذكاء والوعى - وهو ما يبين أوجه المقارنة بينهما - ولن تشعر بأى عناء - ما لم يكن لإدراك أن الذكاء نقيض الوعى - وهذا ما لا يحب أن تنسى.

- والمبدأ السابع حاول أن تفهم نفسك - فحتى لو كان هناك شقاء فهو بسببك - فالذكاء دائمًا ما يحاول أن يكسب مزيدًا - ويجعل من نفسه حجر عثرة للرحمة - حتى يصير كل شىء خاضع له.

- والمبدأ الثامن لا تدع ذكائك يصير سيدك - فهو دائمًا يسعى إلى الترقى - فيدوس على الضمير - بدعوى أنه أمر - يسبغ عليك الفضائل - فى حين أنه

ليس إلا شقاءً – والنفوس التى تظن أنها ’مهجورة‘ لم تسع إلا لإرضاء ذكائها – وهو ما يؤدى إلى الضلال.

– والمبدأ التاسع أن كل ما كان مفيدًا فى حاضرك – وفى مستقبلك إذا لم يساورك شك – سوف يتأتى لك بما يكفى وزيادة – فأصلح نفسك بالنظر إلى الماضى – فتتذكر أنى قلت ’دق الباب وأنا أفتح لك – فأنا أعلم بك منك...

– والمبدأ العاشر لا تفكر فى عمل الخير على الدوام – فحينما يطلب منك أخٌ عونًا – فإنك تعمل بالعكس لتثبيط تقدمه – واعلم أن هذه محنة عظمى – سوف تكون عِوَضًا – عن إهانتك له لفرض احترامك – فلا تتضع – حيث الضمير دائمًا يحاول توجيهك – ولن يخدعك.

وهذه ’التأملات‘ المزعومة شديدة الشبه بلغو ’اتصالات‘ الأرواحية من حيث الشكل والمضمون، ولا نفع فى تعليق ولا تفصيل ولا تفسير، فليس من المؤكد أن ’الأب أنطوان‘ قد فهم نفسه دائمًا، وربما كان غموضه من أسباب نجاحه، ولكن ما يستحق الملاحظة هو التناقض الذى يحاول فرضه بين الذكاء والضمير، والطريقة التى يربط بها الذكاء بالمادة، وفى هذا الرابط الأخير مسرة لقلوب أتباع هنرى بيرجسون، حتى لو كانت فى نهاية المطاف ذميمة، وأيًا كان الأمر فسوف يكون من السهل فهم أن الأنطوانية تحتقر الذكاء لدرجة إنكاره باعتباره سببًا للشر، ويمثل الشيطان فى الإنسان فى حين يمثل الضمير الرب، ولكن كل شىء ’سيكون على ما يرام بفضل التقدم فى التطور، حيث نجد الرب الحق فى الشيطان ونجد صفاء الضمير فى الذكاء‘، والنتيجة أنه لا وجود للشر، وليس ما يبدو إلا ’مظهرًا للشر‘، أى إن الذكاء هو ما يخلق الشر أينما وجِد، وقد كان الرمز الوحيد فى الأنطوانية شجرة تسمى ’شجرة المعرفة بظواهر الشر‘، ولا مناص من عدم رؤية الشر فى شىء، ذلك أن رؤيته تؤدى إلى عدم وجوده، وعلى الخصوص فإن الشر لا ينبغى له الظهور فى معاملة الجار، ومن هنا جاء تحريم ’تعليم أحد‘، فمن الواضح أن الأنطوانية لم تستطع تحريم تعليم الأخلاق، فلم يفعل ’الأب أنطوان‘ غير ذلك، وقد أضاف إلى ذلك مفهوم الصحة التى كانت فى إطار اهتمامه ’كنطاسى‘، ولنتذكر أن الأنطوانيين نباتيون كما كان الثيوزوفين وكثير من أعضاء

الجماعات الإنسانياتية، ولا يجوز وصفهم بأنهم ʼمحِبي الحيوانات *zoophiles*ʻ فمن المحرَّم عليهم تربية أى حيوان،

"ولابد من اليقين بأن الحيوانات الظاهرة لا وجود لها، فليست إلا فضلات لنقصنا، كذا،.. فمن الخطأ أن نرتبط بها، فهذه خطيئة جسيمة، ويقول أنطوان ʼالشكʻ بموجب أن الحيوانات لا تستحق السكن مع الإنسان".

فالمادة ذاتها ليست إلا مظهراً من مظاهر الذكاء، "ونقول إن المادة لا وجود لها لأننا ارتفعنا فوقها بخيالنا"، ولذا تماهت مع الشر، "فالذرة من المادة شقاء لنا"، ويذهب إلى قول "لو أن المادة وجدت فلا وجود للرب"، وفيما يلى تفسيره للخلق على الأرض،

"ولم يخلق العالم إلا فردية آدم، كذا، فقد كان يسعى إلى خلق مناخ يناسبه وأن يبنى لنفسه بيئة على الأرض كما يهوى".

ولنقتبس أيضًا بعض استعاراته التى تناولت الذكاء،

"ليست معلومات الواقع مسألة معرفة، بل عقلنة المادة فحسب،.. وليس الذكاء الذى تعتبره الإنسانية أعظم مَلَكة على الإطلاق إلا موئلًا لنقصنا،.. وقد كشفت لكم أن بداخلنا فرديتان هما النفس الواعية والنفس الذكية، أولهما واقعية والأخرى ظاهرة،.. والذكاء هو حزمة من الجزئيات نسميها المخ،.. وبمدى تقدمنا نهدم الأنا الذكية لنقيم الأنا الواعية".

ويبدو كل هذا بلا معنى، والفكرة الوحيدة فيه يمكن صياغتها على هذا المنوال "لابد من محو الذكاء من أجل ʼالضميرʻ"، أى العاطفية، وقد توصل الغيبيون الفرنسيون إلى النتيجة ذاتها رغم استحالة اتهامهم بالأميّةِ، ولكن من المفيد ملاحظة أن ʼالنطاسيونʻ قد لعبوا دوراً فى ذلك التطور.

وحتى يتسق أنطوان مع نفسه فقد قصر جهده على الكلام عن المفاهيم الأخلاقية من النوع الذى نراه فيما يلى،

"إن الإيمان فحسب هو دواء الإنسانية، فمنه تنبثق المحبة، وتفصح المحبة عن الرب

حتى لأعدائنا، فإن لم نحب أعداءنا لم نكن جديرون بخدمته، والمحبة هى الوحيدة التى تطهرنا، ذلك أنها من الحق".

وهنا نجد ما كان جوهريًا عند أنطوان، أما الباقى فأمور مطاطة،

"إنك حرٌ فى عمل ما تراه خيرًا، فمن يفعل خيرًا يلقى خيرًا، والواقع أننا نلجأ إلى إرادتنا الحرة بمدى ما يسمح لنا الرب بتنفيذ مشيئته".

لكن أنطوان قد اعتقد أنه دبَّج نظرية من نوع آخر، وهنا يبلغ قمة العبث، وفيما يلى مثل من نشرة له له بعنوان *L'Auréole de la Conscience*،

"سأقول لكم كيف تفهمون ناموس الرب وكيف يعمل علينا هذا الناموس، فأنتم تعلمون أن الحياة فى فى كل أين، وحتى لو وجِد فضاء فلابد من سبب لوجوده، كما أؤكد أن المحبة والذكاء والضمير جميعًا موجودة، فلو توحد الذكاء والضمير لكانا سرًا باتعًا هو الرب، وحتى تفهمون الناموس لابد من الرجوع إلى ما قلنا عن السوائل، والتى توجد بقدر وجود الأفكار، فنحن نحتكم على ملكة لمعالجتها واستنباط قوانينها بحسب رغبتنا فى العمل، والذى يفرض على إخواننا يسرى علينا، وهذه قوانين الباطن، والتى عادة ما تسمى 'قوانين الرب'، أما قوانين الظاهر فهى قوانين الطبيعة، والتى تتزيا بجميع الأردية، وتتخذ صورًا لا تحصى بحسب طبيعة بذرة السوائل الشفافة، وهذا طريق كل شىء كان، فلكل شىء غريزة حتى النجوم التى ترِفُّ فى فضاء الكون وتتبع فُلكِها، ولو أن الرب وضع قانونًا فى الوصول إليه فسيكون حجر عثرة لإرادتنا الحرة، وسواءٌ أكان نسبيًا أم مطلقًا فسيكون مُلزِمًا، فمن الخطأ ألا نصرفه لنصل إلى غايتنا، لكن الرب وهب لكل منا ملكة اختيار القوانين التى تفرضها علينا الضرورة، وهذا برهان آخر على محبته، فكل قانون لابد أن يقوم على الضمير، ومن ثم لا تقُل 'قوانين الرب' بل قُل 'قوانين الضمير'، وقد جاء هذا التأمل من مبدأ المحبة، والذى يفيض من كل الاتجاهات من مراكز النجوم ومن أعماق المحيطات، وتتضوع المحبة عطرًا فى كل أين لتغذى مملكة الطبيعة التى تحفظ اتزان الكون".

ويجيب أنطوان على سؤال "متى جاءت الحياة؟" كما يلى،

"إن الحياة أبدية، وهى فى كل أين، وكذلك توجد السوائل إلى الأبد، ونحن نسبح فى الحياة والسوائل كما يسبح السمك فى الماء، وتتبع السوائل أحدها الآخر على نحو أثيرى، وتتميز بالمحبة، وأينما حلَّت وجدت الحياة، فالحياة سبب وجود المحبة، ويكفى أن يندمج سائلين فى درجة بعينها من حرارة الشمس لكى تنبت بذرة الحياة، وهكذا تخلق الحياة فردية عاملة".

ولو سأل أحد مؤلف ذلك اللغط تفسيرًا مفهومًا فلا شك أنه يجيب بعبارة تتكرر فى كل مناسبة "إنك تبحث عن النتيجة فقط وعليك أن تبحث عن السبب فحسب"، ولا تنسى أن الأرواحية الكارديكية التى بدأ منها أنطوان قد أولت اهتماما بالغًا بنظرية 'السوئل' التى عبر عنها أنطوان بطريقته الفريدة ملتحمة بفكرتى التقدم والتناسخ.

"فالأرواح الناقصة تظل بلا تناسخ حتى تكتمل،.. وقبل أن تترك الروح الجسد الميت تسعى إلى جسد تتناسخ فيه،.. ويقال إن أحبَّاءنا تركونا فى الظاهر فحسب لكننا لا نكُفُّ عن الحديث معهم، فالحياة الجسدية لا تعدو وهمًا".

ويرى الأنطوانيون أن أهم أمر فى 'تعاليم' أبيهم هو محتواها الأخلاقى، وكل ما عداه أمور ثانوية، وبرهان ذلك نشرة تحمل عنوان 'تأملات الأب أنطوان النطاسى الأعظم للإنسانية لكل من عنده إيمان'، وننسخها هنا كلمة بكلمة،

"إن تعاليم الأب تقوم على المحبة، وتكشف عن 'القانون الأخلاقى' وهو ضمير الإنسانية، والذى يحض الإنسان على القيام بواجبه حيال إخوانه، وحتى لو كان متخلفًا لا يملك فهمها إلا أنها تنمو فيه بالتواصل مع الذين ينشرونها، فيمتلئ بالحب الذى يفيض منهم، وسوف يلهُمه ذلك بأفضل النوايا، ومن ثم يرفعه إلى المشاعر النبيلة، ويقول الأب "إن الدين تعبير عن محبة الرب الذى يجعلنا نحب الناس جميعًا بلا فوارق، فلا نكف عن الانتباه إلى قانون الأخلاق لضرورة تحسين أنفسنا، فلم نبلغ جميعًا إلى الدرجة ذاتها من التطور الفكرى والأخلاقى، فالرب دائمًا ما يضع فى طريقنا الضعفاء حتى نتقرب إليه"، ومن بيننا من حُرِم من

الملكات وينبغى علينا مساعدتهم، وهو واجب مفروض علينا بإيماننا برب رحيم، فلا تسمح لهم درجة تطورهم بممارسة تعاليم الدين التى تتجاوز أفهامهم، لكن طريقتنا فى معاملتهم سوف تستعيد لهم ما يستحقونه من احترام لكى يسعوا إلى البحث عن أفضل وسط يساعدهم على التقدم، ولو حاولنا اجتذابهم إلى أخلاقنا التى تقوم على قوانين لا تطولها عقولهم فسوف يصابون باضطراب ولن يفهموا شيئا، وسينتكسون من عبادة الرب إلى المادية، وقد بيَّن لنا الأب أن وجود الماديون كان نادرًا فيما مضى كما يندر وجود مؤمن فى أيامنا[3]، وطالما غفلنا عن القانون الأخلاقى الذى يرشدنا فإننا نخالفه، وتعمل تعاليم الأب على عقلنة هذا القانون الأخلاقى، والذى يُلهم قلب من سمعه بتجديد الإنسانية، ولكنه لن يحظ بانتباه الذين يؤمنون بالرب، لكنه سيجذب المنكرين والمصدقين على السواء أيًا كانت مكانتهم بأن الأب يسعى إلى إقامة دين يجمع أتباعه فى حلقة واحدة تتبع مذهبه وتراعى شعائره، وتبجل صورًا بعينها من أى منظور كان، وأن يتركوا أديانهم لكى يلتحقوا به، لكن الأمر على خلاف ذلك، فكل ما نفعل لا يربو عن تنبيه من يأتى إلينا بما فهمناه من تعاليم الأب ونحثهم على الإخلاص للدين الذى يؤمنون به حتى يتبنون العناصر الأخلاقية التى تتقابس مع أفهامهم، ونحن نعلم أن العقيدة لابد أن ترتكز على المحبة، لكننا نحاول أن نحبهم لا أن يحبوننا، فتلك هى اللعنة الكبرى، فحين تسرى فينا تعاليم الأب فلن يكون هناك ما يدعو إلى الخلاف بين الأديان، وسوف نحبهم جميعًا لأننا فهمنا قانون 'التقدم'، وسوف نحمل التقدير ذاته لكل الأديان حتى لمن لم يكن على أى دين بموجب اعتقادنا بأن أحدًا لن يصيبنا بأقل ضرر لو كنا نسعى إلى نفعه، وسوف نبرهن على صحة الدين الذى يحترم دينه ويدعو لهم جميعًا بالسعادة، وسوف يقتنعون بأن المحبة نابعة من الإيمان بالحقيقة، ولكننا لن نصل إليها إلا حينما لا ندَّعى معرفتها".

وقد عقّبوا على هذه الوثيقة بخط عريض "إن تعاليم الأب هى ذاتها تعاليم المسيح بعقيدة أيامنا هذه"، وهى مأخوذة من أحد موضوعات المجلة الثيوزوفية التى أشرنا إليها فى موضع

[3] وليس ذلك بحاجة إلى 'وحيٍ' ولا تأمل.

آخر، كما انتهت بمقولة تنبو عن التصديق وهى "إن الأب أنطوان لا يسعى إلا لتجديد تعاليم عيسى الناصرى كما يجب أن تتجسد فى زمننا بدين يمثل هذا الكائن الأسمى"[4]، وقد بلغ هذا الادعاء حدًا من الوقاحة يجعله يستحق العذر بالجهل فحسب، ونظرًا للحال العقلى المتفشى بين الأنطوانيين فقد بلغوا حد تأليه مؤسسهم حتى فى أثناء حياته، وتبرهن العبارة التالية من أحد منشوراتهم على أننا لا نبالغ،

"ألا يكون ادعاء أن مسيو أنطوان لوردًا عظيمًا حطًا من شأنه؟ ونفترض أنك سوف تسلم بأننا نحن 'رهبانه' الواعون بتعاليمه لهم رأى مختلف تمامًا عن أفكاركم بهذا الصدد، فأنتم تفسرون الأمور على نحو فكرى، أى مادى، وبدون معرفة تامة لن تدركوا المشاعر التى تحركنا، لكن مَن عنده إيمانٌ بأبينا الطيب سوف يدرك ماهيته لأنه واعٍ به أخلاقيا، فنحن نسأله ما شئنا فيجيب بلا تحيز، إلا أنه يسمح بأن نعمل ما شئنا بدون الرجوع إليه لاحترامه لحرية إرادتنا، ولم يفرض علينا أى شىء كان، ولو كنا نطلب مشورته فذلك لأننا نعتقد أنه يعرف كل احتياجاتنا التى نجهلها، أليس من الأفضل أن ندرك قوته قبل أن نعكف على تسفيه سلوكنا حياله؟ فهو لنا بمثابة أبٍ طيب يرعانا، فنلجأ إليه عندما يداهمنا مرض، ونثق به تمام الثقة لأنه يخففها ويشفيها وحتى لو سحقتنا أشد الأمراض الأخلاقية فتكًا فإنه يبث فى فلوبنا المصدوعة أملًا، ولو فقدنا عزيزًا علينا بما يترك فى قلوبنا خواءً فإن محبته تملأ هذا الفراغ وتحضنا على أداء واجبنا، فتحمل كفه الرائعة حبًا حقيقيًا يسهل كل صعوبة ويتجاوز كل عقبة ويُبرء أى جرح ويضفى عليها إنسانية سابغة، فهو نطاسىٌ عظيم الشأن للروح والجسد، ونحن لا نرغب فى جعل الأب أنطوان النطاسى 'لوردًا عظيمًا'، بل نأمل فى أن يكون مخلِّصُنا، وهو ربنا لأنه يبغى أن يكون خادمنا".

وإذن فهذا هو الأمر، ونكتفى بذلك من مسألة تخلو من أية قيمة كانت، لكن ما يُخيف هو سهولة انتشار هذا الجنون فى زمننا، فقد أحاطت الأنطوانية بآلاف من الأتباع فى غضون سنوات قليلة، والسبب الأصولى فى نجاحه هو أن تلك الظواهر تناظر ميول

[4] *Le Theosophe, December 1, 1913.*

العقلية الحديثة، لكن ما يثير القلق أن تلك الميول تنكر كافة أنواع الفكر، ولا مناص من التسليم بأن الأنطوانبة تكسب أرضا، وقد ذكرنا سلفًا أنها نمطية عند كثير من الطوائف التى تشكلت إبان نصف القرن الأخير، والتى يناهز بعضها الأنطوانية، ولكنها تتميز بأنها قد تشكلت فى أوروبا، فى حين نشأ معظمها فى أميريكا، زد على ذلك 'العلم المسيحى' الذى تجذَّر فى أوروبا وخصوصًا فى فرنسا فى السنوات الأخيرة[5]، وهو عَرَضٌ جديد للخلل العقلى الذى يتجلى كنقطة انطلاق فى الأرواحية، وحتى لو كانت تلك الطوائف لم تنهل من الأرواحية كما هو حال الأنطوانية فإن الميول التى تجلت فيها هى ذاتها إلى حدٍ بعيد.

---

[5] راجع كتابنا 'الثيوزوفية، تاريخ دين زائف' باب 26، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

13 الدعاية الأرواحية

وقد تحدثنا سلفًا عن ميول دُعاة الأرواحية، ولا حاجة بنا إلى مزيد من البراهين بموجب أنها لصيقة بانشغالاتهم الأخلاقية، والتى انتثرت فى كافة مطبوعاتهم، كما أشرنا إلى أن هذا المنحى أوضح فهمًا عند الأرواحيين عنه فى مدارس 'الأرواحيين الجدد' بادعاءاتهم الجوانية و البروزيلية المتناقضة، لكن الأرواحيون ذوو الميول الديمقراطية الصرف أكثر معقولية من غيرهم فى هذا الصدد، ولا نرغب فى كتمان هذا الأمر، حيث يجدر ملاحظة بعض السمات الخاصة بالدعاية الأرواحية وبيان أنها إلهامًا بروتستنتيًا لتلك الطوائف التى تستقى جميعًا من العقلية ذاتها فى نهاية المطاف.

ويعتقد الأرواحيون أنهم بحلٍ من البرهان على سلامة مذهبهم، وكما كتب آلان كارديك بالفعل،

> "إن الذين يقولون إن العقائد الأرواحية تهدد بغزو العالم يُسلمون بقوتها، فالفكرة التى لا أساس لها تخلو من أى منطق ولا تملك أن تصير كُلِّية *universal*، وإذن فلو كان للأرواحية جذور فى كل مكان وأن كل تابعيها ينتمون إلى الطبقات المستنيرة كما يعلم الجميع فذلك لأن لها أصل من الحقيقة"[1].

وهذا الادعاء ذاته عن 'الاتفاق الكلى *universal consent*' هو ما يجعله برهانًا على صحته كما يقول به فلاسفة محدثون بعينهم، فليس هناك ما يمكن أن يكون أقل تفاهة، وأولها أن الإجماع أمر لم يحدث مطلقًا كما يقضى الحال، وحتى لو كان الأمر خلاف ذلك فليس سبباً لتوكيده، فذلك لا يربو عن ادعاء أن الأغلبية لابد تكون على صواب، ولكن فى نطاق الفكر فالأرجح أن يكون الأمر على العكس، ذلك أن السِفْلَة دائمًا أوفر نفيرًا فى أى مسألة كانت، والخشية من غزو الأرواحية تعنى التسليم بانعدام مشروعية أى أمر كان إلا جماهيرية الغوغاء، أى القوة الغاشمة العمياء، وحتى تتمكن الأفكار من

---

1 *Le Livre des Espirits. P 454.*

الانتشار بهذه السهولة لابد لها من أن تكون من أحط الأنواع طُرًا، ولو أنها قُبلت فليس بسبب قوة منطقها بل بدوافع عاطفية مرتبطة بها، ودعوى الأرواحيين أن ’كل تابعيها ينتمون إلى الطبقات المتعلمة‘ مقولة زائفة على وجه اليقين، ولكن على المرء أن يدرك أن تلك المقولة تعنى أن ’المستنيرين‘ قد استناروا على نحو نسبي، والحق أنهم للأسف أنصاف متعلمين فحسب.

وقد سبق لنا قول إن واقع تعلُّق ’العلماء المتخصصون‘ بالأرواحية لا قيمة له عندنا كبرهان على صحتها، ذلك أن المسائل التى تفتقر إلى كفاءة فهمها لا تربو إلى أكثر مما يعتقد به العوام، وعلى كلٍ فإن العلماء من هذا النوع يمثلون استثناءً ضيقا، أما السواد الأعظم لعملاء الأرواحية فهم على قدر بالغ من الإنحطاط العقلى، ولا جدال فى أن النظريات الأرواحية التى فى متناول الكافة والتى يرغبون فى ترويجها دليلًا على التميز فهى على منوال ما جاء فى مقال أشرنا إليه سلفًا،

"..إنها تطرح للعامل الذى لم يتعلم تعليمًا كاملًا بابًا عن ’رسالة ميتافيزيقة عن وجود الرب‘ بكومة من البراهين الأنطولوجية والعضوية والأخلاقية والجمالية[2]، فما الذى سيفهمه من ذلك كله؟ والأرجح أنه لن يفقه شيئًا على الإطلاق، ومحكوم عليه فى خضم هذه التعاليم أن يبقى فى حال جهل مطبق. وعلى العكس من ذلك يحضونه على حضور مجلس أرواحى أو يقصون عليه وقائع مختارة عنها أو أن يقرأ صحيفة عما يجرى فيها وسوف يفهم من فوره بلا حاجة لتفسير.. وذلك بفضل بساطتها التى مكنتها من الانتشار فى كل أين، فإن الأرواحية لها معجبين شتى، وحسن النية يعمل على الدوام على تقدم كل من يفهم مذهبها"[3]

والواقع أننا نرى فى تلك ’البساطة‘ التى يحبِّذونها ويعتقدون أنها تستدعى الإعجاب أمورًا مبتذلة تعبر عن تدنى الفكر، وعلى سبيل المثال العامل الذى يفتقد أى حظ من التعاليم الدينية المبدئية ونعتبره موغلًا فى الجهل أفضل من الواهم بالأرواحية، فالذى لا يعلم

---

[2] وبالطبع لا شأن لأى من ذلك بالميتافيزيقا الحقة على أى نحو كان، وما يقصد به الكاتب بهذا الاسم لا يعدو لغوا أكاديمياً على أكل وجه من الفلسفة، وتسهل رؤية ما تعنى عبارة ’الدراسات العميقة‘ وما تؤدى إليه، فعنده أن اختراع دليل للتلاميذ هو إنجاز فكرى لا يبارى.

[3] *Spiritisme et Métaphysique, by J. Rspicault, Le Mond Physique, January 1912.*

شيئًا عن مسألة بعينها والذين كوَّنوا عنها فكرة خاطئة كلاهما جاهل على حد سواء، لكن موقف الأول أفضل عن موقف الثانى، ناهيك المخاطر التى نتناولها حالياً.

وبغض النظر عن جنون الأرواحيين بالبروزيليتية، أى تحويل الناس عن دينهم بالدعاية، فإنهم أحيانًا يدَّعون أمورًا خرقاء عن 'الوحى الجديد'، ويتعجب ليون دينيس قائلا،

"إن من الثابت خارج الكنيسة وما فوقها أن هذه التعاليم موجهة لكل أجناس الأرض، فالأرواحيون فى كل أين يدفعون بالمبادئ التى يعتمدون عليها، والأرواحية صوت جهورى يدعو الإنسان إلى التفكير فى الرب والحياة الأخرى فى أصقاع العالم"[4].

فليذهب الأرواحيون لوعظ الشرقيين بمذهبهم وسوف نرى النتيجة فى اسقبالهم! والحق إن الأرواحية تخاطب الغربيين المحدثين قصرا، فلن يجدوا من يقبل بها غيرهم، وذلك بموجب أنها من منتجات ميول عقليتهم التى اختلفت عن أية عقلية أخرى، فالسعى إلى 'الظواهر' والاعتقاد بالتقدم والعاطفية و'الأخلاقية الإنسانية' وغياب الفكر الحق بكامله كذبة تعتمد عليها كل بلاهاتهم، وقد اتخذوا منها سبباً لنجاح الأرواحية وحفز زخمها، كما أن 'رُسُلُ' 'الوحى الجديد' يُصرُّون على 'العزاء' و'الأخلاقية' والعاطفية، ويقول ليون دينيس،

"إن هذا التعليم كاف لإرضاء كل الناس من أرفع العقول سمواً إلى أدناها تواضعًا، لكنها تخاطب خصوصًا من يعانون الشقاء والذين يرزحون تحت نير المحن، وإلى كل المحتاجين لليقين الحق فى مسيرتهم وعملهم وشقائهم، وتخاطب جُمَّاع جماهير الإنسانية، والتى أصبحت تلفظ كافة العقائد الدينية بعد أن ساء استخدامها طوال قرون، إلا أنها استمرت أملًا فى تقدمٍ وحرية ونور تسهل ميلاد فكر جديد وعمل منتج"[5].

---

[4] *Christianism et Spiritism, pp 277-278.*

[5] *Ibid., pp 319-320.*

أما ما يسمى ’العقول السامية‘ التى سوف ترضى بالأرواحية فليست مشكلة، ولكن نلاحظ أولًا أنها تخاطب الجماهير، ونلاحظ ثانيًا للبهرجة اللفظية فى ’التقدم والحرية والنور‘ التى فشت بين كل الطوائف من هذا النوع والتى كانت أحد ’علامات‘ الشك التى تحدثنا عنها، ونقبس فقرة أخرى للكاتب نفسه،

"إن الأرواحية تكشف لنا القانون الأخلاقى، وترسم خطا للسلوك، وتجمع الناس فى أخوَّات وتعاضدٍ فى الآراء المشتركة، والتى تشير جميعًا إلى غايات أنبل من التى قصدوها من قبل، ومعها عاطفة جديدة للصلاة والاحتياج إلى المحبة والعمل من أجل الآخرين وإثراء ذكائنا وقلوبنا.. فتعال يا من تعانى الشقاء ويا من يصبو إلى الحقيقة وأطفئ ظمأك بهذا الربيع السماوى، فسوف تعمل عليك كموجة منعشة مجددة تسرى فى أرواحكم، ومن ثم تواجهون صراعات الوجود باستبشار، وستعرفون كيف تعيشون فى سعادة وكيف تموتون بكرامة"[6].

كلا، إنها ليست الحق الذى يتعطش له من تخاطبهم بل ’العزاء‘، ولو هم وجدوا ’عزاءً‘ أو ما سموه بذلك أو ما تعطشوا إلى الإيمان به أيًا كان فإن ذكائهم لا دور له مهما صغر، فالأرواحية تستغل الضعف الإنسانى وتربح من أمر شاع فى زمننا، وقد حُرِم من أية هداية أسمى، وتقيم انتصارها على أسوأ تدهور ممكن، ولا نرى فى خضم هذه الأحوال ما الذى يسوِّغ للأرواحيين القيام بحملة على تعاطى الكحول مثلًا كما يفعلون حاليا، فهناك أناس يجدون فى السُكر وسيلة لنسيان همومهم وعنائهم، ولو أثارت هذه المقارنة حنق ’الأخلاقيين‘ الذين يتشدقون بعبارات فارغة عن ’كرامة الإنسان‘، فإننا نتحداهم فى تحقيق إجماع على رأيهم فى جنون السُكر من جهة والأرواحية من جهة أخرى، وبشرط ذكر الأعداد النسبية ودرجات تغلغل الكحولية والأرواحية، فلا نعلم فضلًا لأحدهما عن الآخر.

وقد تأكدت السمة الديمقراطية للأرواحية بدلالة دعاياتها فى الأوساط العمالية حيث يمكن استيعاب ’بساطتها‘، وحيث تجد ’أُخوَّاتُها‘ حقلًا خصبًا لتجنيد مؤيديها، وقد كانت الأنطوانية سبَّاقة فى هذا المضمار، ويبدو أن عمال المناجم فى بلجيكا وجنوب

---

[6] *Aprè la mort, pp 417-420.*

فرنسا كانوا أرضًا أكثر خصوبة من غيرها، ونقتبس فى هذا الصدد فقرة أخرى من أدبيات ليون دينيس،

"إن من دواعى البهجة أن نرى كل يوم أحد أفواجًا من أسر عمال المناجم الأرواحيين تزدحم على جوميت وكل موضع فى حوض شارلروا حيث يجتمعون فى قاعة شاسعة، وبعد الرسميات الافتتاحية ينصتون إلى المواعظ التى يلقيها مرشدون غير منظورون على لسان الوسطاء، وقد كان أحدهم عاملًا بسيطًا يبدو أميًا يتحدث عادة بلهجة الوالون *Walloon*، حيث تتجسد روح كانون زافير مولس، والذى كان كاهنا ذا مقام عظيم وفضائل سامية، وكان يعظ عمال المناجم عن المغناطيسية، وقد تعرض لمحن شتى واضطهاد شديد حتى إنه ترك موقعه، إلا أن روحه لم تزل تراعى أحباءة العمال، وكان كل يوم أحد يحتل ملكات أحد وسطائه المفضلين، وبعد أن يتلو شيئًا من متن الكتاب المقدس ببلاغة كهنونية فائقة كان يفسرها بفرنسية بليغة لمدة ساعة، وكان يخاطب الذكاء والقلب فى سامعيه، ويحُضُهم على الخضوع للمشيئة الربانية والتزام القانون الربانى، وكان يترك انطباعًا عظيمًا فى نفوس هؤلاء الطيبين، وهو ذاته ما كان يجرى فى كافة المجالس الأرواحية الجادة من مساكين هذا العالم".[7]

وليس من فائدة للاستمرار فى هذا السرد الذى نلاحظ فيه فحسب عداء الأرواحية العنيف للكهنوت، ولكن يكفى أن القس الذى يتمرد على الكنيسة علنًا يلاقى من الأرواحيين احتفالًا غامرًا ويُضفون عليه صفات ’عظيم القيمة‘ و’سابغ الفضيلة‘.. إلى آخره، وهكذا عكف جين بيزيا على الدفاع عن الأب ليمير *Abbé Lemire*[8]، وهو مجال مفيد للبحث فى العلاقات الممتازة بين صُنَّاع الانشقاقات المعاصرة وبين الأرواحيين الجدد.

ومن زاوية أخرى سعى الأرواحيون مثل الثيوزوفيين إلى التوسع فى الدعاية حتى بين الأطفال رغم أن معظمهم لا يجرؤُ على إدخال الأطفال إلى مجالسهم، ولكنهم يقينًا

---

[7] *Ibid., pp 329-330.*

[8] *Le Fraterniste, May 8, 1914.*

يحاولون غرس الفكرة بينهم، وهو الأمر الذى تقوم عليه الأرواحية، وقد نوهنا سلفًا إلى ’ فصول فى الطيبة *classes in goodnes*‘ التى أقامتها ’الأخوَّات‘، وهو عنوان يدلُّ على أنها صفعات من البروتستانتية الإنسانياتية[9]، فنقرأ ما يلى فى أحد جرائدهم،

"إننا نعلم أن فكرة فصول الأطفال تكسب أرضا، كما أننا لا نهمل تعليم ’الأخوَّات‘ فإن تعليم الطفل إعداد لأخوَّات المستقبل، والطفل ذاته من أعظم دُعاة مدرسته وأسرته، ويمكنه إنجاز كثير من عملنا، ولذا وجب توجيهه إلى أفضل الطرق وتشجيع ميوله الطيبة"[10]

ويضاهى ما كتب جين بيزيا مدير المجلة ذاتها فى مناسبة أخرى،

"أليس مما لا يُحتمل أن نرى الأطفال اليوم يُحقنون بالأفكار الدينية؟ والأدهى وأمَرُّ أنهم يُجبَرون على القيام بشعائر دينية قبل أن يدركوا كُنه ما يفعلون، وهو أمر سوف نأسف عليه فى المستقبل"[11]

وعلى ذلك يتعين علينا ألا نعلم الدين للأطفال بل نعلمهم الأرواحية، ولا تتضح روح التنافس فى تلك الأديان الزائفة على نحو أشد جلاءً، ونحن نعلم أن الأرواحيين الذين لديهم أطفال يذهبون حتى إلى تعليمهم العِرافة بإشراكهم فى مجالسهم، كما أن ’مدارس للوساطة‘ للبالغين التى تعمل تحت ستار ’جماعات البحث‘ ليست إلا خطراً عامًا، ولم يعد نادرًا فى أيامنا بدرجة تنبو عن التصديق، ولو استمرت الأرواحية فى تخريبها فلن توحى الأمور بالخير، فيقول ليون دينيس ما يلى،

"سوف تقوم المنظمات الأرواحية فى المستقبل على إنشاء دور علاج خاصة *asylums* إلى جانب مهاما الأخرى، حيث يجد فيها الوسطاء إشباعًا لقلوبهم وعقولهم بإلهامات الفن والطبيعة، وكل ما ينطبع على ملكاتهم من النقاء والسمو

---

[9] وقد ذكرنا فى الباب *23* من كتابنا ’الثيوزوفية، تاريخ دين زائف‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر. أن ما يسمى ’روابط الرأفة *Ligues dr Bonté*‘ ليس إلا إلهاما بروتستنتيا رحبت به الثيوزوفية.

[10] *Le Fraterniste, June 19, 1914.*

[11] *Ibid., March 27, 1914.*

فى مناخ من السلام والثقة"[12]

ونحن على علم تام بما يقصد الأرواحيين بمصطلحات على شاكلة 'النقاء' و'السمو' إضافة إلى 'دُورِ العلاج الخاصة'، والتى تخاطر بأن تصبح مصحات للمجانين، والذين لن يبقوا فيها دائمًا للأسف، وسوف ينطلقون لنشر حماقاتهم المُعدية إن عاجلًا أو آجلًا، وقد تحققت هذه العمليات بالفعل فى أميريكا[13]، كما بدأ بعضها مؤخرًا فى ألمانيا، وقد جرت محاولات لنشرها فى فرنسا على نحو متواضع حتى الآن، لكن من المحتوم أن تظهر هنا مالم تقم عليها رقابة صارمة.

وقد ذكرنا سلفًا أن الأرواحية تستغل كافة أنواع الشقاء لكسب مؤيدين لمذهبها، ويصدق ذلك حتى على الأمراض العضوية بفضل مغامرات 'النطاسيين'، ومن الملحوظ أن 'الأخوَّات' تعلم أن "الشفاء وسيلة شديدة الوقع فى الدعاية"[14]، ومن اليسير رؤية الكيفية التى يحدث بها، فحينما يمرض أحد ولا يدرى لمن يلجأ إليه فسوف يجد 'النطاسيين'، وتجبره حالته العقلية على تعاطى 'تعاليم' النطاسيين، والذين يسارعون إلى المعونة بادعاء أنها تسهل الشفاء، والواقع أن حيثيات الحكم على بيثيون *Béthune* المذكور عاليه تضمنت عبارة "رغم أن جعل آليات الشفاء مفهومة فإن المريض لن يضطر إلى الاشتراك فى مجلة *Le Fraterniste*"[15]، وحتى إن لم يشترك فلن يعدم من ينصحه بذلك، فلازالت الدعاية الشفاهية أوقع أثرًا، وإن لم يحدث تخفيف للمرض فإن المريض يُنصَح بالعودة، وربما قيل له إن الشفاء لم يعمل نظرًا لضعف 'إيمانه'، وربما صبأ إلى الأرواحية من قبيل الرغبة فى العلاج عندما يشعر بأقل تحسن يبدو له صوابًا أم خطئًا من إنجاز 'النطاسيين'، وعندما يجرى نشر إجراءات العلاج فسوف يهرع إليهم مرضى آخرون، وحتى الأصحاء الذين تعاطفوا مع الأرواحية، واعتقدوا أنهم وجدوا فيها برهانًا على الحقيقة، والواقع أن هنا شيء من الخلط، فلنتخذ مثلًا من رجل يحتكم على ملكات لا

---

[12] *Dans l'Invisble, p 59.*

[13] ونحن لا نتحدث عن الولايات المتحدة فحسب بكل كذلك عن البرازيل حيث تفشَّت مدارس الوسطاء التى تأسست بدءً من من عام *1902*.

[14] *Le Fraterniste, May 22, 1914.*

[15] *Ibid., January 23, 1914.*

تُبارى فى الشفاء، لكن آراءه لا علاقة لها بالشفاء، ويُفسِّر ملكاته فى هذه الحالة بأنها خاطئة تماما، لكن العقلية الفريدة لزماننا قد تزندقت بالكامل، وستجد معايير للحقيقة فى التجليات المحسوسة بما يجعل الإصرار عليها أمرًا واضحًا.

لكن ما يجذب معظم الناس إلى الأرواحية على نحو مباشر هو الأسى الذى يعانونه من فقد عزيز على قلوبهم، فكم كان من استسلم لإغراء فكرة القدرة على التواصل مع الفقيد الراحل؟ وسوف نذكر ما قلنا سلفًا عن محفل سير أوليفييه و 'الأب أنطوان'، فكلاهما أصبح أرواحيًا بعد موت ابنه، ورغم المظاهر فقد سيطرت العقلية العاطفية على كلى 'العالم' و'الجاهل'، كما سيطرت على غالبية الغربيين المعاصرين، زد على ذلك أن العجز عن فهم عبث النظرية الأرواحية برهان على أن الفكر العلمى *scientist's intellectuality* ليس إلا فكرًا زائفا، ونعتذر عن تكرارنا الغالب لهذه المسألة، لكن الإصرار عليها رد فعل لازم حيال خرافة العلم الحديث، فلا يحاولن أحد إقناعنا بفوائد تلك 'التواصلات' مع الموتى، فأولًا نحن ننكر أن أى وهم كان قادرٌ على التفوق على الحقيقة، ولو حدث أن انهار ذلك الوهم فسوف يحل محله خطر اليأس والقنوط، وأخيرًا فقبل أن تولد الأرواحية كان هناك الأمانى العاطفية التى تجد أملًا فى المفاهيم الدينية، ولم يكن بهم حاجة إلى توهم أمر آخر فى هذا الصدد، وقد كانت فكرة التواصل مع الموتى بإجراءات على شاكلة ما يلجأ إليه الأرواحيون ليست من طبيعة الإنسان، ولا تأتى إلا عن طريق النفوذ الأرواحى، والتى لا يتقاعس روادها عن الدعاية الخفية بالكلمة والقلم، وقد كان المثال النمطى لعبقرية الأرواحية فتح مكاتب للتواصلات مع الموتى، حيث يستطيع الناس معرفة أنباء موتاهم، وقد ذكرنا سلفًا مكتب 'رُعاة كروم الرب' الذى كان مهد الأنطوانية، لكن هناك ما كان أكثر منه شهرة، وقد استمر ثلاث سنوات فى لندن باسم *Julia Bereau* الذى أسسه الصحفى الانجليزى ستيد *W.T. Stead* المدير السابق لمجلة *Pall Mall Gazette* ومجلة *Review of Reviews*، والذى مات عام *1912* فى حادث غرق السفينة *Taitanic*، ولكن الفكرة قد خطرت لروح تسمى جوليا، وفيما يلى معلومات وجدناها فى جريدة تدّعى أنها 'نفسية *psychic*' لكنها على الحقيقة أرواحية.

"لقد كانت الآنسة جوليا *Miss Julia A.Ames* فى مكتب التحرير لمجلة *Union*

Signal فى شيكاغو ومجلة نسوية باسم *Women's Christian Temprance Union* البروتستنتية والجمعية النسوية، والتى نشأت فى إيلينوى عام *1861*، وكانت من خلفية أنجلوأميريكية، وفى عام *1890* ارتحلت إلى أوروبا والتقت بمستر ستيد، وأصبحا صديقين حميمين، وفى خريف العام التالى عادت إلى أميريكا، ومرضت فى بوسطون وماتت فى مستشفى فى المدينى ذاتها، وقد تعاهدت مع صديقتها الحميمة ميس إيمز على عادة الأرواح المؤمنة التى كانت أختا لها عملياً طوال سنوات، وقد تعاهدتا على أن تعود كل منهما بعد موتها من الحياة الأخرى لتبرهن على استمرار حياة الروح بعد الموت، وعلى إمكان التواصل مع الأحياء، وقد تعهد كثيرون بهذا العهد إلا أن قليلًا من حققه، وقد كانت ميس آيميس آخر من حققه باتباع نصيحة مستر ستيد[16]، وبعد فترة قصيرة من موتها اتخذت اسم جوليا واقترحت فتح مكتب 'الاتصالات' المذكور بين هذا العالم الذى نسكنه وبين العوالم الأخرى، ولم يستطع مستر ستيد تحقيقة إلا بعد مرور اثنى عشر عاما"[17]

ويبدو أن هذه 'الرسالة' من ابنه الميت أدت به إلى فتح 'مكتب جوليا' فى إبريل عام *1909*، والتى تعاون عليه آخرون ذُكر منهم الثيوزوفى روبرت كينج فقط، وهو اليوم رئيس 'الكنيسة الكاثوليكية القديمة'[18]، ونقتبس فقرة من مجلة أرواحية أخرى تصور تفصيلًا سمات الاحتفالية البروتستنتية التى أحاطت بالمجلس الأرواحى،

"وبعد الترتيبات التى أوصت بها جوليا تولى كل منهم إدارة 'الخدمة' بالتتابع، والتى اشتملت على صلاة تبعتها قراءة محضر الجلسة السابقة، ثم الطلبات الواردة إلى المكتب من كل جهات العالم، وبعد انعقاده الأول باسبوعين أوصت جوليا بقراءة بضع فقرات من العهد القديم أو الجديد فى أول الجلسة، وقد تلقى آخرون اتصالات من جوليا أو من ستانتون موزيس[19]، وتلقى غيرهم اتصالات من فينلون

[16] ولنتذكر فى هذا السياق وعد وليم جيمس، أما ستيد فلم يكد يموت حتى انهالت 'تواصلاته'.

[17] *Le Mond psychique, February 1912,*

[18] راجع كتابنا 'الثيوزوفية، تارخ دين زائف'، باب *24*. ترجمات تراث واحد قيد النشر.

[19] وقد ذكرنا القس ستانتون موزيس المعروف كذلك باسم *M.A. Oxon* وعلاقته بتأسيس الجمعية الثيوزوفية.

وكتاب آخرين».. أما جلسة الصباح فقد اقتصرت على دائرة صغيرة من أعضاء المكتب، ولم يُسمح للغرباء بحضوره إلا فى حالات نادرة، وكان الغرض منها إنشاء دائرة من المتعاطفين تختارهم جوليا بنفسها كنواة لتشكيل قوة أرواحية متنامية، ولابد من خلق 'كأس يتلألأ بنور الألوان السبعة' كما قالت، لتأسيس حلقة أسرارية"[20]

وهنا أمر آخر على جانب كبير من الأهمية لبيان سمات الأديان الزائفة لهذه الظواهر،

"وقد أوصت جوليا باستخدام المسبحة *Rosary* على منوال حديث لتذكُّر أسماء الأموات أو الأحياء يوميًا للذين جرى معهم تواصل متبوعًا بخاطر عاطفى، ومن شأن ذلك نشر ضياء فعال من التعاطف والمحبة كما لو كان جوهرًا ربانيًا ونبضًا للحياة ومحبة كالملاك الذى يدشن الأرواح"[21].

ولنستمر الآن فى متابعة اقتباسنا الأول

"ويقول مستر ستيد 'إن جوليا بنفسها كانت تتولى التوجيهات اليومية اللامنظورة، أى أن كل من فقد صديقًا له أو قريبًا عزيزًا عليه يمكن أن يلجأ إلى المكتب الذى سيعلن عن الشرط اللازم للتواصل معه، ألا وهو موافقة الإدارة، والتى سترفض كل من لم يأتِ لسماع فقيده أو محبوبه، وتفسر جوليا هذه النقطة على نحو شديد الوضعية.. فلابد للمكتب من التركيز على هدفه الصحيح كما قالت جوليا مرارا، وهو تمكين تواصل من انفصل عمن أحب بالتغير المسمى 'الموت'"

ثُم تُفسِّر الأسس التى ذكرتها جوليا لإنشاء المكتب كما يلى،

"إن الغاية من إنشاء المكتب.. مد يد العون إلى الذين يرغبون فى لقاء أحبائهم بتواصل من انفصل عمن أحب بالتغير المسمى 'الموت'، وهو بمثابة بريد عمومى يقوم برقابة التواصلات قبل تسليمها، فإن لم يكن هناك استجابة للتواصل عند أحد

---

[20] *Echo de la la Doctrine spirite.*

[21] *Ibid., January-February 1917.*

الطرفين فلن يكون هناك ما يبرر اللجوء إلى المكتب، ويجوز مضاهاة القائم بهذا العمل بشُرطيٍ يعمل ما بوسعه فى البحث عن طفل ضل فى الزحام وإعادته باكيًا إلى أمه، وبمجرد التقائهما تنتهى مهمة الشرطى، والحق إن ذلك مما يغرى على جعل المكتب مركزًا للبحث فى الماوراء، لكن الاستسلام إلى هذا الإغراء سابق لأوانه، وليس ذلك اعتراضًا على البحث لكنه طبيعى تمامًا وضرورى لعملنا، ولكن مكتبي لا ينبغى أن يتحمل ذلك العبء، ولابد من تحديد عمله فى إطار واجبه الأول، وهو إعادة التواصل لمن حُرِموا منه"[22]

ومن الواضح أن هذه الأرواحية تدينية عاطفية، لكن هل من السهل رسم خط بينها وبين الادعاءات العلمية؟ أو كما يقول البعض بينها وبين 'الأرواحية العلمية'؟ وأليست الثانية قناعًا للأولى؟ ففى عام *1912* أراد 'معهد البحوث النفسية' تحت إدارة السيدتين ليفران *Lefranc* و لانسلين *Lancelin* اللتين زودتنا مجلتهن بالشطر الأعظم من اقتباساتنا السابقة أن يقيم فى باريس 'مكتب جوليا' على أسس 'علمية' أكثر من نظيره فى لندن، ولتحقيق هذه الغاية جرى إنشاء 'اختيارات محددة لتصنيف الأرواح'، ولإرضاء غرور موقعهم العلمى ذهبوا إلى إنشاء ما أسموه 'القياس الرقمى للتجسد الجزئى للموتى *the digital anthropometry of th partial materialization of the deseased*'، ومن ثم إلى أبعد من ذلك جدول 'الماهيات' الذى اشتمل على صور فوتوغرافية وانطباعية 'للأرواح'[23]، وقد كان الأرواحيون الذين حاولوا اللعب كعلماء لا يقلِّون حماقة عن غيرهم! وفى الآن ذاته،

"أنشئت مدرسة للوساطة الروحية بهدف "أن تكون الإدارة والتعليم من الجنسين" و "تنمية الملكات الخاصة للوسطاء لتسهيل التعرف على الأرواح وتصنيفها فى مكتب جوليا فى باريس"

وأضافوا إلى ذلك،

"إن كل مادة سوف تُدرَّس نظريًا وعمليًا لتطوير مهارات الوساطة العلمية، وسوف

---

[22] *Le Mond Psychique, February 1912, Cf. Linitiation, October 1909 and March 1910.*

[23] *Ibid., March 1912.*

يلتقى التلاميذ مرتين فى الأسبوع مجانا"[24].

وذلك بالتأكيد أحد عمليات التخريب الجماعى التى تحدثنا عنها فيما سلف، ونعتقد أن نجاحها كان محدودًا، كما يجدر ملاحظة أن الأرواحية فى فرنسا لم تكن حينذاك بالأهمية التى بلغتها فيما بعد[25].

وتحتاج هذه الوقائع إلى شيء من التعليق، فالواقع أنه ليس هناك نوعان من الأرواحية بل نوع واحد فحسب، لكن لها وجهان، أحدهما أرواحية الدين الزائف والآخر أرواحية العلم الزائف بحسب حال المخاطَب وميوله، ففى البلاد الأنجلوساكسونية تروج أرواحية الدين الزائف فى حين يزيد الطلب فى البلاد اللاتينية على الأرواحية العلمية، وهذه تقديرات عامة فحسب، فمهارة الأرواحيين فائقة فى تطويع دعياتهم بحسب حال الجماعات الشتى التى يستهدفونها، كما أن كل منهم ينشغل بما يفضل شخصيا، لكن الاختلافات بينهم ظاهرية وليست حقيقية، وتُختزل إجمالًا إلى ما يناسب الحال، فيعمد بعضهم إلى التنكر فى شخصية نفسانى *psychist*، ولا نعتقد أن هناك أمر آخر من وراء المعهد المذكور بجرياته التى نوهنا عنها غير ذلك التخفى، فتكتيكاته الغزيرة تناسب كل المواقف، والتلاميذ الذين التحقوا بالمعهد عن طريق النفسانية تحضهم على البحث عن وسائل دعاية جديدة وعلى مدى نجاحهم فى تطبيقها، وليست تلك مجرد فرضيات فرضناها، فالبرهان قائم فى النصائح الموجهة إلى الأرواحيين من الغيبي الانتقائى *electic* آلبير جونيه عام *1910* حينما أنشأ ما سماه 'التحالف الأرواحى' الذى كان يأمل منه توحيد الأرواحيين تحت مدرسة الأرواحية الجديدة[26]، وقد حضر فى العام ذاته المؤتمر الدولى للأرواحية فى بروكسل، وألقى محاضرة نقتبس منها ما يلى،

"لم ليكن من شأن الأرواحية أن تحتل الموقع الجدير بها فى العالم بدون عون بعض المنظمات، .. فلنحاول تقديم المنظومات التى تحتاجها، والتى لابد لها من تكون مذهبية واجتماعية، ولابد من جمع حقائق الأرواحية وتقديمها على نحو أكثر

---

[24] *Ibid., February 1912.*

[25] كما أن بابوس ظن أنه سيدير 'مكتب جوليا'، لكن لم يطرأ ما يدل على تحقق ذلك

[26] وقد سبق هايدى *P.-E Heidét* إلى فكرة 'الجمعية الانتقائية العالمية *Universalist Eclectic Society*' التى لم تحقق بأية درجة من الفاعلية، وانتهى إلى الاندماج فى 'الأخوة'.

قبولا، ولابد للأرواحيين من التوحد بحيث تصبح الأرواحية منيعة بين الناس،.. وأعترف أن من المُهين للأرواحى أن يرى الحقائق التى تعلمها من الأرواحيين ودعايتهم لم تلق قبولًا من الدوائر الرسمية ولا فى الطبقات الوسطى، لكن النفسانية قد قبلتها، ولكن لو قبل الأرواحيون هذه المهانة فسوف يؤكد ذلك على سموهم، فهذا التقهقر الظاهرى سيؤدى إلى الانتصار، لكنك ستتسأل غاضبًا ’هل علينا أن نغير اسمنا ونهجر معلمينا الذين بدأوا حركتنا وكل ما عانوا وما اكتشفوا؟‘ وليس ذلك ما أقصد، فليس التواضع جُبنا، ولا أطلب مطلقًا أن تغيروا اسمكم وتهجروا الأرواحية إلى النفسانية، فهل تقصدون ’هجران الأرواحية إلى النفسانية؟ وليس الأمر مسألة تبديل بل نظام طرح القضية، وأقول لو أنكم ’طرحم النفسانية قبل الأرواحية‘ فقد أنجزتم أصعب شطر من الحملة والمعركة، ولن يبق إلا الانتصار، وحتى نحقق ذلك على نحو أسرع أشير عليكم أن ترسلوا قبلكم من اتبعكم من أهل البلاد ويعرفون لغتها، فالمناورة بسيطة وبدائية، فبدلًا من أن تدعوا إلى الأرواحية فى دعايتكم وأطروحاتكم وجدالكم مع المنكرين والمناوئين بالدفع بأن تعاليم الأرواحيين من قديم الزمن كانت حقائق كذا وكذا، فقولوا إن الدارسين النفسيين يقولون بكذا وكذا من الحقائق، وبعد برهة يمكنكم قول إن الأرواحية قد كشفت هذه الحقائق ذاتها ونصت عليها فى تعاليمها، وهكذا تكون صيغتكم السائدة هى النفسانية أولًا ثم الأرواحية".

وبعد أن استغرق المحاضر فى تفاصيل ’ترتيب الطرح‘ الذى اقترحه للفصول المختلفة للظواهر يستمر بما يلى،

"وسوف تستطيع منظمة كهذه إسباغ حياة على التجريب والكثافة فى الغزو بهذا اليقين بما يؤدى إلى نتائج مهولة لابد لنا منها، ولو جرى ترتيب الحقائق وإلقائها على هذا المنوال فإنها تكون كوضح النهار على كثافة الأحقاد ومقومة العقليات القديمة، وسيكون ذلك تحولًا صرحيًا فى الفكر الإنسانى، وأعظم زلزلة فى التاريخ للشعوب الأخرى وهجرة الأجناس ومقدم أديان جديدة وحريات هائلة، وسوف يبدو كل ذلك أمرًا هيِّنًا بالمقارنة إلى سيطرة الأرواح على الإنسان، كذا، وسوف تبزغ المنظمات الاجتماعية التى تقوم على المذهب، ولذا لابد من تنظيم الأرواحيين

أنفسهم على منوال تنظيم الحقائق الأرواحية، ففى ذلك أيضا نلجأ إلى صيغة النفسانية أولا ثم الأرواحية، ولو كنتم بصدد تأسيس ’فيدرالية أرواحية عالمية‘ فإنى متفق معكم تمامًا، إلا أنى أرى ضرورة أن يكون بها قسم نفسانى يبدأ به التعليم، وسوف يعمل كما لو كان قاعة ملحقة بالفيدرالية، وأرجو ألا تسيئوا فهمى حيال هذا المشروع، فلن يتغير اسم الجمعية ذاتها عن ’الفيدرالية الأرواحية‘، ولكن سيكون بها قسمٌ نفسانى ملحق كدراسة تمهيدية، وأعتقد أن هذا المخطط الاجتماعى المذهبي سيسهم فى الانتصار المنتظر، ويتكرر البرنامج بالتشاكل فى كل الجمعيات القومية للفيدراليات الأرواحية"[27].

وترجع أهمية هذا النص إلى أنه الوحيد على ما نعلم الذى جرؤ على الحديث عن هذه المناورة بصراحة، فضلًا عن التكتيك اللازم بلا جدال، فقد ابتعد عن أدبيات الأرواحية المقرفة، كما أنه سمح للأرواحيين باستغلاله دون وعى منهم، وكذلك كل من انجذب إلى ظواهر الأرواحية رغم أنَفتهم من أن يُسموا أرواحيين.

فالأرواحيون يسلكون على هذا المنوال حينما يحاولون اجتذاب أحد دون تنازل عن ’غايتهم‘ كما يقولون فيما بينهم، وتكمن الخطورة الكبرى لهذا الجهد فى قوة العقلية ’العلمية‘ فى زمننا التى يتوسلون بها، وفى المحاضرة ذاتها التى صفق لها الحضور بحماسة قال جونيه،

"وسوف يصبح الدفع بالخلود فى هذه الأحوال حقيقة ثورية، وأحد الضربات القوية التى تدفع إلى تغيير اتجاه جنس الإنسان، ولماذا؟ ذلك لأنها لن تثبت بالإيمان ولا بالجدل بل بالتجربة والمشاهدة، أى بالعلم، والذى لا يتحكم فيه الأرواحيون بل العلماء المتخصصون،. ونستطيع الصياح فى وجه المنكرين "إنكم لا تريدون إيمانًا ولا فلسفة تجريدية، فها هنا تجارب محكمة ومشاهدة بينة، ذلك أنها علم" كما يجوز لنا قول "لو كنتم لا تريدون أرواحيين فها هنا علماء"، ولن يتمكن المكذبون من الرد، فأعمال مايرز ومدرسته فى ’جمعية البحوث النفسية، فى لندن فإن الخلود يدخل فى صميم العلم وهو أحدث المحدثات فى العالم الحديث واشد

---

[27] *L'AllianceSpiritualiste, Noember 1910,*

الوضعيات وضعية، فهو الروح التى رست على مرفأ المنهاج العلمى الرسمى للعلماء المحترفين، وهو الأرواحية المنتصرة التى سادت حتى فى خارج الأرواحية، فاعلموا أن تكتيك تقديم النفسانية على الأرواحية الحالية لابد أن يأتى أولًا قبل كل شىء".

وقد رأينا ما آل إليه التجريب المفترض للبرهان على صحة الأرواحية، لكن المنكرين الذين قال عنهم جونيه أنهم يستعصون على الإقناع سوف يخرسون أمام زعم 'العلم'، ومن ثم تجنى الأرواحية ثمار الوضعية المنطقية، وهو أمر لم يتحسب له أوجست كومت قطعا، لكننا نرى 'النطاسيون' والوسطاء يشكلون كهنوتًا 'لدين الإنسانية'.. ولنكرر هنا ما قلنا عن النفسانية المستقلة عن الأرواحية، لكن الأرواحيون يستغلون ميول نفسانيين من شركائهم كما يستغلُّون الاضطراب الجارى بين العوام، ونتمنى فحسب أن يدرك النفسانيون الجادون مخاطر هذه الأمور لمواجهتها على نحو فعال، وإن لم يكفِ ما تقدم توًا لإقناعهم بضلال الأرواحية فلابد من أن يعلموا عبث الأرواحية ولابد أن يجرؤا على دحضها، ولا يعترضن أحد بحجة عدم الانحياز فى العلم والتردد فى إنكار فرضياتها عنما يثبت ضلالها، فذلك سلوك لا شأن له بالعلم على أى نحو كان، ومن الثابت أن كثيرًا من العلماء أنكروا نظريات ممكنة فى حين أن نظرية الأرواحية مستحيلة، ولو كان النفسيون لا يفهمونها فذلك من سوء طالعهم، فالحياد فى مواجهة الضلال بمثابة المشاركة فى الجُرم، ولو كان ذلك اقتناع منهم بالأرواحية فمن قبيل الأمانة الاعتراف بهم علنًا حتى لو تحفظوا فى أمر أو آخر، فالمرء سيعلم على الأقل من يتعامل معه، وعلى كل فنحن ننكر قصدًا بحوث النفسانيين فى الأرواحية، فالأرجح ضررها عن فائدتها، ولو كان هناك من يرغب فى إجراء تلك التجارب على أساس متين فليحذر بكل الطرق من تعاليم الأرواحيين والغيبيين، وليتحسبوا باستخدام منهاج تجريب آخر غير ما يلجأ إليه الأطباء وعلماء الطبيعة، ولكن الذين يحتكمون على مؤهلات لازمة لهذا النطاق من البحث قلائل على وجه العموم، لكن الظواهر لن تؤثر عليهم إلا نذرًا.

فالأرواحيون يفصحون عن ميولهم الجوهرية عندما يدفعون فى دعايتهم بدوافعهم العاطفية، ولكنهم حين يقيمون نظريتهم على الظواهر نجد أن الجانبين المذكورين عاليه ليسا نقيضين بل متكاملين، فالسعى إلى الظواهر والعاطفية معا يتماشيا نعلًا بنعل، وليس

فى ذلك ما يُدهش بموجب أنهما متقاربان فى نطاق الحس، فالغرب الحديث يختق بهما الفكر، والتناسخ هو أحد المفاهيم المفضلة فى الدعاية العاطفية لمواساة الذين يعانون من مواقف مؤلمة بتكرارها فى كل ما يُقال عن منافع التواصل مع 'الراحلين'، ونشير مرة أخرى إلى الباب السابع الذى خصصناه لبعض 'شطحات التناسخيين' التى تسبب للناس رعباً أكثر من العزاء، وعلى كلٍ فإن غرس هذه النظريات فى نفوس 'المعَذَّبين' برهان على أنها مسألة استغلال حقيقىٍ للضعف الإنسانى، والذى يعتمد على اكتئاب عقلى وعضوى حتى تلقى قبولًا لنظرياتها، وليس ذلك فى صالحهم على وجه اليقين، فنظرية التناسخ فى الزمن الراهن قد انتشرت على نطاق واسع من الجماهير، ومن ثم أصبحت كل الوسائل مشروعة لتحقيق هذه الغاية، كما أسهم أدباء هذا الزمن بسهم وافر فى المسألة برواياتهم التى أدَّت ببعض الذين يعتقدون أنهم بعيدين عن الأرواحية والأرواحية الجديدة إلى العدوى بالعبث الذى يتفجر فى تلك الدوائر، وربما كانت هذه الدعاية غير المباشرة أشد خطراً بموجب توكيدها لتخلل تلك النظريات الباطلة بصور مغرية توقظ فى القارئ الذى لم يدرك عمقها أفكارًا 'سفلية'، والتى تمتد آثارها فى كل أين بآلاف الطرق.

ويؤدى كل ذلك إلى فهم كثير من المعجبين بالأرواحية بزَخَم تتفاقم خطورته بدرجة مخيفة، ولابد من إضافة أن الخاضعين لهذا الإيحاء غير المباشر وغيرهم من الذين يتحركون فى ذلك الاتجاه بدرجات لا تكاد تبين، وسواءً أكانوا مبتدئون من النفسانية أم من غيرها، فمن الصعب الوصول إلى إحصاء حتى للأرواحيين المعاميد، فكثرة الجماعات الأرواحية ناهيك عن الأفراد المنفصلين هو العقبة الكؤد للوصول إلى تقدير منضبط، وقد كتب د. جيبير "إنه لم يبالغ فى قول إن فى باريس مئات اللآلاف من الأرواحيين"[28]، وفى الآن ذاته قدرت مدام بلافاتسكى عددهم بعشرين مليونًا فى العالم[29]، ففى الولايات المتحدة وحدها نصف هذا العدد، وقد تحدث راسل والاس عن أحد عشر مليونًا، أما اليوم فلابد أن هذه الأعداد قد زادت على نحو أعظم، فربما كانت الأرواحية فى فرنسا تكتسب أرضًا حيث يقل عددهم نسبياً عن أميريكا أو انجلترا

---

28 *Le Spirittisme, p 35.*

29 *Letter to Solovioff, February 1886.*

من جرَّاء الاضطرابات وفقدان التوازن العام من الحرب العالمية الأولى، وقل مثل ذلك تقريبًا عن ألمانيا حيث يتفاقم الخطر يومًا عن يوم، ولو أخطأنا التقدير فلابد أن نكون عميانًا نتجاهل المناخ الذهنى لزمننا، أو أننا واقعون تحت نفوذ إيحاءات لا دواء لها، وحتى نعالج هذا الحال فإننا نشك فى كفاءة تدخل السلطة العامة حتى لو افترضنا أنها قد ترغب فى التدخل بتعقيدات وموالسات خفية تضعها موضعًا للشك، فلن يتجاوز هذا التدخل نطاقًا برانيًا لا نفع منه لعلاج الحال الذهنى الذى يشكل السبب الحقيقى، والأجدى أن يرد كل فرد بفعل فى متناوله بمجرد فهم الحاجة إليه.

14 مخاطر الأرواحية

حيث إننا قد لفتنا النظر كلما سنحت فرصة إلى المخاطر العديدة للأرواحية فلا حاجة بنا لتكرارها فيما عدا التعليق على براهين وإقرارات بعينها، ولنقل فى البداية إن هناك حتى مخاطر عضوية قد تكون من أعظمها خطراً وأعمها شيوعًا رغم أنها ليست دائمًا عُرضة للتجاهل، ونقدم برهانًا عن د. جيبيه فيما يلى،

> "لقد انتوى ثلاثة أصدقاء أن يتأكدوا بانفسهم عما لو كانت مزاعم أرواحية بعينها صادقة، فاجتمعوا فى أحد الأمسيات فى غرفة مظلمة ببيت مهجور بعد أن أقسموا بجديتهم المطلقة وحسن نيتهم، وكانت الغرفة خالية من الأثاث فجاؤا بثلاثة مقاعد ومائدة، وتحلقوا حولها بمقاعدهم، وقد اتفقوا على أن يشعل كل منهم عوداً من كبريت الشمع لو شعر بوجود بأمر غريب، وقد ظلوا صامتين لفترة منتبهين إلى أى صوت وقد تماسكوا بالأيدى، ولم يسمعوا صوتًا فى الظلام الدامس لفترة طويلة حتى أصابهم الملل، وفجأة سمعوا صرخة مخيفة داوية تشق صمت الليل، ثم سمعوا انهيار شظايا على المائدة وعلى الأرض فأصيبوا بالرعب، ثم أشعل أحدهم ثقابًا فلم يجدوا ثالثهم، ووجدا كرسيه مقلوبًا على الأرض فى أقصى الغرفة، وبعد برهة وجداه فاقد الوعى تحت المائدة ورأسه ملطخ بالدم، فماذا حدث؟ فوجدا أن الرخام الذى على المدفأة قد طار فأصاب رأس زميلهم ثم تحطم إلى ألف شظية وانهال عليهم، وظل الضحية غائبًا عن الوعى عشرة أيام بين الحياة والموت، ثم برئ ببطءٍ من ارتجاج فى المخ"[1].

وقد قال بابوس الذى نقل هذه القصة "إن الوساطة تسبب للوسيط نوعًا من الهستيريا" و"أن الأمر كان أخطر للمجربين الذين لم يكونوا واعون بجسامتها وبدون استعداد لها" و"أن لا شىء يمكن أن يمنع تلبس الأرواح بالأعصاب الضعيفة بأحدث أشد وقعا"، وأضاف،

---

[1] *Analyse des choses, p 185.*

"إن بحوزتنا سلسلة من رسائل الوسطاء الذين انغمسوا فى هذه التجارب، والذين بقوا إلى اليوم فى حال من التلبس بأسماء زائفة يدعون أنها لأقاربهم المتوفين"[2].

وقد نبَّه إليفاس ليفى إلى هذه المخاطر وحذَّر منها من انكبَّ على دراسة التجريب حتى من قبيل حب الاستطلاع البسيط، فيتعرضون للجنون أو الموت[3]، كما كتب أحد الغيبيين من مدرسة بابوس هو ماريوس ديكريسب ما يلى،

"إن الخطر أمر محقق، فإن بعض الذين أصيبوا بالجنون من جرَّاء الشطط فى تجاربهم،.. فلا يقتصر الضرر على الذهن بل يتعدى إلى العقلية بكاملها وإلى الصحة والحياة ذاتها، وأحيانًا ما يتجاوز إلى الشرف،.. والانحدار سهل من جراء الوقوع من ظاهرة إلى أخرى حتى لا يتمكن من التوقف، ولم تحرِّم الكنيسة هذه الممارسات بلا سبب"[4].

كما يقول الأرواحى بارت،

"لا تنس أن تلك التواصلات تضعنا تحت النفوذ المباشر لكائنات لا نعلم عنها شيئًا، وقد بلغ بعضها من الخبث حدًا لا يحسُنُ التعرض له،.. ولدينا أمثلة شتى على أمراضٍ مستعصية وتخلُّفٍ عقلٍي وموتٍ مفاجئ بسبب إيحاءات تحققت بضعف وتصديق من جرَّبها"[5]

ولابد من لفت النظر إلى أن التنبؤات التى ترد فى 'اتصالات' بعينها تعمل بمثابة إيحاءات دائمة للذين استهدفتهم، ويقوم هذا الخطر كذلك للذين تعاطوا 'فنون العِرافة'، إلا أنها لا تثبت كما يحدث للأرواحيين، ومن ثم يخفت احتمال حدوث تملكات ثابتة، فهناك بؤساء يجلون عن الحصر أكثر مما يُعتقد حتى للذين لا يُقدمون على شىء مهما صّغُر قبل استشارة مجلس تحضير الأرواح على منوال أى حصان سيسبق أو أى رقم فى اليانصيب

---

2 *Traité élimentaire de Magique practique, pp 505-507.*

3 *La Clef des Grands Mystére.*

4 *La Main et ses Mystéres, vol ii p 174.*

5 *Le Livre des Esperits, cited by Msgr Méric, L'autre vie, vol ii, p 425.*

سيكسب، ..إلى آخرها[6]، وإن لم تحقق النبؤات فدائمًا ما تلجأ ’الروح‘ إلى عُذرٍ أو آخر، فقد كان حريًا بها أن تحقق لولا تدخل ظروف لا يمكن توقعها، ولا تنكسر ثقة هذه النفوس البسيطة، ومن ثم يزاولونها حتى تحطمهم فى جنون شامل أو انتحار، ولو حدث أن بلغت الأمور حدًا من البؤس أو الانخراط فى أمور غير شريفة لتعقدت بطرقٍ أخرى لا تنى الأرواح عن ادعائها للذين يستسلمون حتى يصبحوا عميانًا يتوجهون إلى وسيط آخر تغريه سذاجتم بخداعهم، وقد أورد دونجلاس هووم مثلًا باهرًا عما حدث فى جنيف، وقد روى الحوار بينه وبين امرأة مسكينة فى الخامس من اكتوبر *1876*، والذى جُنَّ زوجها بعد مزاولته لهذه الأمور، وقالت،

"لقد وصلت أنباء غريبة عام *1835* شغلتنا عن أعمالنا المعتادة، وجذبت كثيرًا من النساء والشباب إلى تنمية الملكات الغريبة عند ’الوسطاء الكتبة‘، كما كان الأب كما قيل موهوبًا فى التواصل مع الأرواح فى مجلس حول مائدة،. وذهبت إلى المجلس بصحبة زوجى حيث بدا لى أن كل شىء على مايرام، وذهبنا إلى الوسيط الذى قال "إن روح الرب تحدثت من هذه المائدة"،. وفى نهاية الجلسة أفهمتنا المائدة أن علينا أن نأخذ الوسيط وأسرته ليعيشوا معنا ويشاركوننا النعم التى أنعم بها الرب علينا، والمفروض أن التواصلات التى جاءت بها المائدة قد أتت مباشرة من مخلصنا عيسى المسيح، وقلت لزوجى "إن من الأفضل أن نعطيهم بعض النقود حيث إن أذواقهم تختلف عن أذواقنا ولا أدرى كيف أعيش سعيدة فى حضورهم"، فقال زوجى "إن حياة سيدنا الذى نصلى له كانت حياة زهد ولابد انا من السعى إلى تقليدها فى كل شىء، فارتفعى عن أفكارك المسبقة لعل هذه التضحية تبرهن لسيدنا على حسن نوايانا فى خدمته"، فوافقت، وإذا بأسرة من سبعة أشخاص تحل فى دارنا، وعلى الفور بدأت حياة من الرفاهية والإسراف حتى ألقيت النقود من النوافذ، ثم أمرتنا المائدة بشراء عربة أخرى وأربعة خيول ومركب بخارى، وأصبح لدينا سبعة خدم، وجاء النقاشون لتنزيين المنزل من أسفله إلى أعلاه، وتغيرت الأثاثات عدة مرات، كل مرة أكثر بهرجة من سابقتها

[6] وقد تعرَّف ليون دينيس على هذه الوقائع واحتج بسوء استخدامٍ ثائرة ’أسرار الحياة الأخرى‘.

من أجل الترحيب بمقدمه بغاية الكرم، وللفت أنظار العامة من الخارج، وقد فعلنا كل ما طلبوا فعله بتكاليف باهظة، وأقمنا سفرة دائمة عندما بدأ الزوار يتزايدون شيئًا فشيئًا، وكانوا غالبًا من الشباب من الجنسين الذين أوصتهم المائدة بالزواج، والذى كان يجرى على نفقتنا، ولو رُزق بعضهم طفلًا ألقوه لنا لتربيته، فأضيف إلينا أحد عشر رضيعا، وقد تزوج الوسيط وتزايد عدد الأسرة وبلغ الجلوس على مائدتنا ثلاثين أكولًا، واستمر هذا الوضع أربع سنوات، وبلغنا ما يقرب من نهاية مواردنا، ثم أمرتنا المائدة بالسفر إلى باريس فسافرنا، وبمجرد وصولنا جاء أمر إلى زوجى بالمضاربة فى البورصة، وهناك خسر ما بقى من أموالنا ووصلنا إلى حد البؤس الأسود، لكننا تحلينا بالإيمان، ولا أدرى كيف استمرت حياتنا، فكنت أمضى أيامًا بلا طعام سوى لقمة خبز وقنينة ماء، وقد فاتنى أن أقول لك أننا أوصينا فى جنيف أننا أوصينا بالإنفاق على التناول المقدس للمؤمنين، والتحق بنا راهب من دير آرجو حيث كان رئيسا، وهكذا لم نكن وحيدون فى عمانا، وأخيرًا تركنا باريس وعدنا إلى جنيف، وهناك بلغنا أشد درجات البؤس، وكان الذين شاركوا فى ثروتنا أول من أدار لنا ظهره".

وأضاف هووم هذا التعليق،

"وهكذا كان الأمر إذن! فقد ألقى رجل على مائدة بأسرة صالحة إلى درك البؤس ببعض الهرطقات إلى تبذير لم تستطع الفرار منه حتى دمارها، أما الذى تسبب فى ذلك فلم يكن الوحيد الذى أعرفه من هذا الصنف، فهذه المخلوقات الغريبة نصف محتالة ونصف مصدقة نصادفها دائمًا، و بينما يقومون بدورهم ينتهون إلى تعصب أشد من إيمان ضحاياهم"[7].

ويجوز القول إن هذه المغامرات الفاشلة تحدث فقط لذوى العقول الضعيفة، وأن الطفيليات الأرواحية لابد أن تكون قد استحلتها، وقد يكون هذا صحيحًا إلى حد ما، ولكن فى الحالات الأقرب إلى الطبيعية فإن تلك الميول لن تتغير، فالذين يصلون إلى الجنون بعد أى نوع من الأحداث لابد أن يكون لهم الميول ذاتها، ولو لم تكن تلك

---

[7] *Les Lumiéres et les Ombres du Spiriualism, pp 103-110.*

الأحداث قد جرت فالأرجح ألا يفقدوا عقولهم، ولكن ليس ذلك بعذر مقبول، كما أن قليلًا من استطاع البقاء على توازنه فى كافة الأحوال، كما يجوز قول إن أحدًا لن يكون كذلك إلا فى حال توفر ضمانات ثابتة لتجنب مخاطر بعينها بالمعرفة المذهبية التى تشترط احتمال كل الأوهام والدوار العقلى، وليس من المعتاد أن تتوفر تلك المعرفة بين التجريبيين، وقد تحدثنا عن العلماء الذين أدت بهم التجارب النفسانية إلى قبول النظريات الأرواحية بدرجة تزيد أو تقل، وهو ما اعتبرناه سلفًا دلالة على انعدام التوازن، وقد كان لومبروزو أحد هؤلاء، والذى أعلن لأصدقائه بعد جلسة أرواحية للسيدة إيوسابيا بالادينو "لابد لى من الانصراف الآن من هذا المجلس فأنا على وشك الجنون، ولابد لى من تهدئة عقلى"[8]، وقال د. لاّبونى مصيببا،

"عندما تعرض ظواهر هائلة لعقول ليست على استعداد لمفاجئات بعينها فقد تكون النتيجة انهيار الجهاز العصبى حتى لو كانوا قبل ذلك فى تمام الصحة"[9]

ويقول الكاتب ذاته،

"إن الأرواحية تنطوى على كافة المخاطر للفرد والمجتمع، كما تنطوى على كل النتائج المميتة للتنويم المغناطيسى، وآلافًا من المخاطر الخفية أشد وقعًا.. والوسطاء وحضور مجالس تحضير الأرواح جميعا يُصابون إما بتملكات *obsessions* وأما بجنون عظمة الملكات العقلية، وتتسبب فى أشد الأمراض العصبية، ومن المعلوم عمومًا أن أشهر الوسطاء ومن يحضرون مجالسهم يموتون بالجنون أو الانهيار العصبى الحاد، ولكن وراء المخاطر والأمراض جميعًا مما يشيع بين المنوّمين والأرواحيين يمثل الأخير أشدها خطرًا.. ولا يدَّعين أحد أن الأرواحية على الأقل تقدم بعض الميزات مثل تشخيص وعلاج أمراض بعينها، فالواقع أنها تزيد من جسامة المرض على المريض، ويقول لنا الأرواحيون إن ذلك من تدخل أرواح خبيثة، لكن كيف نحتمى من تلك التداخلات؟ ومن حيث الواقع يستحيل تبرير الأرواحية

---

[8] *Osservatore Cattolico, September 23-24, 1890.*

[9] *L'Hypnotisme et le Spiritisme, p 209.*

بأى مبرر"[10].

ومن زاوية أخرى فقد أعلن روبرت *J.Gofrey Raupert* الذى كان عضواً لفترة طويلة فى جمعية البحوث النفسانية فى لندن،

"إن الانطباع الذى اعتراه بعد دراسته للأرواحية كان امتعاضا، وأن خبرته حدت به إلى تحذير الأرواحيين الذين يسألون العزاء والنصح وحتى التعاليم من كيانات تنتمى إلى عالم آخر، ومن أن ممارساتهم قد أرسلت مئات من الناس إلى المصحات أو مستشفيات المجانين، إلا أنه لم يجر شىء لوقف الدعايات الأرواحية رغم خطورتها على الأمة، وربما كانوا يستلهمون من دوافع سامية أو مُثُل علمية لكن ممارساتهم فى نهاية المطاف تودى بالرجال والنساء إلى حالات سلبية تفتح أبواب النفوس الأسرارية لأرواح الشر، والتى تعيش على التهام النفوس الضعيفة من الرجال والنساء وتدفع بهم إلى الرذيلة والجنون والموت"[11].

وبدلًا من أن نتحدث عن 'أرواح' مثل مستر روبرت فإننا نقول ببساطة 'نفوذ' بلا تخصيص لأصولها، فهى متنوعة للغاية وليس فيها شىء 'روحانى'، لكن ذلك لن يغير من النتائج الوخيمة التى يتحدث عنها، وهى أمور واقعية بالفعل.

وقد اقتبسنا فى موضع آخر من مدام بلافاتسكى وقادة آخرين للثيوزوفية يستنكرون مخاطر الوساطة الأرواحية[12]، ونقتبس هنا فقرة عن مدام بلافاتسكى ذكرنا ملخصًا لها فيما سبق،

"إن أعظم وسطائكم وأشدهم قد عانوا جميعًا من أضرار بدنية وعقلية، فتفكروا فى النهاية البائسة التى انتهى إليها تشارلز فوستر الذى مات مخرفًا مجنونًا فى مستشفى أمراض عقلية، وفى سليد الذى كان من أعظم وسطاء انجلترا وانتهى بالصَّرَع فى إجلينجتون، ثم انظروا إلى حياة هووم *D.D, Home* الذى غرق عقله فى المرارة

---

[10] المرجع السابق ص *270-272*، وقد أخطأ هذا الكاتب فى اعتقاده بتماهى الأرواحية والسحر ص *256-257*، وقد أوضحنا أوجه الخلاف بينهما فيما سلف.

[11] *Daily Chronicle, November 15, 1913.*

[12] *Theosophy, chap. 12.*

حتى إنه لم يقل كلمة طيبة عن كل من كان موهوبًا بقوة روحية، وقد ندد بكافة الوسطاء حتى انتهى إلى حتفه، فذلك الذى سميتموه ’كالفين الأرواحية‘ قد عانى طوال سنوات من مرض عُضال فى عموده الفقارى من جرَّاء مضاجعة ’الأرواح‘ ومات حطاما، ثم تفكروا فى المصير البائس الذى بلغه المسكين واشنطون إيرفينج بوست الذى تعرفت عليه فى نيويورك فى عامه الرابع عشر من عُمره، والذى كان وسيطًا لا يُشق له غبار، والواقع أنه كان يُعمِّد ’الأرواح‘ التى يتعامل معها باسم ’الفعل الذكورى اللاواعى *unconscious muscular action*‘ على نحو أزهى من كل المغفلين من أصحاب التعليم العلمى العالى، ناهيك عن مكاسبه، إلا أن نهايته كانت بائسة، وقد حاول بلا جدوى إخفاء نوبات الصرَع الذى أصابه، وهو أول أعراض أمراض الوساطة الحقيقية وأخطرها، حتى إن أحدًا لم يدر ما إذا كان ميتًا أم فى غيبوبة كما تبين من فحوص ما بعد الموت؟ وقد أصر أقاربه على أنه لم يكن ميتًا بل حيًا لو صدَّقنا أخبار وكالة رويتر، فانظروا إلى حال وسطائكم المعاميد من مؤسسى الأرواحية الحديثة ومحركيها على منوال الأختين فوكس بعد أكثر من أربعين عامًا فى مضاجعة ’الملائكة‘ الذين أودوا بهم خرق بالية لا شفاء لها، واللتان يُقال عنهما فى المحاضرات العامة حاليًا أنهما زائفتان فى عملهما وفلسفتهما! وأسألكم أى صنف من الأرواح تلك التى توحى بهذا السلوك..؟

"فما الذى نستقرئه من واقع أن أفضل تلاميذ مدارسكم إنشادًا ينهارون بحلق مسدود؟ وأن مناهجكم سقيمة لا نفع منها، وأعتقد أن الاستقراء صحيح لو قلنا إن أفضل الوسطاء طُرًا يسقطون ضحايا المصير ذاته"[13].

ولكن هناك المزيد، فقد عزا بعض الوسطاء المبرزين تلك المخاطر إلى تفسيرها من أجل تخفيف وقعها كما نرى فى مقولة ليون دينيس التالية،

"إن الأرواح السفلى تعجز عن التعالى، وبالتالى تستمتع برفقتنا وتندمج فى حياتنا، وتنشغل بما كان يلفت أنظارها إبَّان وجودها العضوى، فتشارك من يتماهى مع مسرَّاتها وعاداتها، حتى إنها أحيانًا ما تسيطر على ضعاف النفوس الذين لا يملكون

[13] *The Key to Theosphy, pp 195-196.*

سبيلًا إلى مقاومة نفوذها، وفى بعض الأحوال تتكون مملكتهم ممن يدفعون بهم من ضحايهم إلى الجريمة أو الجنون، فتلك الحالات من التلبُّس أوسع شيوعًا مما نتصور"[14].

ونقرأ فى عمل آخر للكاتب ذاته ما يلى،

"إن الوسيط الأرواحى بطبيعته كائن عصبى حساس سهل التصديق،.. فقد جعل استمرار عمل السوائل السفلية عليه مميتا، يدمر صحته ويظهِر أعراض التلبُّس أو التملك،.. وهذه الحالات عديدة يصل بعضها إلى الجنون،.. فالوسيط الشهير فيليبى راندونى الذى كان يُكنى عنه بلقب *Mediantà of Rome* [15] لم يكن إلا بقايا من أعمال شريرة لروح تسمى *uomo fui* التى حاولت خنقه عدة مرات فى سريره تحت كوم من الأثاث كانت تستمتع بمراكمته فوقه، وقد حاولت هذه الروح أثناء مجلس تحضير إلقاءه على الأرض وخنقه حتى كادت أن تقتله، ولم يستطع أحد حتى الآن من تخليصة من هذا الضيف الخطير، ومن جانب آخر نشرت مجلة *Luz y Union* الأسبانية خبرًا عن امرأة قتلت زوجها وأطفالها تحت تأثير غيبى يدفعها إلى نوبات من الغضب لا تصلح فى مقاومتها الوسائل الطبيعية، وقد شُفيت من سيطرة هذا النفوذ بعد شهرين من العلاج بالصلوات بعد أن صبأت"[16]

وهذا التفسير أقرب إلى الفكاهة، فنحن نعلم أن الأرواحيين يوجهون ’للأرواح السفلية‘ مواعظًا ’أخلاقية‘، ولا نصدق أن لها نفع فهى أشبه بالوعظ فى صحراء خالية ولا فائدة لها مهما صغرت، والواقع أن التملكات تتوقف من تلقاء ذاتها أحيانا، ولكن يحدث أيضا أن يُصاب بنوبة إجرامية مثل التى وصفناها توًا، كما قد يحدث أن يعمل الإيحاء الذاتى كتملك حقيقى، وفى هذه الحالة يمكن علاجه بإيحاء مضاد، كما يمكن طرده بتمائم ’الروح‘ التى تماهى مع ’ما تحت الوعى‘ لضحيتها فى هذه الحالة، وربما كان ذلك ما حدث فى الحالة الأخيرة ما لم تكن بصدفة محضة بلا ارتباط سببى بين العلاج والشفاء،

---

[14] *Aprè la mort, p 239.*

[15] *Spiritualisme Modern, April 1903.*

[16] *Dans l'Invisible, pp 382-384.*

وأيًا كان الأمر فمما ينبو عن التصديق أن الذين يعلمون جسامة هذه المخاطر يجرؤون على النصح بمزاولة الممارسات الأرواحية، ولابد أن يكونوا فاقدى الوعى عندما يدَّعون أن 'الأخلاقية' حماية كافية للوقاية من تلك الحوادث كما لو كانت تعصم من الصواعق أو أو الأوبئة المعدية، والحقيقة البيِّنة أن الأرواحية لا تحتكم على دفاع ضد مخاطرها، ولن يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك لجهلها بطبيعة القوى التى يتعاملون معها.

وربما كان من المفيد جمع كل حالات الجنون والتملك والحوادث التى تنجم عن ممارسة الأرواحية، ولا شك فى وجود شهود على معظمها، فالمنشورات الأرواحية ذاتها مدد لهذه المهمة، وقد يكون لهذه القائمة أثرا يخفف عن كثير من الناس، ولكن ليس ذلك ما نقصد، ولو كنا قد طرحنا وقائع بعينها فليست إلا عيِّنة على سبيل المثال لا الحصر، وسوف نرى أن معظمهم قد تورط فى الأرواحية بفضل الكتّاب الأرواحيين الذين اقتبسنا عنهم ما تقدم أو من تماهوا مع الأرواحية ولا يمكن اتهامهم بالتحيز ولا المبالغة، ولا شك فى إمكان إضافة أمثلة أخرى لكننا نرى فيما تقدم ما يكفى وإلا أصبحت مملة بلا عائد، فكلها تفصيل أثواب مختلفة من قماش واحد، وإيجازًا نقول إن مخاطر الأرواحية تنقسم إلى مراتب عدة تحت تصنيف أولى هو العضوى والنفسى والفكرى، فالمخاطر العضوية هى الحوادث التى طرحها د. جيبيه، والغالب منها أمراض الوسطاء، وأحيانًا أمراض الحضور فى المجالس الأرواحية، ومعظمها مما يصيب الجهاز العصبى وتصحبها متاعب نفسانية، ويبدو أن النساء أكثر عرضة للإصابة بها، ولكن من الخطأ الظن بأن الرجال معفيون منها، كما أن إرساء تناسب منضبط لابد من حساب أن النساء أكثر عدد من الرجال فى الدوائر الأرواحية، أما الأضرار النفسية فلا تنفصل تمامًا عن المضار العضوية لكن الأولى أشد ثباتًا وخطرًا من الثانية، ولنتذكر مرة أخرى أن التملكات لها سمات متنوعة من الأفكار الثابتة والنزعات الإجرامية وأنواع الجنون بكل درجاتها، ولو أراد أحد أن يجمع قائمة كاملة منها فسوف يكون معظمها مما تحدث عنه النفسانيون، ناهيك عما لا يعلمون عنه شيئًا مثل حالات التلبس *obsession* والتملك *possession* والتى تناظر أبشع حالات تحلل الفردية الإنسانية، ولا تعدو الحالات التى تتخذ صور الخلل العقلى إلا مراحل مبدئية مهما كانت فظاعتها، فلا يمكن التأكد من أنها لن تتفاقم، وذلك مما يفلت تمامًا من بحوث الأطباء النفسانيين والأطباء البشريين على

السواء، وأخيرًا فالمخاطر الفكرية تقوم على التزييف الكامل للنظريات الأرواحية من كل صوب، وهو الضلال الكامل الذى لا يقتصر على التجريبيين وقد لفتنا النظر إلى انتشار تلك الضلالات بالدعاية المباشرة وغير المباشرة بين الذين لا يشاركون عمليًا فى الأرواحية، والذين يعتقدون أنهم ناؤون عنها، لكن المخاطر الفكرية بعيدة المطال، وهذا الجانب من المسألة هو الذى حدا بنا إلى الإصرار عليه فى هذه الدراسة، فما رغبنا فى بيانه أكثر من أى أمر آخر هو ضلال الأرواحية وزيف مذهبها، واعتقادنا بضرورة مُلاحاتها، والواقع أن هناك حقائقًا من الخطر نشرها، ولكن ذلك لن يمنعنا من تعريف الحقائق المقصودة حال ظهورها، ولكن لا مبرر للخوف منها حيث إنها ليست سهلة الانتشار، فالمسألة هنا هى الحقائق التى تتمخض عن أمور عملية وليست مذهبية محضة، ولا تعدو انتكاسات نشأت من سوء الفهم الذى ينتاب من تعرَّض لها كلما أراد التعبير عن أفكار تفوق قدرته العقلية، وسيكون الانشغال بها خطئا، ولكن لنعد إلى موضوعنا، فنقول إن تلك المخاطر الأرواحية تعبر عن الحاجة المُلِحَّة إلى محاربتها رغم أن ذلك اعتبار ثانوى عارض، ولكن فى الأحوال الراهنة لا يجوز اعتباره أمرًا مهملا.

الخلاصة

قد يخطر للبعض تأنيبنا على الجدية التى نتناول بها نظريات ليست جدية بحال، والحق أننا منذ عدة سنوات كنا تعتقد بالأمر نفسه، وكان من شأننا فى ذلك الحين أن نتردد فى الإقدام على أمر من هذا القبيل، لكن الموقف قد تغير حينما تفاقمت أخطارٌ لا ينبغى السكوت عنها، وهو ما يوفر مناسبة للتفكير، فلو كانت الأرواحية تتضخم يومًا عن نحو مُقحِم وأنها تهدد بتسميم العقلية العامة فلابد من الاعتبار فيها وملاحاتها بوسائل غير التى نلجأ إليها لو كانت مجرد انحرافات أقلية من الأفراد المنعزلين بلا سلطان، وليست الأرواحية على وجه اليقين إلا بلاهة وصلت إلى حد شيوع ممارسات عامة غريبة الشأن تستغل الميول العامة، ولذا قلنا أننا لا يصح أن نهمل معنى المناسبة، وحيث يستحيل نقض كافة الأخطاء بلا استثناء بموجب أنها تناظر الميول العامة فيحسن ترك ما يثير الامتعاض جانبا، لكن الأرواحية لحسن الحظ ليست منها، ومن السهل التهكم على 'قالبى الموائد' و'مظهرى الأرواح' لنجعل المعقولين من الناس يضحكون عليها ببيان شطحاتها وإنكار خداع الوسطاء الزائفين والتنديد بخصائصها المقززة فى حلقات الأرواحيين، لكن ذلك لا يكفى، فهناك أسلحة ضرورية غير التهكم، فما نتناوله هنا أمر شديد الخطر عن مجرد الكوميديا حتى لو كانت كذلك من أوجه تزيد عما تناولنا منها.

ولا جدال فى أن تُلاقى المقولات التى دفعنا بها بلا خوف من معارضة أننا طرحنا فى هذا الموضوع أكثر من كل ما قيل عنه، ونحن أسعد لقول إن الجدارة ليست من حقنا شخصياً بل للمذهب الذى ألهمنا، وليست الشخصيات شيئًا يستحق الذكر، ولكن ما يُعزى إلينا ليس إلا النقص والعجز فى عرض الأطروحة، فهناك على وجه اليقين أمورًا لم تلق عناية كافية.

وكما أشرنا فى بداية الكتاب أن دحض الأرواحية قد أتاح لنا التعبير عن حقائق مهمة بعينها، فالحقائق الميتافيزيقية خصوصًا لو صيغت قبل طرح الخطل أو أجابت على اعتراضات بعينها إلا أن لها توجه إيجابى، ونحن نفضل طرح الحقائق ببساطة ونقاء دون

أن ننشغل بالتعقيدات التى نتجت عن سوء الفهم، ولكن المرء لابد أن ينتهز المناسبة، وبالنظر إلى أن النتائج وحال الأمور التى فرضت هذه العوارض قد تلفت نظر بعض الذين لم يفهموها لأنهم لجأوا إلى دراسات متخصصة تسعى إلى فهم الحقائق بالجدل، ولا نستطيع الإصرار أكثر من ذلك على أن الفهم الميتافيزيقى لا شأن له بالمعرفة من الكتب، فهى تختلف تمامًا عن تعليم المعرفة العلمية السائدة لدى الفلاسفة والعلماء، وحتى إننا نعتقد أن منهم حالات نادرة تستطيع فهم شطر منها، وقد أطلقنا عليهم اسم *intellectual elite* الصفوة الفكرية[1] التى لا تتشكل بالضرورة من العلماء والفلاسفة بل من أقلية من المؤهلات اللازمة للمشاركة فيها بلا تحيزات من التى تسم العلماء والفلاسفة، وقد يكون بينهم أُمِّىٌّ قادر على التعالى على جهله المدرسى، ويحتكم على موارد أعظم ممن انطبع بعاداته العقلية عائقًا لا علاج له.

وقد أشرنا فيما بعد الحقائق الميتافيزيقية إلى المبدأ الذى بنينا عليه دحضنا للأرواحية، كما أشرنا إلى عدة أمور أخرى فى سياقه مثل تفسير الظواهر، والتى لا تعدو أمرًا ثانويًا إلا أن لها منفعة، ونأمل ألا يتوقف أحد عند غرابة بعض الاعتبارات، والتى سينزعج منها الذين تدفعهم إليه وجهات نظر منظومية عقيمة، ولكنهم ليسوا الذين نخاطبهم، فسوف يكون ذلك جهدًا ضائعًا، كما نخشى أن انتباههم قد يتعلق بتلك الأمور سواءً أكان بدافع عاداتهم أم كانت بموجب انتمائهم لنطاق الظواهر، وعلى كل لن نلوم أنفسنا على إهمال التحذير الواجب فى هذا الصدد، فنحن مقتنعون أننا لم نقل شيئًا أكثر من اللزوم لفض الاضطراب وقطع السبيل على التفاسير الزائفة حتى لو كانت نتيجة المحاذير المفروضة عليهم فى نقاط بعينها، ولا ندّعى أننا قد عالجنا كافة المسائل التى طرحناها بالكامل، فهناك بعضها مما قد نعود إليه فى مناسبة أخرى، كما أن هناك مسائل قد تنفتح لها سبل جديدة للبحث، والأمر الوحيد الذى لن نتناوله قطعًا هو التجريب، والذى لن تبلغ خلاصته أمرًا له قيمة تعوض نتائجه الوخيمة ولا مخاطره المتوقعة، ولو كان هناك من يصر على التجريب بأى ثمن فيحسن به أن يقوم على أساس جدى أفضل مما رأينا من معطيات خاطئة، فنحن على يقين من أننا لم نقل شيئًا يمكن أن يدفع أحدًا

---

[1] راجع خاتمة كتابنا 'مُدخل عام إلى فهم المذاهب التراثية'.

إلى مغامرات وخيمة، بل إننا نعتقد أن طبيعة أطروحتنا قد تنفِّر المغامر ببصيص مما يراوده لو نجح فى مسعاه.

ونضيف خاطراً أخيراً عن تاريخ الأرواحية كانحراف جسيم للعقلية التى تسم الغرب الحديث، ولكى نفهم هذا الانحراف لابد من وضعه فى مكانه من الكل الذى هو جزء منه، ولكن من الواضح أن عليه أن يعود القهقرى لفهم أصولها وأسباب انحرافها، ثم ثم يتتبع مسارها فى مراحلها المتعددة، وهذا واجب جسيم لم يسبق بحث أى طرف منه، فالتاريخ كما يجرى تعليمه رسمياً مقصور على الأحداث البرانية التى لا تعدو نتائج لأسباب أعمق، ثم إنه يعكف على وضعه منحرفاً بسلطان التحيزات الحديثة، كما أن فيه احتكار سافر للدراسات التاريخية لصالح أحزاب سياسية أو دينية، ونود لو أن أحد الأكفاء أنكره بشجاعة وبراهين دامغة، فمناورات التأريخ البروتستنتية قد نجحت فى احتكاره كأمر واقع، ثم إنها فرضت عليه وجهة نظرها بما تمخض عنها على الدوائر الكاثوليكية، وسيكون هذا واجباً مُعَلَّماً يؤدى خدمة جليلة، فتزوير التاريخ قد أنجِز بمخطط معلوم، ولو كان الأمر كذلك فلابد من طرحه على الرأى العام لتحديد الانحراف تحت لافتة 'التقدم'، فكل ما فيها ينم عن أنه لابد قد صدر عن إرادة مغرضة، ولا ننوى حالياً على الأقل أن نكون أكثر إيجابية بهذا الصدد، وعلى كلٍ يبدو أنها إرادة جمعية، ففيها أمر يذهب إلى ما وراء نطاق العمل الفردى، زد على ذلك أن الحديث عن الإرادة الجمعية سيكون طرحاً معطوباً، وأيا كان الأمر حتى لو كنا نؤمن بالصدفة فلا مناص من استنتاج أن هناك خُطة مبيته تساويها، ولكن لا حاجة بها لأن تظهر فى أية وثيقة، أليس الخوف لا من اكتشافها بالاستنتاج بل من قصر 'المنهج التاريخى' الذى يفترض ضرورة الوثائق المكتوبة؟ ومن هنا يفلت كل ما كان جوهرياً من نطاق البحث المعتمد بدعوى 'العلمية'، والتى تمنع استمرار أية محاورة، أليس ذلك انتهاكاً للتعليم بتحديد 'الأفق الفكرى' لمنع الناس من الرؤية الواضحة لبعض الأمور التى فرضتها سلطات الجامعة؟ ولكن لنعد المسألة التى نطرحها، فلو سلمنا بوجود خطة فى أية صورة كانت يمكن رؤية كيف ينحرف كل عنصر عن مساره، وكيف يستطيع أفراد من نوع أو آخر كأدوات واعية أو لاواعية لتحقيقها، ولنتذكر هنا ما قلنا عن أصول الأرواحية الباب الثالث، وهى استحالة تصديق الانبثاق التلقائى لأية حركة على أى قدر من الأهمية، والواقع أن الأمور أشد

تعقيدًا عما ذكرنا، فبدلًا من افتراض إرادة واحدة سوف نعتبر فى إرادات متعددة ونتائج متعددة، والأغلب أن يكون ورائها 'دينامية' خاصة سيكون من المفيد توكيدها، ونقول ذلك لحسب لبيان كيف أن الحقيقة أبعد ما تكون معلومة للعموم أو حتى إمكان توهمها فى هذا النطاق أو فى غيره، وباختصار فإن التاريخ الرسمى زائف وبحاجة إلى إعادة كتابته على أساس فرضيات مختلفة تماما، ولكن للأسف أن كثيرًا من المصالح مشتبكة به، وعلى الذين ينتوون حمل هذه المهمة أن يتغلبوا على مقاومة محتومة، وليست هذه مهمتنا ولا مجالنا، فدورنا لا يربو عن التنبيه إلى مؤشرات وتنويهات، والتى لابد أن تُتَّخذ على نحو جمعى، وعلى كلٍ فإن هذه المَهَمَّة تتناول ترتيب البحث الذى نعتقد أنه أكثر نفعًا من التجريب النفسانى، ومن الواضح أنها تتطلب ملكة لا تتوفر عند الكافة، لكننا نعتقد أن بعض الناس على الأقل يحتكمون عليها ويستطيعون الانخراط فى توجيهها على نحو مثمر، وحينما يحلُّ اليوم الذى تتفتح فيه بعض نتائج هذه الجهود فسوف تغلق الباب على كثير 'الاقتراحات'، وربما كان ذلك وسيلة للإسهام فى مستقبل بعيد ترجع فيه العقلية الغربية إلى اعتدال طبيعى، والتى صبأت عنها طوال عدة قرون.

مُسرد الأعلام والمصطلحات